

عبد الرحمن الشقوي

الأعمال الكاملة

أئمة الفقه
التسعة

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حتى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بروكينا : شروق - تليكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بروكينا : داشروق - تليكس : SHOROK 20175 LE

عبد الرحمن الشراوى

أئمة الفقه الشريعة

الإمام زيد بن علي زين العابدين
الإمام جعفر الصادق
أبو حنيفة النعمان
مالك بن أنس
الليث بن سعد
الإمام الشافعي
الإمام أحمد بن حنبل
الإمام ابن حزم
العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

دار الشروق

المحتويات

٧ المقدمة
١٣ زيد بن علي زين العابدين
٣٥ الإمام جعفر الصادق
٥٣ أوحنيقة النعمان
٧٣ مالك بن أنس
٩٣ الليث بن سعد
١٢١ الإمام الشافعي
١٦٣ الإمام أحمد بن حنبل
٢٢٥ الإمام ابن حزم
٢٨٩ العز عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام

المقدمة

الإسلام عقيدة وشریعة

فأما العقيدة فقوامها التسليم لله ، والإيمان به وحده لا شريك له ، ويملائكته وكتبه ورسوله ، وتستند على أركان الإسلام الخمسة ، وهي تنظم العلاقة بين الله تعالى والناس وتطهرهم وتزكهم فيصبح العبد المؤمن حراً أمام الآخرين بقدر عبوديته لله ، غنياً عن الناس بقدر فقره إلى الله ، عزيزاً على نفسه وعلى سواه بقدر إيمانه أن العزة لله جميعاً .

أما الشريعة فهدفها تحقيق مصالح البشر، وهي المبادئ التي تنظم المعاملات ، وتصوغ الحياة الأفضل ، وتتم مكارم الأخلاق ، وتؤلف القلوب على التراحم والمودة ، وتصوغ العقول لعمران الأرض وتحقيق السعادة فيها ، وتدريب الإنسان على الصالحات من الأعمال ، ليصبح الإنسان بحق أخاً للإنسان .. !

وإذا كانت العقيدة والشريعة ، هما العنصران اللذان يشكلان الدين ، فهما عنصران متلازمان لا انفكاك لهما ، كالضوء ومصدره .. ولكن العقيدة مع ذلك تعنى المسلمين وحدهم ، أما الشريعة التي تنظم التعامل بين البشر، فهي تعم بأحكامها كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

وقد أثر الإسلام على نحو ما ، في جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم العظيم ، مها تكن دياناتهم .. فقد ترسبت قيمه الفاضلة في نفوسنا ، بلا استثناء ، وما زالت أعماق كل واحد منا تشرق فجأة بالروعة ، عندما نذكر الأيام الباهرة الذاهبة المضيئة من تاريخ الإسلام ، حين أظلت رحمته ، وشكلت عدالته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ ، حين كانت آياته تحقق على الدنيا من ساحل الأطلسي في الأندلس ، إلى أقصى الشرق .

وقد تدرجت مبادئ الإسلام على أن تواجه بيئات جديدة غير التي نشأ فيها ، وظلت هذه

المبادئ قادة على العطاء، وتعدت تقديم الإجابات على كل ما يواجهها من أسئلة، وبذل الحلول لكل ما يستحدث من المشاكل ...

ألف الإسلام هذه القدرة على حل مشاكل البشر وتحقيق مصالحهم عبر أربعة عشر قرناً منذ نشأ أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

زحف الفرسان الأوائل ليحرروا الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة ورأوا رعايا تلك الإمبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجا، تخليصاً للنفس من الهوان، وذل الاستعباد، وآلام الظلم .

كانت هذه الفتوحات تحمل في أحشائها جنين حضارة جديدة . فقد كان أولئك الفرسان المسلمون محاربين بواسل هذا حق، وكانوا أيضاً دعاة عدل وحضارة وحرية، وكانوا علماء .. فقد كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من التابعين ..

وكانت نضارة الدين الجديدة بكل عنفوان تعاليمه تعمق قلوبهم .. وما فتحو البلاد باحثين عن مغام، ولكن محررين وهداة ورعين، وجملة مبادئ نشروها بين الناس . وهذا كله كان ميلاد عصر جديد . وجاء من بعدهم خلف عظيم، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد المفتوحة، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الأحكام الشرعية لمستحدثات الأمور، متأثرين بالبيئات الجديدة، محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية أو روح تلك الشريعة السمحة .

على أن الإسلام لم ينتشر بالفتح وحده، بل أدى التجار— ومنهم علماء— دوراً كبيراً في نشر الإسلام في كثير من أقطار الأرض، وكان العلماء في ذلك الزمان يعملون بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الحرف ليكسبوا من كد أيديهم، ويؤدوا دورهم في نشر تعاليم دينهم ومبادئه في الوقت نفسه .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثرى بهم الفقه الإسلامي .

وقد أحسست أن من الواجب على أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء، وأن أتقصي مواقفهم من الحياة والناس، وأرسم بقدر ما وسعني الجهد صوراً لهم أضعها أمام قراء هذا العصر، عسى أن يجدوا فيها المثال الحى، وعسى أن تثير فيهم الهمة، لينهضوا ببعض مانهض به السلف الصالح .

وهؤلاء الذين كتبت عنهم، هم الذين انفعلت بحياتهم وفكرهم واقتحاماتهم الجسور، ونضاهم في سبيل حياة أفضل، وبمواقفهم فهؤلاء اذن ليسوا هم كل أئمة الفقه الإسلامي .

منهم من أوجزت فى الكتابة عنه ، ومنهم من أطببت . وما ذلك لفضل أحد منهم على الآخر ، فكلهم أصحاب فضل ولكنى وجدت بعضهم قد ظلمه التاريخ ، فلم يعرفه الناس كما ينبغى ، فأضطرت إلى الإفاضة فى الكتابة عنه ، ومنهم من أساء إليه بعض أتباعه فصوروه على غير صورته ، فكان محمداً على أن أجلو صورته الصادقة .. أما الآخرون فما يعرفه الناس عنهم كثير ، فما تناولت الا مواقفهم التى لم تنشر من قبل على نحو كاف .

ولست أنكر أنى لقيت فى الكتابة عن هؤلاء الأئمة نصبا .. وبعضهم تندر المراجع عنه ، وبعضها قد اختفى .. ولقد أذكر أنى ذهبت إلى جامع الإمام الليث بن سعد ، عسى أن تكون فى الجامع مكتبة بها بعض الكتب عنه .. واستقبلنى القائمون على الجامع أكرم استقبال ، وقالوا إن الإمام كان كريماً ، ومن التقاليد إكرام من يزور جامعه . وسألت عن المكتبة فقال لى أحدهم على استحياء : كانت تقام هنا أذكار مرة فى الأسبوع ، ومنعت ، وأهمل الجامع والمكتبة ، فتسلل الماعز فأكل ما فى المكتبة من كتب ، منها مخطوطات وكنوز علمية نفيسة !!

ولقد أردت أن أضع أمام القارئ الذى لا يستطيع أن يشتري الموسوعات ، صورة من فقه هؤلاء الأئمة العظام ، ومواقفهم من الحياة وأود أن أذكر بالخير والعرفان تلك الجهود التى بذها أستاذنا المرحوم الشيخ أبوزهرة رحمه الله ، وجهود المستشار عبد الحلیم الجندى قواه الله ومد فى عمره فكلاهما ألف كتبا موسوعية عظيمة عن عدد من أئمة الفقه الإسلامى .. كما أذكر بالخير والعرفان اهتمام المرحوم العالم الشيخ محمد شاكر بشرح الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى .. وأوجه الشكر إلى كل الذين كتبوا عن أئمة الفقه الإسلامى

وأنا بعد أشكر القراء الذين اهتموا بهذا الكتاب قبل أن ينشر كاملا ، عندما كنت أنشره موجزا تحت عنوان شخصيات إسلامية فى السنوات الثلاث الماضية خلال شهر رمضان المعظم وإن كنت قد قصرت أو نسيت أو أخطأت فى بعض هذه الصفحات ، فإنى لأدعو الله ربنا لا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا ..

نفعنا الله جميعا بعلم هؤلاء الأئمة وهياً لنا أن نعظ بمواقفهم وجسارتهم فى الحق ، وشجاعتهم على الباطل ، وأن نعمل بما شرحوه وجلوه من مبادئ الإسلام .

والله ولى التوفيق .

عبد الرحمن الشرقاوى

الإمام زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ

الفقيه الفارسي

عاش في ذلك العصر المدوى بطبول الانتصارات ، ورنين الأبواق العزافة ، وصهيل الخيول الزاحفة ، وصليل السيوف .. في أوج الفتوحات الإسلامية التي رفعت راية الإسلام على أسوار الصين في أقصى الشرق إلى الأندلس في أقصى الغرب ، وخفقت على جنوب فرنسا وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط ، فارتفعت منارات الدين الجديد على الجزء الأكبر من العالم الذي عرفه إنسان ذلك الزمان ..

وهو عصر باهر مفعم بالغنى والمتاع ، وبكل ما يثير الزهو.

وهو مع ذلك عصر مشوب بالحنين إلى عدالة المسلمين الأوائل وصدقهم وورعهم ..

عصر مفعم بالأسى ، وجلال الذكريات ، وبالأشواق إلى الحرية ..

ينساب في دوى انتصاراته أنين حزين مكتوم ، ونفثات غيظ كظيم .. وتبلل راياته الخفاقة دماء المظلومين ودموع لاتحف أبدا ، وتمزق أنغام الانتصارات فيه أصدااء النحيب والعيويل .. !
كانت الدولة الأموية تواصل الفتوحات وترسى قواعد الإمبراطورية الإسلامية ، ولكن الخلفاء مع ذلك كانوا يضطهدون مخالفيهم وحتى ناصحهم ، و يتتبعون آل بيت الله ومن يتشيعون لهم ليقتلوهم بلا رحمة !!

كان الخليفة الأموى لا يطبق نصيحة ، حتى لقد أعلن هشام بن عبد الملك وهو فى بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له « أتق الله » .. !

وما كان المسلمون فى ذلك الزمان يحبون أن يرفعوا الرأس بالعصيان فى وجوه الخلفاء طلبا للعدل أو نهباً عن المنكر ، لكيلا يتصدع بنيان تلك الجيوش الموجهة لفتح بلاد جديدة تنشر فيها الاسلام !

ومن هنا نبعث مأساة الإنسان فى ذلك الزمان : ذلك أنه يجب أن يوافق على مايرفض ، و يقبل مايكره ، ويسكت على مايدين ، لأن جيوش الدولة مشتبكة فى حروب مع غير المسلمين ! ..

وهكذا استغل الخلفاء هذا الإحساس المرهف بالمسئولية ، فقهروا كل من يخالفهم أو يعلن عدم الرضا عنهم ..

وهكذا آثر الصمت عدد من علماء المسلمين نجاة بأنفسهم من بطش الحاكمين .. ومامن شيء كان يزعج الحكام مثل حنين الناس الى عصر النبوة ، وزمن الخلفاء الراشدين ، وحب المسلمين الصادق لآل بيت رسول الله (ص) .. وندم الذين تخلوا عن الحسين بن على . كانوا يخافون كل شيء حتى الندم .. !

فى هذا الجو المضطرب الذى يمزقه التناقض بين مايجبه الإنسان ومايكرهه . ، بين مايسر ومايعلن ، ولد زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

ولد فى المدينة عام ثمانين للهجرة ، ومازال رجع الأئين على الحسين شهيد كربلاء يلاً الآذان ، ومازالت الفجيعة تغص الخلوq وتحرق الأكباد !!

ولد ومازالت دماء كربلاء تغشى عيون صناع الفجيعة والمفجوعين على السواء .. ومازالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين !

مامن شيء بعد يطفى النار التى فى الصدور .. حتى القصاص الذى ثأرقه بعض أشياع الحسين من كل من شاركوا فى مقتل الشهيد العظيم وآل بيته .. حتى هذا القصاص لم يشف غيظ القلوب ! .

استمر الاضطهاد ، وسارت الدولة الأموية على إقصاء آل البيت وألزمتهم المدينة ، فالتزموا لا يبرحونها إلا إلى الحج .

وكان عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين رضى الله عنه هو ابنه على زين العابدين .

وقد اختار على زين العابدين بن الحسين أن يعلم الناس وأن يفقههم بأمر دينهم ، وأخذ أولاده بالنظر فى علوم الدين ، وأعدهم ليكونوا من بعده أئمة صالحين .

وقد كان على زين العابدين هو أصغر آل البيت فى كربلاء .. أنقذه مرضه واستماتة عمته السيدة زينب دفاعاً عنه ، وكان القتلة قد ذبحوا آل البيت من الذكور ولم يرحوا أحداً حتى الأطفال ، وشرذوا نساء رسول الله فى الغلوات .. ثم ساقوهن فى موكب وحشى من كربلاء إلى دمشق تتقدمهن رأس سيد الشهداء على سن حربة !!

كل تلك الذكريات الفاجعة ظلت تعيش حية فى أعماق على زين العابدين ، وصورة أبيه لا تفارق عينيه . عبد صالح خرج يطلب العدل للناس ، و يناضل لاسترداد حقوقهم وحريرتهم ، وبايعوه على أن ينصروه ليسترد لهم شرفهم وكبرياءهم ، وإذا بهم يتخذونه و يسلمونه وآل بيته الى ظالمهم .. !!

من أجل ذلك رفض على زين العابدين طلب شيعة آل البيت فى العراق أن ينهض من المدينة كما نهض أبوه .

وصرف زين العابدين عنه أولئك الذين استنهضوه فقد وعى ما حدث لأبيه فى العراق .. وظل يوصى ولديه محمدا الباقر، وزيدا ألا يتخدعا باستنهاض أهل العراق ، فى مأساة الحسين عبرة !!

وحين توفى الإمام على زين العابدين ، وترك تلك الحياة المعذبة بكل ما فيها ، ترك للناس علما غزيرا ، وترك ابنه الأكبر محمدا راعيا وأستاذا لابنه الأصغر زيد ..

وزيد إذ ذاك فى مقتبل العمر، يتطلع إلى كل شىء بهذا النوع من الدهشة التى نعرفها عندما سب السنون بنا إلى الشباب ، وتطالعا الحياة بما لم نعرفه من قبل ! ..

وجد المدينة من حوله تضىء بالقراء ، ورواة الحديث ، وعلماء الدين .

وكانوا يتذاكرون فيما بينهم ، و يتلقون طالبى العلم من مختلف أرجاء الأرض .. ولكنهم يسكون ألسنتهم عن جور الحكام ، اتقاء لعسف هؤلاء الحكام الذين ألفوا أن يبطشوا بكل من عرف عنه أنه لا يرضى عن سيرتهم .. !

وهكذا كان علماء المدينة منصرفين عن السياسة إلى الدين .

وكلهم مع ذلك يضيق صدره ولا ينطق لسانه ! ..

وعجب الفتى زيد كيف يسكتون عن المنكر، ولا يأمرون بالمعروف !!

وتحدث إلى جعفر ابن أخيه الأكبر محمد .. وكان فى مثل سنه ولكن جعفر بن محمد طلب منه أن يصبر و يصمت ، وبهذا نصحه أخوه وأستاذه محمد .. فقد رخص الله تعالى للمسلم أن يسكت على الظلم ولا ينهض لمقاومة البغى والفساد ، إن هو خشى على نفسه أو عرضه أو ماله !

وانصرف زيد إلى الدراسة عدة سنين .

على أن زيدا لم يسكت بعد ! ..

مات أخوه الأكبر محمد الباقر، وبقي هو وابن أخيه جعفر يتذاكران .

وحفظا علوم آل البيت وكل ما لديهم من أحاديث ، وكل ما وصل إليهما من علماء المدينة .

ثم رأى زيد أن يترك المدينة بحثا عن الحقيقة في مدائن أخرى .. وكان قد سمع أن في العراق مدارس وفلسفات جديدة .

وكان عدد من الصحابة والتابعين قد تفرقوا في الأمصار .

لقد سمع خلال الحج والعمرة من رجال يعيشون في البصرة والكوفة فأراد أن يطلب علمهم ..
وسمع منهم أنه في خارج المدينة يُلمن الإمام على كرم الله وجهه وزوجه فاطمة الزهراء رضی الله عنها
على منابر المسلمين بأمر حكام الدولة !!

وعلم أن هؤلاء الحكام يرتكبون كل المظالم والمعاصي التي نهى عنها الإسلام ، والتي جاء الإسلام
ليخلص منها شرف الإنسان !

ما صبره على هذا كله ؟ !

ولكن ما حيلته والناس في المدينة يتقون مواجهة الحاكم المستبد الباطش الباغى ؟ !

على أن المدينة لم تكن هي كل المجتمع الإسلامي .. والمسلمون ليسوا هم كل الناس .. وأمة محمد
(ص) ليسوا هم المسلمين وحدهم فقد أرسله الله للبشر كافة .

ورحل زيد إلى البصرة والكوفة .. وهناك وجد مجتمعا آخر غير مجتمع المدينة المنورة .

كانت النفوس تغلى بالسخط والرفض .. وقد نشأت فرق انتشرت إلى أطراف الدولة تتهم معاوية
بالكفر، وتدين الذين أيدوه وتحكم على الفقهاء الذين ناصروه وأيدوا ورثته في الخلافة بأنهم ليسوا من
الله في شيء ، وبأنهم باعوا دينهم بدنيا الحكام وأنهم مرتزقة متنطعون ، وجبناء منافقون ، سكتوا عن
الظلم وعن سب على وفاطمة على المنابر منذ أمر بذلك معاوية !!

وأى مسلم هذا الذي يسكت ويخطباء المساجد ينفذون أوامر حكام بنى أمية ويلعنون من على
المنابر فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجها على بن أبى طالب الذي كرم الله وجهه
والذي دعا له الرسول (ص) : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ؟ ! ..

أمسلم يصح إسلامه ، هذا الذي يسكت عن حكام ظلموا الرعية ، واستباحوا ما لها ، وعدوا
مصالحها وهم أجراؤها ، ويلعنون فاطمة وعليها من فوق المنابر كل جمعة ويؤمنون المسلمين في الصلوات
بعد هذا .. !! ؟ !

لم يكن من الممكن أن تمر سيرة حكام بنى أمية فى عداوتهم الأعمى لآل البيت ، وعدوانهم الباغى على حقوق الآخرين ، دون أن تثير نائرة القلوب مها يكن سلطان البطش والقهر . . .

من أجل ذلك نشأت جماعات سرية اتجهت إلى أطراف الدولة ، تعمل على الإطاحة بحكم الأمويين . وكانت أقواها تلك التى نشأت فى العراق واتجهت إلى خراسان ..

تفجرت تيار السخط فى البصرة والكوفة وسائر الأمصار ، وأخذ أحفاد الذين أسلموا الحسين وبخلوه يستعدون للنهوض ضد حكام بنى أمية .. واعتبروا ثورتهم توبة إلى الله مما فعلوه بالحسين .. وانسلوا بز يد بن على زين العابدين ، وهو فى البصرة والكوفة يختلف إلى العلماء .

على أن زيدا بن على زين العابدين بن الحسين كان ما يزال يذكر تحذير أبيه ، وما زالت صور ما صنعه أهل الكوفة بمجده الحسين تطوف أمام عينيه .. !

إنه فى أعماق نفسه ليؤمن بأنه مطالب بأن ينهض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه يجب أن يقاوم البدع وأن يحمي السنن .. ولكن كان فى نفسه شيء ما .. لم يأت الوقت بعد .. وليس لديه من القوة والعدة والعديد ما يواجه به سلطان الأمويين ..

عندما يأتى الوقت سيمحق العصبه الباغية ويدعو لنفسه إماما للمسلمين .

ولن يأتى الوقت حتى يكون لديه ما يكفى من الرجال الصادقين الشجعان .. رجال لا يتخذونه ولا يسلّمونه كما صنع أجدادهم مع جده الحسين ! !

وها هو ذا يضطرب بين الكوفة والبصرة والمدينة .. فتى فى نحو الثلاثين فارح مهيب صبور الوجه ، ضاحك السن ، محب لطيبات الحياة التى أحلها الله لعباده ، عازف مع ذلك عن زخرف الدنيا ، طالب للحقيقة ، مولع بالحكمة ، باتر فى حسمه ، فارس باسل من فرسان الحق !

وفى العراق وجد جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته اضطرتهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف .. والتفوا حوله .. منهم جماعة تدعى أن الوحى كان سينزل على الإمام على بن أبى طالب ولكنه أخطأ ! ! وآخرون يواجهون لعن على من على المنابر بصب اللعنات على الشيخين أبى بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب ! ! ومنهم جماعة تعتقد أن على بن أبى طالب لم يمت ، ولكنه رفع إلى السماء كعيسى بن مريم عليه السلام . وكما تعلم من أبيه وأخيه الأكبر محمد الباقر ، حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع ، وحاو رؤساءهم فأنكروا عليه رايه ، واتهموه يناصب جده الإمام عليا العدا ، فأعلن براءته منهم جميعا .. كما فعل أخوه الأكبر وأبوه من قبل .

وأقبل على الذين اختلفوا إلى دروسه يوضح لهم مزايا الشيخين ، و يذكر بفضلها على الإسلام ،
و يعد أن توليها الخلافة مشروع وصحيح .. وأعلن على الناس : « كان علي أفضل الصحابة إلا أن
الخلافة قُوضت إلى ابي بكر وعمر رضي الله عنها لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ... فإن عهد
الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين (علي) في دماء المشركين من
قريش لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . فما كانت القلوب تميل إليه
كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد .

وهكذا تابع أباه وأخاه الأكبر في توقيير الشيخين وعثمان ، وأعلن أن المفضل قد يقدم على الأفضل
إذا اقتضت ذلك مصلحة الأمة ، وأنه لا يشترط أن يكون الإمام من أولاد علي وفاطمة بل يشترط فيه
الصلاح ...

وفى البصرة وجد خلافا حادا بين الفقهاء حول موقف مرتكب الكبيرة .. أكافر هو أم فاسق
مناق؟

وحاور هناك عددا من أفاضل العلماء منهم واصل بن عطاء وأبو حنيفة النعمان ، وقامت بينهم مودة
ونشأ احترام متبادل .. حتى لقد صرح أبو حنيفة أنه ما وجد في البصرة أفضل من زيد بن علي

وفى العراق عرف فيمن عرف فرقا تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر .. وحول الإنسان .. أغير
هو يختار ما يفعله ، أم أنه مسير مقضى عليه بما يفعل بلا إرادة منه ولا اختيار ! .

ووجد آخرين يبحثون عن مصادر الأحكام .. من أين يأتون بالحكم إذا عرضت قضية أو مادة أو
حالة ولم يجدوا لها حكما في القرآن أو السنة .

وكان زيد قد تعود عن أبيه وأخيه أن يتلقى العلم من كل مصادره ، وألا يكتفى بعلم شيوخه من
آل البيت ، وأن يفتح عقله وقلبه لتحصيل كل الآراء ..

كان في تلك البيئة الثقافية المضطربة بالتيارات الفكرية المتعارضة من يرى أن مرتكب الكبيرة
كافر ، مخلد في العذاب

وآخرون يقولون إن مرتكب الكبيرة منافق يظهر غير ما يبطن ، فلو كان مؤمنا ما ارتكبها .

وآخرون من رأيهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ الى أن يحاسبه
الله ..

وقد أغرى هذا الرأي بعض الناس باقتراف الكبائر ..

وفرقه أخرى رأيت مرتكب الكبيرة يستحق العقاب وأمره راجع إلى ربه ..

ولكن الإمام زيدا رأى أن اقرار الكبيرة منزلة بين الكفر والإيمان .. ويسمى مرتكبها فاسقا .. وهو مسلم لا كافر، ولكنه ليس مؤمنا ، لأن المؤمن ولى الله ومرتكب الكبيرة يعصى الله . ثم إن الإيمان يقتضى الطاعة ، ومرتكب الكبيرة عاص ، ولكن لا يخلده الله فى العذاب ، بل يعذبه الله بقدر ذنبه !

أما عن القضاء والقدر وحظ الإنسان من الجبر والاختيار فالإمام زيد يعتبر الإنسان حرا مختارا فيما يفعل وفيما يأخذ أو يدع من طاعة وعصيان ، ذلك أن المعصية ليست قهرا من الله . ولولا هذه الحرية لسقط التكليف ، ولسقط الثواب والعقاب . فالإنسان إذن مسئول عما يفعل . وبمقتضى حرية فى الاختيار يستحق الثواب أو العقاب ، ولكن على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر وهذا الإيمان لا يلغى حرية الإنسان . وقد روى عن عمر أنه سأل سارقا : « لم سرقت » فقال : « قضى الله على بذلك » . فأمر عمر بقطع يده ومجده قائلا : « القطع للسرقة والجلد للكذب على الله » !

والقدر هو تقدير الله فى علمه الأزلى ، والقضاء هو حكمه التكليفى . والإنسان حر فى أن يعمل أولا يعمل وهو يحاسبُ بعمله .

وكان الإمام زيد يوضح للناس ماروى عن الرسول (ص) .. فقد شبه الرسول قضاء الله وقدره بوجود الإنسان بين السماء والأرض لا يستطيع منها فكাকা . وشبه حرية الإنسان فى العمل بحريته على الأرض ، فلا السماء والأرض تمليان عليه ما يصنع !!

وشرح موقف الإمام على بن أبى طالب من هؤلاء الذين يحسبون أن أعمال الإنسان هى قضاء لازم وقدر محتوم .. فقد قال الإمام على : « لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لذنب ، ولا محمداً لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن . »

ورأى الإمام زيد فى القضاء والقدر شبيه برأى حسن البصرى الذى عرفه الإمام زيد فى العراق .. يقول حسن البصرى : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على الله فقد كفر » ..

أما رأى فى الأمور الجديدة التى تعرض والأقضية التى تستحدث وليس فى الكتاب أو السنة حكم لها ، فقد ذهب الإمام زيد إلى وجوب النظر فى تشابه هذه الأمور الجديدة مع الأمور التى وردت لها أحكام فى الكتاب أو السنة ، فإن تشابهت جميعا ، وتوفرت فيما لم يرد حكمه فى الكتاب أو السنة ذات علة الحكم المنصوص عليه ، طبق الحكم نفسه .. وهذا هو القياس .

على أنه إذا تعارض قياسان أحدهما ظاهر ضعيف ، والآخر قوى غير ظاهر ، وجب الأخذ بما هو أقوى وهذا هو الاستحسان ..

ومهما يكن من شيء فالعبرة فى إجراء الحكم هو رعاية مصالح الأمة لأن تحقيق المصلحة هو قصد الشارع وهدف الشريعة .. وتلك هى المصالح المرسلة .

والإمام زيد فى كل هذا يدعو إلى إعمال العقل فإن لم يمكن الوصول إلى حكم بعد هذا ، فما من سبيل إلى الوصول إلى حكم عادل إلا بإعمال العقل .. فالعقل وحده هو الذى يحكم على الأفعال بالحسن أو القبح ، وبما يقتضيه اقرار أيها من ثواب أو عقاب !!

وكان الحكام يحاولون أن يخفقوا الفكر والرأى ، وأن يعطلوا عمل العقل ، ليفرضوا على الأمة قبول ما يفعلون ، زاعمين أنهم خلفاء الله فى الأرض ، مستندين فى تبرير المظالم على بعض المرتزقة من أشباه الفقهاء . وأشباه الرجال ، ممن وضعوهم فى قاعات الملك كأنهم بعض الزينة الزائفة !! .. ثم رفعوهم على المنابر ليعلنون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها الإمام على بن أبى طالب كلما نودى على الصلاة من يوم الجمعة !!

وبقدر ما كانت الأمة تحتقر صناع الزيف هؤلاء ، كانت تكبر الفقهاء والعلماء الشرفاء والمفكرين الأحرار من أمثال واصل بن عطاء ، وأبى حنيفة النعمان ، وزيد بن على وابن أخيه جعفر بن محمد الذى عرف بجعفر الصادق .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وعماله على الأمصار يتربصون بهؤلاء جميعا ..

فأما جعفر الصادق وأبو حنيفة وواصل بن عطاء فقد ابتعدوا عن السياسة ، وإن لم يسلموا من أذى هشام وعماله !

ولكن زيد بن على زين العابدين سلك طريقا آخر ..

كان يعرف أن هشام بن عبد الملك يتربص به كما يتربص بالآخرين ، ويضيق بأرائه فى الفقه ، وبدعوته إلى إعمال العقل وتحرير الفكر ، وحماية إرادة الإنسان ، كما يضيق بدعوة الآخرين !

وعلى الرغم من كل ذلك فقد خرج الإمام زيد ليجعل من الفكر حركة .. ومن الثقافة عملا !!

من الحق أنه ظل كالأخرين متقيا بطش السلطة العاشمة ، مكتفيا بالاجتهاد فى أمور الدين ، وبالدعوة إلى سيادة سلطان العقل .. ولكنه شعر أن الوقت قد جاء !! جاء الوقت لتتحول الكلمات إلى خطوات على طريق الحقيقة !

وأعلن أنه لا يحق لمسلم أن يقبل هدية أو عطاء من حاكم مالم يكن هذا الحاكم عادلا يحقق مصالح الأمة . فأخرج بذلك عددا من فقهاء العصر وعلمائه كانوا لا يجدون حرجا من قبول الهدايا والعطاء ..

ثم أذن فى الناس بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب شرعى وأصل من أصول الدين .

وهكذا انطلق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدين كل تصرف يخالف الشريعة ويطالب بالتغيير والإصلاح ، ويهيب بالأمة أن يشحذ كل فرد فيها عقله ليتعرف على الحسن والقيح ويرفض قبول ما يآباه عقله !

وصحبه أحد شيعة آل البيت وهو أبو خالد ، ليدون أقوال الإمام زيد ، وإجاباته على كل ما يسأل عنه .

فأمر هشام بن عبد الملك بن مروان بسجن أبى خالد .

وظل أبو خالد فى محبسه حتى مات . على أن حبس أبى خالد لم يرهب الذين التفوا حول الإمام زيد ، والذى بهرتهم شجاعته فى الحق وقوته على الباطل !

لقد التفوا حوله بكل حبه لآل بيت رسول الله (ص) ، وبكل ندمهم لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين ، وبكل أحلامهم فى أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة الذاهبة المفعمة بالفضائل ، حين أصبح الإمام على أمير المؤمنين ، فإذا الناس لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح ، وإذ بعلى يحمى سنة رسول الله (ص) ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وإذ به يأخذ من الأغنياء مازاد عن حاجة العام ، ليسد به حاجة الفقراء إلى الطعام ، وليبلغ بهم حد الكفاية لاحد الكفاف ..

تلك الأيام الباهرة المشحونة بالخطر ووثبات الأطماع التى شرفها الإنسان بحق أنه خليفة الله فى الأرض .

تلك الأيام النبيلة التى كان فيها القرآن والسنة ثم إجماع الصحابة هى موازين العلاقات الإنسانية ودستورها بكل ماجاء به الدين الجديد من مكارم الأخلاق .. وبكل ما قصد إليه الشارع الحكيم من تحقيق مصلحة الأمة ..

التف أتباع آل البيت ، والفقهاء الصالحون ، والحر يصون على دينهم ، والزاهدون ، والخالصون بالعدل والمجتمع الفاضل والطهارة .. وكل أعداء الزيف .. التفوا جميعا حول الإمام زيد .. وأخذ بعضهم يطالب الإمام زيد بأن يتقدم ليسترد الإمامة ويكون هو الخليفة .. ولينتزع من أظفار البغى حق آل البيت فى إمارة المؤمنين .

ولقد ظن هشام أن الناس إنما فتنوا بزيد لفصاحته ..

وفى الحق أن زيدا كان يملك تلك البلاغة التي امتاز بها آل البيت ، والتي يمنحها الصدق قدرة خارقة على التأثير.

فكتب هشام إلى والي العراق : « امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد فإن له لسانا أقطع من السيف وأحد من الأسنه وأبلغ من السحر» .

ولم يمتنع الناس عن لقاء زيد على الرغم من كل شيء ! .

وظل زيد يتجول في أنحاء العراق ، فيرى صورا من المظالم لم يرها من قبل وهو في المدينة .. واستغاثات المظلومين تستنهضه ، ليدفع عنهم البطش ، وينقذهم من غاشية الفساد ، وليذود عن حرم الدين .

وكان الإمام زيد قد صرح برأيه في شروط الخلافة وجاهر بأن الخليفة لا يكون خليفة لرسول الله وأميرا للمؤمنين وإماما للأمة إلا إذا توفرت له شروط ثلاثة :

— الشورى أى ألا ينفرد بالرأى ويستبد فى الحكم

— والمبايعة أى أن يختاره الناس بإرادة حرة غير مكرهين ولا خائفين أو تحت الإغراء ، فهذا كله

يعطل حرية الإرادة . التى لا تصح البيعة أو الاختيار إلا بها ..

— وثالث الشروط هو العدل .. فيقيم الخليفة المجتمع على قواعد الشرع ، وبحقق المساواة بين الناس

فى الحقوق والواجبات والفرص ، ولا يحكم بهواه ، بل يكون معيار المفاضلة بين الأفراد هو ما يقدمون من

عمل حسن ..

ولقد أدرك هشام أن هذا الرأى يهز عرشه ويكاد يدكّه دكا .. فحكّمه كحكّم أسلافه من بنى

مروان وبنى سفيان وكل الأمويين لايقوم على الشورى بأصولها الشرعية .. والبيعة لم تصح شرعا لأحد

منهم لأنها ليست نتيجة إرادة حرة بل هى بيعة إكراه تحت ضغط القهر أو الإغراء ، ثم إنه لايجرى

العدالة كما فرضتها الشريعة !

وها هو ذا الخليفة يظلم الناس بلا حساب .. فاذا يصنع زيد ! .. ماصمته وواجبه الشرعى أن

يُحِق الحق ويحارب الباطل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ !

ما زالت استغاثات المظلومين تستصرخه لينهض ذاتئا عن حوض الشريعة وتحرمات المسلمين

ومصالح الأمة .

واستشعر الخليفة الخطر؛ وخشى إن هو وثب على زيد أو بطش به أن تشتعل الثورة على بني مروان .. وكان زيد قد جمع حوله الفقهاء والشباب والصالحين وأهل التقوى والفقراء .. جمع الأمة كلها ولم يبق مع الخليفة غير المرتزقة والمنتفعين والجواري والندامى والمضحكين وأشباه الرجال !! ورأى هشام أن خير ما يبطل به تأثير زيد هو اقتلاع ماله فى قلوب الناس من احترام وتقدير .. وتوقير ومهابة !

وإذن فيجب أن تُشوه صورة زيد فى عيون المعجبين به .

أفاضل هو؟ !

أطاهر قنوع نزيه فوق الدنية؟ !

إذن فلتلطخ بالأوحال كل هذه النصاعة التى بهرت الآخرين !

فليسيط هشام بكل الحيل هيبة زيد أمام الناس ! ..

ألم تقم أركان هذه الدولة على الخديعة منذ التحكيم بين على ومعاوية؟ .. ألم يكن المكر السيء قواعدها؟ !

فليُنصب هشام الفخاخ لزيد .. فإن لم يقع فيها فليخترق عليه ، ولتكن الأكذوبة ضخمة حتى تذهل الناس فلا يجروا أحد على تكذيبها !

وواتت هشام بن عبد الملك بن مروان فرصته ، حين اختلف زيد مع بعض أبناء عمه حول وقف على بن أبى طالب لأيتهم تكون الولاية .

فأصدر هشام أمره إلى والى المدينة بأن يستدعى المتنازعين أمامه فى المسجد ، وأن يشعل الخصومة بينها ويطيلها ، وأن يحشد أهل المدينة ليروها ..

وصدع الوالى لأمر الخليفة .. وحضر الناس وجاء الخصمان فأغراها الوالى بأن يتشاتا ، ليرى الناس الإمام الطاهر وآل البيت كيف يتخاصمون على المال والمنصب وعرض الحياة الدنيا .

ولكن الإمام الطاهر زيد بن على أدرك الخديعة فترك النزاع ، وقال لابن عمه إنه متنازل عن حقه وإنه لن يخاصمه إلى هذا الوالى أبدا .

ثم قال زيد للوالى : « أجمعت ذرية رسول الله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر وعمر؟ »

وبدلاً من أن ينتهي الأمر بتنازل زيد عن الدعوى أشار الوالى إلى أحد المرتزقة من أشباه الرجال وأراذل أتباع بنى أمية ليحرضه بأن يعرّب على الإمام الطاهر زيد عف اللسان .

قال الوالى وهو يغرى صنيعته بإهانة زيد : « أما لهذا السفية أحد ؟ » .. فقال صنيعة الوالى : « يا ابن أبى تراب وابن حسين السفية ، أما ترى لوال عليك حقاً ولا طاعة ؟ » فرد زيد كاظماً غيظه : « اسكت فإننا لا نجيب مثلك .. » فقال الرجل : « ولم ترغب عني ، فوالله إنى لخير منك ، وأبى خير من أبىك وأمى خير من أمك » فتصاحك زيد وقال : « يامعشر قر يش هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ؟ فوالله إنه ليذهب دين القوم وماتذهب أحسابهم . » فانتفض من بين القوم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بكل حمية جده الأكبر عمر بن الخطاب وانقض على صنيعة بنى أمية قائلاً : « كذبت والله .. لهو خير منك نفساً وأباً وأماً ومعتداً » فقال الصنيعة : « دعنا منك » . فأخذ حفيد عمر بن الخطاب كفاً من حصى فضرب به الأرض وهو يقول للوالى .. « والله مالنا على هذا صبر ! .. »

وترك زيد المدينة مرة أخرى .. وسافر إلى العراق ، حيث شيعه آل البيت وفقهاء العراق ومثقفوها ينصرونه ويمنعونه ، ولا يسمحون لوال كوالى المدينة بأن يبينه أو يغرى به بعض الأراذل المرتزقة .

وكان فى صحبة زيد حين قدم العراق هذه المرة نفر من قرابته من بنى هاشم .. وحسب الخليفة هشام بن مروان بن عبد الملك أن والى العراق سينتزع الفرصة ليهين زيدا أمام أقربائه .. وانتظر هشام ماسيفعله والى العراق بز يد تشويها لصورته أمام الذين جاوزوا فى إعجابهم به كل الحدود .

ولكن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى بدلاً من أن ينصب الفخاخ للإمام زيد أقام له مادب التكرم .. !

فأمر الخليفة بعزل خالد وسجنه ، وولى بدلاً منه يوسف بن عمر الثقفى وهو فظ غليظ القلب سيء المكر .. فعذب خالد فى سجنه عذاب شديداً لم يكف عنه ، حتى أذعن خالد لما يريد الوالى الجديد .. أن يدعى على زيد أنه خان الأمانة ! !

واستدعى الإمام إلى الوالى العراقى الجديد .. وقال الوالى الجديد لزيد : « إن خالد يزعم انه أودعك مالا . » قال زيد : « كان خالد والياً على العراق مكلفاً بأن يشتمنى ويشتم آبائى على منبره فكيف يودعنى مالا ؟ » فأرسل إلى خالد فأحضر من مجلسه فقال له الوالى : « هذا زيد قد أنكرك أنك أودعته شيئاً » فقال خالد للوالى الجديد : « أتريد أن تجمع مع إثمك إثماً فى هذا ؟ .. كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر ! » وغضب الوالى الجديد يوسف الثقفى وأعاد خالد إلى سجنه ليعذب أشد عذاب ، بعد أن أفسد محاولة الإيقاع بالإمام زيد وتشويه صورته أمام الناس ! ! :

وتصايح أهل العراق مستنكرين ما يحدث للإمام زيد ، وتعجلوا نهضته لإسقاط الخليفة ودولة بنى أمية جميعا ، ووعده أن يجمعوا له مائة ألف مقاتل يبايعونه إماما وخليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين ! وحملت جواسيس هشام إليه هذا النبأ ، فأرسل هشام يطلب زيدا ..

ولما ذهب زيد إلى قصر الخليفة لم يستقبله أول الأمر .. بل أبقاه أياما خارج القصر يطلب اللقاء فلا يجاب إليه .. وحسب الخليفة أنه بهذا السلوك يهين الإمام ويزرى عليه أمام الناس .. !

وأخيرا أذن له فى دخول القصر ، وأمر الخليفة أحد عيونه أن يتبعه وأن يحصى عليه مايقول ..

ورأى زيد قصرا منيفا باهر الغنى فاخر الرياش محلى بعقود مذهبة ، فزحفت من أعماقه أصداء أنين المطحونين واستغااثات المظلومين . وتخالبت أمام عينيه صور الفقر التى رآها فى كل بلد نزل به ! .

هنا يهدر الدين إذن !!

أين هذا القصر الباذخ ذو الزخرف والترف الخرافى من بيت الخلافة بالكوفة فى الزمن القديم ، حيث حكم أمير المؤمنين الإمام على دولة عظمى نحو أربعة أعوام ، من بيت صغير من طين هو أدنى بيت من بيوت المسلمين ! ؟ .

إنه لا يحق لأحد من المسلمين أن يعيش فى مثل هذا الترف ، قبل أن يحصل كل فرد فى الدولة من مسلمين وغير مسلمين على الكفاية لا الكفاف : المطعم والملبس والمسكن والمركب والدواء والعلم والأمن كل ما يكفى حاجاته المشروعة .. وهذا هو الإسلام الحق !!

أما هنا ففتنتك الشريعة ، وَيُهْتَدِرُ كل ماجاء به الدين القيم !! .. ولكن . ولكن الذى يملك كل هذا المتاع ذليل .. فهو عبد لما يتمتع به !!

وقال زيد لنفسه بصوت سمعه الحاجب الذى يحصى كلماته : « والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل .. »

ورجل الخليفة يحصى مايقول ، ويحصى حركات الدهشة والاستنكار ..

ثم صعد زيد إلى هشام ، فلما دخل عليه لم يجد موضعا يجلس فيه ، ولم يفسح له هشام ، فجلس زيدا حيث انتهى به المجلس . وسأله هشام عن شىء فحلف له زيد ، فقال هشام : « لا أصدقك » فقال زيد : « إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله ولم يضع قدر أحد عن أن يرضى بذلك منه . » فقال له هشام مغلظا : « اسكت لا أم لك ! .. بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها وأنت ابن أمة » ..

إن الخليفة ليذكره بجدته أم أبيه على زين العابدين ويزرى بها ! .. وأم على زين العابدين بن الحسين كانت من بنات كسرى سبيت وأختان لها في عهد عمر بن الخطاب .. فكانت هي للحسين ابن علي فأولدها علي بن زين العابدين وكانت الثانية لمحمد بن أبي بكر والثالثة لعبد الله بن عمر . . وعندما استشهد الحسين ، انقطعت امرأته الفارسية تلك لتربية ولدها على زين العابدين بن الحسين ورفضت الزواج . وكانت صغيرة السن ، فائقة الجمال ، حميدة الخصال .

قال زيد لهشام : « إن لك جوابا فإن أحببت أحببتك به ، وإن أحببت أمسكت » .. فقال هشام : « بل أحب » فقال زيد : « إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم إسماعيل أمة لأخيه إسحق ، وأخوه ابن صرمجة مثلك ، فأختاره الله عليه فأخرج من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فتقول هذا لى وأنا جدى محمد ؟ وأنا وابن فاطمة وعلى ! » قال له هشام عنقا : « أخرج . » قال زيد : « أخرج .. ثم لا ترانى إلا حيث تكبره .. » .

ومنذ طرده هشام من قصر الخلافة ما رآه هشام بعد إلا حيث يكبره ..

فقد عرف الناس بما دار بين الخليفة وزيد فجهروا بالسخط على الخليفة ، وأخذوا على الرغم من كل شيء يلعنونه فى أسواق الكوفة هو وأسلافه من الملوك الأمويين ! !

يقول الطبرى : ثم رجع زيد إلى الكوفة فاستخفى فقال له محمد بن علي بن أبي طالب حيث أراد الرجوع إلى الكوفة أذكرك الله يازيد لما لحقت يأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك إلى ما يدعونك إليه فإنهم لا يفون لك .. فلم يقبل منه ذلك .. وقرر أن يقيم بالكوفة على الرغم من نصيحة أخيه محمد الباقر .

و يقول الإمام الطبرى .. قال أبو مخنف :

فأقبلت الشيعة لما رجع إلى الكوفة يختلفون إليه و يبايعون له حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل فأقام بالكوفة بضعة عشر شهرا إلا أنه قد خرج منها إلى البصرة نحو شهرين ثم أقبل إلى الكوفة فأقام بها وأرسل إلى أهل السواد وأهل الموصل رجالا يدعون إليه . وتزوج حيث قدم الكوفة ابنة يعقوب ابن عبد الله السلمى أحد بنى فرقد . وتزوج ابنة عبد الله بن ابي العنيس الأزدي . وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت ترى رأى الشيعة ، فبلغها مكان زيد فأتته لتسلم عليه . وكانت امرأة جسيمة جميلة لحيمة قد دخلت فى السن إلا أن الكبر لا يستبين عليها . فلما دخلت على زيد بن علي فسلمت عليه ، ظن أنها شابة فكلمته ، فإذا هى أفصح الناس لسانا وأجمله منظرا ، فسألها عن نسبها فانتسبت له ، وأخبرته من هى . فقال لها « هل لك رحمك الله أن تتزوجينى . » قالت :

« أنت والله رحمك الله رغبة لو كان من أمرى التزويج » . قال لها : « وما الذى يمنعك من ذلك ؟ »
قالت : « يمنعنى من ذلك أنى قد أسننت . »

فقال لها : « كلا قد رضيت . ما أبعدك من أن تكونى قد أسننت . »

قالت : « رحمك الله . أنا أعلم بنفسى منك وبما أتى على من الدهر . ولو كنت متزوجة يوماً من الدهر لما عدلت بك . ولكن لى ابنة أبوها ابن عمى وهى أجمل منى وأنا أزوجكها إن أحببت . »

قال : « رضيت إن تكن مثلك »

قالت : « لكن خالقها ومصورها لم يرض أن يجعلها مثلى ، حتى جعلها أبيض وأوسم وأجسم ، وأحسن منى ذلاً وشكلاً »

فضحك زيد وقال لها : « رزقت فصاحة ومنطقاً حسناً فأين فصاحتها من فصاحتك ؟ »

قالت : « أما هذا فلا علم لى به لأنى نشأت بالحجاز ، ونشأت ابنتى بالكوفة فلا أدرى لعل ابنتى أخذت لغة أهلها »

ثم أوعدها موعداً فأثابها فتزوجها ، ثم بنى بها ، فولدت له جارية ، ثم إنها ماتت بعد وكان بها معجبا انتهى حديث الإمام الطبرى .

وكان زيد بن على ينزل بالكوفة منازل شتى فى دار امرأته فى الأزد مرة ، ومرة فى دار أصهاره السلميين .. وفى دور عديد من شيعة آل البيت مرات أخرى .

وظل طوال إقامته بالكوفة يبايعه الناس و يبايع الناس وكانت بيعته : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ودفع المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ونصرة آل البيت »

وروع عدداً من أبناء عمه ما هو مقدم عليه ، وتذاكروا مأساة جدهم الحسين : بيعة أهل الكوفة له ثم تخليهم عنه .. ثم قتله هو ومن معه على أرض كربلاء !

على أن الناس تداعوا إلى بيعته حتى وصلوا أربعين ألفاً فى السلاح والعتاد

وقال له أحد أولاد عمه من خلال الدمع إشفاقاً عليه :

« يا بن عم .. إن هؤلاء يفترونك عن نفسك . أليس قد خذلوا من كان أعز عليك منهم ؟ جدك على

ابن أبى طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه ؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع إليهم وإنى خائف إن رجعت إليهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم . وأنت أعلم ..

ثم أتاه رجل من أصدقائه محبى آل البيت فقال له : « نشدتك بالله : « كم بايعك ؟ » قال زيد : « أربعمون ألفا » . فقال الرجل : « فكم بايع جدك الحسين ؟ » قال زيد : « ثمانون ألفا » فسأله الرجل : « عن عدة من ثبت مع جدك ؟ » . فقال زيد « ثلاثمائة » وأضاف الرجل إن الزم الذى مضى فيه جده الحسين كان أفضل من هذا الزمن وإن جده الحسين كان خيرا منه ومع ذلك خذ أهل الكوفة .

ونصح الرجل زيدا أن يعود إلى المدينة فيلزما فلن يفى له هؤلاء وقد غدروا بجده . فقال زيد : « قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم » .

قضى الأمر فقد نهض زيد وما من شيء يمكن أن يقعه بعد !

لقد عزم فليتوكل على الله . ومضى يرد على كل من يعظه أو يحذره بقول الشاعر العربى القديم :

بكرت تخوفنى المنون كأننى
أصبحت عن عرض الحياة بغير
فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنه
فأنتنى حياءك لا أبالك واعلمنى
أنسى أمرؤ سأموت إن لم أقت

واتفق زيد مع من بايعوه على أن يخرجوا لجهاد الظالمين فى أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

ولكن جواسيس الخليفة هشام بن عبد الملك حملوا إليه النبأ ، فأرسل إلى والى العراق كتابا يؤذ

فيه :

« إنك لغافل . وإن زيد بن على بالكوفة يبايع له . فألح فى طلبه وأعطه الأمان وإن لم يقن

فقاتله » .

وأخذ الوالى يلتمس زيد بن على فى كل البيوت التى يظن أنه ينزل بها فلم يجده ، فقبض الوالى على زعماء مؤيديه وضرهم ، ففرغ الباكون ، وإذ ذاك ظهر مضطرا من استخفاؤه .

وعرف بقية زعماء المؤيدين أن والى العراق يوسف الثقفى لن يتركهم ، وأنه يدس إلى زيد ويستبحث عن أمره ، ويتحرى رؤوس المؤيدين لينكل بهم .

وبدأ زعماء المبايعين يتخاذلون عن الإمام زيد خوفا وطمعا .

ثم اجتمعت جماعة من الرؤوس فقالوا لزيد : « رحك الله ماقولك فى أبى بكر وعمر؟ » . قال زيد : « رحمها الله وغفر لها ، ماسمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منها ولايقول فيها إلا خيرا » . قالوا : « فلم تطالب إذن بدم أهل البيت إلا أن يكونا وثبا على سلطانكم فنزعه من أيديكم ؟ » . فقال لهم زيد : « إن أشد ما أقوله فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين وإن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا . قد ونوا فعدلوا فى الناس وحكموا بالكتاب والسنة » . قالوا : « فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك . فلم تدعوا إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين ؟ » فقال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك . إن هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم . وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أحببتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل » .

ففارقوه ونقضوا البيعة ، ودعوا الآخرين إلى الانصراف عنه !

ثم إن زيدا جمع من بقى من رؤوس مؤيديه ، وأزمع الخروج كما وعدهم فى أول صفر ، غير أن والى العراق بعث إلى هؤلاء قبل الموعد المحدد بشهر ، فحبسهم بالمسجد الكبير بالكوفة ، وأغلق أبواب الأسواق على من فيها ، واختار أوسع أصحاب زيد نفوذا فضرب عنقه على باب القصر .. وفرز الباكون . وهكذا اضطر زيد إلى القتال قبل الموعد المحدد بشهر ..

وبث فى الناس شعار القتال المتفق عليه : « يامنصور أمت » فلم يجبه إلا نحو مائتين وكان قد بايعه من قبل أربعون ألفا ! .. مائتان من الفقهاء والمثقفين الأحرار ..

وظل منادى زيد بنياديتهم « اخرجوا من الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين ، فإنكم لستم فى دين ولا دنيا » .

فلم يخرج إليه أحد ..

وتذكر مأساة جده الحسين !

فقال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ، أما والله لأقاتلن حتى أموت » ..

وفى الحق أن أهل العراق فعلوها حسينية ! .

وكان قدره معهم هو قدر جده الحسين .. خذلوه فلم ينخذل .. وقرر أن يقاتل حتى الموت دفاعا عن حقوق المضطهدين حتى أولئك الذين خذلوه ، وعن قيم الإسلام ، وشرف الإنسان ! ..

وتقدم الإمام زيد الفقيه الفارس يقود نحو مائتين من فرسان الحقيقة ، وهم بلا مدد ، يقاتلون جيشا كثيفا موصول الأمداد !

وفى بداية المعركة هزموا جناح جيش الأمويين حتى تمزق ، وأوشك الجيش أن ينهزم عنهم ولكن قائدهم أمرهم بأن يرموا زيدا وصحبه بالنبال والسهم عن بعد ، وألا يشتبكوا معهم فى قتال !! .. لكأنهم يخشون مواجهتهم !

ورشقوا جماعة زيد بالنبال ، وخرج رجل على فرس من جيش الأمويين فى حماية السهم وسب فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) سبا قبيحا ، فبكى الإمام زيد حتى ابتلت لحيته وهو يصيح : « أما أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما أحد يغضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبرز رجل من أصحاب زيد فقتل الفاجر من على فرسه . وحاول الأمويون قتله بالسهم ولكن أصحاب زيد حملوا عليهم حملة باسلة حتى أنقذوا الرجل ، وأحدثوا فى الأمويين مقتلة عظيمة .. فاحتضنه زيد وقبل ما بين عينيه وهو يقول : « أدركت والله ثأرنا ، أدركت والله شرف الدنيا والآخرة وذخرها » .

ولكن الآلاف من عسكر الأمويين انقضوا يرمون زيدا وصحبه المائتين بالسهم ، حتى نالوا منهم ، وقضوا عليهم . وكان أحد هذه السهم قد أصاب الإمام الفقيه الفارس الطاهر فى جبهته ، فأت وصحبه ينتزعون السهم .

ودفن من بقى من صحبه جثمانه فى ساقية وردموها .

ولكن الأمويين نبشوا القبر ومثلوا بجثمانه وصلبوه على جذع نخلة .

كانت هذه هى نهاية فقيد عظيم .. نهاية فاجعة كتبت على كثير من آل البيت .. كما كتبت على جده أبى الشهداء الحسين بن على .

نهاية فاجعة رائعة مهيبة !

وقضى زيد شهيداً

ولقد كانت ثورته على الظلم والاستبداد هي ثورة الفقهاء المتقين والمثقفين الأحرار المستيرين .

قال الإمام الأعظم أبوحنيفة عن ثورة زيد : « لقد ضآها (شابه) خروج الرسول يوم بدر » فقيل له : « ولم تخلفت عنه ؟ » فرد أبوحنيفة : « حبسنى عنه ودائع الناس ، عرضتها على ابن ليلى فلم يقبل . ولو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لجاهدت معه لأنه إمام حق ، ولكنى أعنته بألى فبعثت إليه بعشرة آلاف درهم وقلت للرسول ابسط عذرى »

وبعد أن استشهد زيد بن على زين العابدين أصبح عميد آل البيت هو جعفر الصادق .. الذى كان يحض الناس على نصرته عمه زيد .. والذى تولى بعده عقب الإمامة ، ووزع من ماله على ورثة زيد وصحبه ..

« لك الله يا جعفر الصادق !! »

مأفدح هذا الحمل المثقل بالأحزان !!

« لك الله يا جعفر الصادق ،،، »

الامام جعفر الصادق

لم يجمع الناس على حب أحد في ذلك العصر كما أجمعوا على حب الإمام جعفر بن محمد
الذى اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق

ذلك أنه كان صاقي النفس ، واسع الأفق ، مرهف الحس ، متوقد الذهن ، كبير القلب ،
يلتمس في غضبه الأعداء للآخرين ، حاد البصيرة ، ضاحك السن ، مضيء القسامات ، عذب
الحديث حلوا المعشر ، سباقا إلى الخير ، بزا طاهرا .

وكان صادق الوعد ، وكان تقيا .

هو من العترة الطاهرة عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جده لأمه هو أبو بكر الصديق
وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب .. وهو نسب لم يجمع لأحد غيره !

ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ ومات فيها سنة ١٤٨ هـ .

وخلال هذا العمر المديد أغنى الحياة والفكر بحسن السيرة ، والعلم الغزير ، وإشراقاته
الروحية ، واستنباطه العقل .

وكان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله ، يلتقى في أعماقه علم الصالحين العظميين وصلاحتها
وحسن بلائها ، وتراث تقواهما ، ولا يزدنيه على الرغم من ذلك كبرياء من يجمع في نفس واحدة
أطراف ذلك المجد كله ، وتلك الروعة كلها .. !

وعسى منذ طفولته نصيحة أبيه الإمام محمد الباقر « ما دخل في قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص
من عقله مثل ما دخله »

تعهدوه وهو صغير جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر بقدر ما تعهدوه جده لأبيه على زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب .. فإذا به هو صبي يحفظ القرآن و يتقن تفسيره ، ويحفظ الأحاديث والسنة من أوثق مصادرها عن آل البيت ، تواترا عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعن الصديق رضي الله عنه وعن سائر الصحابة من رواة الأحاديث الصادقين .

وأتاح له توفر هذه المصادر جميعا أن يتقن دراسة الحديث وفهمه ، وأن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين أو خدمة لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسي .

ثم نشر من الأحاديث ما حاول الحكام المستبدون إخفاءه لأنه يزلزل أركان الاستبداد ! فقد كان حكام ذلك الزمان يجهدون في إخفاء ما رواه علي بن أبي طالب من السنة .

وانتهى نظر الإمام جعفر إلى أنه لا يوجد حديث شريف يخالف أو يمكن أن يخالف نصوص القرآن الكريم .. وأن كل ما ورد من أحاديث مخالفا لكتاب الله فهو موضوع ينبغي ألا يعتد به .

وكان عصره متوترا مشوبا بالأسى ، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت ، ويطغى الأئین الفاجع على عرصة الحكام !

كان عصر الفتوحات الرائعة ، والفرع العظيم والدموع .

فالدولة الأموية تضع العيون والأرصاء على آل البيت منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي في كربلاء ..

وهي تضطهدهم وتضطهد أنصارهم ، وتخشى أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة .

استشهد عمه زيد في مقتلة بشعة تشبه ما حدث لجده الحسين أبي الشهداء وبكاه الإمام جعفر أحر البكاء .

وكان الإمام جعفر من بين آل البيت هو الإمام الذي تتطلع إليه الانظار: أنظار الذين يكابدون استبداد الحكام ، وأنظار الحكام على السواء !

عرف منذ مطلع صباه أن الإمام علي بن أبي طالب رئيس البيت العلوي يلعن على المنابر في مساجد الدولة في صلاة الجمعة .. وعلى الرغم من أن أم المؤمنين أم سلمة كانت قد أرسلت الى معاوية تنهاه عن تلك البدعة البشعة وتقول له : « إنكم تلعنون الله ورسوله إذ تلعنون علي بن أبي طالب ومن يحبه . وأشهد أن الله ورسوله يحباه » .. على الرغم من تلك النصيحة ، فقد ظل الإمام علي يلعن

على المنابر، وتلعن معه زوجه فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسمع جعفر هذه اللعنات طيلة صباه وجزءاً من صدر شبابه ، حتى جاء الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز فتبرأ إلى الله من هذا العار، وكان يحمل للإمام علي بن أبي طالب ما يحمل لغيره من الخلفاء الراشدين الثلاثة من إجلال وتوقير.. وأمر الخطباء أن يتلوا— بدلا من لعن علي في ختام خطبة الجمعة— الآية الكريمة التي مازالت تتلى إلى الآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

وطابت نفس جعفر كما طابت نفوس الصالحين وأهل التقوى والعلم بما صنعه الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيزة وأعلن الإمام جعفر فى مجلسه إعجابه بالخليفة عمر.. سبط عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان الإمام جعفر منذ رأى بطش الحكام بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة ومقاومى الاستبداد ، كان قد أخذ مبدأ التَّقى فلم يجهر بالعداء لبنى أمية ، اتقاء شرهم ، وحذر الفتنة ، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالونهم .

فأثر أن يهب نفسه للعلم ، وألا يفكر فى النهوض والانقراض على السلطان الجائر ، حقنا لدماء المسلمين ..

ورأى أن خير ما يقاوم به البغى هو الكلمة المضيئة تنير للناس طريق الهداية ، وتزكيم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التى شرعها الإسلام وإلى حماية مصالح الأمة التى هى هدف الشريعة .

وكان قد تعلم من جده الإمام على زين العابدين بن الحسين عن جده الرسول صلى الله عليه وسلم أن طلب العلم ونشره جهاد فى سبيل الله ، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء .

وكان قد رأى جده الإمام زين العابدين رضى الله عنه يخطوفى المسجد حتى يجلس فى خلقة أحد الفقهاء من غير آل البيت . فيقول له أحد الحاضرين : « غفر الله لك . أنت سيد الناس . وتأتى تتخطى خلق الله وأهل العلم من قریش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود » فيرد زين العابدين : « إنما يجلس الرجل حيث ينتفع وإن العلم يطلب حيث كان » .

ولقد وعى الصغير دلالة هذا كله ، وانتفع به طيلة حياته .

ثم إن جديه ماتا وتركاه صبيا ليتولى تثقيفه أبوه الإمام محمد الباقر وهو أعلم زمانه بالقرآن وتفسيره

وبالحديث والفقہ فنقل إلى ابنه جعفر كل معارفه ، ونقل إليه توقيراً خاصاً للشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب .

وكان أبوه الإمام محمد الباقر يقول : « من جهل فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وأن قوماً من العراق يزعمون أنهم يحبوننا و يتناولون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما . والذي نفسى بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم . لا نالتي شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لها وأترحم عليها . إن أعداء الله عنها لغافلون . »

كما ورث جعفر عن أبيه توقيره لعثمان بن عفان ذي النورين .. وكل صحابة رسول الله رضي الله عنهم .

ولقد مات محمد الباقر وابنه جعفر في نحو الخامسة والثلاثين ، وقد اتقن معارف آل البيت وأهل السنة وترسبت في عقله نصائح أبيه « إياك والكسل والضجر فإنها مفتاح كل شر . إنك إن كسلت لم تؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حق » .. « إن طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد » .. « إذا صحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص » .. ثم وصيته ألا يصحب خمسة ولا يحادثهم ولا يرافقهم في طريق : الفاسق والبخيل والكذاب والأحمق وقاطع الرحم لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة ، والبخيل يقطع المال حين الحاجة ، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد ، والأحمق يريد أن ينفخ فيضرب وقاطع الرحم ملعون في كتاب الله » .

مضى الإمام جعفر الصادق — وقد ورث الإمامة عن أبيه — بكل ما تعلمه من أبيه وجديه يخوض غمرات الحياة المضطربة .. وفي تلك الأيام عرفت المساجد وندوات العلم في المدينة المنورة شاباً ورعاً يتفكر في خلق السموات والأرض بكل ما أتبع له من معرفة وإشراق وروحي ، يرفض الاشتغال بالسياسة اتقاء البطش ، على وجهه شعاع من نور النبوة ..

هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكير في ظواهر الحياة والكون ، فهي دليته إلى الإيمان بوحداية الله .

وهده هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس ، وتحرر الفكر ، وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ .

وتعلمذ عليه جابر بن حيان ، وكان أبوه شيعيا قتل دفاعا عن الحقيقة وفى حب آل البيت ، فاصطنع الإمام محمد الباقر والد الإمام جعفر ذلك الفتى اليتيم ، وفقهه فى الدين حتى إذا ورث جعفر الأمانة أخذ بيد جابر بن حيان وتمهده وحثه على دراسة علوم الحياة وذوده بعمل وأمره أن يبسر كتاباته لينتفع بها الناس .. وخصص له وقتا فى كل يوم يتدارسان فيه علوم الطبيعة والكيمياء والطب ، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية وهده بالمعارف العلمية إلى التمكن من الفقه .

وعلم وهو فى المدينة أن فى العراق مذاهب تدعو إلى الإلحاد والزندقة .. فخرج يناقش زعماء هذا المذهب .. لم يقعد مكتفيا بالحكم عليهم بالكفر ، أو يصب اللعنات عليهم ، بل ناقشهم بمنطقهم ، ليثبت لهم وجود الله ، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون .

واشتهر فى ذلك الزمان طبيب هندی برع فى علوم الطب والصيدلة فحرص الإمام جعفر على أن يلتقى به ويتعرف إلى علمه . وتبادلا المعارف مما ثم أخذ يجاوره فى الإسلام وفى إثبات وجود الله .

بهذه الحكمة والموعظة الحسنة عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه فأقنع كثيرا من الزنادقة والملحددين والمنكرين والوثنيين بالاسلام فاسلموا وحسن إسلامهم وأضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم فى ذلك الزمان ..

آمن بالتجربة والنظر العقلى والجدل طريقا إلى الإيمان وسلحته معرفته الواسعة العميقة بالعلوم فى الاستدلال والإقناع ، وجذب أصحاب العقول المبتكرة إلى الدين .. وهو مع انشغاله بكل ذلك ، كان يتحرى أحوال الناس ، ويعمل على كتمه جرابا فيه طعام ومال فيوزع على أصحاب الحاجة ، دون أن يدع أحدا يعرف على من يتصدق !

ولكم أساء اليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التضاف الناس حوله فأقابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالى ! « ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حيم » .

وفى الحق انه أستطاع أن يحول كل الذين دُشوا عليه ليسيئوا إليه إلى أولياء حيمين .

كان يزدرى الانتقام ويعلم الناس فضيلة العفو مرددا قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد عبد بالعفو إلا عزا »

ولكن أقارب جعفر لم يتركوه لما هوفيه من علم ودراسة ليؤدى دوره فى تنوير العقول .

فقد حاولوا أكثر من مرة أن يقحموا عليه السياسة .

ودعوه إلى الثورة على الدولة الأموية ، واجتمعت عليه الألسنة تلح ليتولى أمر الخلافة ، فرفض وصرفهم عما هم آخذون فيه .

فعادوا يطالبونه بالبيعة لو احد منهم ولكنه لم يوافق ..

وكانت الثورة ضد حكم الدولة الأموية تشتد ، وميض النار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرام .

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين ، قد صانعوا حكام بنى أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله فى الأرض ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ! ..

وقد ساء رأى الناس فى هذه الفئة من المنتسبين إلى الفقه والعلم ، لأنهم باعوا شرفهم بالمناصب والجاه .

وكان الصادق من أكثر الناس حرصا على حماية الأمة من سموم هؤلاء المرتزقة

وفى الحق أن الحكام الأمويين كانوا يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين ، فيجزلون لهم العطاء ويولون بعضهم .

وكان بعض هؤلاء الولاة يجب أن يبدو فقيها عالماً على الرغم من جهله المركب ، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الاموى بلعن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسب فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. بعد أن كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد أبطل تلك الأحدثوة الشائنة : سب على وفاطمة !! ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد مات بكل عدله وحزمه وصفائه ، وما بقى فى الدولة من رجال إلا هذا الصنف من الضالين وصناع الضلال !!

وعرف الصادق أن ذلك الفقيه المرتزق الذى كان قد كوفىء بتعيينه واليا ، مازال يسب عليا وفاطمة ويهدد الناس إن خالفوه . والناس قد أسكتهم الخوف !

وإذ بالامام الصادق يذهب ويستمتع له ثم ينتفض مقاطعا المنافق المرتزق ويكشف للناس جهله ونفاقه ، ويوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذى يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال ، ويبيع آخرته بدنياه ، إنما هو ضال مضلل وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة ، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب .

حقاً .. ما كان الإمام الصادق يستطيع أن يسكت عن كل هذا التزييف على أنه ما من شيء كان يوجع الإمام الصادق مثل انحذار الذين ينتسبون إلى العلم والثقافة والفقہ والدين إلى حضيض النفاق ، والمراعاة ، والانحناء ، وبيع الضمير!!

وما كان أنشط النخاسين فى التقاط من ارتضوا أن يصبحوا عبيدا وإماء .. لقد شعر الإمام الصادق منذ استشهاد عمه الإمام زيد أنه يعيش فى نهاية عصر!

إنها نهاية عصر .. حقاً ..!

وانتهى العصر ..

سقطت دولة بنى أمية وأرسل الثوار الى جعفر الصادق رسالة يطالبونه فيها أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة

وجاءته الرسالة وهو مشغول فى تأملاته ودراساته وتجاربه فأحرق الرسالة ولم يرد ..

كان يخلق فى سماء المعرفة ، يضرب فى أغوار العلم ، ويشعر أنه أقوى من الملك .. أى ملك فى الأرض !! وأنه باستمراره فى دوره العلمى أنفع للناس!

كان يقول : « من طلب الرياسة هلك » على أن الرياسة ظلت تطلبه .. وهو يرفض!

وإذ رفض الخلافة .. بايع الناس أبا العباس حميد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين وتأمل الإمام الصادق فيمن يحيط بالخليفة الجديد!!

لقد انتهى عصر .. هذا حق ..

انتهى بكل خيريه وشره ، وجاء عصر جديد يتطلع فيه الناس إلى الحرية ، والنظافة ، والطهارة والعدل ، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطفيان يحيطون بأبي العباس مؤسس الدولة الجديدة .. الدولة العباسية .

ومات أبوالعباس .. وورثه الخليفة المنصور وإذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثانى فى العصر الجديد!! وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها ، وإذ بهم يهيمونه أنه فوق الحساب لأنه ظل الله فى الأرض!! حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه!! إنهم أشباه رجال اشتهر

عنهم الجهل والتخلف والغباء والحمق ووجهوا كل نشاطهم للنفاق !! نفوس كرهية زرية مهينة
محتقرة !!

وحكم الصادق على العهد الجديد بمن يثلونه و يفيدون منه !!

أى أمل للناس فى الخليفة وقد أصبحت الشورى لذوى الضمائر المتهرئة والألسنة المستهلكة ؟ لقد
مضوا يدعون إلى التقشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين ، لينصرف المستبدون إلى
جمع المال ، و ينصرفوا هم إلى الارتزاق !!

لقد شرعوا للبغي وأحدثوا خرقا فى الاسلام !!

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله ،
بل بالزهد فى كل شىء ! والانصراف عن كل حق !

ثم وصل فجور هؤلاء المرتزقة إلى آخر مدى فوضعوا الأحاديث النبوية لخدمة الطبقة الحاكمة ! حتى
الأحاديث الشريفة لم تسلم من تزيفهم !!

وعلى الرغم من كل هذه المظالم ، وعلى الرغم مما عاناه الإمام جعفر من آلام وهو يعيش محنة خيبة
الأمم فى النظام الجديد ، فانه ظل أخذًا بالتقية قائلا : « التقية دينى ودين آبائى » والتقية ألا يبهر المرء
بما يعتقد اتقاء للأذى أو حتى تتحسن الظروف . والأصل فى التقية هو قول الله تعالى : « لا يتخذ
المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم
تقاة » .

وكان الخليفة المنصور قد غالى فى القسوة على مخالفيه .. ومنهم بعض آل البيت من العلويين

والإمام الصادق يسكت تقية .. ولكنه أثر مع ذلك أن ينصح الخليفة بالحسنى فقال له : « عليك
بالحلم فإنه ركن العلم . فإن كنت تفعل ماتقدر عليه كنت كمن أحب أن يذكر بالصولة . واعلم أنك
إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ماتوصف به إلا العدل .

وهكذا مضى الإمام الصادق يودى دوره فى تنوير الناس حكاما ومحكومين .. والخصومة تشتجر
حول القضاء والقدر، والجبر والاختيار، فيقول الإمام للناس : « إن الله أراد بنا أشياء ، وأراد منا

أشياء .. فإرادة الله بنا طواه عنا ، وما أرادنا منا أظهره لنا .. فإبالتنا نشغل بما أرادنا بنا عما أرادنا
« منا ؟! »

وكان هذا لا يروق للطبقة الحاكمة ، ولا للمتطمطين والترتزة من المنتسبين إلى العلم والفقهاء .

ذهب الإمام جعفر الصادق إلى أن القول بالجبر ضد الشرع ، لأنه لا حساب ولا عقاب إذا لم يكن
للمرء حرية اختيار ما يفعل ..

وإلا فمن أين تنبع المسؤولية إن لم تكن للإنسان حرية الفعل ؟!

وهكذا مضى الإمام الصادق بكل إيمانه بدوره ، يعلم الناس بعض ما خفى عنهم من تفسير القرآن
ووجد أن الامراء والولاة يقتربون الظلم ، وياكلون ما ليس لهم من حقوق الرعية ثم يستغفرون الله !!
ويعسبون أن الله سيتوب عليهم !! فمضى يشرح معنى الاستغفار مفسرا بضع آيات من سورة نوح :
« فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم
جنات ويجعل لكم أنهارا » فالاستغفار إذن يجلب السعادة والغنى .

ولكن الاستغفار الحق ليس هو ترديد الكلمة باللسان ، ولكنها توبة القلب ، وإعمال العقل ،
والعمل الصالح الذي يحقق خير الأمة ..

الاستغفار أن تمتثل لأمر الله تعالى بالعدل والإحسان .

ذلك أن المرء يجب أن يفكر في الله بكل ما يملك العقل من قدرات ، ليعرف الله ويعرف كيف
يتقيه وكيف يحقق أهداف شرائعه .. وما أهداف الشرائع إلا تحقيق المصلحة للبشر وإعمار الأرض ..

ولقد سأله أحد الناس : يا ابن بنت رسول الله . لقد قال تعالى « أدعوني أستجب لكم فإلنا
ندعوه فلا يجيب ؟ فقال له الإمام : « لأنك تدعوني لا تعرف .. »

إنه يطالب الناس أن يفكروا ليعرفوا الله .. أن يعرفوا الله بعقولهم ليستقر إيمانهم على أساس وطيد .

كان الإمام على غزارة علمه متواضعا رقيقا مع كل من يعرف ومن لا يعرف .. وكم تلقى من
إساءات من بعض الحمقى والأغبياء وذوى النفوس المعقدة أو الضمائر العفنة أو ذوى الفظاظ ، فإ
قابلها إلا بالابتسام أو الصبر ! . كان يتمثل قول الله تعالى : وأعرض عن الجاهلين .

وكان يكره الخصومة ويسمى جهده إلى الصلح فإن عرف أن هناك خصومة على مال تبرع من ماله
خفية ليعطى طالب المال .. وكان يقول : « لا يتم المعروف إلا بثلاثة بتعجيله وتصغيره وستره » .

ناضل الإمام الصادق لإقرار التسامح الدينى وإلرساء قواعد شريفة للتعامل بين المسلمين وأهل الكتاب من نصارى ويهود ، وكان حربيا على التعصب الذى يسىء إلى الشريعة وإلى إنسانية الإنسان !!

ذلك أنه وجد بعض المنتظمين والأراذل يحاولون أن يسيئوا معاملة المسيحيين ، فأثبت عليهم مخالفة قواعد الشرع وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الإسلام أمر المسلمين بأن يتعايشوا مع المسيحيين ، إخوانا متحابين ، وألا يكرهوا الناس على أن يكونوا مسلمين ، فلا إكراه فى الدين .

يجب أن يترك أهل الكتاب وما يدينون به فقد نهى الإسلام عن إثارة الفتنة فى الدين والفتنة أشد من القتل ولقد أمر الرسول عليه السلام باحترام حرية العقيدة واحترام أهل الكتاب فن لم يتعامل معهم كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من الإسلام فى شىء ، ولوزعم فى تنطعه وتعصبه أنه رجل شرع أو أنه أفقه الناس !!

ولقد أعادت هيبة الإمام الصادق ، كثيرا من الذين انحرفوا إلى حظيرة الدين .. فتعايش المسلمون والمسيحيون إخوانا متحابين كما أمر الله ورسوله .

وهذا التسامح الذى ينبع من فهم عميق للإسلام كان صفة أصيلة فى الإمام .. فقد كان يدعو الله أن يغفر لمن أساء إليه .. وما عرف عنه أنه انتقم من أحد فقد كان يرى فى الانتقام مع القدرة ذلا .. وأن الصبر عفويثاب عليه المرء .. من أجل ذلك ما غضب من إساءة أو من اغتياب ..

وقد امتدت سماحته إلى الذين يخدمونه .. تلك السماحة التى تخالجها الرقة والعذوبة .. كان له غلام كسول يحب النوم ، فأرسله يوما فى حاجة فغاب وخشى الإمام أن يكون الغلام قد أصابه مكروه ، فخرج يبحث عنه ، فوجده نائما فى بعض الطريق .. فجلس الإمام عند رأسه ، وأخذ يوقظه برفق حتى استيقظ فقال له ضاحكا « تنام الليل والنهار . ؟ ! لك الليل ولنا النهار ! »

لكل هذا الصدق والصفاء فى التعامل مع الحياة والناس والأشياء .. لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح ، وإشراقه الروحى الرائع ، وذكائه المتوقد الخارق وبجسارته فى الدفاع عن الحق ، وقوته على الباطل ، وبكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم .. التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام الصادق جعفر بن محمد وكما كان حكام بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفرح ، أخذ الخليفة العباسى « المنصور » يراقب الامام جعفر متوجسا من جيشان العواطف نحوه ، وإعجاب الناس به .. !!

كان المنصور يعرف بتجربته الخاصة أن الامام جعفر بن محمد عازف عن الاشتغال بالسياسة ، وكان يعرف أن الامام رفض إهابة الشيعة به أن ينهض ، ورفض إلحاحهم بالبيعة ، ولكن المنصور مع ذلك ما كان ليستريح لالتفاف الناس حول الصادق في كل مكان . في المدينة حيث يقيم وفي العراق حيث يلم ليعلم الناس أو ليحاور الزنادقة والملحدين وأصحاب الآراء الذين يخالفونه في أمور الدين ..

نقل الناس إلى الخليفة أن أحد فصحاء الزنادقة وفجارهم قد التمتى بالإمام جعفر، فعجز، الرجل عن الحوار، فسأله الإمام الصادق: « ما يمنعك من الكلام ؟ » فقال الرجل إجلالا لك ومهابة . وما ينطق لساني بين يديك . فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين ، فما داخلتنى هيبتك . »

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر . وعرف أن الامام يحارب الزهاد .. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا ، وإلى عدم التضكرفى شؤونهم .. وقد شجع حكام بنى أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التضكير فى المظالم ، و يصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقير المحكومين .. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه إلى الزهد حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة ..

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا وأنها ليست من الله فى شىء .. فهى تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة ، وألا يحاسب الحكام ، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى وهى أساس الحكم فى الاسلام .

ولقد اتخذ بعض الصالحين بهذا الاتجاه إلى تمنجيد الفقر، فنادوا بتحريم الطيبات من الرزق وزينة الحياة التى أحلها الله لعباده ، حتى أن أحد الصالحين من الفقهاء رأى الإمام الصادق فى ثوب حسن فأنكره هذا قائلا : « هذا ليس من لباسك » فقال له الإمام الصادق : « اسمع منى ما أقول لك . فإن خير لك آجلا أو عاجلا إن أنت مت على السنة والحق ولم تمت على البدعة . أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى زمان مقفر مجذب فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها أبرارها لا فجارها ، ومؤمنوها لا منافقوها . »

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو « الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال » .

ورأى المنصور فى الدعوة ضد الزهد والفقر تحمير أيضا لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم فى المال ، ودعوة إلى إثارة التمرد ..

ولكن المنصور سكت وظل يراقب الإمام جعفر بن محمد .. ما عساه يصنع بعد ؟ ! لعله يسكت ! !

ولكن الإمام جعفر ظل يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين .. ورأى التنصاف بعض الطيبين الفقهاء حول الحكام من غير ضرورة ، خوفا أو طمعا فقال للناس : « إذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا للسلطين فاتهمهم .. » وتخوف كثير من الفقهاء بعد هذا من مخالطة السلطين والحكام من غير ضرورة .. !

ثم إنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام على وأفضيته ما حرص الحكام والمستغلون على إخفائه .. فأفتى بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان فى الأمة صاحب حاجة .. حاجة إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه ! ! ..

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة لأنه لا يعمل ، فولى الأمر هو المسئول وهو الآثم .. فإذا سرق السارق لأنه لا يحصل على الأجر الذى يكفيه هو وعياله ، فالذى يستغله أولى بقطع اليد !

وكان استبداد المنصور قد استشرى ، وكما فعل الحكام الأمويون من قبل ، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت .. فقد ناهضه بعض أقربائه من آل البيت ، فقتلهم شرقتة .. واتهم جعفر بن محمد بأنه يمرض عليه ، وبأنه يطمع فى الخلافة على الرغم من أنه يعلم أن الإمام لا طمع له فى الملك .

وخشى المنصور أن يصنع مع الإمام جعفر كما صنع الخليفة الأموى مع عمه الإمام زيد بن على !

وآثر المنصور أن يناقش جعفر فاستدعاه إلى العراق واتهمه بأنه يريد الخلافة .. فقال له الصادق : « والله ما فعلت شيئا من ذلك ولقد كنت فى ولاية بنى أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم وإنهم لا حق لهم فى هذا الأمر فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شيء مع جفائهم الذى كان لى فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمى وأمس الخلق بى رحما . »

فقال المنصور : « أظنك صادقا »

وعاد الإمام الصادق إلى المدينة مكرما ..

كان ما يغيظ المنصور حقا هو فكر الإمام الصادق والتنصاف الناس حوله ، وتوقيعهم إياه ..

والمنصور لا يجهل أن أحد كبار فقهاء العصر دخل على الخليفة وإلى جواره الصادق فما اهتم بالخليفة، وجعل كل اهتمامه بالإمام الصادق، وقال الرجل: «أخذنى من هيبة جعفر الصادق ما لم يأخذنى من هيبة الخليفة» .

على أن الصادق عاد إلى المدينة لا يسكن، بل ليواصل دوره الثقافى الجليل ومن عجب أن المنصور، على الرغم من ضيقه بآراء الإمام ما كان يملك إلا أن يجلة، ويقول عنه أنه: «بجر موج لا يدرك طرفه ولا يبلغ عمقه» .. ولكن المنصور حاول أن يخرج الإمام الصادق، فاستدعى أبا حنيفة النعمان وقال له: «فتن الناس جعفر بن محمد فهبىء له من المسائل الشداد» .. ثم استدعى الإمام الصادق وأبا حنيفة وجلس الناس وما انفك أبو حنيفة يسأل الإمام فى أربعين مسألة، والإمام يجيبه عن كل مسألة، فيقول فيها رأى فقهاء الحجاز، ورأى فقهاء العراق، ورأى فقهاء آل البيت ورأيه هو.

وطرب أبو حنيفة وقال عن الإمام جعفر «أنه أعلم الناس فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء»

وصحبه أبو حنيفة النعمان بعد ذلك مدة سنتين يتلقى عنه العلم ..!

ما كان توجس المنصور وشكوكه هو كل ما يعانى منه الإمام الصادق فقد كابد تطرف بعض فرق الشيعة وسبهم للشيخين أبى بكر وعمر ولعثمان بن عفان، وشططهم فى تمجيد بعض آل البيت وفى تمجيده هو نفسه إلى حد العبادة، وتحملهم من التكاليف الدينية .. فأعلن البراءة منهم واتهمهم بالشرك بالله، وأثبت عليهم الكفر ودعا الناس إلى نبذهم .. كان هؤلاء من المتعصبين ضعاف العقول، أو من المندسين لتشويه آل البيت أو من أعداء الاسلام وآل البيت جميعا!

على أن الإمام الصادق على الرغم من شدته على هؤلاء كان رقيقا فى تعامله مع الفقهاء الذين يختلفون معه مهما تكن مذاهبهم واتجاهاتهم، داعيا إلى التصريب بين الآراء، مقاوما باسلا للطائفية، وكم بذل من جهد للقضاء على الخصومة فى الدين، وعلى التعصب بكل صورته وأشكاله!

وكان يعتمد فى حوارهِ على الأدلة العلمية، وعلى الاستقراء والاستنباط، لا على المسلمات ..

نادى بتحكيم العقل حيث لا يوجد حكم فى الكتاب أو السنة .. فبا أن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة للبشر، وبما أن العقل قادر على معرفة الخير والشر وتمييز الحسن من القبيح، فإن العقل يهذى إلى ما فيه المنفعة والخير فيؤخذ، وإلى ما فيه الضرر فيترك .

وهو يعتمد على العقل والتدبر ليصل المسلم الى الإيمان .

لقد أمر الله بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. والعقل هو الذى يحدد للإنسان كيف يجرى العدل والإحسان ، وكيف يقاوم الفحشاء والمنكر والبغى ، وكيف ينفذ التكليف الشرعية بما يرضى الله ، وهو الذى يقر الإيمان فى القلوب ..

والعقل هو الذى يقود الانسان إلى معرفة ما هو مباح عندما لا يوجد نص ، وإلى معرفة المصلحة التى هى هدف الشريعة .. ليكون تحقيق المصلحة هو أساس الحكم ومناطه ..

وقد هداه نظره وتأمله الى القول بحرية الإرادة ، وإلى الدفاع عن حرية الرأى التى هى أساس قدرة الانسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! ..

وحرية الانسان ، هى أساس مسؤوليته .. مسؤوليته أمام الله تعالى ، يحاسبه على ما يفعله لا على قضاء الله فيه .. فالله تعالى يسأل الإنسان « لماذا كفرت ؟ لماذا أذنبت ؟ ولكنه لا يسأله لماذا مرضت ؟ .. »

وهكذا عاش الإمام فى المدينة يعلم الناس ويجهتد فى استنباط أصول الفقه .

وعلى الرغم من أن كل هذه الآراء لم تكن تروق الخليفة المنصور، فقد كان الخليفة حريصا على أن يقرب منه الإمام جعفر .. ولقد أرسل إليه الخليفة يوما يسأله : « لم لا تفشانا كما يفشانا الناس ؟ » فكتب إليه الإمام جعفر : « ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنتك ، ولا نراها نعمة فنعزيك » .. فكتب إليه المنصور : « تصحبنا لتصحنا » .. فأجابه الإمام الصادق : « من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك » .

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة وجع الزكاة حق للخليفة وحده فهو إذن يدعولنفسه! .. وشهد ضد الإمام شاهد زور.. فكذب الإمام أقوال الشاهد ، فطلب المنصور من الإمام أن يحلف بالطلاق ، ولكنه رفض فقد كان يفتى بأن الحلف بالطلاق لا يجوز. وقال إنه لن يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتدا ، « لا تنفقه على » .. فقال الإمام هادئا مبتسما : « وأين يذهب الفقه منى ؟ » ثم إن الإمام طلب من الشاهد أن يحلف على دعواه فحلف شاهد الزور.. وكان الخليفة قد اقتنع بأن الإمام صادق فى قوله .. فقد عرفه الجميع بالصدق .. وروى شاهد الزور وكبر عليه أن يفترى على هذا الإمام الطاهر،

وكبر عليه أن يملف كذبا .. وها هو ذا آخر الأمر يجد الخليفة غاضبا عليه !! فا كسب شيئا بعد ! وسقط الرجل ميتا .. وحمل عن مجلس الخليفة .. أما الإمام فقد دعا للرجل بالرحمة ، وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح فى إبعادها إذ كانت تعود فتحط على وجهه .. فسأل : « لماذا خلق الله الذباب ؟ » فقال الإمام : « ليذل به الجبابرة » .

فقال له الخليفة متلفظا وجلا : « سر من غدك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك ، وإن اخترت المقام عندنا لم نال فى إكرامك وبرك فوالله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا »

وخرج الإمام إلى حرم جده فى المدينة المنورة .. وهو إذ ذاك شيخ قد جاوز الخامسة والستين .. وأقام بالمدينة لا يبرحها ، يعلم الناس ويفقههم ، ويواصل وضع أصول الفقه ويشرع للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم فى الكتاب أو السنة .

وفى الثامنة والستين مات الإمام الصادق .

وعندما عرف الخليفة المنصور، أخذ يبكى حتى اخضلت لحيته ، وهو يقول : « إن سيد الناس وعالمهم وبقية الأخيار منهم توفى .. ان جعفر من قال الله فيهم : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .. »

مات الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة وشيخ أهل السنة بعد أن ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات ، وأنشأ فى الحياة الفكرية تيارا جديدا خصبا أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم .. وجع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين .

عادت النفس مطمئنة إلى رها راضية مرضية ، وقد خلف الإمام فى كل البلاد مئات الفقهاء السنيين يروون عنه ويعلمون الناس فقهه وشروحه وآراءه ، فضلا عن فقهاء الشيعة توفى الإمام جعفر الصادق الذى درس عليه الإمام مالك وروى عنه أبو حنيفة النعمان وتعلم منه ، وصحبه سنتين كاملتين قال عنها أبو حنيفة النعمان : لولا السنتان لهلك النعمان .

أبو حنيفة النعمان
الإمام الشهيد

لم يختلف الناس على رجل كما اختلفت آراؤهم فى أبى حنيفة النعمان ..

تعالى البعض فى تقديره حتى زعم أنه أوتى الحكمة كلها ، وأنه يتلقى علمه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يشبه الرؤيا أو الرؤية !

واشتط الآخرون فى كراهيته ، حتى لقد اتهموه بالمروق عن الدين ، وبالإلحاد والزندقة ، وباستيراد المبادئ الهدامة من الديانات الوثنية ومن عباد النار ..

وأعمى العداة آخريين ، فأذاعوا عنه أنه مجوسى مدسوس على الإسلام ليحدث خرقا فى الإسلام !!

كان هذا التصرف فى الأحكام المتناقضة هو طابع العصر الذى عاش فيه أبو حنيفة ، وهو فى الوقت نفسه نتيجة سلوك الشيخ وسيرته واقتحاماته الفكرية الجسور ..

ذلك أنه كان يدعو إلى الأخذ بالرأى لا يبالى فى رأيه بأحد ..

فقد كان عارفا بأحوال الحياة ، مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه ، خبيرا بالرجال ، شديدا على أهل الباطل ، مرير السخرية بالمزيفين ، لاذعا مع المنافقين من متعاطى الفقه والعلم والثقافة فى عصره ..

وهو عصر غريب حقا .. عصر ملئ بالتطرفات ..

هو ذلك العصر الباهر من الفتوحات والثراء الفكرى .. عصر الأئمة العظام : محمد الباقر وزيد بن على وجعفر الصادق ومالك بن أنس والليث بن سعد .. وهو فى الوقت نفسه عصر الصعاليك الكبار ، والمنافقين والمزيفين .. !!

عصر عامر بالبطولات والأحلام والخطر والغنى الروحي والافتحام ، والمتاع .. !

عصر يدوى على الرغم من كل شيء بأصداء المأساة ، تقعه الأحزان ، ملتهب بالأشواق الى العدل وبالحنين إلى الرحمة والصدق والإحسان والشجن ..!

فى ذلك العصر ولد أبو حنيفة النعمان بالكوفة سنة ٨٠ هـ من أسرة فارسية ، وسمى النعمان تيمنا بأحد ملوك الفرس ...

من أجل ذلك كبر على المتعصبين العرب أن يبرز فيهم فقيه غير عربى الأصل .. حاول بعض مجيئه أن يفتعل له نسبا عربيا .. ولكنه كان لا يحفل بهذا كله فقد كان يعرف أن الاسلام قد سوى بين الجميع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم احتضن سلمان الفارسى وبلالا الحبشى ، وكانا من خيرة الصحابة حتى لقد كان الرسول يقول « سلمان منا أهل البيت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عن بلال : « سيدنا بلال » .

ولقد شهد أبو حنيفة فى طفولته فظائع الحجاج والى العراق و بطشه بكل من يعارض الأمويين حتى الفقهاء الأجلاء ، فدخل فى نفسه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم ، ورفض للطغيان .. ثم إنه ورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت فما كان فى ذلك العصر رجال ينبذون التفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب إلا آكل البيت .

وقد تمكن حب آل البيت من قلبه عندما تعرف على أئمتهم وتلقى عنهم ، وعندما عاين أشكال الاضطهاد التى يكابدونها فى كل نهار وليل ! .. حتى لقد شاهد الإمام الصادق واقفا يستمع إليه وهو يفتى فى المدينة فوق قائللا : « يابن رسول الله ، لا يرانى الله جالسا وأنت واقف » .

وكان أبوه تاجرا كبيرا فعلم معه وهو صبى ، وأخذ يختلف إلى السوق ويحاور التجار الكبار ليتعلم أصول التجارة وأسرارها ، حتى لفت نظر أحد الفقهاء فنصحته أن يختلف إلى العلماء فقال أبو حنيفة : « إنى قليل الاختلاف إليهم » فقال له الفقيه الكبير : « عليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء فإنى أرى فيك يقظة وفطنة » .

ومنذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم ، واتصل بالعلماء ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم فى حياته .. ولكم عانى وعانى منه الآخرون فى هذا الميدان الجديد الذى استنفر كل مواهبه وذكائه وبراعته !!

وانطلق الفتى الأسمر الطويل النحيل بجملته فاخرة ، يسبقه عطره ، ويدفعه الظمأ إلى المعرفة ، يرتاد حلقات العلماء فى مسجد الكوفة .. وكان بعضها يتدارس أصول العقائد (علم الكلام) ، وبعضها للأحاديث النبوية ، وبعضها للفقهاء وأكثرها للقرآن الكريم ..

ثم مضى ينشد العلم فى حلقات البصرة .

وبهرته حلقة علماء الكلام ، لما كان يشور فيها من جدل مستعمر يرضى فتونه .

ولزم أهل الكلام زمنا ثم عدل عنهم إلى الحلقات الأخرى .. فقد اكتشف عندما نضح أن السلف كانوا أعلم بأصول العقائد ولم يجادلوا فيها ، فلا خير فى هذا الجدل . ومن الخير أن يهتم بالتفقه فى القرآن الكريم والحديث .

وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنه بالكوفة ، وإلى الاستقرار فى حلقات الفقه ، لمواجهة الأفضية الحديثة التى استحدثت فى عصره ، ولدراسة طرائق استنباط الأحكام .

وكان أبوه قد مات ، وترك له بالكوفة متجرًا كبيرًا للحرير يدر عليه ربحًا ضخمًا ، فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجرًا آخر ، ليكون لديه من الوقت ما يكفى لطلب العلم وللتفقه فى الدين ولإعمال الفكر فى استنباط الأحكام ..

ودرس على عدة شيوخ فى مسجد الكوفة ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه .. حتى إذا ما أتم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة ، نصب أبو حنيفة شيخًا على الحلقة حتى يعود .. وكانت نفس أبى حنيفة تنبازه أن يستقل هو بجملته ، ولكنه عندما جلس مكان أستاذه سئل فى مسائل لم تعرض له من قبل ، فأجاب عليها وكانت ستين مسألة

وعندما عاد شيخه عرض عليه الإجابات ، فوافقه على أربعين ، وخالفه فى عشرين .. فأقسم أبو حنيفة ألا يفارق شيخه حتى يموت .

ومات الشيخ وأبو حنيفة فى الأربعين ، فأصبح أبو حنيفة شيخًا للحلقة ، وكان قد دارس علماء آخرين فى رحلاته إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزياره ، وأفاد من علمهم ، وبادلهم الرأى ، ونشأت بينه وبين بعضهم مودات ، كما انفجرت خصومات .

وزرع وقته بين التجارة والعلم .. وأفادته التجارة فى الفقه ، ووضع أصول التعامل التجارى على أساس وطيده من الدين ..

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو مثله الأعلى فى التجارة : حسن التعامل ، والقوى ،

والريح المعقول الذى يدفع شبهة الربا ..

جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمننا له مائة .. وعندما فحص الثوب قال لها « هو خير من ذلك » فزادت مائة .. ثم زادت حتى طلبت أربعمائة فقال لها : « هو خير من ذلك » فقالت : أتزأ بى ؟ فقال لها : « هاتى رجلا يقومه » فجاءت برجل فقومه بخمسمائة ..

وأرادت امرأة أخرى أن تشتري منه ثوبا فقال « خذيه بأربعة دراهم » فقالت له : « لا تسخر منى وأنا عجوز ، فقال لها « إنى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم » .

وذهب إلى حلقة العلم يوما ، وترك شريكه فى المتجر ، وأعلمه أن ثوبا معيننا من الحرير به عيب خفى ، وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه .

أما الشريك فباع الثوب دون أن يوضح العيب ! ..

وظل أبو حنيفة يبحث عن المشتري ليدلّه على العيب ، و يرد إليه بعض الثمن ، ولكنه لم يجده ، فتصدق بثمان الثوب كله ، وانفصل عن شريكه ..

بهذا الحرج كان يتعامل فى تجارته مع الناس ، وفى فهمه للنصوص ، وفى استنباطه للقواعد والأحكام ..

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أرباحا طائلة ، فقد كان لا يكتز المال .. فهو ينفق أمواله على الفقراء من أصدقائه وتلاميذه .

يحتفظ بما يكفيه لنفقة عام ويوزع الباقي على الفقراء والمعسرين .. فإذا عرف أن أحدا فى ضيق ، أسرع إليه ، وألقى إليه بصرة على بابهِ ، ونبهه إلى أنه وضع على بابهِ شيئا ، ويسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة ..

وكان على ورعه وتقواه واسع الأفق مع المخطئين .. كان له جار يسكر فى الليل ويرفع عقيرته بالغناء :

أضاعونى وأى فقى أضاعوا

ليوم كرهة وسداد ثغر

وكان صوت الجار يفسد الليل على أبى حنيفة .. حتى إذا كانت ليلة سكت فيها صوت الجار

السكير، فلما أصبح الصباح سأل عنه فعلم أنه فى السجن متبها بالسكر.. وركب أبو حنيفة إلى الوالى فأطلق سراح السكير.

وعندما عادا معا سأله أبو حنيفة « يا فتى هل أضعتك ؟ » فقال له « بل حفظنى رعاك الله ».

ومازال به أبو حنيفة حتى أفلح عن الخمر. وأصبح من رواد حلقات العلم ثم تفقه وصار من فقهاء الكوفة .

وكان أبو حنيفة يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم .. وكان إذا قام للصلاة لبس أفخر ثيابه وتعطر، لأنه سيقف بين يدى الله .

ورأى مرة أحد جلسائه فى ثياب رثة ، فدس فى يده ألف درهم وممس : أصلح بها حالك « فقال الرجل » لست أحتاج إليها وأنا موسر وإنما هو الزهد فى الدنيا فقال أبو حنيفة : أما بلغك الحديث : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ؟

وكان شديد التواضع ، كثير الصمت ، يقتصد فى الكلام ، ولا يقول إلا إذا سئل ، وإذا أغلظ إليه أحد أثناء الجدل صبر عليه . وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقة وأسدل دونها سترا ، ليحفظها من عيون الرجال ، وأجابها عما تسأل .. نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه ، وحرصه الدائب على أن يرضيها ، ثم من فهمه الواعى للإسلام ، واتباعه اليقظ للسنة ، واجتهاداته الذكية .. وقد قاده اجتهاده إلى الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولى كل الوظائف العامة بلا استثناء .. حتى القضاء !

ولقد كان فى حرصه على إرضاء أمه . يحملها على دابة ، و يسير بها الأميال ، لتصلى خلف أحد الفقهاء يرى هو نفسه أن أبا حنيفة أفضل منه ، لأن الأم كانت تعتقد بفضل ذلك الفقيه !

وكانت الأم لا ترضى بفتوى ابنها أحيانا ، فتأمره أن يحملها إلى أحد الوعاظ ، فيقودها إليه عن طيب خاطر .. ولقد قال لها الواعظ يوما : « كيف أفتيك ومعك فقيه الكوفة ؟ »

ومع ذلك فقد ظل أبو حنيفة حريصا على إرضائها ، لا يرد لها طلبا ، حتى إذا عذب فى سبيل رأيه ، طلبت منه أمه أن يتفرغ للتجارة وينصرف عن الفقه وقالت له : « ما خير علم يصيبك بهذا الضياع ؟ » فقال لها : « إنهم يريدوننى على الدنيا وأنا أريد الآخرة وإننى أختار عذابهم على عذاب الله . »

ولكم تحمل أبو حنيفة من عذاب !!

كان مخالفوه فى رأى يفرون به السفهاء والمتحصين والمتهوسين و يدفعونهم إلى اتهامه بالكفر، وإلى التهجم عليه ، فيقابلهم بالابتسام .

ولقد ظل أحد هؤلاء السفهاء يشتمه ، فلم يتوقف الإمام ليرد عليه ، وعندما فرغ من درسه وقام ، ظل السففيه يطارده بالسباب ، والإمام لا يلتفت إليه ، حتى إذا بلغ داره توقف عند باب الدار قائلاً للسفيه : « هذه دارى فأتم كلامك حتى لا يبقى عندك شيء أو يفوتك سباب فأتا أريد أن أدخل دارى » ..!

كان خصوم أبى حنيفة صنفين : بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبى حنيفة ، وحكام ذلك الزمان .

أما أعداء أبى حنيفة من الفقهاء فقد كان على رأسهم ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة .

كان أعداؤه فقهاء للدولة فى العصر الأموى ، حتى إذا جاء العصر العباسى تحولوا إلى الحكام الجدد ، واحتالوا عليهم بالتفائق حتى أصبحوا هم أهل الشورى ، يزينون للحكام الجدد كل ما زينوه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبغى واستغلال وبطش بالمعارضين .. واصطنعوا من الآراء الفقهية ، وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية ما يسند الطبقة الحاكمة والمستغلين ، وما يصرف الناس عنهم عن أمور الدنيا ، وعن سياسة حياتهم ، لينقطع الناس إلى التمشف ، ويتركوا مستغليهم يستبدون و يعمهون !

وكان أبو حنيفة يحتفظ باستقلاله أمام الحكام فيحترمه الحكام .. وهو ليس أغلى الفراء فى الشتاء ، ويتحلى طوال العام بثياب فاخرة ، ويتعطر ، ويتنعم بالطيبات من الرزق ، و بزينة الحياة التى أحلها الله لعباده ..

وكان يقاوم كما قاوم أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق من قبل بدعة تزوين التمشف والانصراف عن هموم الحياة ، وترك الأمر كله لطبقة بعينها تملك وتستغل وتحكم وتستبد !

على أن ميل أبى حنيفة إلى الأئمة من آل البيت أو غر عليه صدور الأمويين والعباسيين على السواء .

ففى العصر الأموى قالوا « أن تكون كافرا أو مشركا خير من أن تكون علويا » ..

وفى العصر العباسى توالى المحن على العلويين ، وأبو حنيفة يفتى بأن العلويين أصحاب حق ..

على أنه مال إلى العباسيين أول الأمر ، وتوسم فيهم الخير ، ولكنه إذ وجد الفقهاء الذين ناقضوا الأمويين وزينوا لهم العدوان ، هم الذين يشيرون على الخلفاء العباسيين ، أصابته خيبة الأمل فيهم .. ثم إن العباسيين بطشوا بأبناء عمومتهم العلويين ، فساء رأى أبى حنيفة فى العباسيين .

وأبو حنيفة على الرغم من سماحته لا يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل مهمهم نفاق الحكام وإرضاءهم .. كان بعضهم يفتى فى المسجد إلى جوار حلقة أبى حنيفة ، فإذا أخطأ اتبرى له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ ، و يعلن الصواب على الناس .

وكان ينتقد أخطاء ابن أبى ليلى نقداً أوغر عليه صدر الرجل .. حتى نقد حكماً فاحش الخطأ فانفجر غضب ابن أبى ليلى .. « وذلك أن امرأة مجنونة قالت لرجل : « يا بن الزانين » فأقام عليها ابن أبى ليلى الحد فى المسجد ، وجلدها قائمة ، وأقام عليها حدين حداً للقذف الأب وحداً للقذف الأم .

وبلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ ابن أبى ليلى فى عدة مواضع : أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فى المساجد . وضربها قائمة والنساء يضرين قعوداً . وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه غير حد واحد ، فلا يجمع بين حدين . والمجنونة ليس عليها حد . وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيان ..

وذهب ابن أبى ليلى إلى الخليفة يشكو أبا حنيفة ، واتهمه بأنه لا يفتأ يبينه ، ويظهره للناس بمظهر الجاهل ، وفى ذلك إهانة للخليفة نفسه لأن ابن أبى ليلى إنما عن الخليفة فى القضاء ويحكم بين الناس !..!

وأصدر الخليفة أمراً بمنع أبى حنيفة من التعليق على أحكام القضاة ، ومنعه من الفتوى .. حتى إذا احتاج الخليفة إلى رأى فى أمر مقلد لا يطمئن فيه إلى فتاوى الفقهاء من متلقيه ، أرسل يستفتى أبا حنيفة ، فامتنع عن الفتوى إلا أن يأذن الخليفة له فى أن يفتى للناس جميعاً . فأذن له .

وعاد يفتى ، وعاد ينتقد الأحكام ! .

وأراد الخليفة المنصور أن يكتب عقداً محكماً فلم يسعفه الفقهاء الذين يصانعونه ، فلجأ إلى ابى حنيفة فأملى العقد من فوره فأزرى الفقهاء من بطانة الخليفة بما صنعه حسداً من عند أنفسهم . ولكن الخليفة زجرهم ، وصرح بأن أبا حنيفة هو أوفقهم الجميع ، وإن كان ليكره مواقفه وآراءه .

وعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها ، أراد أن يحتكما إلى

فقيه ، فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضى القضاة ابن أبى ليلى أو إلى تابعه شبرمة أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور!

وطلبت أبا حنيفة .

وعندما حضر أبو حنيفة أبدى الخليفة رأيه أن من حقه الزواج لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع ، والمتنع من يشاء من الإماء بما ملكت يمينه .

فرد أبو حنيفة : « إنما أحل الله هذا لأهل العدل . فن لم يعدل فواحدة . قال الله تعالى : (فإن ختم ألا تعدلوا فواحدة) . فينبغى علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه .

وضاق الخليفة بفتواه . ولكنه أخذ بها .

وخرج أبو حنيفة إلى داره . فأرسلت له زوجة الخليفة خادما ومعه مال كثير وأعمال من الثياب الفاخرة النادرة ، وجارية حسناء ، وحمار مصرى فاره هدايا لأبى حنيفة .

فقال أبو حنيفة للخادم : « أقرئها سلامى . وقل لها إنى ناضلت عن دينى وقت بذلك المقام لوجه الله . لم أرد بذلك تقربا إلى أحد ولا التمس به دنيا . ورد الجارية الحسنة والثياب والمال والحمار المصرى جميعا .

كان أبو حنيفة لا يقف عند النصوص ، وإنما يبحث فى دلالاتها ، ويحاول أن يواجهه بالأحكام ما يقع من أحداث ، وما يتوقع حدوثه من الاقضية والحالات .

الواقع والمتوقع هما ما كان يعنى باستنباط الأحكام لمواجهتها إن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة أو الإجماع

وكان يناظر الفقهاء ببديهة حاضرة يقلب الرأى على وجوهه ، ويفترض ، ويستقرئ ويستنبط ، ويحسن الخلوص إلى الغاية ، والخلاص من المأزق ، ويلزم المناظر الحجة .

وهومع ذلك يقول : « ربما كان ما قلته خطأ كله ، لا الصواب كله » .

ولقد اقتحم عليه الحلقة فى يوم عدد من الخوارج على رأسهم قائدهم وفقههم ، وكان الخوارج يقتلون مخالفهم . وكانوا يقتلون من أقر على بن أبى طالب على التحكيم . وكان أبو حنيفة يؤيد عليا ويقره على التحكيم . وخبيره شيخ الخوارج بين التوبة أو القتل ، فسأله أبو حنيفة أن يناظره ، فرضى ،

فقال له « فإن اختلفنا ؟ قال الخارجي نحكم بيننا رجلاً .. فضحك أبو حنيفة قائلاً : أنت بهذا تحيز التحكيم . »

فانصرف عنه الخوارج وتركوه سالماً .

وكم من مرة خرج من المأزق بسرعة بديته وسعة حيلته وقوة حجته .. !

ولكنه لم يستطع أن يفلت من مصائد أعدائه من المرتزقة فى بلاط الأمراء ..

كانت صلابته ، واحترام الحكام له ، وإيثارهم إياه على الفقهاء المرتزقة من بطانتهم ، تثير هؤلاء الفقهاء وتحرك حسدهم .. فأوغروا صدور الحكام حتى أوقعوا به . وحاولوا أن يقتصوه بفضائله .

إنه لشجاع فى الحق .. وإذن فلينبصوا له شركا من جسارته وتقواه .. !

إن مواقفه فى تأييد آل البيت لتؤجج غضب الحكام عليه .

ثم كانت آراؤه تزيد سخطهم عليه اشتعالا : فقد نادى بالرأى إن لم يكن هناك نص فى الكتاب أو السنة ، واتجه فى استنباط الأحكام إلى إلحاق الأمور غير المنصوص على أحكامها بما نص على حكمه فى حدود ما يحقق مصلحة الأمة ويتسق مع عرف البلد وعاداته ، إن لم تخالف هذه العادات والأعراف روح الشريعة أو نصوصها .

أما عن مواقفه فى تأييد آل البيت فقد أعلن أن العلويين أولى بالحكم من العباسيين ، وجاهر بالانحياز الى العلويين . ولم يكتف هذا الميل قط ، وظل يذيعه بلا تهييب !

على أن الموقف ليس جديدا عليه . فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أيام الحكم الأموى . وسمى خروج زيد جهادا فى سبيل الله ، وشبهه بيوم بدر وحاول أن يخرج مع الإمام زيد ، ولكن كانت لديه ودائع للناس أراد أن يسلمها لابن أبى لىلى فرفض . ولم يجد أبو حنيفة إلا ماله يجاهد به فأرسل إلى الإمام زيد مالا كثيرا ييريه جيشه ويقويه .

وحين ولى العباسيون أيدهم أول الأمر ، ولكنهم بطشوا بمعارضيهم ، وصادروا حرية الرأى ، ونكّلوا بالعلويين ، ونكّلوا عن العدل الذى بايعهم عليه ، فأعلن عدم رضاه عنهم فى حلقات الدروس .. وكان المنصور قد جمع رؤس العلويين وسجنهم . وصادر أموالهم وأراضيهم ،

ثار العلويون بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله ، فبعث المنصور جيشا ضخما

ليحصد العلويين .

أعلن أبو حنيفة تأييده للثورة ، وبكى مصائر العلويين بعد أن نجح المنصور فى إخماد الثورة والقضاء على قائديها وفتك بأهل المدينة المنورة الذين أيدوا الثورة ..

وكان عبد الله بن الحسن شيخ أبى حنيفة والد محمد النفس الزكية وإبراهيم فى سجن المنصور يعذب حتى الموت ،

وحين مات أعلن أبو حنيفة فى حلقة أن واحدا من أفضل أهل الزمان قد استشهد فى سجنه .
وبكاه وأبكى عليه .

وأما آراؤه التى أشعلت سخط الحاكم وحاشيته عليه فهى تلك التى استنبطها بالقياس حتى لقد اتهمه بعض الفقهاء من خصومه بأنه يفضل القياس على الحديث .

وما كان هذا صحيحا فقد رأى أبو حنيفة ظاهرة خطيرة ، فأراد أن ينبجود دينه منها ، وينجى معه الناس : ذلك أنه خلال الصراعين السياسى والاجتماعى ، انتشر وضع الحديث خدمة لهذا الجانب أو ذلك ، وتأييدا لهذه المصلحة أو تلك ، فوقف أبو حنيفة من الحديث موقف أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق .. تحرى الرواة وصدقهم ، وتحرى معانى الأحاديث ، ورفض منها ما يشك فى صدق روايتها وتقواهم ، أو ما يخالف نصا قرآنيا ، أو سنة مشهورة ، أو مقصدا واضحا من مقاصد الشريعة . وقد فحص الأحاديث الموجودة فى عصره وكانت عشرات الآلاف فلم يصح فى نظره منها إلا نحو سبعة عشر .

وذهب إلى أن القياس الصحيح يحقق مقاصد الشارع ، ويجعل الأحكام أصوب وهو خير من الاعتماد على أحاديث غير صحيحة .. وللقيام ضوابط هى تحقيق المصلحة وهذا هو هدف الشريعة .

لقد كان تخرج أبى حنيفة وذمته وتقواه هى العوامل التى دفعته إلى الحذر فى قبول الأحاديث إذا شك فى صحتها على أى نحو ، وكان عليه إذن أن يجد طريقا آخر لاستنباط الأحكام الجديدة قياسا على أحكام ثابتة فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة أو أقوال الصحابة السابقين من أهل الفتيا كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود .. وكان عبد الله بن مسعود يفضل أن يفتى باجتهاده بدلا من أن يسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا لا يرى عين اليقين أنه حديث صحيح .

وقد جد فى عصر أبى حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال ، بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور ، وظهور ألوان كثيرة خصبة من النشاط التجارى والاجتماعى ، وواجه الإمام هذا كله بالاجتهاد

لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات

وما كان يبتدع في قياسه كما رماه خصومه ، وما كان يهدر السنة كما حاول ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيداً له ، بل كان منهجه هو قياس « المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة .. فيجتهد » . وقد لخص هو منهجه في استنباط الأحكام في وصية لأحد تلاميذه من تولوا القضاء .. قال : « إذا أشكل عليك شيء فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، وإن لم تجده ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه بالأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

وقاده هذا الاجتهاد إلى عديد من الآراء الحرة : الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، في عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلى حريم للمتاع !

فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها .. وهى حرة فى اختيار زوجها

كما أفتى بعدم جواز الحجر على أحد ، لأن فى الحجر إهدار للآدمية وسحقاً للإرادة ..

وأفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين ، حتى لو استغرقت الديون كل ثروته . لأن فى هذا مصادرة لحرية ..

وفى كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأذى قيد ، أفتى الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها ، لأن فى ضياع حرية الإنسان أذى لا يعده أذى ..

لقد أفتى بكل ما ييسر الدين والحياة على الإنسان فذهب إلى أن الشك لا يلقى اليقين ، وضرب لذلك مثلاً بأن من توضحاً ثم شك فى أن حدثاً نقض وضوءه ، ظل على وضوءه ، فشك لا يضيع يقينه .

وأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يمنع المالك من التصرف فى ملكه .

ولا يحق لأحد أن يحكم على مسلم بالكفر ما ظل على إيمانه بالله ورسوله حتى لو ارتكب المعاصى .
ومن كفر مسلماً فهو آثم .

وأفتى بأن قراءة الإمام فى الصلاة تغنى عن قراءة المصلين خلفه ، فتصح صلاتهم دون قراءتهم إكتفاء بقراءة الإمام وحده

ولقد أثار هذا الرأي بعض الناس ، فذهبوا إلى الإمام ليحاوروه فى رأيه فقال لهم « لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم » فاختاروا واحدا منهم ليتكلم عنهم . وسألهم أبوحنيفة إن كانوا يوافقون على أنه إذا ناظر من اختاروه يكون قد ناظرهم جميعا ، فوافقوا ، فقال لهم أبوحنيفة : « وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو يوتوب عنا » فانصرفوا مقتنعين .

ودعا إلى ضرورة العفو عن المخطئ إن لم تثبت عليه أدلة الإدانة ثبوتا قطعيا لا يشوبه الشك أو الظن ، اعتمادا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بدرء الحدود قدر المستطاع . . فالحدود تدرأ بالشبهات « فإن كان للمذنب مخرج أخلى سبيله . وأن يخطئ الإمام فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة » .

وهو يطالب الناس بأن يسألوا فى العلم بلا حرج ، على أن يُحسنوا السؤال . وكان يقول : « حسن السؤال نصف العلم »

وهو فى اجتهاده يعرف مكانته ، إن كان واثقا بنفسه ، معتزا بكبريائه العلمى على الرغم من تواضعه الشديد .

ولقد سئل : « إذا قلت قولاً وظهر خبر لرسول الله يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بخبر رسول الله وكل ما صح عن رسول الله فهو على العين والرأس . فقال السائل : فإذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ » . قال : أترك قولى بقول الصحابى « فقال السائل : » فإذا كان قول التابعى يخالف قولك ؟ . قال أبوحنيفة : « إذا كان التابعى رجلا فأنا رجل » .

ويروى عنه أنه ذهب إلى المدينة المنورة فجادل الإمام مالك بن أنس يوما فى أمور اختلفا عليها وحضر المناظرة الإمام الليث بن سعد إمام مصر وهو الإمام الذى عاش فى عصر الإمام جعفر الصادق وأبى حنيفة والإمام مالك وقال عنه أحد الفقهاء المتأخرين إنه حقا أفتى الناس ولكن المصريين أضاعوه فلم يحفظوا فقهه واستمرت المناظرة طويلا حتى عرق الإمام مالك . وعندما خرج أبوحنيفة قال مالك لصديقه الليث : إنه لفقيه يا مصرى !

قام فقه الإمام أبى حنيفة على احترام حرية الإدارة ذلك أن أفدح ضرر يصيب الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها . . وكل أحكامه وآرائه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا ، وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها . !

فإساءة الفتاة البالغة فى اختيار زوجها أخف ضررا من قهرها على زواج بمن لا تريده . وسوء

استخدام السفية ماله ، يمكن علاجه بإبطال التصرفات الضارة به ، أما الحجر على حرته فهو إهدار لإنسانيته ، وهو ضرر لا يصلحه شيء !! وعلى أية حال فأذى الحجر أخطر من أذى ضياع المال - فالحجر إيداء للنفس ، وإهدار للإرادة ، واعتداء على إنسانية الانسان !!

وأبو حنيفة لا يبيح الوقف إلا للمساجد لأن الوقف أو الحبس يقيد حرية المالك في التصرف .. بل إن الإمام إمعانا منه في الدفاع عن الحرية لا يبيح للقاضي أن يقيد حرية المالك ، حتى إذا أساء التصرف على نحو يهدد الغير .. وهو يطالب بأن يترك هذا كله للشعور بالتعاون الاجتماعي الذي يجب أن يسود أفراد الأمة .. فيحترم كل منهم حرية الآخرين ، ويمارس حرته بما لا يمس مصالح الغير أو حرته هذا أمر يجب أن يترك للناس فيما بينهم ولا سبيل للحاكم أو القضاء إلى التدخل لتقييد حرية المرء في التصرف مهما يكن من شيء !

ولقد جاءه رجل يشكو جاره لأنه حضر بثرا بجوار جداره مما يؤثر في بيت الشاكي ، فطلب أبو حنيفة من الشاكي أن يحدث جاره ليردم البئر ، ويحفرها في مكان آخر ، فقال الرجل : « حدثته فامتنع ظالما » . فقال أبو حنيفة : « فاحضري دارك بالوعدة في مقابل بثره » وفعل الرجل ، فاندفع ماء البئر إلى البالوعة ، فاضطر الجار أن يردم البئر ، ويحفرها في مكان بعيد عن جدار الشاكي .

وهكذا مضى أبو حنيفة يوضح للناس ما في تعاليم الإسلام من احترام للحرية والإرادة ، معتمدا على الكتاب ، والسنة الصحيحة ، والرأي الذي يستنبطه بالقياس ، مراعيًا تحقيق المصلحة ، أو الأعراف التي لا تتعارض مع قواعد الإسلام ومبادئه

وقد أغنت آراؤه في الفقه وجدان الناس ، وأيقظت ضمائرهم ، وحركتهم للدفاع عن حرياتهم في التصرفات ، متمسكين في ممارستهم للحرية بمبادئ الدين وأصوله ..

وكانت هذه الآراء كلها تناقض روح العصر الذي عاش فيه وهو عصر يقوم نظام الحكم فيه على تكفير الخصوم ، وإهدار دمائهم ، وتقييد الحريات ، وإطلاق يد الحاكم ، وتمكين ذوى السطوة من الضعفاء .

من أجل ذلك اتهمه خصومه من الفقهاء أصحاب المناصب بالخروج عن الاسلام ..!

ثم إنه أفتى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم .

وهذا صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضى آرائهم !

ومن ذلك ان الحسن بن قحطبة أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأله : « أيتوب الله على ؟ »

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين فقال له أبو حنيفة: «إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لا اخترت ذلك على قتله، وتجعل مع الله عهدا على ألا تعود لقتل المسلمين، فإن وفيت فهي توبتك»، فقال القائد إنى فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم» ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم، فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأي فقال له أبو حنيفة «فقد جاء أوان توبتك. إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب وإلا أُخِذت بالأول والآخر».

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور، وسلم نفسه إلى العقاب وهو القتل، إذ دخل على المنصور فقال انه لن يقتل المسلمين بعد! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله، حتى استشفع له أخوه قائلا «إننا لننكر عقله منذ سنة، وأنه قد جن»

وسأل الخليفة عمن يخالط القائد المتمرد فقيل: إنه يتردد على أبي حنيفة!

وأسرها الخليفة لأبي حنيفة.

على أن خصوم أبي حنيفة انتهزوا الفرصة فأوغروا صدر الخليفة وأوحوا إليه أن يقضى على أبي حنيفة واتهموه بإثارة الفتنة، وتشبيط قواد الجيش، وتأليب العامة على ولى الأمر، وتكوين حلقة من الفقهاء كلهم يدعو إلى الثورة على الخليفة.

وكان من هؤلاء الخصوم فقيه أفتى للناس بأن تلاميذ أبي حنيفة خارجون على ولى الأمر ومرتبون عن الإسلام فأن يقال إن بالحنى خَمَاراً خيراً من أن يقال إن فيه أحداً من أصحاب أبي حنيفة..

وكان منهم فقيه آخر عرف وهو فى الحج أن أحد أصحاب أبي حنيفة سيصلى بالناس فلم يستطع كظم غيظه وصاح: «الآن يطيب لى الموت»..!

ورفض أبو حنيفة أن يقبل المناصب.. عرض عليه الأمويون منصب القاضى، فرفضه فسجنوه وعذبوه فى السجن.. وظلوا يضربونه كل يوم بالسياط حتى ورم رأسه.. ومع ذلك فلم يقبل المنصب.. لأنه كان يرى أن تحمل المسؤولية فى عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين معتصبين، إنما هو مشاركة فى الظلم وإقرار للاغتصاب..

وفى السجن تذكر أمه الحزينة فبكى.. وسأله جاره فى السجن عما يبكيه وهو الفقيه الجليل الصلب، فقال من خلال دموعه: «والله ما أوجعتنى السياط.. بل تذكرت أمى فألكنتى دموعها..»

وساءت صحته فى السجن . وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموى احتجاجا على ما يحدث
لأبى حنيفة فأطلق سراحه

ولم يعد له مقام فى الكوفة التى شهدت عذابه .. فترك مسقط رأسه ، ومرح شبابه ، بكل ما فيها من
ذكريات عزيزة وآمال عذبة ، وأقام بالحجاز حتى سقطت الدولة الأموية ، فعاد إلى موطنه !

ولكن العباسيين لم يتركوه .. قنذ شعربخيبة الأمل فيهم لبغيم واضطهادهم للعلويين ،
واضطناعهم المرتزقة من الفقهاء ، بدأ يجهر برأيه فى استبدادهم وطفيانهم .

ورفض كل هداياهم ، كما رفض هدايا الأمويين من قبل .

وعرضوا عليه منصب قاضى القضاء فأبى .. وتمسك بالتفرغ للعلم

قالوا له أنه قد حصل من العلم ما يجعله فى غنى عنه فرد : « من ظن أنه يستغنى عن العلم فليترك
على نفسه .

بعد أن فرغ من بناء بغداد ، وأقام فيها معتزا بها ، حرص على أن يجعل أكبر فقهاء العراق قاضى
القضاة فيها . وكان أبو حنيفة قد أصبح أكبر الفقهاء بالعراق حتى سماه أتباعه ومريدوه : الإمام
الأعظم . ولكن الإمام صمم على الرفض .

كان يعرف ما ينتظره .. فابن أبى ليلى لا يكف عن الكيد له ، وهو لا يغفر لأبى حنيفة ما يوجهه
من نقد لاذع لأحكامه .

وقد ضم ابن أبى ليلى إليه حاجب الخليفة ووزيره الأول ، وكان أبو حنيفة قد أخرجته وكشف
أكاذيبه أمام الخليفة فى محاولة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام ففضحه الإمام وأفسد حيلته .

وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصح شهادته لأنه يقول للخليفة أنا عبدك « فإن صدق فهو عبد
ولا شهادة له . وإن كذب فلا شهادة لكاذب » !!

وقد أخذ أحد تلاميذ أبى حنيفة بهذا النظر فميا بعد حين ولى القضاء فرد شهادة الوزير الأول للخليفة
آخر ، لأنه قبل الأرض بين يدى الخليفة قائلا له : أنا عبدك !

اتسعت الفتوحات حتى أصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة إسلامية ، وحتى ارتفعت الراية
الإسلامية فوق شرق أوروبا وجنوبها والأندلس ، وكل بلاد العالم التى عرفها إنسان ذلك العصر ..

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة ، فقد شغل رجال الحاشية بالكيد لأبي حنيفة يظاهروهم بعض الفقهاء أصحاب المناصب وأهل الحضرة عند الخليفة .

وأخذ الوزير الأول يكيده عند الخليفة لأبي حنيفة . وانتهاز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة ، وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم . وأرسل الخليفة إلى ابن شبرمة وابن أبي ليلى ليسألها رأى الدين في أهل الموصل ، وكان قد أعد جيشا للفتك بهم . واقترح الوزير الأول على الخليفة أن يدعو أبا حنيفة وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأى الخليفة . وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع في أهل الموصل . وسكت أبو حنيفة وأفتى الآخران بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم !! .

وأفتى أبو حنيفة بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل ، لأنهم بإباحتهم أرواحهم وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون .

وسأل : « لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها ؟ فقال له الخليفة « لا » .. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه ، وأن يوجه الجيش إلى حماية الثغور ، أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام ، بدلا من أن يضرب به المسلمين .

وضاق به الخليفة وأمره أن ينصرف .. ومن حول الخليفة أعداء الإمام يستفزون للبطش به وفي مقدمتهم ابن أبي ليلى قاضى القضاة وتابعه شبرمة

ومضى أبو حنيفة إلى داره وهو يقول لصحبه : « إن ابن أبي ليلى ليستحل منى مالا أستحله من حيوان ! »

وفي الحلق أن ابن أبي ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة فى قصر الخليفة زينت للخليفة أن يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب ، فإذا أبى فقد امتنع عن أداء واجب شرعى فحق عليه العقاب ، ووجب أن يشهره فى الأمة ، لأنه يتخلى عن خدمتها ! .

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاهه ، فيرسل إليه هدية

وكانوا يعرفون سلفا أن الإمام أبا حنيفة لن يقبل الهدية .. !

وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية .. فرد الهدية شاكرا ..

ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون مفتيا للدولة يرجع إليه القضاء فيما يصعب عليهم القضاء فيه .. بما أنه يكثر من لوم القضاة على أحكامهم ، ويكشف للعامة جهل شيخهم

ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة !

ورفض أبو حنيفة .. فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له : « والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني فى الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق . ثم إن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك . »

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة ، وعلى رأسها وزيره الأول والفقهاء ابن أبى ليلى وابن شبرمة ، فأبدوا التذمر وبان عليهم استنكارا ما يقوله الإمام أبو حنيفة ، فقال الخليفة عنقا : « كذبت » .

فقال أبو حنيفة فى هدوء قد حكمت على نفسك . كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كاذب !؟

وبعد قليل سأله الخليفة عن سبب رفض هداياه .. فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال المسلمين ولا حق فى بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين فى الدولة بأجر وهو ليس واحدا من هؤلاء ! فأمر الخليفة بحبسه . وبضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضى قضاة بغداد .

وها هو شيخ فى السبعين أثقلته المعارك والدماسخ والهموم ، ومكابدة الفقه والعلم والتخرج .. ها هو ذا يضرب ، و يظل يضرب بالسياط فى قبوسجن مظلم ، ورسل الخليفة يعرضون عليه هدايا الخليفة ، ومنصب القضاء والإفتاء .. وهو يرفض .. فيعاد إلى السجن ليعذب من جديد .. ويكررون العرض ، وهو يكرر الرفض داعيا الله : « اللهم أبعد عنى شرهم بقدرتك » .

وظل فى سجنه يعرضون عليه الجاه والمنصب والمال فىأبى .. ويعذب من جديد ! وتدهورت صحته ، وأشرف على الهلاك .

وخشى معذوبه أن يخرج فيروى للناس ما قاسى فى السجن ، فيثور الناس ! وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم ،

وأخرجوه وهو يعانى سكرات الموت ، وما عاد يستطيع أن يروى لأحد شيئا بعد !!

وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن فى أرض طيبة لم يفتصبها الخليفة أو أحد رجاله . وهكذا مات فارس الرأى الذى عرف فى السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم .

وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق واضطر الخليفة أن يصلى على الإمام الذى استقر الى الأبد فى ركن هادئ من الدنيا لم يشبه غضب ، والخليفة بهمهم : « من يعذرنى من أبى حنيفة حيا وميتا ؟ » .

وهكذا مضى بطل الفكر الشجاع شهيدا لحرية الرأي فى محنة من العذاب لم يعرفها أحد من الفقهاء من بعده حتى كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة .. فى عصر زرى كذلك العصر .. عصر تحككه الدسائس والسموم وسياط الجلادين ، على الرغم من روعة الفتوحات العسكرية ، وانتصارات العقل الإنسانى ، ويطش فيه المزيفون برهبان الحرية وفرسان الفكر ..

وتنظل المنارات الشاعمة فيه مضيئة على الرغم من كل شيء ، تقدم للإنسانية جيلا بعد جيل عطاء خالدا من شعاع المعرفة ، والقوة ، وجسارة الكلمة الصادقة الأبية الفاضلة .. !

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

عاشق المدينة.. وإمام الحرمين

اجتمعت الاسرة الصغيرة ذات مساء ، كما تعودت بعد كل صلاة عشاء ، تتذاكر أمور الحياة والدين ، فيحكى الأب عما صادفه وجه النهار فى متجره الصغير الذى يبيع فيه الحرير،وعما عرض له خلال البيع والشراء من واقعات ، ويشرح لأولاده ولأم البنين ما حفظه عن أبيه عن جده الصحابى من أحاديث وآثار، ويأخذ الأسرة باستيعاب ما يقول .

وفى تلك الليلة ألقى الأب سؤالاً فى الدين على أفراد أسرته فأحسنوا الإجابة الا ولده الاصغر مالكا ..

كان فى نحو العاشرة ، قد حفظ القرآن وبعض الأحاديث ، وامتألت آفاقه بنور الكلمات ، ولكن عقله لم يكن قد استطاع أن يعى ما فيها .. وكان مالك لنضارة سنه يجب أن يرتع ويلعب .

وغضب أنس على ولده الصغير مالك لأنه أخطأ فى الإجابة على سؤال فى الدين ، ونهره لأنه مشغول باللعب مع الحمام ، وهذا يلهيه عن العلم ! .

وبكى الصبى كما لم يبك من قبل ، وفزع إلى أحضان أمه يسألها الحماية والنصيحة ، ويستعينها على ما هو فيه .

ونشطت أمه من غدها بعد صلاة الفجر فأدخلته الحمام ، وطيبته وألبسته أحسن ثياب وعممته ، ودفعت به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتقى العلم ، واختارت له حلقة « ربيعة » من بين سبعين حلقة تلتف حول أعمدة المسجد النبوى يقوم عليها سبعون من أساطين العلم .. « ربيعة » هو حينذاك أكبر فقيه يجتهد رأيه ليستنبط الحكم عندما لا يجده فى نص قطعى الدلالة .. وهو أكثر العلماء دعوة إلى الاجتهاد والأخذ بالرأى من أجل ذلك سمي ربيعة الرأى .

و يتعمود الصبى بعد ذلك طيلة حياته أن يستحم و يتطيب و يلبس خير ثيابه كلما جلس يتعلم أو ليعلم ؛

ولكم عجب رواد المسجد لذلك الصبى الأشقر يفوح منه الطيب فى عمامة الشيخ وهو يسك بلوح يكتب فيه كل ما يقوله « ربيعة » و يشرب بعينيه وأذنيه مسائل صعبة من اجتهاد ربيعة الذى لم يكن يروى أحاديث يمكن أن تحفظ ، بل يلقى بفتاوى واستنباطات يحتاج فهمها إلى عقل ناضج ، ورأس كبير جدير بالعمامة التى يحملها .

ومنذ ذلك اليوم من أوائل القرن الثانى للهجرة أخذ مالك نفسه بالمشقة فى طلب العلم ..

نصحته أمه أن يذهب إلى المسجد النبوى ، فيجلس إلى « ربيعة » ليأخذ من علمه قبل أذبه .. وكان ربيعة مشهورا فى المدينة بفقته الرأى .. ولكن الصبى لم يعكف على ربيعة وحده ، فقد بهر ما فى الحلقات الأخرى من فنون المعارف .. فتنتقل بين حلقات الفقهاء .. يحفظ القرآن و يصنع إلى تفسيره فى هذه الحلقة أو تلك .. ثم ينتقل إلى حلقات أخرى فيحفظ منها الأحاديث النبوية و يستوعب تأويل الأحاديث . و يتلقى فتاوى الصحابة من شيخ ، والرد على ما يثار من أفكار وآراء فى العقائد من شيخ آخر .. ثم يعود إلى ربيعة أو غيره من الشيوخ الذى يجد لديهم علما أغزر .

كان يحمل معه حشيه تقيه برد المسجد إذا كان الشتاء ، وما كان يكتفى بما يتعلم فى المسجد بل يلتمس الشيوخ دورهم يستزيد من علمهم و يصبر على ما فى بعضهم من حدة .. ولقد ينتظر أحد الشيوخ فى الطريق ساعات ما يجد فيها شجرة تقيه الهاجرة حتى إذا رأى الشيخ يعود إلى داره انتظر لحظة ثم قرع عليه بابه . ولقد يملا أكمامه بالتمر يديه لجارية أحد الفقهاء لتمكنه من الخلوص الى المعلم المنشود .

وكان مالك إذا جلس ليستسمع للأحاديث وهو صبى يحمل معه خيطا فيعقد مع كل حديث عقدة .. حتى إذا كان آخر النهار ، أعاد على نفسه الأحاديث وعد العقد ، فإن وجد نفسه قد نسى شيئا قرع باب شيخه الذى سمع منه الأحاديث فيحفظ منه ما نسى .

انقطع مالك لطلب العلم ، ومات عائلته وشب الفتى وأصبح عليه أن يعول نفسه وزوجته و بنته .. وكانت به تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن أبيه ، ولكنه كان مشغولا عنها بطلب العلم فكسدت تجارته ، واضطر إلى أن يبيع خشبا من سقف بيته ليعيش هو وأسرته بضمنه ، وكان الجوع يعضه و بعض زوجته وابنته فتصرخ الطفلة من الجوع طيلة ليلها . فيدير أبوها الرحى ولا يسمع الجيران صراخها ..

ولما قد بلغ أوج شبابه ، وجد نفسه عاجزا عن توفير ما يكفى أهل بيته إلا أن يضحي بطلب العلم ..

فانفجرت أول صرخاته اجتهاده وناشد الحاكمين أن يمتنعوا أهل العلم من التفرغ للعلم ، وأن يجروا عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة ..

غير أن أحدا لم يلتفت إليه ، فقد كانت الدولة الأموية التي عاش شبابها في ظلها مشغولة بتثبيت أركانها ، وبتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم .

والتقى به في تلك الفترة طالب علم شاب من أهل مصر هو الليث بن سعد .. كان قد ألف أن يحج ما بين عام وعام و يزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء في الحرم النبوي ، وقد أعجب كل واحد منها بذلك صاحبه ونشأت بينهما علاقة احترام متبادل ، وألقى الله في قلبها مودة ورحمة ... ولاحظ الليث بن سعد أن صديقه - على الرغم من أناقة ثيابه ونظافتها ، وعلى الرغم من رائحة المسك والطيب التي تسبقه فقير جهد الفقر ، وإن كان ليأدى فقره تعففا وإباء ! ..

وكان الليث واسع الغنى ، ففتح صاحبه مالا كثيرا وأقسم عليه أن يقبله .

وعاد الليث إلى وطنه مصر وظل بها يصل صاحبه مالك بن أنس بالهدايا بالمال ، حتى أصلح الله حال مالك ووجد من الخلفاء من يستجيب إلى نداءه المتصل أن تجرى الرواتب على أهل العلم .

ولقد سئل مالك عن عدم السعي في طلب الرزق والانقطاع إلى العلم فقال :
« لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حال . ومن طلب هذا الأمر صبر عليه » .

وفى الحق أنه ظل طالب علم بعد أن أصبح فقيها كبيرا يسعى إليه الناس من كل أقطار الأرض وإلى أن توفي سنة ١٧٩هـ وهو في نحو السادسة والثمانين

ولقد ظل يعلم الناس ، عندما جلس للعلم ، أن يتخرجوا في الفتيا وفي إبداء آرائهم ، فإذا كان الفقيه غير مثبت مما يقول فعليه في شجاعة أن يعترف بأنه لا يدري . ذلك أن الفتيا لون من البلاء لأهل العلم .

فن حسب نفسه قد أوتى العلم كله ، فهو الجاهل حقا .. وشر الناس مكانا هو من يضع نفسه في مكان ليس أهلا له . وإن رأى الناس غير ذلك ، فصاحب العلم أدرى بنفسه ، وللرأى أمانته .

ويحكى أن رجلا جاءه من أقصى الغرب موقدا من أحد فقهاها ، ليسأل مالك بن أنس عن مسألة .. فقال مالك : « أخبر الذي أرسلك ألا أعلم لى بها » فأخبره الرجل أنه جاء من مسيرة ستة أشهر ليسأل عن هذه المسألة . فقال مالك : « ما أدرى وما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا وما سمعنا

أحدنا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود غدا» . وظل مالك يفكر فى المسألة ويقرأ ما يمكن أن يتصل بها حتى إذا كان الغد جاءه الرجل فقال له مالك : « سألتنى وما أدرى ماهى » فقال الرجل « ليس على وجه الارض أعلم منك وما جئتك من مسيرة أشهر إلا لذلك » فقال مالك : لأحسن .

هذه الأناة والتحرج كان مالك يعالج الفتيا .

ولقد عاش، فى المدينة المنورة طيلة حياته منذ ولد فيها نحو سنة ٩٣ هـ إلى أن توى تحت ثراها آخر الدهر . لم يبرحها قط إلا لحج أو عمرة ..

كان مالك يجد فى المدينة ريح النبوة ، ونفحات علوية من أنفاس الرسول حتى لكأنه يستنشق كل خفقه من أنسام مدينة الرسول جلال الأيام الباهرة الخالية : أيام النور والوحى والبطولات والفرقان .

وما زال أهل المدينة يصغون كما كانوا يصغون فى زمن رسول الله « صلى الله عليه وسلم » والصحابة الأوائل .. إنهم ليتوارثون سنته الشريفة فى القول والعمل الآباء عن الاجداد .. آفا عن آلاف حتى لقد صح عنده أن عمل أهل المدينة فى عصره سنة مؤكدة ، وأنه أولى بالاعتبار عند الفتيات والقضاء من أحاديث الآحاد ..

إنه لعاشق لمدينة رسول الله كما لم يعشق أحد مدينة من قبل ولا من بعد ، يكاد يحملها من التعظيم ما يحمله للرسول « صلى الله عليه وسلم » نفسه ولصحابته . حكى الشافعى أنه رأى على باب مالك هدايا من خيل خراسانية وبغال مصرية فقال الشافعى « ما أحسن هذه الأفراس والبغال » فقال مالك : « هى لك فخذها جميعا » قال الشافعى : « ألا تبقى لك منها دابة تركبها ؟ » قال مالك : « إنى لأستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة » .

وفى الحق أن الحياة فى المدينة كانت تناسب طبيعة مالك .. فقد ظلت المدينة بعيدا عن مضطربة التيارات الفكرية التى تصطبغ غيرها من مدائن المسلمين ، فهى تعيش على السنن المتوارثة وتناهى بنفسها عن صراع العقائد ، والجدل الفلسفى ، وكلام الباحثين فيما وراء الغيب ، وكل ما أنتجته ترجمة الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية إنها حقا قرية مؤمنة ورب غفور .. ومالك بن أنس رجل يحب الدعة وينشد السكينة ، ويعكف على الدرس المطمئن . وهويكره الجدل واللجاج والصخب والمناظرة ، والكلام فيما لا ينفع الناس فى حياة كل يوم .

وكان يقول لمن سافر لمن يريدون الجدل فى العقائد « تجادلوا .. وكلما جاء رجل أجدل من

رجل تركنا مانزل به جبريل ، وغير الإنسان دينه .» .

وكان مالك لا يجب أن يخوض غمرات الصراع السياسى .. وكانت المدينة بالقياس إلى غيرها من بلاد المسلمين أكثرهن بعدا عن الثورات والفتن ومناهضة الحكام .

ولقد بلغ نفوره من الجدل حدا جعله يصد عنه هارون الرشيد عندما لقيه فى المدينة وطلب منه أن يناظر أبا يوسف صاحب أبى حنيفة .

فقال مالك مغضبا : « إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة ..» .

كان مالك يعتقد أن الجدل فى الدين مفسدة للدين . وقال : « إن الجدل يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين . إن المراء والجدل فى الدين يذهبان بنور العلم من قلب المؤمن « وسئل « رجل له علم بالسنة ألا يجادل عنها ؟ فقال « يجبر بالسنة فان قبل منه ، والا سكت .»

على أن الافكار الجديدة اقتحمت على مالك وأهل المدينة حياتهم ، وفرضت عليهم النظر فيها ، فقد كان أصحابها يذهبون إلى الحجاز للحج والعمرة وللزيارة .. وكان على مالك وأهل العلماء فى المدينة ان يناظروا فيما هو مطروح من أفكار وكلام . صفات الله . كيف يرى يوم القيامة وخلق القرآن .. والقدر والجبر والاختيار . وفرضت القضايا نفسها على فقهاء الحجاز .. أما مالك فقال : « الكلام فى الدين أكرهه وأنبى عنه ولم يزل أهل بلدنا (المدينة) يكرهونه وينهون عنه .. نحو الكلام فى القدر والجبر ونحو ذلك ولا أحب الكلام الا فيما تحته عمل . « وما تحته عمل من الدين هو ما يفيد الناس فى دنياهم وآخرتهم .. هو الفقه الذى يحكم أعمال الناس و يرد الفروع إلى الأصول . أما العقائد فقد نهى عن الجدل فيها وقد فسر مالك كل آية تتحدث عن العداوة — والبغضاء التى تقع بين عباد الله ، بأنها الخصومات للجدل فى الدين .

وكان مالك يتساءل عن جدوى هذه الأفكار المبتدعة عن ذات الله وصفاته والجبر والاختيار؟ وخلق القرآن ؟

وما عساها تحقق من مصالح أو تدفع من مضار؟

إنه لأولى بأهل العلم أن يشتغلوا بالحكمة ... والحكمة التى جاءت كثيرا فى القرآن هى — فى رأى مالك — فى دين الله والعمل به ..

ولقد أطلق مالك على أصحاب الكلام فى العقائد والجبر ونحو ذلك من أصحاب بدع وقال عنهم إنه

معارف أشد منهم سخفا ولاحقا.. فما جدوى الكلام فيما يتكلمون فيه؟ ماذا يحقق جدل كهذا من مصالح للعباد؟..

إن المعتقادات يجب ألا تكون موضع كلام وعلى المسلم العاقل أن يسلم بها تسليما مطلقا، وإن يجعل همه إلى ما وراء ذلك مما ينفع الناس، ويكث في الأرض يدفع عنهم الضرر والمفاسد، ويضبط لهم علاقاتهم وحياتهم ومعاشهم بما يستتبط به من أحكام الشريعة

فليسأل أهل العلم أنفسهم ما هو مقصد الشريعة الإسلامية وما هدفها؟... وليتقوا الله حق تقاته وهم يجيبون على هذه المسألة... أهو في الشريعة الإسلامية أن يتخاصم الناس و يتمارون حول القدر ونخلق القرآن ورؤية الله والجبر والاختيار؟... وهذا تنصرف العقول عن التفكير فيما ينفع الناس؟.. لا بل إن هدف الشريعة هو إقامة العمران في هذا العالم وتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة..

من أجل ذلك فقد وجب على العلماء والفقهاء أن يبصروا الناس بما يحقق المصلحة ويقم عماره العالم. وبما يدراً عنهم المفاسد وبما يضبط أمورهم على أركان ركنية من العدل والتقوى وصلاح الأمور.

والأحكام التي تحقق مقاصد الشريعة منصوص عليها في القرآن والحديث، ويجب التعرف عليها بكل طرائق الفهم والتفسير، وتدبر ما وضع وما خفى من دلالات النصوص، فإن لم يسعف النص في مواجهة ما يستجد من أحداث، فليتنظر الفقيه في إجماع الصحابة ليستخلص الحكم، ففي إجماع الصحابة حجة كالسنة المؤكدة، فإن لم يجد الفقيه ما يشفى فليتنظر في عمل أهل المدينة لانهم تلقوه آلاف عن آلاف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته.. فإن كان ما استجد من قضايا لاحكم له عند أهل المدينة فليقس الفقيه ليطبق على القضية الجديدة حكم قضية سابقة واورد به نص إن توفرت العلة في القضيتين فإن تعارض هذا القياس مع مصلحة فليفضل الحكم الذي يحقق المصلحة استحسانا له.. فهو الأحسن. وإن لم يسعفه القياس فليتنظر في عرف الناس وعاداتهم إن لم يكن مخالفا لما أحله.. فإن لم يجد فليتنظر أين المصلحة.. وليجعل تحقيق المصلحة هو مناط الحكم.

على أن مالك بن أنس لم يوفق إلى هذه الأفكار و يدلى إلا بعد أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها..

فها هو ذا مالك بن أنس تجرى به السنون لتعدو الأربعين، وقد يلزم الفقهاء نحو ثلاثين عاما، فتلقى عنهم الأحاديث النبوية، وعصها وحقق إسناده وتدارس معهم ما ينبغي لاستنباط الأحكام التي تواجه قضايا لم تعرض من قبل، وتعلم منهم الكتاب والحكمة، وتفكر في خلق السموات والأرض وأحوال العباد، وتدارس معاملات الناس، فتكون له رأى خاص، واستقل بنظره في كل أمور الدنيا

والآخرة اتبع في بعضه السنة وأفكار السلف الصالح وعمل أهل المدينة وأعرافها وعاداتها .

واستنبط الأحكام في بعضه الآخر بما يحقق المنفعة ويدراً المفسدة .

جاء الوقت الذي ينبغي له فيه أن يجلس إلى أحد أعمدة الحرم النبوي ، ويجعل له حلقة خاصة يفتى فيها للناس و يعلمهم مما علم رشدًا و يطرح عليهم ماتكون له من فقهه وما استقر عنده من تأويل الأحاديث .

وكان مالك قبل أن يجلس ليعلم الناس و يفتيهم ، قد اختلف مع استاذه ربيعة ، فرأى مالك أن يستقل بحلقة ، اقترحها عليه مشايخه ، غير أنه لم يفعلها من فوره بل طلب على سبعين من أصحاب الحلقات والشيوخ في المسجد النبوي ، يعرض عليهم فقهه ، و يستأذنهم في أن يجلس ليعلم الناس .

وأجازه له أساتذته لم يختلف على إجازته أحد ، اختار المكان الذي كان يجلس فيه عمر بن الخطاب ليستروح منه جلال الأيام الرائعة الماضية ، حين كان كل الصحابة يعيشون في المدينة المنورة .. أمسكهم فيها عمر لا يبرحونها إلا بإذنه ، لكي يعلموا الناس ، ولكي يستشيرهم إذا احتاج الامر ، ولكيلا يفتن بهم أهل الاقطار الأخرى من حديثي العهد بالإسلام .

وكان أنس بن مالك من قبل . قد اختار سكنا له دار الصحابي عبد الله بن مسعود ، ليخفق منه القلب بنبضات عصر النبوة .. ذلك العصر المضيء بنور الإيمان والمعرفة والشوق المقدس العظيم إلى صياغة عالم جديد من الطهارة والإخاء والتبيل والعدالة والحرية والسكينة والنعيم ..

ولقد أثنى مالك بن أنس داره بأجل أثاث ، وزينها بأحسن زينة وملأ أجواءها بعرف البخور المعطر . ذلك أن الحياة أقبلت عليه .. فنال راتبًا كبيرًا من بيت المال ، ثم توالى عليه هدايا الخلفاء فقد اقتنع الخلفاء برأيه في أن أهل العلم يجب ألا يشغلوا عنه بالسعى في طلب الرزق ، بل يجب أن يكون لهم نصيب من بيت المال ، فينالوا منه رواتب منتظمة كبيرة ، كما ينال قواد الجيش الذين يقومون على حماية الأمة وسد الثغور... فنشر العلم سد للثغور الروحية أمام الجهل ، والتوفير على نشر العلم جهاد . وإذن فينبغي أن يكون لكل من العالم وطالب العلم جزاء المجاهدين كل بقدر ما يكتفيه .

إن العلماء ليحمون أرواح الناس وعقولهم من الضلال ، فن واجب ولى الأمر أن يوفر لهم من المال ما يكفل لهم الحياة الكريمة والمظهر اللائق الحسن كخير ما ينعم به الولاة والأمراء وحماة الثغور .

على أنه كان يقدق من راتبه وما يتلقى من هدايا على الفقراء من طلاب العلم يعطيهم ماتيسر من المال ويطعمهم أشهى طعام .. وكان حفيًا بما كله يختار الأطياب من كل صنف وكان مولعًا بالفاكهة وخاصة الموز ويقول عنه : « لاشيء أكثر شها بثمرات أهل الجنة منه ، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلا

وجدته .. قال تعالى «أكلها دائم وظلها» .

وكان يحض تلاميذه على الاهتمام بحسن التغذية ، فالغذاء الجيد يبني الجسم السليم ..
والعقل السليم فى الجسم السليم . ومكاييد العلم تحتاج إلى عقول نشطة تصونها أجساد قوية ..

وهكذا عاش منذ بدأ يجلس للإفتاء والتدريس : جسد قوى ، وعقل نفاذ .. طعام حسن
ومسكن جيد وثياب أنيقة بيضاء من خير ماتنتجه مصر وخراسان وعدن .

وألف الناس كلها دخلوا المسجد النبوى بعد صلاة الفجر أن يجدوا رجلا مهيبا طويلا فارعا أشقر ،
أبيض الوجه ، واسع العينين ، أشم الأنف ، كبير اللحية ، مفتول الشارب ، يتخذ مكانه فى هدوء ،
ويتحدث فى صوت عميق صادق مستندا إلى عمود ومن حوله حلقة من تلاميذه ، كأن على رؤوسهم
الطير . فإذا دخل غريب وألقى السلام لم يرد عليه أحد إلا همسا .. فإذا سأل ما هذا ؟ قيل له فى صوت
خفيض إنه الإمام مالك بن أنس .

فقد كان يفيض إذا تكلم ، وينفذ بصدقه إلى القلوب .. ولم يكن جهير الصوت ، فكان تلاميذه
يكادون يسكون بأنفاسهم لكيلا يفوتهم حرف مما يقول .

وكان قد خصص أياما لشرح الأحاديث النبوية الشريفة ، وأياما للمسائل والفتيا .. فإذا سألته
أحد فى أمر لم يقع ولكنه متوقع ، قال له : « سل عما يكون ودع ما لا يكون » .

ذلك أنه كان يرى أن كثرة الفروض مفسدة ، وفيما يقع من الحوادث والقضايا الجديدة
مايكفى ومايغنى عما هو متوقع ..

وعندما تقدمت به السن ، عقد حلقات الدرس فى بيته الواسعة ذات الأثاث الفاخر .

ترك مجاملة الناس التى اشتهر بها « وترك حضور الجنازات ، فكان يأتى أصحابها فيعزهم ، ثم
ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة » وكان إذا عوتب فى ذلك
قال : « ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره » .

ذلك أنه لم يفيض لأحد بسر مرضه الذى أقعده عن المسجد والناس إلا فراش الموت وكان مرضه هو
سلس البول . وعندما اشتد عليه المرض بعد أن جاوز الثمانين كره أن يخرج من داره .

وكان له فى بيته مجلسان فى السنوات الثماني الأخيرة من حياته : فقال أحد تلاميذه : « إنه كان
عندما انتقل درسه إلى بيته ، إذا أتاه الناس تخرج لهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ أثر يدون
الحديث أم المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم ، وإن قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل

مغسله فاغتسل وتطيب ، ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجه (زهى غطاء للرأس كالتاج) وتعمم ، فتلقى له المنصه . فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ، و يوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . » .

ولكم كان حريصا على أن ينتقى الأحاديث .

وعلى الرغم من كثرة الأحاديث التي حفظها ، فلم يكن يحدث بين جميعا .. ولقد قيل له إن أحد الفقهاء يحدث بأحاديث ليست عندك فقال مالك لو أنى حدثت بكل ما عندي لكأنى إذن لأحرق ثم أضاف : لقد خرجت منى أحاديث لوددت لو أنى ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها « من أجل ذلك قال عنه تلميذه الشافعى : إذا جاء الحديث فالك النجم الثاقب » .

وهذا الحرج فى الحديث كان يتحرج فى الفتوى .. فلا يقول هذا حلال وهذا حرام إلا إذا كان هناك نص قطعى الدلالة .

وفى عدا هذا يقول : أظن ثم يعقب فتواه مستشهدا بالآية الكريمة : « إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين » .

ولقد عاتبه بعض تلاميذه على تحرجه فى الفتوى ، فاستعبر وبكى وهو يقول : إنى أخاف أن يكون لى منها يوم وأى يوم . وقال يوما لأحد تلاميذه : ليس فى العلم شىء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ؟ فالعلم كله ثقیل وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة . »

ولقد عاتبه بعض الناس فى عنايته الفائقة بأثاث البيت ، وبملبسه ومأكله فقال : « أما البيت فهو نسب الإنسان . ثم إنى لا أحب لامرئ أنعم الله عليه إلا يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم » . كان يرى فى أن البيت الجيد راحة للنفس والبدن ، وأن الطعام الجيد يعين على نشاط الذهن ، وأن حسن الثياب يكسب المرء ثقة بالذات وإحساسا بالسعادة .

وهكذا عاش يستمتع بزينة الحياة الدنيا التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق ، نائبا بنفسه عن السياسة ، راغبا عن مصاولة الحكام وإن كانوا ظالمين حتى لقد أفتى بوجود الطاعة للحاكم حتى إن كان ظالما . ولا ينبغى الخروج عليه بالفتنة بل يسمى إلى تغييره بالموعظة الحسنة وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن ظلم ساعة خلال الفتنة شر من جور حاكم ظالم طيلة حياته . والحاكم الظالم يسلط الله عليه ما هو شر منه والله يرمى ظالما بظالم .

وعلى هذا سار أيام الأمويين ، ثم فى دولة العباسيين .. يحاول جهده أن يكون على الحياد .

ولكنه على الرغم من كل شيء لم يعيش بمنجاء عن بطش الذين أفتى بوجوب — طاعتهم من الحكام
مهما يظلمون .

لم يهاجم الأمويين فأصابه منهم خير كثير ثم جاء العباسيون فزادوه من الخيرات .. وأصبح الإمام
مالك رجلا غنيا ، يعيش فى دعة وسعة ويمنح كل وقته للعلم . ذلك أنه لم يمدح على بن أبى طالب ولم
يسانده حقه فى الخلافة .. وكان مدح على هو ما يغيظ الخلفاء الأمويين العباسيين .

وآثر الحياء ، وترك السياسة ، وأشفق على نفسه وعلى أهل المدينة بما رأى فى شبابيه من مذابح بعد
ثورة الخوارج ونهضة الإمام زيد بن على زين العابدين ، على أن السياسة لم تتركه ولم ينفعه حياء . ! .

وهو يشرح فى المسجد الحديث الشريف : ليس على مستكره يمين .. « و بين للناس أن من طلق
مكرها لا يقع منه طلاق ، إذ بأحد أحفاد الحسن بن على وهو محمد النفس الزكية ، يثور على الخليفة
المنصور ، لأنه أخذ البيعة لنفسه قسرا فباعه الناس مستكرهين .

وإذ ببعض الناس فى المدينة ينتقض بيعته للمنصور وينضم لمحمد النفس الزكية إعمالا
لهذا الحديث وتطبيقا للسنة .

وأرسل والى المدينة إلى الإمام مالك أن يكف عن الكلام فى هذا الحديث ، وأن يكتمه عن
الناس ، لأنه يجرضهم على الثورة ونقض البيعة .

ولكن الإمام مالك أبى أن يكتم هذا العلم ، فكاتم العلم ملعون وظل يفسر الحديث غير آبه
بتهديد والى المدينة ، وأطلق الحكم الذى جاء به الحديث على كل صور الإكراه فى المعاملات
والحياة .

فأمر والى المدينة رجاله فضربوا مالكا أسواطا ، ثم جذبوه جذبا غليظا من يده ، وجروه منها
فانخلع كتفه .. ثم أعادوه إلى داره وألزموه الإقامة بها . لا يخرج منها حتى للصلاة ولا يلقى فيها
أحد .

وفزع الناس فى المدينة إلى الله يشكون الظالم ، وثار سخطهم على الوالى والخليفة نفسه
وغضب الفقهاء والعلماء من كل الأنصار والأقطار . فها هو ذا عالم يلتزم الحياء ، ينأى بنفسه عن
السياسة ودوران دولاتها ، ويعكف على العلم ويشرح للناس حديثا نبويا صحيحا ، ويبصرهم
بأحكام هذا الحديث فإذا بالدولة بكل قوتها تبطش به ، وهو عالم لا يملك إلا قوة العلم
وما يستطيع بعد كتمان هذا العلم ؟ ..

وأخذ الناس يلعنون والى المدينة والخليفة المنصور الذى ولاه .. ويتهمون الخليفة نفسه .

وقع المنصور ثورة النفس الزكية ، وقتله هو وآل بيته وصحبه وأتباعه شر قتلة ومثل بأجسادهم .. واستقر له الأمر .

فاستقدم الخليفة المنصور مالكا ليسترضيه ولكن مالكا لم يقم ولم يبرح محبسه فى منزله .

فأمر المنصور والى المدينة فأطلق سراح مالك .. ثم جاء المنصور بنفسه من العراق إلى الحجاز فى موسم الحج ، واستقبل الإمام مالك بن أنس . وقال الخليفة معذرا : « أنا أمرت بالذى كان ولا عملته . انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن » .

ثم أضاف الخليفة أنه استحضر والى المدينة مهانا وحبسه فى ضيق ، وأمر بالإيغال فى إهانتته ، وأن ينزل به من العقوبة أضعاف مانال منها الإمام مالك بن أنس .

فقال الإمام مالك : « عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنك . » قال الخليفة المنصور : « فعفا الله عنك ووصلك » .. ووهبه المنصور مالا كثيرا وهدايا ثمينه ثم أضاف :

« إن رابك ريب من عامل (والى) المدينة أو مكة أو عمال (أى ولاية) الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية فاكتب إلى أنزل بهم ما يستحقونه . »

على أن الإمام مالك بن أنس لم يكتب إلى الخليفة ، على الرغم مما سمع وعاین من شر بالرعية فى جميع أنحاء الحجاز ، بل اكتفى بتوجيه النصيح والموعظة الحسنة إلى هؤلاء الولاة .

على أن الخليفة المنصور لم يترك الحجاز حتى طلب من الإمام مالك أن يضع كتابا يتضمن أحاديث الرسول وأقضية الصحابة وآثارهم ، ليكون قانونا تطبقه الدولة فى كل أقطارها بدلا من ترك الأمر لخلافات المجتهدين والقضاة والفقهاء .. وكان ابن المقفع الكاتب قد أشار على الخليفة من قبل بإصلاح القضاء وتوحيد القانون فى كل أرجاء الدولة ...

قال المنصور للإمام مالك : « ضع للناس كتابا أحملهم عليه » فحاول مالك أن يعتذر عن المهمة ولكن المنصور ألح : « ضعه فما أحد اليوم أعلم منك » فقال مالك : « إن الناس تفرقوا فى البلاد فأفتى كل مصر « أى قطر » بما رأى فلاهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول تعددا فيه طورهم » فقال الخليفة المنصور : « أما أهل العراق فلا أقبل منهم ، فالعلم علم أهل المدينة » فقال مالك : « إن أهل العراق لا يرضون علمنا » فقال المنصور : « يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط »

واقتنع مالك برأى الخليفة ، لأنه هو نفسه كان فكر من قبل ، أن يجمع الأحاديث النبوية فى كتاب يضم مع الأحاديث آثار الصحابة ، ليجتمع المجتهدون والفقهاء والقضاة على رأى واحد وانقطع الإمام عما كفا على إعداد الكتاب وأخذ يكتب وينقح ويحذف أضعاف ما ثبت ، وينقح ما ثبت وأسمى كتابه الموطأ .

والموطأ لغة هو المنقح .

وليث ينقح فى الكتاب سنين عددا ، وخلال تلك السنين أخرج منافسوه من علماء المدينة كتبا كثيرة فى الأحاديث وآثار الصحابة أسموها الموطآت ، وسبقوه بها .. فقيل لمالك : شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله . وأخرجوا ما عملوا فقال : « إئتوني بما عملوا .. فأتوا بها فلما فرغ من النظر فيها — قال : « لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله . اما تلك الكتب فكأنما ألقيت فى الآبار وما يسمع بشيء منها يذكر بعد ذلك ..

وفى الحق أن شيئا من تلك الكتب لم يذكر بعد ، وكأنما ألقيت فى الآبار ..

أما كتاب الموطأ فقد أنجزه مالك بعد أن قضى المنصور وجاء بعده خليفة وخليفة ثم جاء هارون الرشيد فأراد أن يعلق كتاب الموطأ فى الكعبة ولكن الإمام مالك بن أنس أبى .

والإمام مالك بن أنس من أفقه الناس بالحديث وآثار الصحابة .. والرأى عنده سنة فقد وعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : أنا أفضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى .. ونقل الإمام مالك عن الرسول عليه السلام كان يشاور أصحابه ويأخذ برأيمهم .. ونقل من آرائه أن قبة الصائم لا تقطر ، فقد سئلت زوجة أم المؤمنين أم سلمة عن قبة الصائم فقال لها هل اخبرت أنى أقبل وأنا صائم ؟ .. وحفظ الامام مالك من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم انه ذهب إليه رجل ينكر ولده لأن امرأته جاءت به أسود والأب أبيض والأم بيضاء ، فقال له الرسول عليه السلام هل لك إبل ؟ قال : نعم قال : فما ألوانها قال : « حمر » فسأله عما إن كان فيها « رمادى » فقال الرجل : « نعم فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم » من أين ؟ فقال الرجل : « لعله نزع عرق . فقال الرسول عليه السلام وهذا لعله نزع عرق » .

وعى مالك هذا الاجتهاد من الرسول ، وعى صورا عربية أخرى من أخذه بمشورة الصحابة فيما لم ينزل فيه وحى ، فاجتهد مالك هو الآخر معتمدا على حسن الفقه بالقرآن الكريم ، وعمق العلم بالتاسخ والمنسوخ ، ودلالات النصوص ظاهرها وخفيها ، وأسرار الأحكام فى القرآن ، وحسن معرفة الأحاديث وآثار الصحابة ..

وقد عرف كل آثار الصحابة إلا فقه الامام على بن أبي طالب ، إذ صادره الامويون وحجبه ، وطارده العباسيون .. غير أن ذلك الفقه كان فى حدود آل البيت وشيعتهم ، وفى كتب يتداولونها خفية .

ولقد أتىح للإمام مالك أن يعرف الإمام جعفر الصادق صداقة وتدارس معا .. وعمل كل واحد منها تقديرا عظيما لصاحبه .

وفى الحق أن الامام مالك قد أفاد من صحبة الإمام جعفر الصادق — وأخذ الاعتماد على العقل فيما لم يرد فيه نص — غير أنه أسماه بالاستحسان أو المصلحة المرسله — ففضى بما يحقق مقاصد الشريعة من توفير المصلحة وجلب النفع ودفع الضرر وبما الى الحرام .. واعتبر المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، ووازن بين المصالح وماأولاه بالرعاية لتكون هى مناط الحكم .

وكما أعطى أعمال العقل لفقه الإمام الصادق ثراء وتجديدا ، فقد أثرى الفقه المالكي باعتماد المصلحة أساسا للحكم حيث لانص ..

ويقول الإمام مالك عن علاقته بالإمام جعفر الصادق : « كنت آتى جعفر بن محمد ، وكان كثير المزاح والتبسم فإذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر . ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن ، وما رأيت قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ولا يتكلم فيما لايعنيه . وكان من العلماء الزهاد العباد الذين يخشون الله . وما رأيت قط إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى » .

أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيرا من طرق استنباط الحكم ووجوه الرأى وأخذ عنه بعض الاحكام فى المعاملات ، وأخذ الاعتماد على شاهد دون شاهدين ، إذا حلف المدعى اليمين وكما أخذ من الإمام الصادق جعفر بن محمد اخذ من أبيه الإمام محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ..

لزم مالك مجلس الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر وتعلم منها على الرغم من ان رأيه فى الإمام على بن ابى طالب كرم الله وجهه لايرضى آل البيت وشيعتهم .. فقد فضل عليه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم وجعل الإمام عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه كسائر الصحابة ..

ولئن أغضب هذا الرأى آل البيت والشيعه جميعا ، انه ليرضى الخلفاء الأمويين الذين أنكروا حق على ونازعوه الخلافة واغتصبوها منه ، وذبحوا الحسين وآله فى كربلاء ، وذبحوا كل من ثار من آل البيت

كزريد بن على بن الحسين .. افى هذا الرأى يرضى الخلفاء الأمويين كما أراضى من بعدهم الخلفاء العباسيين الذين رأوا أن الخلافة تحق لبني العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ولا تحق لبني على وفاطمة .. وأغروا أحد الشعراء بأن يقول إن بنى البنات (يعنون فاطمة الزهراء رضى الله عنها) لا يرثن بل يرث الأعمام (يعنون العباس) : أتى يكون وليس ذلك بكائن لبني البنات وارثة الاعمام .

وقد كان رأى مالك بن انس حريا ، بأن يعطف عليه قلوب الخلفاء الأمويين والعباسيين وهذا ماكان .

غير أن الإمام مالك بن أنس لم ينافق الخلفاء ، واذا كان لم يجهر بالاحتجاج على مظالمهم ، فقد اختار أن يوجه إليهم الموعظة الحسنة كلما اقتضى - كلما لقيمهم فى موسم الحج أو فى زيارة الحرم النبوى . وأنكر عليه أحد تلاميذه أنه يتصل بالأمراء وبالخلفاء لأنهم ظالمون وماينبغى أن يتصل بهم رجل صالح كالإمام مالك بن أنس .. فرد مالك : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقہ ان يدخل على ذى سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر » وربما يستشير السلطان من لاينبغى فخير أن يدخل عليه العلماء الصالحون ..

وعندما ألح عليه تلاميذه فى إنكار علاقاته بالخلفاء والامراء قال : « لولا أنى آتيتهم مارأت للنبي صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينة سنة معمول بها » .

وفى الحق انه كان يعظمهم أحسن موعظة ، الموعظة الحسنة لأولى الامرخير من اتورة عليهم واشتعال الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة فقد تلثم الظالمين والضحايا والأبرياء جميعا .

كان مالك .. يسر النصيحة إلى ولى الأمر بحيث لا يجرجه أمام الرعية و يصوغها بحيث تقع موقعا حسنا .

رأى أحدهم يذهب إلى الحج فى موكب فخيم وسرف الترف باد عليه فقال له : كان عمرين الخطاب على فضله ينفع النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضى الناس منك بدون هذا .

وقال لآخر : « افتقد أمور الرعية ، فإنك مشول عنهم ، فإن عمرين الخطاب قال والذى نفسى بيده لو هلك جل بشاطئى الفرات ضياعا لظننت ان الله يسألنى عنه يوم القيامة » .

وكتب لخليفة آخر : « احذريوما لاينجيك فيه إلا عملك وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك « وعليك بتقوى الله » .

وكان أحد الولاة يزور الإمام مالك بن أنس فى بيته ، ويسأله النصيحة .. فأثنى على الوالى بعض الحاضرين ، فغضب مالك ، وكان بعيد الغضب ، وصاح فى الوالى - وقلما كان يصيح - : «إياك أن يغرك هؤلاء بشنائهم عليك ، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك ، أوشك ان يقول فيك ، من الشر ما ليس فيك .. إنك أنت أعرف بنفسك منهم .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «احتوا التراب فى وجوه المداحين» .

وكان عليه الصلاة والسلام يعظ صحابته ان كثرة المدح تضيع المدوح .

وعندما بلغ مالك من الكبر عتيا كانت شهرته طبقت الآفاق حقا ، وكان يلزم بيته فى السنوات الأخيرة لا يخرج إلا نادرا واضطر إلى أن يتخذ له حاجبا ينظم دخول الناس كما يصنع الخلفاء ، وقد اتخذ له بيتا آخر واسعا غير دار بن مسعود فيه عدد من الجوارى الحسان والخدم .

وكان يخرجه أن يرفض استقبال أحد ، وله أصدقاء كثير . واستخلص العبرة من كل حياته الماضية وأفضى بنصيحة إلى أحد تلاميذه ليبيثها فى الناس من بعده :

«إياكم ورق الاحرار» .

سأله تلميذه : «ومارق الأحرار؟» قال الإمام مالك «كثرة الإخوان .. فإن كنت قاضيا ظلمت أو اتهمت بالظلم ، وإن كنت عالما ضاع وقتك» .

وكان مالك يشكو كثرة الاصدقاء ، إذ لاحيله له معهم ، فلا هو يستطيع أن يردهم عنه ، ولا هم يتركونه يعمل أو يعتكف فى داره للعلم كما ينبغى له ..

ومهما يكن من أمر فقد أغنى مالك الفقه الإسلامى برأيه فى المصلحة وجعلها مناط الاحكام وأساسه فيما لم يرد فيه نص ملزم بالإباحة أو المنع ، وفى أخذه بالذرائع فما يؤدى إلى الحلال حلال ، وما يؤدى إلى الحرام حرام .. فأنت حر فى ملكك ولكنك فى حر يتك يجب ألا تضر غيرك فإذا حفرت بشرا خلف بابك يؤدى إلى سقوط الداخل إليك وهلاكه فهذا حرام .. لأن حفر البئر ذرعة لإهلاك الغير فهو ممتنع . والبيع باقساط ترفع الثمن الأصلي الذى تدفعه معجلا ذرعة إلى الربا فهو حرام ويجب على ولى الأمر منعه .. فالأقساط يجب أن تكون ذرعة للتيسير على المشتري لا ذرعة لتقهر على اقتراف الربا ، وحمله على دفع ثمن أكبر .

وبهذا النظر حرم الإحتكار لأنه يحقق مصلحة لفرد أو لأفراد قلائل ويجلب الضرر على الآخرين ..

فالمحتكر يغالى فى السعر كيفما شاء ، وعامة الناس مضطرون إلى قبول مايفرضه وفى هذا ضررهم كبير والمحتكر ملعون ، بنص الحديث الشريف .

ومن أخذ الإمام مالك في فتاواه وآرائه بالقرآن والسنة والإجماع وعمل أهل المدينة ورعاية المصالح أفتى بأمر كثيرة خالفه فيها بعض العلماء والفقهاء والمجتهدين .

فقد أفتى مالك بحق الزوجة في الطلاق إذا لم ينفق عليها زوجها ، أو إذا ظهر لها عيب فيه لم تكن تعرفه وقت العقد .. عيب أى جسديا كان أم حقيقيا ..

وأفتى أن ديون الله — كالزكاة ونحوها وما يمكن أن نسميه بالضرائب فى أيامنا هذه لا تؤخذ من التركة إلا اذا اعترف المورث بها قبل وفاته .. وحتى إذا ثبتت هذه الديون بأى طريق آخر من طرق الإثبات ، فديون العباد مقدمة عليها .. لأن العباد « والأفراد » يضارون بعدم دفع ديونهم أكثر من الدولة .. أما عن ديون الله كالزكاة فالله غفور رحيم .

وأفتى بأن الحمل قد يستمر فى بطن أمه ثلاث سنوات . ولقد سخر منه بعض خصومه وزعموا أنه يشجع على الفساد نساء غير صالحات من المطلقات أو ممن يغيب أو يموت عنهن الأزواج .

وأفتى بأن من يبني جدارا فى ملكه لينع الشمس والهواء عن جاره ، معتد آثم يجب هدم جداره ، وإن زعم أنه يقصد حماية أهل بيته من أعين الجيران .

وأفتى بعدم جواز صيام سته من شوال (وهى مانسميه بسته الأيام البيض) . ورفض الاعتراف بالحديث الخاص بهذا الصيام وأنكره ..

وصيام سته أيام من شوال ، يؤدى إلى زيادة رمضان .

وهذا الامتناع عن صيام سته من شوال هو ما يعمل به أهل المدينة .. سنة عن الرسول اخذوها آلاف عن آلاف أولى بالاتباع من حديث نقله آحاد عن آحاد

وأفتى مالك بوجوب وضع ضوابط لحق الرجل فى الطلاق وفى الزواج بأكثر من واحدة بحيث لا تضار الزوجة أو الاولاد ، وبحيث تكون مصلحة الأسرة هى العلة والأساس والأجدر بالرعاية .

وأفتى مالك بأن الأعراف والعادات يجب احترامها فى استنباط الأحكام ما لم تتعارض مع نص صريح قطعى الدلالة .

وأفتى بأن الخطور يجوز أن يقترف لأن فيه دفعا لمضرة أكبر ..

إنه ليرى الشريعة مبنية على جلب المنافع والبعد عما يكون طريق إلى المفساد .. فكل وسيلة من وسائل العمل يجب أن ينظر إلى نتائجها فإن كانت النتيجة مصلحة فالعمل مباح وإن كانت فسادا وجب منع هذا العمل .

ولقد ذاع فقه مالك في كل الأمصار والأقطار، وكان في هذا الفقه ما يحمل له عناصر التجديد كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع ، وهو نظر أخذه من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل في استنباط الحكم حيث لا يكون نص ، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة ويبعد الضرر . تحقيقا لمقاصد الشريعة .

وقد نما فقه مالك واتبعته وأغناه كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد ..

غير أن بعض معاصري مالك عارضوه معارضة عنيفة وخالفه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر، وتلميذه الشافعي ..

ولقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنة بعد ولا يمكن أتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين فالصحابه خرجوا من المدينة بعد مقتل عمر، وتفرقوا في الأمصار، وبتوا فيها فقههم ..

لقد كان أوائل أهل المدينة في زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل أما أواخرهم في زمن مالك ، فلم يعودوا كذلك بعد .. ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان في حاجة إلى مال !

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه ، فقد عاش مذهب الإمام مالك وتجدد حتى لقد أخذت قوانين الأحوال الشخصية في مصر منذ مطلع هذا القرن الميلادي حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩ ميلادية من هذا المذهب .

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من صحبه وتلاميذه كانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام ..

قال عنه تلميذه الشافعي : إذ ذكر الحديث فمالك هو النجم الثاقب .

أما صاحبه الليث بن سعد الذي صاحبه عمرا طويلا ، وراسله ، ووصله بالمال والهدايا ، واختلف معه آخر الأمر، فقد قال عنه أثناء الخلاف وعلى الرغم من الخلاف «مالك وعاء العلم ..»

الليث بن سعد
فقيه أهل مضر والنوَّبه

فى ليلة النصف من شعبان المكرم من العام الثالث والتسعين للهجرة (٩٣ هـ) . ولد الليث بن سعد فى قرية قلقشندة ، من أعمال مركز طوخ ، بمحافظة القليوبية على مقربة من عاصمة مصر .

والمصريون يعتبرون ليلة النصف من شعبان ليلة مباركة ، واذن فقد تفاعل أهل الوليد بمقدمه فى تلك الليلة ، وتفاعل أهل القرية جميعا بهذا القادم الجديد ابن عميد الأسرة الغنية الذى كان يفيض بكرمه على كل من حوله .

ويشاء الله أن يتوفى الليث فى ذات الليلة المكرمة .. ليلة النصف من شعبان سنة مائة وخمس وسبعين للهجرة (١٧٥ هـ) بعد أن ملأ الدنيا من جوله ، بالخير ، والعلم ، والمعرفة ، وآداب السلوك ، وأسباب المحبة ، على مدى اثنين وثمانين عاما .

وما بين سنة ٩٣ هـ وسنة ١٧٥ هـ ، عرفت مصر دولات وحكاما ، وإبتليت ، بالطغاة من خلفاء وولاة ، وأنعم الله عليها فيما أنعم بخلافة عمر بن عبد العزيز ، ابن حلوان من ضواحي الفسطاط ،

وهو الذى عرف بالعدل ، والحكمة ، وحسن سياسة الأمور ، وتقوى الله ، حتى لقد كان يلقب بخامس الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

ولقد شهد الليث منذ طفولته مظاهر الجور ، وبطش الولاة ، حتى لقد استقر فى نفس الصبى كره للحكم والحكام .. ثم شهد وهو دون العاشرة عدل الخليفة الرشيد عمر بن عبد العزيز ، وصور الرخاء التى عمت مصر ، حتى لم يعد فيها من يستحق أن تصرف عليه الزكاة ،

فنهضت الحكومة بتكاليف زواج الشباب ، من مهر ومآدب واحتفالات ، لا تفرق في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب .

وكانت قلقشندة ككل قرى دلتا النيل ، بلدا طيب الهواء ، خصب الأرض ، غنيا بالثمرات والخيرات ... تشتهر بجودة الفاكهة .

تفتحت عين الصبى منذ وعى الحياة على خضرة الأرض ، وانسياب النهر ، وروعة الحقول والبساتين ، والحدائق ، وامتألت رثته الصغيرة بعبق الأزهار ، فنشأ يحب الجمال .

ولعله من أجل ذلك عندما شب وتعلم القرآن الكريم وحفظ الحديث ، روى أول ماروى من أحاديث: «إن الله جميل يحب الجمال» أكسبته مراثى الجمال فى قرينته صفاء العقل والذوق والنفس ، وحبا للحياة والناس .

فما مد بصره قط وهو صغير إلا رأى انفساح الأرض أمامه بألوان الزرع والزهر، حيث يستلقى الأفق على خضرة الحقول أو غابات الشجر والنخيل ، وما ألقى السمع قط إلا لسمع همس الطبيعة وأصوات الماء والشجر، وشدو الطيور عليها . كان يصحو ليستقبل النهار مع شعاع كل يوم جديد .. وما استنشق الا العبير ! لم يعرف ألم الحاجة طيلة حياته ، ولم يمسه قرح من مطالب الدنيا ، وعاش ما عاش متمتعا بكل ما أحله الله من متاع فى هذه الأرض .

كان أبوه واسع الغنى ، يملك فى قلقشندة وما حولها ضيعة واسعة خصبة ، تنتج خير الثمرات من زرع وفاكهة .. لديه المال والبنون ، زينة الحياة الدنيا .

وكان الأب يدرك أن العلم هو خير ما يزين الرجل العاقل .. وقد نال الأب قسطا من التعليم ، ولكنه قرر أن يجعل ابنه زينة الحياة الدنيا بحق ، فوفر له كل ما يتاح من علوم ذلك الزمان .. !

وعائلة الليث مصرية تنحدر من المصريين القدماء .. وقد دخلت فى الإسلام وتعلمت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامى .

وأخذ الأجداد أبناءهم وأحفادهم بالتفقه فى الإسلام ، وابتقان لغة الدين الجديد الذى دخلوا فيه .. حتى لقد اشتهرت عائلات كثيرة منها عائلة الليث بحفظ القرآن والحديث والشعر والأخبار وفصاحة اللسان .

وكان العرب يطلقون على الذين أسلموا من أبناء البلاد المفتوحة اسم «الموالى» أما الذين لم يسلموا من أهل الكتاب فهم النعميون أو أهل النعمة ..

وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك صوتاً عظيماً يعظ ويعلّم حسن السيرة بين الناس منذ قال لهم: «الناس سواسية كأسنان المشط ولا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى».

وعلى الرغم من وضوح هذه التعاليم ، فقد كانت العصبية القبلية تملئ أحياناً على بعض الولاة إثارة المسلمين العرب الفاتحين على المسلمين من أهل البلاد المفتوحة .. أى الموالي .

وهو إيثارة لا يرد فى توزيع الأموال أو رعاية الحقوق .. ولكنه يفلت عفو الخاطر فى التقدير الأدبى .

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى توزيع الثروات ، لأن عمر بن الخطاب أخذ بمشورة على بن أبى طالب فوزع الأرض فى البلاد المفتوحة على من يزرعونها ، وأخذ منهم نصيب الدولة .. وهكذا كان من بين الموالي أغنياء ، ومنهم أسرة الليث ..

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى الحقوق والواجبات ، لأن مثل هذا التمييز يخالف مبادئ الإسلام كما أوردتها نصوص القرآن والسنة . ولكنها مشاعر تفلت على نحو ما فى قلب القلوب .

من أجل حرص بعض الموالي على أن يتفوقوا .. ولقد تفوقوا حقاً .

ولكم ضاق خلفاء بنى أمية بتفوق الموالي على العرب حتى فى اللغة والفقه !

وكان على وبنوه يحسنون تقدير الموالي . وكان من أبرز هؤلاء الموالي الليث بن سعد الذى حفظ القرآن فى قريته ، وهو صيبى ، وحفظ كل ما وصل إليه من أحاديث نبوية وكل ما عرفه العصر من تراث الشعر العربى وعلوم اللغة العربية وآثار الخلفاء .

حتى إذا كان فى مطلع الشباب وقد استوعب كل ما يمكن أن يصل إلى قريته من معرفة ، وجهه أبوه إلى الفسطاط ليعلم علمها ويتقف نفسه بمعارفها ..

زوده أبوه بكل ما ينبغى أن يتزود به طالب علم يجب أن يتفرغ نهاره وليله للعلم ، ولا يشغله عنه شاغل من هموم الحياة والعيش !

وها هو ذا فتى فارغ القامة مليح الوجه وتضىء الابتسامة فى سمرة حمياه ، مطمئن النفس ، ناعم البال ، فى ثياب جميلة . يفوح منه العطر والطيب ، تغشى سكينته توترات الشوق إلى المعرفة ، نشيط الخنطى ، مرح ، حسن الصوت ، مشتعل الأعماق ، متوقد الذهن ، يخلج على الرغم من الدعة بالرغبة الجانحة إلى اقتحام المجهول ، واستيعاب كل ما تحفيه الحياة والكلمات من الأسرار ... ها هو ذا بكل

فتوته التي تثب به من الصبا إلى الشباب ، فتى من القرية يخوض ليل المدينة الكبيرة المضىء بالثقافة ،
والمعرفة .

واتجه إلى جامع عمرو وهو أول مسجد جامع أنشأه المسلمون في أفريقيا ، وجامع عمرو منارة
للعلم ، مازال يشع منها ما درسه فيه أبو ذر الغفاري وعبد الله بن عمرو ، وسائر الصحابة الذين جاءوا
إلى مصر منذ الفتح الإسلامي ، وعلموا الناس أمور الدين وفقههم بالقرآن والسنة . ومازال يتردد في
جنبات هذا الجامع الكبير أسلوب مصرى لتلاوة القرآن يختلف عن أساليب التلاوة في العواصم
الإسلامية الأخرى .

وفى جامع عمرو حلقات كثيرة لدراسة القرآن وتفسيره ، ودراسة الأحاديث والسنة والفقه ،
ترك فيها كل صحابى أثرًا ..

وفى الجامع إلى جوار ذلك حلقات لدراسة علوم اللغة العربية .. وعلوم اللغة هي أدوات
فهم القرآن والحديث ، وفى الفسطاط حلقات أخرى لدراسة كل ما كان فى مصر من معارف
الأقدمين : من مصريين ويونان ورومان وفرنس وهنود ، وكل معطيات الحضارات التي تزخر بها
مصر ..

وهذا تميزت عاصمة مصر عن سائر مدائن الأرض .

وأتيح للشباب المتطلع إلى المعرفة أن ينهل من الثقافات المختلفة كما لم يتح لفقهاء آخرون
معاصريه خارج مصر .

كانت اللغة القبطية لا تزال حية ، وإذ كانت تطورا للغة المصرية القديمة (الهيروغلوفيه) ،
فقد نقلت كل الإعجاز المصرى القديم فى علوم الفلك والطب والرياضيات والطبيعات
والهندسة ونقلت تراث اليونان والرومان وغيرهم .. ولقد نقل بعض هذا التراث إلى اللغة
العربية فأتيح لطلاب العلم أن يعرفوا ، وما ظل من تلك المعارف فى اللغة القبطية كانت معرفته
ميسرة للمثقفين المصريين من مسلمين وأقباط الذين أصبحت اللغة العربية لسانهم بحق ،
ولكنهم ظلوا على معرفة باللغة المصرية التي كانت لغتهم قبل الفتح الإسلامى .

كانت اللغة العربية لم تنتشر فى مصر بعد ، فاللغة القبطية هي السائدة ، وكان الليث يتقن
اللغتين . العربية لغة الإسلام ، والقبطية لغة آباءه الأولين ، وكان إلى هذا يتقن اليونانية
واللاتينية ، وهما من لغات الميراث الحضارى .

وقد أتاح التعرف إلى ميراث علوم الأسلاف ، واستيعاب معطيات الحضارة المطروحة على العقل المصرى .. أتاح هذا كله للشباب غنى فريدا فى الثقافة . !

حتى إذا أحس أنه قوى مكين ، عكف على كل الحلقات فى جامع عمرويتلقى التفسير والحديث والفقه .

وكان الصحابة الذين جاءوا إلى مصر أحد رجلين : رجل يتمسك بالقرآن والسنة ، ويفتى الناس فى أمور دنياهم بما يجد فى القرآن والسنة ، فإن لم يجد أثرا لايفتى على الإطلاق .. ورجل آخر كان يجتهد رأيه وهو يواجه أمورا جديدة فى بيئته جديدة وحالات لم يرد لها حكم فى القرآن أو السنة

وتلقى أتباع هؤلاء الصحابة عنهم .. وأخذوا هذا العلم بقوة .. فاشتد بعضهم فى التمسك بالنصوص ورفض الاجتهاد بالرأى . ! وغالى الآخرون فى الاعتماد على الرأى ، وافترضوا قضايا لم تحدث واستنبطوا لها أحكاما ، حتى لقد وقعوا فى شواذ الفتيا . !

والطالب الشاب يعكف على حلقات هؤلاء وهؤلاء ليتقن علوم القرآن والحديث ، ويعنى بأسرار اللغة عناية خاصة فائقة ، لأنه يدرك أنها هى الأداة لحسن نصوص القرآن والأحاديث

وفى الحق أنه فى بحثه النظامى عن الحقيقة وأسرار المعرفة ، كان قد ضاق بخلافات شيوخ الحلقات . ورأى غلوا فى كلا الحزبين .. فالتمسكون بالنصوص لا يخرجون عنها .. متشددون تشددا قد يستحيل معه مواجهة الحالات المستحدثة التى لم يرد فى حكمها نص قطعى .. ! وأصحاب الرأى يتساهلون تساهلا قد يدعو إلى الخطأ فى الحكم ، أو إحداث الاضطراب فى الشريعة !

ورأى الطالب الشاب أن يستقل بالنظر فالمتشددون فى التمسك بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة : « ولورودوه إلى الله والرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. » ، هذا حق .

وأصحاب الرأى يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتهد رأيه فيما لم ينزل فيه قرآن .. وصحابته قد اجتهدوا فى حياته وأقرهم على اجتهادهم .. وهذا كله حق أيضا .. ! فما الغلو إذن فى الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأى .. ؟ !

على أن اللبث ادرك أن النصوص ليست ظاهرا فحسب .. ليست كلمات .. بل هى روح .. لها دلالات وفحوى وعلل . وإذن فالذى يتقن اللغة العربية ، ويتقن معرفة أسرار بلاغتها

حرى بأن يفهم النصوصن ظاهرها وروحها .. ثم إن الأحاديث النبوية تفسر كثيرا من نصوص القرآن .. وفى السنة تفصيل لما أجمله القرآن .. وتبيان لما خفى منه عن المدارك ..

وفهم الأحاديث النبوية يقتضى أيضا حسن فهم أسرار اللغة العربية وروحها .. وليس كل عربى بقادر على إدراك معانى الأحاديث ، أو فهم ما أنزله الله بلسان عربى مبين . فهذا الأمر يستلزم إتقاننا خاصا وتدوقا خاصا للغة .

من أجل ذلك عكف الليث — بعد أن حفظ القرآن والأحاديث — على حفظ الشعر العربى الذى قيل قبل نزول الوحي بالقرآن وخلال نزوله ، ليدرك أسرار اللغة جميعا .. ولقد كان يروقه أحيانا بعض أبيات من الغزل فيتغنى بها .. ولقد سمعه أحد شيوخه فقال له :

« هذا مباح ولكن لا تفعله فسيكون لك فى الفقه شأن » ولكنه عاش يتغنى بما يروق له من شعر . وكان جميل الصوت .. على أنه قرره وهو يحضر الحلقات فى جامع عمرو أن يتخذ له مذهبها وسطا بين أهل النصوص وأهل الرأى .

ومر عام وهو عاكف على درسه ، يحفظ ويتأمل وينظر فى روح كل نص حفظه .. وقد ترك لحيته لتكبر ، عسى أن يدارى بكبر اللحية صغر السن .. !

وأخذ يذيع مذهبه بين زملائه الطلاب فى مواجهة أساتذته من أصحاب الحديث وأصحاب الرأى .

وكان عجباً أن يتهدى شاب فى نحو السادسة عشرة من عمره إلى نظر مستقل بين أهل الحديث وأهل الرأى .. ! ولقد ناقش فى ذلك أحد شيوخ الحلقات من أهل الحديث فنهره !

ونظر غيره فنهره جميعا ، وأزموه التمسك بالحديث والعدول عن الرأى فقال : « تعلموا الحلم قبل العلم ! وظل طوال حياته كلما جادل أهل الحديث يكرر عليهم هذا القول ..

وأعجب به زملاؤه الطلاب ، وبدأوا يلتفتون حوله ، وشجعتهم حماسهم له ، وكلما زادوه تشجيعا ، زاد عكوفاً على العلم والنظر فيه ..

وكان زملاؤه يلقون عليه المسائل ، فيظل يمعن النظر حتى يجد جوابا . وكانت إجاباته تبهرهم .. وما كما يعجل للإجابة بل يترث لها .

وفى الحق أنه تألف قلوبهم بحسن أدبه ، وظرفه ، ودماثة خلقه ، وسعة علمه .. وبكرمه !

فإذا لاحظ فقر أحد زملائه وصله بالمال سرا ، ولقد يلاحظ بقع الخبر على ثوب زميل آخر فهديه ثوبا جديدا .

وإن وجد فهم من يبعد مسكنه عن جامع عمرو ويجهده السير إلى حلقات الدرس أهده دابة .. ولكي لا يخرج المحتاج من زملائه كان يزعم لهم أنه يقدم للواحد منهم قرضا حسنا يرده عندما يكبر ويتكسب !

وأغراه زملاؤه بأن يتخذ لنفسه حلقة ولكنه تيب أن يجلس مجلس الأستاذ . ولقد علم أحد أشياخه أن الناس يستفتونه ، فيفتي ، ويرضون عن فتياه .. فناده الشيخ وشجعه على الإفتاء .

ولكن الليث استحى لأنه صغير السن ، ثم لأنه من الموالي ، وهذا الأمر يجب أن يكون للعرب !

وإذ ذاك قال له الشيخ أما سمعت عما كان بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين الفقيه شهاب الزهري ؟ فقال الليث « لا »

فقال الشيخ إن الخليفة سأل الزهري وهو أفتقه أهل هذا العصر ، عن العلماء الذين يسودون أهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الشام وأهل مصر وأهل خراسان

فذكر له الزهري أسماؤهم . والخليفة يسأل عن كل واحد من العرب هوأم من الموالي . فيقول الزهري من الموالي فقال الخليفة مغضبا : « والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . »

فقال شهاب الزهري : إنما هو أمر الله ودينه فن حفظه ساد ومن ضيعه سقط ! هذا هو رأي الزهري وليس له في العلماء نظير

ولكن الليث لم يجلس للإفتاء ، وصمم على ألا يجلس حتى يبلغ من السن مبلغا يؤهله لذلك ، وحتى يصل من العلم ، واستقلال النظر إلى ما يقنع به فقهاء العرب والموالي على السواء .. إنه لم يتعلم من أئمة العصر خارج مصر بعد .. ولكم يعنيه الشوق إلى معرفة ما عندهم .. ولقد أغراه ما سمعه من أستاذه عن الزهري بالسفر إليه ليتعلم منه ولكنه فوجيء بموت أبيه . عليه الآن أن ينهض بأمور الأسرة بعد أبيه . وأن يدير أمور ثروته الواسعة ..

وعاد إلى قريته فإذا بالوالي قد أمر بهدم بيت الأسرة ! فأعاد الليث بناء البيت ، فهدم الوالي الدار مرة أخرى . وبنها الليث فهدهما الوالي مرة ثالثة .. !

وبات الشاب مهموما .. أنه ليحمل على منكبيه أعباء الأسرة ، وإدارة الضيعة التي ورثها .
وهيوم العلم والمذهب الجديد الذي يريد أن يصوغه محكما وسطا بين أهل الرأي وأهل
الحديث .. كل هذا ، واضطهاد الوالى أيضا .. !! ولكن لماذا يضطهده الوالى العربى إلى
هذا الحد ؟ ! لأنه خرج عن طاعة بعض الشيوخ من أهل السنة ممن ينازلهم الوالى ؟ .. أم
لأن الوالى كان عدوا لأبيه ، ولم يستطع أن ينال من الأب فى حياته ؟

أم لأن الليث أحد الموالى الذين يوشكون أن يظهروا ويغلبوا بعلمهم فقهاء العرب ؟ !

أم لأن الليث يميل إلى على بن أبى طالب .. والوالى يصانع الخليفة عدو على ؟ ! ولكن
مصر كلها تميل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..

إن هذا السلوك مها يكن سببه يحافى روح الإسلام .. إن هذا الوالى ليس من الله فى
شئ .. فما الحيلة معه ؟ ! ..

ثلاث ليال متتاليات .. كلما أصلح الليث بناء داره أرسل الخليفة فى الليل من يهدمها ! إن الوالى
ليستضعف الليث حقا ! وثقلت عليه المهموم ، فجاهه فى المنام من يقول له : « قم ياليت فاقراً قوله
تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) .

فأصبح الليث وقد أصيب الوالى بالفلج ، فأوصى كل من حوله بالأىظلموا الليث ، وأن
يحسنوا صحبته .. ومات الوالى بعد أيام قلائل ..

وتسامع الناس القصة ، وامتلأت بها أروقة جامع عمرو ، وانتشرت فى الأسواق ، وقال بعض
زملائه الطلاب وبعض شيوخه الذين غاضبوه من قبل : « لقد دافع الله عن الليث .. إن الله يدافع عن
الذين آمنوا .. »

وفى الحق أنه كان دمخ الخلق ، حسن السيرة بين الناس ، وكان طيب المعشر ، كريما سخيا ..
وكان سرىا .. !

ولقد رآه أحد شيوخه يتصاحك مع زملائه الطلاب فى خفة ، ويطلق تهقمة عالية فى رحاب
المسجد بعد الدرس ، ويضرب الأرض بقدمه .. وكان هذا الشيخ متزمتا ، قد غاضب الليث من قبل ،
لأنه يحاول ابتداع مذهب موفق بين الرأى والسنة ، فتقدم الشيخ إلى الليث متوددا ، وقال له ناصحا فى
رفق : « يا بنى لا تفعل هذا فإنك إمام منظور إليك . »

وبعد ثلاثة أعوام خرج الليث إلى الحج والعمرة ، وكان فى العشرين من عمره ، وزار المدينة بعد

الحج .. وكان الفقهاء من كل الأمصار والأقطار يجتمعون في الحج ثم في الحرم النبوي فيتبادلون
الرأى .. :

وهناك بحث الليث عن شهاب الزهري ليجلس إليه .. والتقى به ، وتلقى منه ، وناظره ، وطرح
الليث عليه ما انتهى إليه من نظر . ووجد الليث في الزهري من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم ما لم
يهد في أحد قط ، فأكبره إكبارا شديدا حتى يمسك له بالركاب .. وكانت في الليث ما في العلماء من
عزة نفس ، فلم يصدق أصحاب الليث أنه يمسك لأحد بالركاب .. وسأله صديق مستنكرا أتمسك
بركاب الزهري فقال الليث : « نعم للعلم . فأما لغير ذلك فلا .. والله ما فعلته بأحد قط .. »

وفي الحجاز التقى بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة وأهل الرأي على السواء ، وجلس إليهم
وفي حلقة ربيعة الرأي تعرف بمالك بن أنس ، وهو في مثل سنه ، وتبادلا الرأي بعد الحلقة

وكان مالك في ذلك الوقت طالب علم في نحو العشرين ، يكابد في سبيل طلب العلم .. وأدرك
الليث أن صاحبه يعانى الفقر ، فأخذ يمتال ليصله بالمال ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ

على أنها تلازما في حلقة ربيعة ، وتلازما بعد الحلقة يتدارسان ، ويتبادلان الرأي فيما حصلاه ،
وألف كل منها صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، فأرسل مالك طبقا فيه رطب إلى الليث ، فقبل الليث
الهدية شاكرا ، ورد الطبق مملوا بالدنانير .

وعاد الليث إلى مصر ، واتصلت الرسائل بينه وبين مالك ودعاه لزيارة مصر ولكن مالك
ابن أنس لم يستطع . وتعود الليث أن يزوره في المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم
النبوي .

وقد ظل الليث يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام ، وكتب مالك إليه ان عليه دينار ،
فأرسل إليه الليث خمسمائة دينار .. والدينار في ذلك الزمان كان يكفى لكسوة رجل أو لشراء
دابة ... ولم ينقطع عطاء الليث لمالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا .. ومع
ذلك فقد واظب الليث عن سؤال مالك عن حاجته حتى في الرسائل التي تضمنت خلافاتها
الفقهية .

على أن الليث في رحلاته العلمية لم يستفد علما جديدا فحسب بل أفاد أيضا ، ولفت إليه الأنظار .

سأله أحد شيوخ الزمان بعد مناظرة طويلة : « كم عمرك ؟ » فقال الليث : « عشرون » فقال
الشيخ ، ولكنك تحمل علم ابن الستين وحية ابن الأربعين !

وكان الليث كلما سمع عن فقيه فى أى بلد ، شد إليه الرحال .. حتى عندما تقدمت به السن ، فقد سافر بعد الستين إلى العراق ينشد العلم عند فقيه أصغر منه سنا .. وسمع عن فقيها آخر نزل بالإسكندرية فركب النيل إليه ولكنه وجدته قد مات ، فبكى !

حصل الليث إذن علمه من كل فقهاء عصره لم يأل فى ذلك جهدا ، ولم يقعه طول السفر ..

وكان ربما استأثر بأحد هؤلاء الفقهاء سمع عن نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتى لقيه بالحجاز .. وكانت فى نافع حدة ، ولكنه استراح إلى الليث ، ولزمه الليث لايبرحه طيلة إقامته بالحجاز ، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوى الصحابة ، ويحاوره فى الفقه .

وقد لقيه فى دكان علاف فتحاورا برهة ، حتى مر بها ابن لهيعة وهو مصرى من أصحاب الليث — صار فيما بعد قاضيا لمصر — فسأل عن نافع : « من هذا ؟ » فهمس الليث : « هو مولى لنا »

حتى إذا عاد إلى مصر ، جعل الليث يحدث عن نافع ، فسأل ابن لهيعة منكرًا « وأين لقيته ؟ »

فقال الليث ضاحكا : « أما رأيت العبد الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك »

وغضب معه ابن لهيعة ، لأنه أخفى عنه ناعما مولى عبد الله بن عمر

ولكن الليث لم يطق خصامه ، فنقل إليه ما حفظه عن نافع ، وما دار بينهما من حوار فى كل أمور الفقه .. ثم إن ابن لهيعة ولى قضاء مصر براتب قدره ثلاثون دينارا فى الشهر وهو أكبر راتب بعد راتب الوالى . واحتقرت دار ابن لهيعة وكتبه فموضه عنها الليث بن سعد بألف دينار!

وعندما عاد الليث إلى مصر بعد أول رحلة للحج ، بنى دارا كبيرة فى الفسطاط لها نحو عشرين بابا ..! وجعل فيها حديقة ملاء بالأشجار والزهر والريحان ، وكانت الريح تحمل عطرها إلى ما حولها .. وماء داره بما استطاع الوصول إليه من كتب .. وفتحها لأصحاب الحاجات ولأصدقائه .. كان يدعو أصدقاءه إلى الطعام ويضع الدنانير فى الفالوذج ، فن أكل منهم أكثرناك دنانير أكثر ..!

كان يقوم الليل إلا قليلا ، حتى إذا أقبل الفجر ، خرج على فرسه إلى جامع عمرو ويحضر الحلقات ، ويحفظ ويدرس ، ويتحرى أحوال أصدقائه من له حاجة ، ويفتى الناس من غير أن يجلس فى المفتى أو الأستاذ .. فقد كان ولا يزال يتهيب هذا المقعد ، على الرغم أنه جمع من العلم ما يؤهله له .

وبعد العصر كان يرتدى أجمل ثيابه ويتعطر ، ويمشى فى الحدائق والأسواق ، أو على شط

النيل ..!

وسمع مالك بما يصنعه الليث : تمتعه بأطيب الطعام ، وتزينه بأبهى الثياب ، وخروجه للنزهة فى الحدائق والأسواق ، فكتب مالك إليه معاتباً : « بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق (أى الثياب الرقيقة الفاخرة) وتمشى فى الأسواق » .

فكتب إليه الليث : « قال الله تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون »

وعلى الرغم من نقد مالك ، قد ظل الليث يأكل الرقاق وما يستطيع من طعام ، و يلبس الرقاق وأبهى الثياب ، ويمشى فى الأسواق ، و ينتزه فى الحدائق على شاطئ النيل ، و يقتنى أفخر الدواب من حير مصر و بغالها وأفراس بلاد العرب ، ويهدى منها أصدقاءه ولقد أهدى مالك بن أنس عددا منها ، وكان يحتمى بسروجها و برادعها ويوشى اللجام كما تعود أن يهديه كل عام من أجود كتان مصر ما يكفيه طوال العام .

وكان عند الليث ثياب بعدد أيام السنة ، فما يلبس الثوب يومين متتالين .. ولعل مالك بن أنس اقتنع برد الليث فشرح هو الآخر يعنى بلبسه وماأكله .

على أن الليث لم يستمتع وحده بطيبات الحياة .. فقد كان يوزع على أهل العلم ، وأصحابه ، وجيرانه ، ومن يعرف أنه صاحب حاجة .. كان يوزع المال ويهدى الطعام والثياب والدواب .. وما أكل وحده قط

وكان يطعم فى كل يوم ثلاثمائة من الفقراء والمساكين ، غير الصحاب وأهل العلم يطعمهم من أطيب ما يطعم هو الرقاق ، واللحوم ، وحلوى (هريسة) بعسل النحل وسمن البقر، واللوز بالسكر ..

وعاش عمره يعطى السائل أكثر مما يسأل .

طلبت منه امرأة رطلا من عسل لتعالج ابنها ، فى وقت شح فيه العسل ، فأمر كاتبه أن يعطيها مرطا من عسل (المرط نحو مائة وعشرين رطلا) ، فقال كاتبه : « سألتك رطلا أتعطيها مرطا ؟ » فقال الليث : « سألتنا على قدرها ونحن نعطيها على قدرنا » ..

كانت له ضيعة بالفرما (قرب بورسعيد) يأتيه خراجها ، فلا يدخله داره ، بل يجلس أمام أحد أبوابها العشرين وقد جعل المال فى صرير يوزعها جميعا صرة بعد صرة وكان لا يتصدق بأقل

من خمسين ديناراً.. ذلك أنه كان يحسن استثمار أرضه الواسعة الخصبية حتى لقد كانت تدر عليه نحو عشرين ألف دينار كل عام..

وعلى الرغم من هذا الثراء الضخم فما وجبت عليه زكاة قط.. فما حال الحول عليه وعنده دينار واحد.. إذ كان ينفق كل دخله: يحيا حياة مترفة بما أحل الله له، ويقتنى أغلى الكتب وأندرها، مهما يكلفه الحصول عليها

وكان عقله موسوعة من المعارف من علوم الشريعة والأدب واللغة والفلسفة والطبيعات والرياضيات.. وحتى الطب!

وكان يعنى بصحته أبلغ عناية حتى ليبدو أصغر من سنه بأعوام.. ذلك أنه كان يكد، ويتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام في العناية بالصحة، فيعطى بدنه حقه من الراحة.. وإن لبدنك عليك حقاً ويعطى قلبه حظه من المرح، فإن القلوب لتصدأ ومن الواجب الترويح عنها، ويمنح عقله ونفسه ما يحتاجان إليه من سكينته وهدوءه. وقد هداه علمه بالطب إلى وجوب الرضا بقضاء الله وتجنب الانفعالات فهي التي تتلف الصحة..

كان يحب أن يعيش سعيداً، ويحب أن يسعد الذين يعيشون من حوله. من أجل ذلك ينفق على الآخرين ليسعدهم.. ويرى أن صاحب المال مستخلف فيه لينفقه فيما يرضى الله ورسوله وفيما يسعد الناس.

كان شعاره «أحسن كما أحسن الله إليك ولا تنس نصيبك من الدنيا» ويحسن فهمه هذه الآية الكريمة تمتع بالحلال من الطيبات، وأمتع الآخرين.

من أجل ذلك نادى الليث بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بما لا إذا بلغ الناس حد الكفاية والحكام وولاة الأمور مسئولون أمام الله عن أن يوفروا للناس جميعاً حد الكفاية لا حد الكفاف..

وحد الكفاف هو ما يحفظ للناس حياتهم من الطعام والشراب، أما حد الكفاية فهو ما يكفي كل حاجات الناس من جودة الطعام والشراب، والمسكن الصالح المريح، والدواب التي تحملهم، وألعم الذي ينقذهم من الضلال، وسداد ديونهم.. وكل ما يوفر الحياة المريحة الكريمة للإنسان!

وقد استنبط الليث هذه الأحكام من فهم عميق لنصوص القرآن الكريم والسنة، ومن أعماله الفكر واجتهاده بالرأى..

أنكره خلفاء بنى أمية، وضاقوا بآرائه وكانوا يتعازون للعرب ضد الموالي، على الرغم من أن

الخليفة العربى الأموى عمر بن عبد العزيز كان يقوم الناس على أساس علمهم ، حتى لقد نهر الذين ينكرون على الموالى حق الفتيا قائلا : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها سعدا وأنتم لا تسمون» .

وإذ دالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس ، ظهرت أحاديث نبوية كثيرة كان الناس يتداولونها سرا

وهكذا أذاع العباسيون حديثا للرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه للعرب : « لا يجهشنى الناس بالأعمال ويجهشونى بالأنساب » إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ونشر فقهاء الموالى على الناس فضائل بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى . وكلهم له سابقه .. فى الإسلام .. حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول بلال سيدنا

وأذاعوا ما كان من الإمام على كرم الله وجهه من تكريم للموالى ، وتقويمه للناس بقدر علمهم وصلاحتهم وتقواهم ، لذلك أحبه الموالى وشايعه أغلبهم .. ولعله من أجل تسوية الإمام على بين العرب والموالى ، وجعله العلم والتقوى والصلاح أساس المفاضلة ، لعله من أجل ذلك ، كره بنو أمية الموالى — إلا عمر بن عبد العزيز — كراهية منهم لأشباع الإمام على ، وانحيازهم منهم للعرب ، حتى لقد صرخ أحد خلفائهم !! أكل علماء الأمصار من الموالى ؟ ! تكاد نفسى تخرج ولا أسمع عن فقيه واحد عربى ! وهكذا شعر الموالى عندما جاء العباسيون ، أن زمن التفرقة قد ولى إلى غير رجعة . احتفى بنو العباس بالموالى وبالغوا فى الاحتفاء بهم ..

وإذن فقد جاء الوقت الذى يستطيع فيه الليث بن سعد أن يجلس فى جامع عمرو ، ليعلم الناس ، وليفتى لهم فى أمور الدين ، والحياة

وكان قد أخذ مكانته بين فقهاء عصره على الرغم من شبابه .. فما كان قد بلغ الثلاثين ، عندما جلس يعلم ويفتى

وكان فقهاء عصره من جميع الأمصار ، قد التقوا به ، معلمين ومناظرين ، فى رحلاته المتكررة إلى الحجاز حاجا ومعتبرا ، وزائرا للحرم النبوى ، وطالب علم فى الوقت نفسه .. مناظرا يرمى آداب المناظرة ، ويغلب المستمعين بفساحة اللسان ، ونصاعة البيان ، وعمق الإدراك ، وحسن الخطاب ، مع توقد الذهن ، وسرعة البديهة ، وذكاء الاستنباط .. حتى لقد كان ربيعة الرأى أستاذه لا يحسب حساب أحد من الفقهاء أو التلاميذ إلا الليث بن سعد .. ذلك الوجيه المصرى !

ولقد سمع به الخليفة العباسى المنصور، فاستدعاه ليقابله فى بيت المقدس وكان للمنصور ولع بالعلم والأدب ، وناظره المنصور، فأعجب به .. وعرض أن يوليه مصر ولكن الليث يريد أن يحيا حياته بعيدا عن هموم المسئولية السياسية ، متفرغا للعلم !

خجل أن يصرح بعذره للخليفة ، وتعلل بأنه لا يصلح لهذا قائلا : « يا أمير المؤمنين . إنى أضعف من ذلك إنى رجل من الموالى » فقال المنصور: « ما بك من ضعف معى ، ولكن ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك لى .. لقد أعجبتنى .. أكثر الله فى الرعية من أمثالك . » وأجزل له المنصور العطاء ، فوزع الليث كل ما أخذه على المحتاجين قبل أن يبرح ..

وعاد إلى مصر فى موكب فخيم يصحبه ثناء المنصور عليه .

ولقد نصح المنصور لأهل العلم فى العراق وسائر الأمصار أن يذهبوا إلى الفسطاط ، فيتلقوا عن هذا الفقيه المصرى الشاب الذى لم يلق المنصور أفقه منه بالشريعة ، ولا أحفظ منه للحديث ، ولا أحد منه بصيرة أو أذكى جنانا أو أفصح لسانا ، ولا أعدل أو أعف ، أو أوسع علما بمعارف الأوائل وحكمتهم ، ولا قدرة على الاستنباط ، ولا أسلم منه رأيا .. ! ثم إن المنصور أرسل إلى والى مصر وقاضيا أن يستشيروا الليث بن سعد فى كل أمورهما .

وكبر على بعض الفقهاء العرب أن يضع المنصور احد الموالى فى هذه المكانة فوق الوالى العربى والقاضى العربى ، فأخذوا يكيدون لليث بن سعد حسدا من عند أنفسهم وأرسل أحدهم إلى الخليفة المنصور: أمير المؤمنين تلاف مصر! فإن أميرها ليث بن سعد !!

عسى أن يتوهم الخليفة أن الليث بن سعد يستغل رضا الخليفة عنه ، ليتعالى على الوالى والقاضى ، فأصدر الخليفة أمرا وأعلنه على الملأ أن الليث بن سعد هو أعلم رجال عصره بالشريعة واللغة والشعر ، وهو أكثرهم تحريا للعدل وتوقيا للشبهات تخرجا وعفة .. وهو من أجل ذلك ينصبه كبيرا للديار المصرية ورئيسها ، بحيث لا يقضى فى مصر شىء إلا بمشورته ، ويصبح الوالى والقاضى تحت أمر مشورته ..

ثم إن الخليفة زجر هؤلاء العرب المتعصبين لعروبتهم ، المنكرين على الموالى حسن بلائهم وارتفاع مكانتهم ، واستشهد فى زجرهم بقول رسول صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حية الجاهلية ، وتعاضمها بآبائها . فالناس رجالان : بر تقى ، كرم على الله ، فاسق شقى ، هين على الله ، والناس كلهم بنو آدم .

هكذا أعلن الخليفة تأييده للموالى ، ودعم الليث بن سعد دعما حاسما

ولكن الليث أحسن استخدام هذه الثقة لإفادة الرعية .. فما كان يفرض رأيه على الوالى أو القاضى مهما يختلف معها ، ولكنه إن وجد فى أوامر الوالى أوقضاء القاضى ما يظلم أحدا كتب إلى الخليفة فيأخذ برأى الليث .

وكان أشد ما يسوء الليث بن سعد من ولاة الأمر أن يقبل أحدهم هدية ، وكان يجهر فى مجالسه أنه إذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت العدالة من النافذة .. !

وكان ينصح كل صاحب منصب ألا يقبل هدية من أحد من الرعية ، وإن لم يكن للمهدى حاجة ، فإذا قبل صاحب المنصب النصيحة ورفض الهدية شكره ، أما إذا أبى ، كتب للخليفة فعزله

وقد عاتب أحد المعزولين الليث بن سعد فقال : « نصحتك فلم تنتصح ، ومصلحة الرعية أولى وما صبرى على ظلم الرعية ؟ » وكان المعزول لا يملك إلا راتبه ، فأجرى عليه الليث راتبه من ماله الخاص !

وتمضى الحياة بالليث وهو يب كل وقته للدرس والعلم والفتيا ومواساة الناس .

تعلم من أحد شيوخه ألا يغشى مجالس الولاة ، فكان إذا استدعاه أحد الولاة ليسأله عن شىء من العلم رد عليه الليث بقول شيخه : « أتنى أنت ، فإن مجيئك إلى زين لك ومجيشى إليك شين على »

وهكذا كان أولو الأمر يذهبون هم إليه .

وقد أحسن تقسيم وقته بين مشاغله العديدة .. وقسم إلى أربعة مجالس يجلس فيها ، فالمجلس الأول للوالى والقاضى وأولياء الأمور يسألونه المشورة أو يسمعون رأيه فى سيرتهم وأحكامهم . فإذا انتهى هذا المجلس عقد مجلسه الثانى لأهل الحديث ، يسمع منهم ، ويشرح للمستمعين ما يحفظ من أحاديث ويقول : « نَحُوا أصحاب الحوانيت ، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم » .

وفى الحق أنه كان حريصا على أن يكون مجلس الحديث لأهل الحديث وحدهم ، فيتذاكر معهم أسانيد الأحاديث وصحتها ومعانيها وروحها وفحواها ، فما كان لغيرهم مكان !

فإذا فرغ من هذا المجلس ، عقد مجلسا للناس كافة ، يسميه مجلس المسائل ، وهو مجلس للفتيا .. يسأله الناس فيما يعرض لهم من أمور الحياة ، فيجيب مستوحيا القرآن فى فتاواه ، فإن لم يجد لجأ إلى السنة ، فإن لم يجد الاجابة فى النصوص ، التمس الجواب فى إجماع الصحابة — وكان من رأيه أن إجماع

الصحابة نادرا، فإن لم يجد ، اجتهد رأيه ، ولجأ إلى القياس وإلى العادات والعرف ما لم يخالف نصا
أما مجلسه الرابع فكان في داره ، وهو مخصص لحاجات الناس .. وهذا المجلس كان يستهلك إيراده
السنوي الكبير.

أما استثمار أرضه ، فقد كان له وكيل هو كاتبه يقوم عنه بأمر الأرض

لقد صح رأى الليث عندما اعتذر عن ولاية مصر ليتفرغ للعلم .. فقد استقام له الآن فقه خاص ،
استقل فيه عن فقه ربيعة الرأي ، أستاذه وخالف به فقه أكبر عالمين في عصره وهما أبو حنيفة النعمان
ومالك بن أنس صديقه .

وقد التقى الليث بأبي حنيفة في مجلس مالك بن أنس في المدينة .. ودخل الليث على مالك ذات
ليلة من الشتاء فوجده يمسح عرقه وقد انصرف من عنده أبو حنيفة فسأله عن سبب هذا العرق والبرد
شديد فقال مالك « عرقت مع أبي حنيفة ، إنه لفقيه يامصري » وكان مالك لا يحب الجدل وأبو
حنيفة مولع به . وسأل الليث أبا حنيفة عن رأيه في مالك فأثنى عليه أطيب ثناء .

على أن الليث كان ينكر على أبي حنيفة توسعه في الأخذ بالرأى ولجوءه إلى الخيل لاستنباط
الحكم ، وإن كان معجبا بذكاء أبي حنيفة ، وسرعة بديته .. ولقد سمع به قبل أن يلقاه ، وتمنى أن
يراه .. ورآه لأول مرة في المسجد الحرام ، قبل أن يلتقى به عند مالك في المدينة .. رأى حلقة عليها
الناس ، فإذا هي حلقة أبي حنيفة ، فجلس يستمع إليه فأقبل رجل فقال : يا أبا حنيفة إنى رجل من
أهل خراسان كثير المال ، وإن لى أبنا ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره إن زوجته طلق وإن سرية
أعتق »

(وسرته أى وهبته جارية تعيش معه كالزوجة) وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة ؟ « فأسرع أبو
حنيفة عجيبا . اشترى نفسك الجارية التى يرضاها هو ، ثم زوجها منه ، فإن طلق رجعت مملوكتك إليك ،
وإن أعتق أعتق مالا يملك » .

ويقول الليث عن جواب أبى حنيفة: فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة
جوابه ..

لقد رأى الليث أن أبا حنيفة ما كان ينبغى أن يجيب بمثل تلك السرعة ، ولا أن يلجأ لمثل
تلك الحيلة !!

اختلف الليث مع أبى حنيفة فى كثير من الآراء ، وأشهر خلاف بينها هو الرأى فى

الوقف .. فقد كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف .. لأنه يرى في حبس المال قيدا وضرا ..

وهذا الرأي أخذ أحد قضاة مصر، فنبه الليث إلى خطأ هذا الرأي ، وإلى مخالفته للسنة .. ولكن القاضى ظل يحكم بإبطال الوقف .. فجاءه الليث فى مجلس القضاء ، فرفع القاضى المجلس ، فقال الليث : إنما جئت إليك محاصبا ، فقال له القاضى : « فى ماذا » قال الليث « فى أحباس المسلمين (أى أوقافهم) لقد حبس (أى وقف) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى فن بقى بعد هؤلاء ؟

ولم يقتنع القاضى ، فكتب الليث إلى الخليفة بشأته : والله إنا لم ننكر عليه شيئا ، غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها !

فأمر الخليفة بعزل القاضى ، فجاء القاضى إلى الليث فى مجلسه ، وأخبره بأمر العزل وأضاف : « والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت »

فقال له الليث بصوت يسمعه الجميع : والله إنك لعفيف عن أموال الناس ، ولكنك تخالف الرسول صلى الله عليه وسلم فما تصلح للقضاء .
وهكذا عاش الليث يصحح ما يراه خطأ من أحكام القضاء ، أو أوامر الحكام ، أو ما استقر فى عقول الناس ..

رأى الناس فى مصر ينتقصون عثمان بن عفان رضى الله عنه — ومن مصر انفجرت الثورة على عثمان — فهى الناس عن ذلك ، وأوضح لهم فضائل عثمان بقيادة ابن أبى بكر وحسن بلائه فى الإسلام ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن أحد ولاة مصر هدم الكنائس .

فكتب إلى الخليفة طالبا عزل الوالى لأنه مبتدع ، مخالف لروح الإسلام . فعزله الخليفة بجرمته ، وأشار على الوالى الجديد أن يعيد بناء ما هدم من الكنائس ، وأن يبنى كنائس جديدة كلما طلب ذلك المسيحيون فى مصر ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استوصوا بالقبط خيرا » ولأن أكثر الكنائس التى كانت قائمة بمصر إنما بناها الصحابة ، ممن قادوا جيش الفتح الإسلامى .

وإجماع مثل هذا العدد من الصحابة هو فى قوة السنة ، فما كانوا ليجمعوا على أمر إلا لأنهم تعلموه من الرسول .

إن عمر بن الخطاب أبى أن يصلى فى الكنيسة ببيت المقدس كيلا يصنعها مسلم بعده ،
ولكى تظل للكنائس حرية العبادة فيها ، واستقلالها .

ثم إن عمر بن الخطاب عاهد المسيحيين فى بيت المقدس على حماية أنفسهم وأموالهم
وعقيدتهم وكنائسهم وأوقاف هذه الكنائس وأموالها ، وأقر الصحابة بالإجماع . فهذا الصنيع
حجة على المسلمين إلى آخر الزمان .

ومن قبل عمر ، حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من إيذاء أهل ، الذمة . وهم أصحاب
البلاد المفتوحة من أهل الكتاب الذين لم يدخلوا الإسلام بل احتفظوا بدينهم . فهم فى ذمة الله
ورسوله .

وفى الحديث الشريف : «من آذى ذميا حد (عوقب) يوم القيامة بسياط من نار» وفى
حديث شريف آخر : « من آذى ذميا فأنا خصمه »

وهذا وجه عمر لى عمرو بن العاص فاتح مصر : «إحذر أن يكون رسول الله صلى الله عليه
وسلم خصمك »

كما احتج الإمام الليث على من هدم الكنائس بقوله تعالى «ومن أظلم ممن منع مساجد الله
أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها» ثم وعيده تعالى « لهم فى الدنيا خزي وفى الآخرة عذاب
عظيم » والآية نزلت فى الروم الذين فتحوا بيت المقدس ، فنعموا الصلوات وأحرقوا الكنيسة ،
فلم يوجد نصرانى إلا أنهك ضربا !

بهذا الفكر المستبتر انطلق الإمام الليث يعظ المسلمين ، ويوثق العلاقات بين مواطنيه فى مصر من
مسلمين وأقباط ، ليكونوا رحما بينهم ، وكانت له هون نفسه مودات وصدقات مع الأقباط .. وعرف
الأقباط صدق الأخوة من المسلمين بحسن إسلامهم .

على أن هذا كله أغضب المتعصبين من الفقهاء وصغار الحكام ، وهم قلة حقا ولكنهم كانوا فى
بعض مواقع التأثير .. وما كانوا لينالوا من الإمام وهو حى يملأ الحياة من حوله بالحب والخير ونور العلم ،
فانتظروا حتى إذا مات وثبوا على ذكره ، وثاروا على فقهاء ، وحاولوا أن يطمسوا كل آثاره ، وأن يهيلوا
التراب على آرائه وأفكاره .. !!

أصبح الليث بحق سيد الفقهاء ، اشتهر بحسن الرأى ، ونفاذ البصيرة ، وبتفسير القرآن بروح
النصوص ، دون الوقوف عند الظاهر .. حتى لقد أملت بالرشيد نائبة .. لم يجد له أحد من فقهاء
العصر مخرجا منها إلا الليث ..

روى لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرى كلام بين الرشيد وزوجته زبيدة وهى بنت عمه .. فقال الرشيد لها أنت طالق إن لم أدخل الجنة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلقوا .. ثم أرسل إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه .. فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد .. فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته .

فصرفهم ، ثم طلب الليث من الرشيد أن يحضر مصحفاً ، فأحضر المصحف . وقال الليث : « تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ولن خاف مقام ربه جنتان ، أمسك يا أمير المؤمنين . قل والله .. فاشتد ذلك على الخليفة . قال الليث قل والله إنى أخاف مقام ربى .. فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فهما جنتان وليست بجنة واحدة .

وكانت زبيدة تسمع هى وجواربها خلف ستار . فارتفع التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال الرشيد : أحسنت والله . فأمر له الرشيد بجوائز وخلع وآلاف الدنانير ، وأمرت له زبيدة ، بمنئها وأقطعها الرشيد أرض الجيزة كلها ، وهى من أخصب أرض مصر .

فسأله الرشيد : ياليت ما صلاح بلدكم ؟

قال : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي : فقال الرشيد صدقت . فأمر الرشيد ألا يتصرف أحد فى مصر إلا بأمر الليث بن سعد .

عاد الليث بن سعد ، وقد ارتفعت مكانته ، فقد بهر الناس حتى الفقهاء بحذقه وفهمه لروح الآية ، وبحسن تخريجه ،

وعاد بإقطاع الجيزة فتضاعفت ثروته ، كان دخله عشرين ألف دينار فى العام ، فأصبح نحو مائة ألف .. فازداد تنعماً وتمتعاً بزينة الحياة التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق .. وازداد شباباً وعافية ، وازداد سخاء

كان يطعم ثلثمائة مسكين كل يوم ، فلما حصل على خراج إقطاع الجيزة ، أمر بإطعام ثلثمائة مسكين بعد كل صلاة !

قيل له إن سلوكه ذاك إسراف ومجلبة للفقر ، فرد ، بأن الله لا يحب المسرفين هذا حق ، وما هذا الذى حصل عليه من الرشيد إلا رزق ساقه الله وفيه حق لكل صاحب حاجة .. والله تعالى يلعن الكافرين ، وينذرهم بعذاب عظيم ، حيث تكوى وجوههم وجنوبهم فى نار جهنم بما

كنزوا من ذهب وفضة .. ثم إنه لا يحيا وحده ، بل فى مجتمع يجب أن يكون كل افراده سعداء ، لكى يشعر هو نفسه بمعنى السعادة !! ثم قال لهم : «ولا تنسوا الفضل بينكم وحسبه هو من الغنى ما يكفيه هو وعياله ليحيوا حياة موفورة سهلة ممتعة .. أما ما زاد عن ذلك ، فيجب أن يوجه لكفاية الآخرين وإسعادهم .. ثم ضحك واستشهد بمعجزيات من شعرا مرمى القيس : وحسبك من غنى شيع ورى ! ..

وهكذا أصبح ما يتردد عليه أحد إلا أطعمه ، وقدم إليه الهدايا ، وأدخله فى نفقة عياله ، وما ينصرف عنه أحد إلا منحه مالا ..

ولم ينس نصيبه من الدنيا !! روى عنه أحد معاصريه ممن كانوا يترددون عليه .. قفلنا مع الليث بن سعد من الاسكندرية وكان معه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها ضيوفه . وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلى .

وذهب بعض أصحابه إلى مالك فى المدينة يسألونه فى بعض مسائل اختلف حولها مع الليث ، فلم يقابلهم مالك فقالوا : ليس هذا كصاحبنا « فسمعهم مالك فأمر بإدخالهم وسألهم : « من صاحبكم ؟ قالوا : الليث بن سعد قال مالك : تشبهوننى برجل كتبت إليه فى قليل من عصفر مصر نصيغ به ثياب صبيانا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبيانا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟ وكان الليث قد أرسل إلى مالك حمل ثلاثين بعيرا !

وكان خلاف الليث ومالك فى الفقه مثالا للحرص على الحقيقة ، وشجاعة العالم ، فى مواجهة الخطأ ، وقدرته على الرجوع إلى الحق . قال الليث : أحصيت على مالك سبعين مسألة قال فيها برأيه وكلها مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اعترف بأنه أخطأ فى بعضها . من هذه المسائل أن الجنين يستقر فى بطن أمه ثلاث سنوات وهذا مخالف للعقل ، والعلم والطب .. وليس فى الشرع ما يخالف العقل .. ورأى مالك هذا يفتح باب الفساد للنساء اللاتى يغيب عنهن الزوج بالطلاق أو الوفاة أو السفر أو لأى سبب آخر . وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتى بهذا .

ومن هذه المسائل استغلال الأرض المزروعة بالإيجار ، فالليث يرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى ذلك فعلى صاحب الأرض أن يعمل فيها أو يستغلها بالمزارعة ويقسم الثمرات بينه وبين العاملين . فله نسبة منها لا تحجف حق العاملين ولا تظلمهم ..

وقيل ومن هذه المسائل أن مالك بن أنس كان يرى أن ديون العباد فى التركة أولى بالأداء

من دين الله كالزكاة ، فحق العباد أولى بالرعاية من حق الله ، دفعا للمضرة ، أما الله تعالى فهو غفور رحيم ، والليث يرى أن الزكاة واجب أولى بالأداء لأنها حق الله والعباد معا .

ومنها الكفاءة فى الزواج ، فمالك يعند بالنسب ، فلا يصح زواج القرشى بغير القرشية أو العربى بغير العربية .. أما الليث فالمعول عنده على الإسلام .. فكل مسلم كفاء لكل مسلمة .. والقول بغير ذلك يخالف القرآن « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويخالف الحديث : « لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

ولقد كان الإمام الليث بن سعد والإمام مالك بن أنس يتحاوران حول ما يختلفان فيه ، على ضيق مالك بالمناظرة .. وكثيرا ما كانا يتبادلان الرسائل حول المسائل المختلف عليها .. وقد لا يرد مالك على بعض آراء الليث فيفهم الليث أن صاحبه عدل عن رأيه أو يرسل إليه سائلا عن سبب امتناعه عن الرد .

وقد حفظ التاريخ رسالتين كاملتين ، تصوران التقدير والاحترام والعواطف المتبادلة بين الرجلين ، على الرغم من حدة الخلاف . كتب الإمام مالك إلى الإمام الليث : من مالك بن سعد . سلام عليك .. فإنى أحمد الله اليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعانية وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم رحمتك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة ، مخالفة لما عليه الناس عندنا ، وأنت - فى أمانتك وفضلتك ، ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك - حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجوا النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . وقال تعالى : فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة . إليها كانت الهجرة وبها تنزل القرآن ، وأحل ، الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل و يأمرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله . واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده بما نزل بهم فما علموه أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه .

وخصى الإمام مالك يسوق الحجج على أنه لا يجوز لأحد أن يخالف عمل أهل المدينة ، فعمل أهل المدينة بمثابة السنة المتواترة ، وإذن فلا يحق لإمام فى مكانة الليث وفقهه أن يفتى بما يخالف عمل أهل المدينة .

ثم يختم رسالته : « فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك واعلم أنى أرجو ألا يكون دعائى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر فأنت تعلم أنى لم ألك نصحا . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال . والسلام عليكم ورحمة الله .

فرد عليه برسالة طويلة جاء فيها « سلام عليك » . فإنى أحد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة . . قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . . »

ثم قال : « بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق لى الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت إليها الهجرة وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذى كتبت من ذلك إن شاء الله . . وقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحد ا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا أخذ لفتياهم فى اتفقوا عليه منى والحمد لله الذى لا شريك له » . أما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه ، فكما ذكرت . وأما ما ذكرت من قول الله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجنّدوا الأجناد واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتبوا شيئا علموه ،

وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وتقدمهم أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير — لإقامة الدين والحذر من الاختلاف — بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسر القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى

بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره . فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »

الزهري . وربيعة الرأي . . وخلاف مالك والليث وعبد العزيز بن عبد الله مع ربيعة أستاذهم .

ثم أخذ الليث يحصى على مالك أخطائه وأخطاء أهل المدينة .

« من ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به . ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام وبمصر ولا بالعراق ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والحد في إقامة الدين ، والإصابة في الرأي ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى في المدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه إنا كنا نقضى بذلك في المدينة فوجدت أهل الشام على غير ذلك . فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين .

واستطرد الليث : « ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها . . . ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها .

ثم مضى يقول : وقد أبلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك في شيء مما أنكره ، وفيها أوردت فيه على رأيك . . »

ومن فتيا مالك التي بلغت الليث فأنكرها ، أن الشريكين في المال لا تجب عليها الزكاة ، حتى يكون لكل واحد منها ما تجب فيه الزكاة ، وفي رأى عمر بن الخطاب أنه تجب عليها الزكاة بالسوية . وهذا أخذ الليث ، ومن ذلك قول مالك بالجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في حالة المطر واختلف الليث معه في جواز الجمع .

ومن ذلك صلاة الاستسقاء ، ومالك يقدم الصلاة على الخطبة ، ورأى الليث أنها كالجمعة تتقدم فيها الخطبة والدعاء على الصلاة .

ثم قال له فى نهاية الرسالة « فلم يكن ينبغى لك أن تخالف الأمة أجمعين وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا . وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استثناسى بمكانك وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأى فيك فاستيقنه .. ولا تترك الكتابة إلى عن حالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك . فإنى آمر بذلك .. فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا . والسلام عليك ورحمة الله . »

فى الحق أن الرسالة صورة من أدب الخلاف فى ذلك الزمان على ان هناك مسائل فرعية أخرى اختلف عليها الصديقان خلافا شديدا .

منها أن الإمام مالك بن أنس أجاز ضرب المتهم بالسرقة للحصول على اعترافه ، حماية للأموال ، مما يحقق مصلحة عامة هى أولى بالرعاية من مصلحة المضرور !

وتساءل الليث فإذا ثبت أن المتهم برىء ؟ ! إن حماية البرىء أولى من عقاب المذنب .. ولأن يفلت عشرة مذنبين خير من ظلم برىء واحد ثم إن الضرب فى ذاته عقوبة لا يقضى بها إلا بعد ثبوت الجريمة ، وإلا فالضارب والأمر بالضرب ومن أفتى بجوازه .. كلهم مسئولون .

كما اختلف الصديقان فى حكم الشركاء فى جريمة القتل .. فذهب مالك إلى قتل جميع الشركاء كالفاعل الأسمى .. وهذا هو القصاص .. أما الليث فرأى أن هذا يخالف روح آيات القصاص فالمقصود بالقصاص هو الفاعل الأسمى ، وعقابه فى جريمة القتل هو القتل . أما الشركاء فقد أخذ فيهم الليث بحكم الإمام على وهو الحبس مدى الحياة حتى الموت .

ولاريب أن أساس كل الخلافات بين الإمام الليث والإمام مالك هو الخلاف بين منيج كل منها فى استنباط الحكم ما لم يكن النص واضحا قطعى الدلالة .. فالإمام مالك يرد الحديث الذى يرويه صحابى واحد ، ويأخذ بعمل أهل المدينة أو بما يستحسنه ويراه محققا للمصلحة .. أما الإمام الليث فيأخذ بالأحاديث التى يرويه الآحاد ، ويقول اننا لو فتحنا باب الاستحسان والمصالح فما هى الضوابط ؟ . أكلما بدا للمفتى أو القاضى أن رأيا ما أحسن أو أرمى للمصلحة أخذنا به ؟ وإذن تتناقض الفتاوى فى المسألة الواحدة ! ! فلا عاصم إلا ضبط الأحكام التى لم يرد بها نص قطعى بقبول الحديث الذى يرويه الصحابى الواحد مادام هذا الحديث يوافق روح القرآن ، و يوافق روح السنة ، ولا يخالف العقل ، أو يجافى مقاصد الشرع .

فإذا لم يكن فى أحاديث الآحاد أو أقوال الصحابة أحكام تواجه الأمور المستحدثة ، وتنطبق على

الأقضية الجديدة ، فلا غنى عن القياس .. وهو أضبط المعايير وأحرأها بتحقيق العدل .

وذلك بأن نطبق الأحكام التي أوردتها النصوص على كل ما يشابهها من أفضية ومساائل وأمور إذا اتحدت العلل . وبهذا النظر واجه الليث ما استحدث من قضايا الناس فى مصر ومساائلهم .. وهكذا استطاع أن يمهّد الطريق الوسط بين فقه السنة وفقه الرأى .

وعلى هذا سار الشافعى من بعده عندما جاء إلى مصر . لم يكن الحوار بين الصاحبين بلا جدوى ، وما ضاع سدى ، فقد عدل مالك عن آرائه أو صححها .

أما الليث فأخذ نفسه بالبحث عن الأحاديث التي تحض على مكارم الأخلاق والتي ترسم صورة المجتمع الفاضل الذى تسوده العدالة والمودة والرخاء ، ويشعر الإنسان فيه بأنه أخ للإنسان .. !

وكان يجتمع فيه مع الناس فى مجلسه بجامع عمرو ، فى داره بالفسطاط أو بقريته قلقشندة ، أو على ظهر السفينة وهو بين الفسطاط والإسكندرية .. فى كل مكان كان يحدث الناس بهذه الأحاديث التى تدفعهم إلى الجهاد من أجل حياة أفضل ، والتى تحض على مكارم الأخلاق .

ولكنه لم يكن يحدث بكل ما يعرف من أحاديث .. بل يختار ما يطمئن إلى صحته ، وما يتثبت هو من صدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن يكتب كل ما يتحدث به فليل له : إنا نسمع منك الأحاديث ليست فى كتبك .. فقال — وكان على ظهر مركب — لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب .

ولقد يعدل عن الرأى إذا تبين له أنه خطأ وأن هناك رأياً أوجه منه . تكلم مرة فى مسألة فقال له رجل : فى كتبك غير هذا .. فقال الإمام الليث .. : « فى كتبنا ما إذا مر بنا هذ بناه بعقولنا وألستنا »

ظل الشيخ يعلم الناس ، ويرعى أهل العلم ويتصدق على ذوى الحاجات ، ويسدد الدين عمن يشقله الدين ، ويعمر البيوت ، ويحسن كما أحسن الله إليه ، ويعين الآخريين .. ولم ينقطع يوماً عن حلقلته فى مسجد عمرو أو فى بيته حتى بلغ الثانية والثمانين ، وهو محتفظ بقوة البدن وصحة الفكر .

وأذن الله أن يتوفاه إليه فرض أياماً قلائل لم يرهق خلالها بمرضه أحداً .. ثم جاءه أمر الله فتوفى فى ليلة النصف من شعبان عام ١٧٥ هـ وكان قد ملأ الدنيا بحسن سيرته بين الناس بالعلم والحكمة .

وشيعت جموع عديدة ما اجتمع بهدينة الفسطاط مثلها من قبل ولا من بعد . قال طالب علم لأبيه وهما ينصرفان من جنازة الإمام الليث : يا أبى .. كأن كل واحد من هؤلاء الناس صاحب الجنازة : فقال « يا بنى .. كان عالماً حسن العقل كثير الأفضال . يا بنى لا ترى مثله أبداً » .

قال عنه أحد الفقهاء: « كان الليث أفقه من مالك ولكن الخطوة كانت لمالك . ولقد حزن لفقد الإمام بن سعد كل فقهاء عصره ، وقال المسلمون فى كل أقطار الأرض : « ذهب سيد الفقهاء » .

أما المصريون فقد بكوه أحربكاء ولكنهم أضاعوه .. ! وذلك بأنهم لم يكتبوا تفسيره للقرآن أو الحديث ولا فقهه ! أما ما كتبه هو فقد عمل حساده من القضاة والولاة على إخفائه كما أخفى كتبه بعض المتعصبين .. !

وبعد وفاة الإمام الليث بأعوام جاء الإمام الشافعى إلى مصر يعيش فيها ويلتمس فقه الإمام الليث فلم يجد منه ما يريد .. ! .

قال الشافعى : « ما فاتنى أحد فأسفت عليه كالليث بن سعد » .

ونظر فيما بقى من آثاره فقال : الليث أفقه من مالك إلا أن قومه أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به .. » .

ثم ذهب الإمام الشافعى إلى قبر الإمام الليث فصلى .. ودعا له بالرحمة . وقف طويلا يتأمل فى صمت كل تلك الحياة الضخمة العريضة الزاخرة .. ذلك العقل الرائع المتوهج الخصب ، وذلك القلب الذى جعل حياة الناس من حوله نعيما خالصا ، وملأها سكينه وأملا .. الإضطرام ، والمودة ، والخير ، والعطاء ، بلا حدود والحب الخارق للبشر ، والرغبة المقدسة فى إسعاد الآخرين والتقوى .. لم يبق من كل هذه الروعة شىء .. حتى الذكرى ؟ ! .. فما من كتاب واحد يحفظ آثار فكره ، واجتهاداته المضيئة .

واستعبر الشافعى وبكى ، وهو يقول من خلال الدمع : « الله أنت يا إمام ... ! ... لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

الإمام الشافعي
قاضى الشريعة - وخطيب الفقهاء

على الرغم من أن الإمام الشافعي لم يكن قاضياً في مصر قط ، فإن أهل مصر يسمونه « قاضي الشريعة » .. وما زال العديد من أصحاب الحاجات الذين لم ينالوا حظاً من التعليم يتجهون إلى ضريح الإمام الشافعي في الحى المعروف باسمه في القاهرة ، فيقدمون الظلمات ، ويسألون الله تعالى أن يقضى لهم حاجاتهم ، ويرد عنهم الظلم ، متوسلين بالإمام الشافعي قاضي الشريعة .

وقد شاع بين أهل مصر أن الإمام الشافعي هو قاضي الشريعة ، منذ قدم إلى مصر عام ١٩٩ هـ ، وهو يخطو إلى الخمسين ، رجلاً طويلاً مشوق القامة ، فارساً ، أسمر كأبناء النيل ، بشوشاً ضاحك الوجه . مهذب اللحية ، يصبغ لحيته وشعره بالحناء اتباعاً للسنة ، عذب الحديث ، رخيم الصوت ، يشع البريق من عينيه بصفاء الود لمن يراه ، على الرغم مما يتقل جفنيه من آثار السهر ، وطول التأمل وأعمال الفكر ، وكثرة التجوال بروحه وجسده بحثاً عن حقائق الشريعة !! .. فى ثياب خشنة نظيفة ، متكئاً على عصا غليظة ، كأنه حاج ورع أو جواب آفاق .. !

وفى الحق أن المصريين لم يخطئوا فى إطلاق اسم قاضي الشريعة على الإمام الشافعي ، فأكاد يبطأ أرض مصر حتى يبحث عن قبر الإمام الليث بن سعد فوقف عليه مستعبراً .. ثم بحث عن آراء الليث وفقهه . فوجد المتعصبين من أعداء الليث وحساده ، قد أخفوا كل كتبه تحت التراب أو أحرقوها .. ! وظل يبحث عن كتاب « مسائل الفقه » الذي كتبه الليث بيده ، وكتاب التاريخ وكتابه فى التفسير والحديث ، وكتبه عن منابع النيل ، وتاريخ مصر قبل الإسلام ، بما حوت من أساطير وروايات تصور تاريخ الفكر المصري ومقومات شخصية أهل مصر .. فلم يعثر الشافعي على شىء من ذلك كله إلا بعض مسائل وآراء واجتهادات حفظها بعض تلاميذ الإمام الليث ، وكان الشافعي قد لقي أحدهم فى

المدينة ، وأحدهم في اليمن فتلقى عنهما بعض فقه الليث ..

وأدرك المصريون أن هذا الإمام الجديد ، سيحيى علم إمامهم الراحل الليث بن سعد الذي كادت آثاره أن تندثر ولما يمض على رحيله غير ثلاثة أو أربعة أعوام !!

وكان أكثر ما أعجب المصريين من إمامهم الليث حرصه على الشريعة ، بحيث يتحرى في كل فتوى أن يقيس على نص قرآني ، أو على سنة ثابتة ، أو إجماع صحيح إن لم يجد ما يطلب في النصوص أو الإجماع ، بحيث يسد الطريق على من يستنبطون الحكم بما يستحسنون أو بما يرونه محققا للمصلحة .. ويشرعون بهذا السلوك في الفتيا للولاة أو القضاة الظالمين أن يحكموا بالهوى .. !!

هاهو ذا إذن إمام جديد يريد أن يحيى آثار الليث ، وأن يلزم أصول الشريعة فيما يستنبط من أحكام ، وهو يضيف إلى فقه الليث اجتهاده الخاص ، ويجادل عن الشريعة ويعلم للناس منذ اتحاد مجلسه للفتيا في جامع عمرو بالنسقاط أن القرآن فيه حكم كل شيء ، وأن السنة تفصيل وبيان لما في القرآن بكل أوجه البيان ، فعلى من أراد أن يجتهد أن يكون عليهما بالقرآن والسنة ، وقضايا الصحابة وإجماعهم ، فقيها باللغة العربية ، وبأسرار البلاغة فيها ، وبقواعد نحوها . ولن يبلغ هذا العلم حتى يكون قد حفظ الشعر الذي قاله العرب قبل الإسلام ، وبالعربية التي كان يتحدث بها الهدو وقت نزول القرآن .

فقد اعترف ابن عباس وهو عليم بالتفسير أنه لم يفهم قول الله تعالى : « فاطر السموات والأرض » حتى سمع بدوية تقول عن ولدها : « أنا فطرته » ، تعني أنشأته وأوجدته .. فعلم أن كلمة فاطر بمعنى : منشئ . أي خالق . فإذا اجتمع لرجل علم ذلك كله من قرآن وسنة وأقوال الصحابة ، وفقه اللغة العربية حتى له أن يجتهد !

والاجتهاد هو بذل الجهد ، ففيه مشقة .. فإذا اجتهد العالم ليجد حكما أو ليصدر فتوى فليبحث أول الأمر في الكتاب والسنة ، لأن الكتاب - وما السنة إلا بيان له - فيه كل الأوامر والنواهي ، وما كان ريك ليترك الناس سدى بلا أمر ولا نهى .. فإن اجتهد العالم فهو عالم وفقه .. فإن لم يجد الفقيه في الكتاب والسنة أو إجماع الصحابة حكما ينطبق على الأمر الذي يعرض له فعليه بالقياس .. ولا قياس مع نص قياس إلا على نص .. ولا سبيل غير القياس إلى استنباط الأحكام التي تواجه الأمور المستحدثة التي لا نص علي حكمها ..

بهذا النظر جاء الإمام الشافعي إلى مصر ..

على أن الحياة في مصر طالعتة بفقته جديد مما أشر على الليث بن سعد ... واجهته بكثير من الأمور

المستحدثة التي لم يواجه مثلها من قبل ..

وكان الشافعي حين قدم إلى مصر وأقام بها حتى توفي فيها سنة ٢٠٤ هـ، كان عالما ومحفظ القرآن والحديث و يعرف إجماع الصحابة ويتقن اللغة العربية وعلومها وآدابها .. كان كل أولئك ، وكان بعد رجلا عرك الحياة و بلاها ، وتجول في كثير من البلاد ، واجتهد وأصبح صاحب مذهب ، ونشأت له من خلال هذه التجارب كلها مودات وعداوات .. كثير الأسفار ينتقل هنا وهناك ليتعلم هو و يعلم الآخرين ..

عرف الحياة منذ ولد جهادا متصلا في سبيل العيش وفي سبيل العلم ..

ومن الحق أنه قدم مصر وله مذهب في الفقه ولكنه لم يكد يقيم في مصر، حتى غير كثيرا من آرائه ، وأعاد كتابة كتبه

فقد عرف في مصر ما لم يكن قد عرفه من قبل .. صحت عنده أحاديث كثيرة سمعها لأول مرة في مصر، نقلها عن الإمام الليث .

وبهه ما استطاع أن يصل إليه وأن يتعلمه من فقه الليث وآرائه وفتاواه

وعرف آراء جديدة للإمام علي بن أبي طالب لم يتح له الاطلاع عليها من قبل ...

ثم أنه عرف حضارة وتقاليد وأعرافا كلها جديدة عليه ، ليس كمثلها شيء مما رأى في مكة أو المدينة أو اليمن أو سوريا أو العراق ..

عابن انطلاقا في الفكر مع التمسك بروح الشريعة ، وتحررا في الرأي مع التزام مقاصد الشارع ، ورأى أن مالك بن أنس يخالفه بعض الفقهاء في مصر متأثرين بإمامهم الليث بن سعد ، وما كان يعرف أن الإمام مالك بن أنس يخالفه أحد من قبل إلا في ست عشرة مسألة . خالفه فيها أهل الرأي بالعراق ..

ونظر بعض تلاميذ الليث في خلاف أمامهم مع أستاذه مالك وأقنعه رأى الليث ، وهاله ما رأى وسمع من تعصب بعض أتباع مالك في مصر وما يليها من المغرب العربي كله والأندلس للإمام مالك ، حتى لقد كان الناس في المغرب والأندلس يتبركون بلباس للإمام مالك أخذها منه أحد تلاميذه ، فكانوا إذا دهمهم الجفاف وتأخر المطر ، وصلوا صلاة الاستسقاء اتجهوا إلى قلنسوة للإمام مالك يستسقون بها .. !

ورأى الشافعي في مصر أتباع الإمام الليث يسخرون بهذا كله ، و يتهمون صانعيه بإحياء الوثنية ، وبالشرك بالله تعالى ...

وسمع سخرية أتباع الإمام الليث من أتباع الإمام مالك حين يتناظرون .. إذ يروى أتباع الإمام الليث الحديث الشريف عن سنده إلى أن يقولوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيرد أتباع الإمام مالك «قال أستاذنا وشيخنا الإمام مالك» .. فيقول أتباع الليث : «نقول لكم قال الرسول عليه الصلاة والسلام فتقولون بإزائه قال الإمام مالك ؟ أجمعتوه في مقام الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ .. لو كان الإمام مالك رضى الله عنه حيا لأفتى بأنكم ارتددتم عن الإسلام» .

كان المصريون يجلبون الإمام مالك بن أنس ، على الرغم من أنهم يأخذون بآراء إمامهم الليث بن سعد في خلافه مع الإمام مالك .. ولكنهم كانوا يضيقون بتعصب بعض أتباعه ، ويعتبرون تعصبهم وشططهم خروجاً على منهج الإمام مالك ، وإساءة لذكراه ، وهو الذي عاش يحمل في بكل سيرته تقاليد الساحة الإسلامية وتراث الحكمة والمعظة الحسنة ..

رأى الشافعي عناصر جديدة من الرأي والفكر والحضارة في مصر ، واطلع على ما أنتجت المدرسة المصرية في الفقه بزعامة الإمام الليث سيد الفقهاء ، فبدأ يعيد النظر في كثير من آرائه .. وبصفة خاصة تلك التي اتبع فيها أستاذه مالك .. أو التي تأثر فيها بفقهاء أهل المدينة وإمامها مالك .. فألف كتاباً فيما اختلف فيه مع مالك .. ولكنه استحيا أن يصدره . وما زال قريب العهد من الجلوس إلى مالك مجلس التلميذ .. وأبقى الكتاب ينظر فيه و يعدل عاما بأسره ثم أصدره .. وعندما عوتب في هذا قال : «إن أرسطو تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه قائلاً إن أفلاطون صديقي والحق صديقي فإذا تنازعنا فالحق أولى بالصدقة» .

بهر الشافعي إذن بما شاهد في مصر من مظاهر الحضارة والتقدم والتزاوج الفكري بين الإسلام ومعطيات الحضارات التي تشكل الوجدان المصري : الحضارات القبطية والمصرية القديمة واليونانية . وهو ما لم يعرفه من قبل .. ثم الفهم العميق لروح الشريعة الإسلامية ، وتطويع الأحكام لكل مقتضيات الحاجة الإنسانية المشروعة ، مما يقيم المجتمع الفاضل الذي هو هدف الشريعة ومقصدتها الأسمى ..

حتى إذا انتهى الإمام الشافعي من إعادة صياغة كتبه وتصحيح آرائه على أساس العنصر الجديد الذي تدخل في صياغة وجدانه وعقله . أعلن للناس أن آراءه ليست إلا التي كتبها في مصر . أما كتبه السابقة فلا يحق لأحد أن ينسبها إليه .. وكتب بذلك إلى أقرب أصحابه وتلاميذه إليه أحمد بن حنبل فكان الإمام أحمد يقول : «خذوا عن أستاذنا الشافعي ما كتبه في مصر» .

ولكن الشافعي لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد مشقات جسام عبر رحلة عمر كابد فيها الأهوال ، حتى لقد رأى الموت رأى العين ذات مرة .

وقضى عمره كله في العيش الضنك على الرغم من ارتفاع همته ولقد عبر عن ذلك بقوله :

وأحق خلق الله بالهم امرؤ

ذو همة يسبلى بعيش ضيق

ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ في غزة وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة إمام أهل الرأي في العراق وفي هذا تمازج أحد الفقهاء من المذهب الحنفي وفقهه من المذهب الشافعي قال الحنفي «إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا» فقال صاحبه : «ونحن الشافعية نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم» .

ولد في عصر كثرفيه الجدل بين أهل الحديث وأهل الرأي . وتعصب كل فريق ضد الآخر، فكان من أهل الحديث من يرفض الرأي إطلاقا ، ومن أهل الرأي من لا يتقن حفظ عدد صالح من الأحاديث ..

وهو عصر ميزين العالم والفقهاء ، أوبين العلم والفقهاء : فالعلم هو حفظ القرآن والأحاديث وآثار الصحابة ... أما الفقه فهو أعمال الفكر والاجتهاد والتأمل وشحذ العقل لاستنباط حكم شرعي فيما لانص فيه .. وقد يجمع الرجل الواحد بين العلم والفقهاء وهؤلاء هم الأئمة العظام والفقهاء

وقد روى عن أحد التابعين قوله : « مارأيت أفتقه من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس »

وكان أهل الحديث يقفون عند النصوص لا يعدونها فإن لم يجدوا حكما فيها ، لا يفتون .

وأما أهل الرأي فقد نظروا في عطل الأحكام ، واستنبطوا من النصوص أحكاما لما لم يرد نص على حكمه ، إعمالا للعقل ، وإلحاقا للأموار بأشباهها ونظائرهما إذا توفرت علة الحكم .

وقد بلغ من وقوف بعض أهل الحديث عند ظاهر النص حدا أثار بهم سخرية أهل الرأي ، وبلغ من انطلاق أهل الرأي في استنباط الأحكام حدا جعل أهل الحديث يتهمونهم !!

وقد سأل أحد أهل الرأي واحدا من أهل الحديث في أمر طفل وطفلة رضعا معا من ضرع شاة ثم كبيرا ، أيجوز لهما الزواج .

فقال صاحب الحديث : تثبت بينها حرمة الرضاع «فسأله صاحب الرأي : «بأي نص» فقال صاحب الحديث : «بقوله صلي الله عليه وسلم كل صبيين اجتمعا على ثدى واحد حرم أحدهما على الآخر» فقال صاحب الرأي ضاحكا : « قال الرسول صلي الله عليه وسلم اجتمعا على ثدى واحد لاعلى ضرع واحد» إنما يثبت الحديث بين الآدميين لا بين شاة وآدمي . فلو أنك أعملت العقل والرأي مأخطأت . وماسويت بين المرأة والنعجة !

وكان أصحاب الرأى يتهمون أصحاب الحديث « بالعجز عن النظر، وبأنه كلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالاً أو إشكالاً بقوا متحيرين ». ومن أجل ذلك فهم ليسوا أنصاراً للسنة، بل إن أهل الرأى أكثر انتصاراً للسنة واتباعاً لها من هؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل السنة!

أما أهل الحديث فاتهموا أهل الرأى بأنهم يأخذون بالظن ..

على أن مالك بن أنس إمام أهل الحديث لم يكن يرى هذا الرأى في الإمام أبى حنيفة إمام أهل الرأى فقد قال فيه: « اجتمعت مع أبى حنيفة وجلسنا أوقاتاً وكلمته في مسائل كثيرة فدا رأيت رجلاً أفقه منه ولا أغوص منه على معنى وحجه .

« ولكن أتباع الإمامين كان فيهم من يتعصب لشيخه، ومن هؤلاء الأتباع من كان يشغب على الآخر.. حتى لقد عيروا أباً حنيفة ببعض حيله، وإن كان مالك ليضحك كلما ذكرها، ذلك « أن الموالي وهم المسلمون من أهل البلاد المفتوحة » قدموا الكوفة وكان لرجل منهم امرأة فائقة الجمال، فتعلق بها رجل كوفي. وادعى أنها زوجته، وادعت المرأة أيضاً ذلك: وعجز المولى زوج المرأة عن البينة، فعرضت القضية على أبى حنيفة .. وكان من رأى أهل الحديث أن المرأة للكوفي ولكن أباً حنيفة لم يطمئن إلى الأخذ بهذا الظاهر كما صنع أهل الحديث .

ورأى أن يحقق الأمر بنفسه... وشك في ادعاء الزوجة والكوفي فأخذ جماعة من الناس ومعهم بعض أهل الحديث، وذهبوا إلى حيث كان ينزل الموالي فنبحت كلابهم وهمت أن تهاجمهم كما تفعل مع الغرباء.. ثم عاد أبو حنيفة وأخذ الزوجة ومعها شهود من أهل الحديث، وأمر الزوجة أن تدخل وحدها إلى منازل الموالي. فلما قربت بصبص الكلاب حولها. كما تفعل بأصحابها فقال أبو حنيفة: « ظهر الحق ». فانقادت المرأة للحق واعترفت أنها كذبت .. وعادت إلى زوجها. وسخر أهل الرأى من أهل الحديث في هذه القضية...

على هذا النحو كان الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأى .. حتى أن الشافعى عندما بدأ يطلب العلم في مجالس أهل الحديث، جلس بعد الدرس فى بيت صاحب له يتناشدان الشعر، فأتى الشافعى على شعر الهذليين وقال لصاحبه: « لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا » ذلك أن أهل الحديث كان فيهم من يغلو فيرى في حفظ الشعر ودراسة الأدب علماً غير نافع .. فالعلم النافع عند هذا نفر هو القرآن والحديث وآثار الصحابة فحسب ..

أخذ الشافعى يناطح هذا كله .. ويقاوم التعصب للحديث وللرأى جميعاً ..

ليكون هدف المناظرة هو الوصول إلى حقائق الشريعة، لا غلبة المناظر على خصمه ..

ولكنه على الرغم من ذلك انحاز إلى أهل الحديث أول الأمر، وخصم فيهم أهل الرأي، حتى إذا استقر به المقام في مصر تلك السنوات الأخيرة من حياته القصيرة (١٥٠ - ٢٠٤هـ) تعلم أن الإمام الليث كان قد اهتدى إلى مذهب وسط بين أهل الحديث وأهل الرأي، معتمدا على استيعاب يقظ لروح الشريعة ومقاصدها، فأعجب بأصول مذهب الليث وفروعه وزاد عليه وأضاف، ونقح في خمس سنوات عاشها في مصر كل ما كان قد كتبه طيلة حياته من قبل. وعرف ما كتبه في مصر باسم «المذهب الجديد»

والشافعي هو محمد بن أدريس بن العباس بن شافع (وقد نسب إلى هذا الجد) ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف ..

والمطلب هو شقيق هاشم بن عبد مناف .. وهاشم هو أبو عبد المطلب جد النبي صلي الله عليه وسلم وكان هاشم يقود رحلة الشتاء إلى الشام بقافلة قریش في الجاهلية ومات ودفن بغزة .

أما والدة الشافعي فهي حفيدة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان الشافعي يقول : «علي بن أبي طالب ابن عمى وابن خالتي .

فهو قرشي الأب والأم وكان أبوه فقيرا خرج من مكة يلتمس سعة من العيش في المدينة . ولكنه لم يجد ما يريد ، فخرج بأهله إلى غزة ، ومات بها بعد مولد ابنه محمد بنحو عامين .

ولم تطق الأم المقام في غزة بعد وفاة زوجها ، فحملت وليدها محمدا إلى عسقلان وهو ابن عامين ، وكان يربط بها جيش من المسلمين ، وكانت عسقلان تسمى إذ ذاك (عروس الشام) «وخيرها دافق والعيش بها رائق»

غير أن العيش لم يرق للأرملة الصغيرة في عسقلان ، فحملت ابنها محمدا إلى مكة موطنها وموطن آباءه وأجداده ، ليعيش في قومه قریش ، ولينال نصيبه من المال ، وهو سهم ذوى القرى ولكن حظه من هذا المال كان ضئيلا لم يسمح له ولأمه إلا بحياة خشنة ، عرف خلالها الحرمان منذ نعومة أظفاره .

وعندما شب الطفل ألحقته أمه بمكتب في مكة . ولكنها لم تجد أجر المعلم . «فكان المعلم يقصر في تعليم الصبي إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعي يتلف ذلك الكلام . ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعي يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم الشافعي القرآن كله وهو ابن سبع سنوات .»

ثم وجهته أمه إلى إتقان تلاوة القرآن وتجويده وتفسيره على شيوخ التفسير والترتيل والتجويد في المسجد الحرام .. حتى إذا بلغ الثالثة عشرة ، كان قد أتقن القرآن حفظا وترتيلا وإدراكا لما يقرأ بقدر ما يتيح عمره .

وكان عذب الصوت .. في ترتيله خشوع . وإيقاع حزين تخالجه الرهبة من خشية الله .. فكان حين يقرأ القرآن في المسجد الحرام يتساقط الناس بين يديه . ويكثر عجبهم بالبكاء من حسن صوته . فإذا رأى ذلك أمسك .

بعد ذلك اتجه إلى حفظ الحديث ، ولزم حلقات شيوخ التفسير وأهل الحديث . وكان الورق غالي الثمن ، فكان يلتقط العظام العريضة فيكتب عليها ، أو يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة التي ألقي بها . فيكتب على ظهرها ..

كان يجده مشقة في الحصول على ورق الكتابة ، فاعتمد على الحفظ وهكذا تكونت له حافظه قوية .. حتى لقد كان يحفظ كل ما يلقى عليه .

لاحظ أثناء إقامته في مكة أن لغة قريش قد دخلها الغريب من كلمات وتعبيرات المسلمين الجدد من الموالي غير العرب . فلم يعد لسانها هو اللسان العربي المين .. !

ثم إنه في تأمله للقرآن والأحاديث شعر بأنه في حاجة إلى زاد لغوي كبير ، وإلى تفهم أعمق لمعاني الكلمات وأسرار التراكيب .. وكان يشهد دروس الليث بن سعد إمام مصر وهو حينذاك فقيه كبير يتحلق حوله الطلاب في المسجد الحرام كلما جاء حاجا أو معتمرا ...

في إحدى حلقات الليث إلى جوار مقام إبراهيم ، نصح مستمعيه أن يتقنوا اللغة وأسرار بلاغتها وفنون آدابها . وأن يحفظوا الشعر الذي سبق نزول القرآن الكريم وعاصره ليحسنوا فهم معاني الكتاب المنزل والأحاديث ..

ولكم نصيح الإمام الليث مستمعيه أن يخرجوا إلى البادية فيتعلموا كلام (هذيل) ويحفظوا شعرهم .. فهذيل هم أفصح العرب ، وشعر الهذليين عامر بكنوز اللغة .

ولقد حفظ الليث نفسه أشعار الهذليين ... واستشهد بها في تفسير بعض كلمات القرآن . كما فعل ابن عباس من قبل وهو شيخ المفسرين .

وخرج الفتى محمد بن أدريس الشافعي إلى بادية قريية من مكة وعاش في مضارب خيامهم ، يحفظ عنهم أشعارهم وتراكيبهم اللغوية ، يرحل برحيلهم ، وينزل بنزولهم ويتعلم منهم .

ثم رجع إلى مكة ينشد أشعارهم ، و يذكر عنهم الأخبار .. كما قال هو نفسه حتى أن الأصمعي وهو شيخ اللغويين قال وهو في أوج شهرته : « صححت أشعار الهذليين على فتى من قر يش يقال له محمد بن أدريس .. »

لزم الشافعي هذيلًا نحو عشرين ، عكف فيها على دراسة اللغة وآدابها . وحفظ الشعر ، وتعلم منهم الرماية والفروسية وبرع فيها ، حتى لقد كان يأخذ بأذن الفرس وهو يجري فيشب عليه في براعة وتمكن . !

وأتقن الرمي ، حتى قال عندما تقدم به العمر : « كانت همتي في شيئين : في الرمي والعلم فصرت في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة » ثم سكت عن العلم ، فقال أحد الحاضرين : « أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي »

عاد من البادية إذن فارسًا متفوقًا في البداية في الرماية ، ناصح البيان ، في صدره إلى جوار القرآن والحديث ، ثروة ضخمة من الشعر والآداب والأخبار والفقه واللغة

وعاد يجلس إلى حلقات شيوخه في المسجد الحرام .

جلس إلى أهل الحديث . والمفسرين من أتباع ابن عباس . وإلى العلماء والفقهاء من أتباع الإمام جعفر الصادق .. وكانوا جميعًا ينبعون من علم الإمام علي بن أبي طالب .

وعلى الرغم من أنه قد جاوز العشرين ، وأصبح يملك القدرة على اختيار شيوخه في المسجد الحرام ، فقد تعود أن يسأل أمه النصيحة ، فتشير عليه بأساء الشيوخ الذين ينبغي له أن يلزمهم .. وكانت أمه حافظة للقرآن والحديث ، بصيرة بأحكام الشريعة . ولقد ردت قاضي مكة حين استدعاها للشهادة هي وامرأة أخرى وأراد أن يفرق بينهما ، فطلبت أن تشهد الواحدة أمام الأخرى . وذكرته بالآية الكريمة : أن تضل إحداهما . فُتذكر إحداهما الأخرى » .

وكان الشافعي بارًا بوالدته .. مستمعًا لنصائحها وقد وجهته إلى فقه الإمام علي بن أبي طالب ، ونصحته أن يلتزمه من تلاميذ ابن عباس وتلاميذ الإمام جعفر الصادق .. وكان مقاتل بن سليمان هو أعلاهم شأنًا وأبصرهم بالقرآن وتفسيره وبالحديث والفقه ..

وقد توقف الشافعي وهو ينظر في تفسير القرآن عند آية : « وقد خاب من دساها » ...

ولم يعرف معنى كلمة دساها ، فلم تكن قد عرضت له من قبل . ولم يجد الكلمة فيما تعلم من لغة العرب . وخرج إلى ظاهر مكة يسأل فيها بطنا من هذيل ، وهم أفصح العرب ، فلم يجد عندهم جوابًا .

وطاف على شيوخ الحلقات من أهل الأثر ومفسرى القرآن ، فلم يظفر بجواب شاف .. وهَمَّةُ الأمرِ وَغَمَّةُ ، فلاذ بأمه يسألها النصيحة فوجهته إلى مقاتل بن سليمان تلميذ الإمام الصادق وذهب الشافعي إلى حلقة مقاتل بن سليمان فقال له مقاتل : دسأها من لغة السودان «ومعناها أغواها ...

اكتمل للشافعي علم حسن بالقرآن والحديث وآثار الصحابة ، وثناء لغوى يفتح مغاليق المعاني . وذوق أدبي يتيح له أن يدرك لطائف البلاغة وأسرار البيان .

وقال له أحد شيوخه : «آن لك أن تفتي» .

ولكن الشافعي تهب الفتيا ، فا كان إلا شابا صغيرا في سن أبناء المفتين من أصحاب الحلقات في المسجد الحرام ... وهو بعد لم يحصل على كل ما يريد من فقه المدينة ، حيث يشع علم الإمام مالك ، ولا من فقه العراق حيث مازال صدى جليل من آراء الإمام الراحل أبي حنيفة يدوى في جنبات المسجد الكبير بالكوفة ، وحلقات بغداد ، وحيث مازال تلاميذه أبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما يجادلون عن إمامهم و يضيفون إلى تراثه الجدلي

ثم إن الفتى لم يعرف كما ينبغي فقه الأوزاعي بالشام ، ولا فقه الإمام الليث بمصر .. هذا الفقه الذي اتسم بالتوفيق بين أهل الرأي وأهل الحديث ، والذي يحترم الحزبين جميعا ، يتميز بعمق الإدراك لروح الشريعة ومقاصد الشارع ، و يواجه في يسر معجز كل ما يطرحه العصر من مسائل وقضايا .

وقرر أن يرحل فى طلب الفقه من كل مدارسه ، كما رحل من قبل يلتمس الفصحى من خير منابعها

واستأذن أمه أن يرحل إلى المدينة المنورة ليدرس على الإمام مالك فأذنت له ..

كان الفتى إذ ذاك في نحو العشرين ، خلبه مالك حين جاء إلى المسجد الحرام فألقى بعض الدروس ، وأخذته هيبة مالك وحسن معرفته بالحديث :

وعرف عن مالك أنه على الرغم من سماحته ، صارم في عمله ، لا يبيح وقته للناس ، ولا يستقبل من يطرق باب داره خلال ساعات العمل أو الراحة ..

ولكن الشافعي لا يريد أن يكتفي بحضور دروس مالك في المسجد النبوى ، وهي مباحة للعامة ، بل يريد أن يلزمه ليتلقى منه علمه ، وليتاح له أن يسأله ويحاوره ...

ومالك لا يأذن بالحوار في دروسه و يطرد من حلقة كل من خالف تقاليد الدرس .. !!

مالسبيل إلى الإمام مالك إذن ! ؟

قرر الشافعي أن يحسن إعداد نفسه للقاء الإمام مالك ... فبحث عن كتابه «الموطأ» الذي أخرجه مالك منذ حين واضعا فيه كل فقهه وكل ماصح عنده من الأحاديث النبوية الشريفة .

ووجد الشافعي نسخا من الكتاب ولكنها غالية الثمن ، وهورقيق الحال .. فاستعار الكتاب من أحد شيوخه في مكة وعكف عليه النهار والليل ، حتى حفظ الكتاب . ، بحافظته المدربة التي تعود الاعتماد عليها منذ كان لا يجد ثمن الورق . ومنذ كان يدرس بالمكتب وهو صبي .

وزاده حفظ كتاب «الموطأ» شوقا إلى لقاء الإمام مالك وإلى صحبته .. !

وجهزته أمه للسفر إلى المدينة وباعت في ذلك بعض أثاث الدار ..

إنها هجرة في سبيل العلم فهي في سبيل الله

ورأت أمه أن تسهل له لقاء مالك ، فوسطت بعض أقاربها إلى والي مكة ، ليعطي ولدها كتابا إلى والي المدينة ، عسى أن يتوسط للشافعي فيلقى مالكا ويلزمه .

ويحكى الشافعي عن هذه التجربة بعد أن أخذ كتاب توصية من والي مكة إلى والي المدينة وإلى الإمام مالك .

قال الشافعي : «فقدمت المدينة ، فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلما قرأه قال : يفتى إن مشيي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى الذل حتى أقف على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير . إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر . فقال : هيات ليت أني لوركبت أنا ومن معي ، وأصابنا من تراب العقيق لنا بعض حاجتنا .. ! فواعدته العصر ، وركبنا جميعا فوالله لكان كما قال . لقد أصابنا من تراب العقيق ، (والعقيق حي بالمدينة يسكنه مالك) فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير : (قولي لمولاي إني بالباب ، فدخلت فأبطأت — ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ويقول إن كانت لديك مسألة فارفعها في رُعدة يخرج إليك الجواب . وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة . فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي . فوضعت ثم إذا بمالك قد خرج ، وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية ، فجلس وهو متطلس (يلبس الطيلسان) فرفع إليه الوالي الكتاب . فبلغ إلي هذا (أن هذا رجل يهمني أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع) فرمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله . أوصار علم رسول الله صلي الله عليه وسلم يؤخذ

بالرسائل ١٩ فرأيت الوالي قد تهبب أن يكلمه . فتقدمت وقلت : أصلحك الله . إني رجل مطلبى «من بني المطلب» وحدثته عن حالى وقصتي ... فلما سمع كلامي نظرت إلي ، وكان لمالك فراسة فقال : ما اسمك : قلت محمد فقال : «يا محمد إنه سيكون لك شأن وأى شأن . إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية . إذا ماجء الغد تجيء ويحيى ما يقرأ لك » . فغدوت عليه ومعى «الموطأ» وابتدأت أن أقرأ ظاهرا (من الحافظة) والكتاب فى يدى . فكلما تهببت مالكا وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول : (يافتى زد) ، حتى قرأته عليه فى أيام يسيرة .»

ومنذ ذلك اللقاء عام ١٧٠ هـ لزم الشافعي مالكا حتى مات الإمام مالك عام ١٧٩ هـ .

لم يتركه الشافعي إلا ليزور أمه بمكة . أو ليقوم برحلة إلى إحدى عواصم العلم والفقہ .. وكان يستأذن شيخه مالك بن أنس فإذا أذن له جهزه بزاد ومال ودعا الله له .

وفى المدينة التقى الشافعي بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة وشيخ أهل الرأى فى العراق ، والتقى ببعض تلاميذ جعفر الصادق ، وتعلم منهم بعض فقه الإمام الصادق وأفضية الإمام علي كرم الله وجهه .. وتعلم من مذهب الإمام الصادق أن العقل هو أقوى أدوات الاستنباط حين لا يكون نص . العقل وحده هو أداة فهم النصوص لا الاتباع ولا التقليد!

وتعلم من تلاميذ الإمام الصادق رأى الإمام فى حقيقة العلم .. فالعلم ليس حفظ القرآن والحديث ومعرفة الآثار فحسب ، ولكنه يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التى تفسر ظواهر الكون وتكشف عن قدرة الخالق .

وهكذا قرر أن يتعلم تلك العلوم الطبيعية والرياضية ، فتعلم من خلال رحلاته علوم الكيمياء والطب والفيزياء وتعلم الحساب والعلوم التى تجرى عليها التجارة وعلم الفلك والتنجيم وهو فرع من العلوم الرياضية . وتعلم الفراسة ، ومارسها .

وقد تعرف إلى عدد من فقهاء مصر من تلاميذ اللبث ، وكان من عاداتهم بعد الحج أن يزوروا المدينة ليصلوا فى الحرم النبوي وليسمعوا لمالك . وقد أملى الشافعي «الموطأ» على بعضهم ونشأت بينه وبينهم صداقة انتفع بها عندما هاجر إلى مصر ومنهم ابن عبد الحكم .

ولقد رأى يوما فى الروضة الشريفة بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثياب حسن الصلاة ، فتوسم فيه خيرا ، وحدثه فعرف أنه من الكوفة بالعراق فسأله : «من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله عز وجل ، والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم» فقال : «محمد بن الحسن وأبو يوسف صاحبا أبي حنيفة» : فقال الشافعي : «ومتى عزمتم تطعنون ؟» فقال الشاب : غداة عند انفجار

وذهب الشافعي إلى شيخه ليستأذنه أن يرحل في طلب العلم ، فقال له شيخه مالك : العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة . ألم تعلم بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ؟ »

فلما كان السحر وانفجر الفجر ، سار مالك مودعا تلميذه الشافعي عند محطة القوافل بالبقيع خارج المدينة

وصاح مالك يسأل عمن يؤجر راحلة إلى الكوفة ، فقال له تلميذه الشافعي : « لِمَ تكتري لي راحلة ولاشيء معك ولاشيء معي ؟ » فقال مالك له : « لما انصرفت عني البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة ، قرع علي قارع الباب ، فخرجت إليه ، فسألني قبول هدية فقبلتها فدفعت إلي صرة فيها مائة مثقال وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي » . وكان الطارق هو أحد تلاميذ الإمام الليث ، حمّله الليث هذه الهدية لصديقه الإمام مالك وكان الليث قد تعود أن يصل مالكا بالهدايا الثمينة والمال الكثير

خرج الشافعي من المدينة وهو شاب في الثانية والعشرين ، فوصل الكوفة بعد رحلة شاقة استغرقت أربعة وعشرين يوما ، فاستضافه محمد بن الحسن ، وتجاوزا في الفقه ، وحضر حلقاته وحلقات زميله أبي يوسف

وكتب الشافعي كل ما وجد عند صاحبي أبي حنيفة من فقه الإمام الأعظم ، وعند ماترك الكوفة كان معه من الكتب حمل بعير .

ثم طاف في بلاد فارس ، والتقى بشيوخها وجرت بينه وبينهم محاورات ، ثم سافر إلى ديار ربيعة ومضر ، وأتمّ ببعض قبائل البدو ، فأصاب ما عندهم من الفصحى .. وطاف في هذه الرحلة ببغداد وشمال العراق والأناضول وحرّان ثم سافر إلى بلاد الشام وزار أمه بمكة ..

وعاد بعد عامين إلى المدينة وقد تزود بكثير من المعارف وكان يسأل طوال الرحلة عن أخبار شيخه مالك ، فعرف أنه قد اتسعت أرزاقه وأصاب الغنى ، فقد أجرى عليه الخليفة راتبا كبيرا ، ووصله بالأموال والهدايا الثمينة ..

وقصد الشافعي الحرم النبوي ، وبينما هو يتهيأ للجلوس في المسجد في حلقة الإمام مالك ، إذ فاح عطر في المسجد فتهامس من في المسجد إنه مالك .. ورأى مالك يدخل المسجد وحوله جماعة يحملون ذيله حتى جلس على كرسيه الذي أعد له من قبل وعليه حشية ومن حوله الدفاتر . وبدأ مالك درسه فطرح مسألة على تلميذه فلم يجبه أحد . وظل يطرح مسائل وما من يجيب . ! فضاق صدر الشافعي ،

فنظر إلى رجل بجانبه ، وهمس إليه بالجواب .. واستمر مالك يسأل والرجل يجيب بما يهمس إليه الشافعي فسأل مالك من أين لك هذا العلم ؟ فقال الرجل : « إن بجانبى شأبا يقول لي الجواب » . فاستدعى مالك ذلك الشاب فإذا هو الشافعي.. ولم يكن مالك قد استطاع أن يراه في زحام الحلقة. فرحب به مالك ، وضمه إلى صدره ، ونزل عن كرسیه وقال له : « أقم أنت هذا الباب » .

رضى مالك عن شرح تلميذه الشافعي ، وما انتهى الدرس ، حتى أخذه إلى بيته وأغدق عليه .

وحكى الشافعي لأستاذه عن كل ما تعلمه ولقيه في رحلته من طرائف .

حكى له عن تجرته مع علم الفراسة ، وكان مالك ينصح تلميذه ألا ينصرف إلى غير علوم الشريعة ، وما يعين على الفقه بها وفهم النصوص واستنباط الأحكام ، والاهتمام باللغة وآدابها ، وحفظ أخبار العرب وأيامهم ، وحفظ الشعر الجاهلي ، لأن كل أولئك أدوات لفهم نصوص القرآن والأحاديث .. أما الفراسة ففي نفس مالك شيء منها .. !

حكى الشافعي لشيخه مروحا عنه بعض ما صادفه مع علم الفراسة .. فقد مر في رحلته برجل يقف في فناء بيته ، وهو رجل أزرق العينين بارز الجبين ، وتأمل الشافعي ملامحه ، وقال لنفسه : « إن علم الفراسة يدل على أن هذا الرجل لثيم خبيث . وكان الشافعي مجهدا يلمس مكانا يستريح فيه . قال الشافعي : « سألت الرجل هل من منزل ؟ » قال : « نعم » . وأنزلني فما رأيت أكرم مندا وبعث إلى بعشاء طيب » وعلف لدايتي ، وفراش ولحاف . فقلت : « أعلم الفراسة دل على غاية دناءة هذا الرجل وأنا لم أشاهد منه إلا خيرا . فهذا العلم باطل ! ولما أصبحت قلت للفلام : أسرج الدابة ، فلما أردت الخروج قلت للرجل : إذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فاسأل عن منزل محمد بن أدریس : فقال الرجل أعبد أبيك أنا ؟ ! أين ثمن الذي تكلفت لك البارحة ؟ ! قلت : وما هو ؟ قال: اشتريت لك بدرهمين طعاما ، وأداما بكذا وعطرا بكذا ، وعلف دابتك بكذا ، واللحاف بكذا .. قلت: يا غلام أعطه . فهل بقي شيء ؟ قال كراء المنزل فاني وسعت عليك وضيقت على نفسي .

فضحك مالك .. وأكمل الشافعي : فعظم اعتقادي في علم الفراسة ولم يجبه مالك بغير الضحكات ..

وقلما كان يضحك ؟

عاد الشافعي من هذه الرحلة باحترام كبير للإمام أبي حنيفة النعمان فقد قرأه على صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وأعجب بطريقته في الحوار والاستنباط ، وبسعة أفقه ، وروى عنه كثيرا من حيله ، ودافع عنه .

وكانوا في الحجاز يهاجمون أبا حنيفة ويتهمون به بأنه لا يحسن علم الحديث ، فدافع عنه الشافعي ووضعه في مكانه ، وعلمهم أن الناس « في الفقه عيال على أبي حنيفة » .

استقر الشافعي بالمدينة تلميذا للإمام مالك ، ثم بدأت تستقيم له طريقة في الجدل ، فهو يلتقى بالحجة دون أن يرفع صوته ، ويقول لمجاده : « خذ مكاني وأخذ مكانك » .. ويقول الرأي ، والرأي المضاد ، حتى ينتهي من هذا الأسلوب الجدلي إلى الحقيقة .

وأخذ ينتصف لأهل الرأي من أهل الحديث ، وينصف أهل الحديث من أهل الرأي ، ويقاوم التعصب المذهبي ..

عاش في ظل الإمام مالك ورعايته حتى مات الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ والشافعي في نحو التاسعة والعشرين . وبكى الشافعي أستاذه الإمام مالك بن أنس أحر بكاء وعكف على قراءة القرآن ملتصقا العزاء .. وشعر أنه أصبح غريبا في المدينة » .

لم تطب له الحياة بعد بالمدينة بعد أن توفي شيخه ..

وبدأ يبحث عن مكان يعمل فيه عملا يعيش منه .. وعاد إلى أمه بمكة ، مردعا المدينة من خلال الدمع . وكان والي اليمن قد أقبل إلى الحجاز في ذلك الوقت . فتوسط بعض أقرباء الشافعي من القرشيين عند والي اليمن ، فصحبه معه إلى اليمن ووكل إليه عملا .

لم يكن عند أم الشافعي ما تساعد به ابنها ليتزود في سفره هذا ، وليقيم في اليمن حتى يقبض راتبه ، فرهنت دارا كانت لها بمكة ، وسافرت معه .

ولقد غضب منه أحد شيوخه بمكة وعنفه لأنه يترك الفقه من أجل الوظيفة بقوله : « تجالسونا وتسمعون منا ، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه ؟ » .

وتولى الشافعي عملا مهما في نجران باليمن ، وهناك عاود دراسة علوم الفراسة التي كانت مزدهرة باليمن ، حتى تفوق فيها .

وجلس إلى بعض شيوخ الشيعة باليمن فتلقى منهم ، ولزم يحيى بن حسان تلميذ الليث بن سعد المصري وصاحبه ، فأخذ عنه كل ما انتهى إليه من فقه الليث .

وقام الشافعي بعمله في نجران خير قيام ، وأحبه الناس لعدله ، ولتمسكه بالشرعية ، وإغلاقه باب
المجاملة والملق

ثم انه وجد حاكم نجران يظلم الناس . ، فقاوم الحاكم ووقف في المسجد يحض الناس على
مقاومته ، وأخذ يضرب لهم الأمثال لما يجب أن تكون عليه سيرة الحاكم بالإمام علي بن أبي طالب
وسيرته في الخلافة ، فأثار عليه أعداء كثيرين من الذين رفض مجاملتهم

ووشي حاكم نجران بالشافعي ، ودس عليه أنه أسس حزبا علويا يعد للثورة على الخليفة ، ليولي
أحد أحفاد الإمام علي ، بدلا من هارون الرشيد ، وأنه يؤيد الحفيد في الثورة على الرشيد .

وكان العباسيون غلاظا على العلويين ، يسفحون دماءهم بالظن . فقد كانوا يعرفون أن كثيرين
يرون العلويين أحق منهم ومن الأمويين بالخلافة .

فزع الرشيد من قراءة كتاب والي نجران وخاصة من قوله عن الشافعي : « لأمرلي معه ولا نبي ،
فهو يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » .

وفى الحق أن الشافعي ما كان يخفى حبه لعلي وللطالبين ، فقد قيل له يوما : خالفت علي ابن أبي
طالب رضي الله عنه فيما قلت . فقال لمناظره « اثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي
في التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي إلى قوله »

ووجد في اليمن كثيرا من الطالبين ، وحضر مجالس العلم معهم ولكنه كان يستمع ولا يتكلم فإذا
سئل في ذلك قال : لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم وهم أحق بالكلام مني وهم الرياسة
والفضل .

وهكذا شاع عنه حبه لبني علي ، والطالبين جميعا .

قيل له إنك لمتشيع تشايح علي بن أبي طالب وتشايح بنيه من بعده ومنهم الثائر العلوي علي
الرشيد .. فقال : « يا قوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه
من والده وولده والناس أجمعين ؟ وقال عليه الصلاة والسلام : إن أوليائي من عترتي المتقون ، فإذا
كان واجبا علي أن أحب قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين ، أليس من الدين أن أحب قرابة
رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقين ؟ » وكتب والي نجران مرة أخرى إلى هارون
الرشيد أن الشافعي يؤلب عليه الأمة وأنه يقود تسعة من الثوار ، يوالون الثائر العلوي الذي يطالب
بالخلافة .

فأرسل الرشيد إلى والى نجران أن يرسل إليه الثوار مهاتين فى الأصفاذ .

كانوا تسعة على رأسهم الشافعى ووضع الحديد فى أرجلهم وأعتاقهم تنفيذًا لأمر الرشيد وسيقوا إليه مهاتين ...

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين ، فارسا ، بطلا فى رياضة الرمي ، جلدا قوى البنيان ، ولكنه جهد من الرحلة والإهانة .

وأدخلوهم على الرشيد وإلى جواره محمد بن الحسن قاضى الدولة ، الذى تلقى عنه الشافعى من قبل فى الكوفة .

وكان الشافعى يدعو بهمهمة يسمعها الحاضرون : « الله بالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير ».

أنكر التسعة تهمة الثورة على الرشيد ، ولكنه أمر بقطع رموسهم جميعا وسأله التاسع أن يمهلته حتى يكتب لأمه فليس لها غيره ، وأقسم أنه يرى من الإعداد للثورة على الرشيد ، ولكن الرشيد أمر بقطع رأسه .

كل هذا والشافعى فى الأصفاذ : الأغلال فى عنقه والحديد فى قدميه ، ورأسه بالرغم من كل ذلك شامخ .

وبالله كان مجهدا .

وها هو ذا يرى الموت رأى العين ، ولكنه على الرغم من كل شيء ثابت الجنان ، عميق الإيمان لا يملك إلا أن يدعو الله بالنجاة ...

وعندما انتهى الرشيد من قتل الرجل التاسع ، قال الشافعى : « السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته .. » ولم يقل ورحمة الله .

فقال الرشيد : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها ، ورددنا عليك فرضة قامت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى » .

قال الشافعى : « إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وهو الذى إذ وعد وفى ، فقدمكنك فى أرضه وأمننى بعد خوفى حيث رددت

السلام بقولك» وعليك رحمة الله «فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين»

فقال الرشيد: «وماعذرك من بعد أن ظهر أن صاحبك - يعنى الثائر العلوى طغى علينا وبغى ،
واتبعه الأردلون وكنت أنت الرئيس عليهم ؟

فقال الشافعى: «أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف . لكن الكلام مع
ثقل الحديد صعب فإن جدت على بفكه أفصحت عن نفسى . وإن كانت الأخرى فيدك العليا و يدي
السفلى والله غنى حميد»

فأمر الرشيد بفك الحديد عنه ، وأجلسه .

وقال الشافعى: حاشا لله أن أكون ذلك الرجل ، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق
بشياً فتبينوا ..) لقد أفك المبلغ فيما بلغك وإن لى حرمة الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة .. وأنت
أحق من أخذ بكتاب الله . أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذائد عن دينه المحامى عن
ملكته وأنا يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوى وإنما ادخلت فى القوم بغيا عليّ أنا رجل من بنى المطلب
ابن عبد مناف .. أنا محمد بن أدريس بن عثمان بن شافع بن السائب ..

فقاطععه الرشيد: «أنت محمد بن أدريس ؟

فقال الشافعى: «ولى مع ذلك حظ مع العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ،

وكان محمد بن الحسن الذي استضاف الشافعى فى الكوفة من قبل ، قد أصبح قاضى الدولة ،
يجلس بجوار الرشيد فقال له الرشيد: «ماذكرك لى محمد بن الحسن» ثم التفت إلى القاضى وسأله:
يا محمد .. مايقول هذا أهوكما يقوله ؟ . فقال بن الحسن إن له من العلم شأننا كبيرا . وليس الذى رُفِعَ
عليه من شأنه

قال الرشيد: فخذته حتى أنظر فى أمره .

وهكذا نجا الشافعى برأسه ... وخرج إلى بيت محمد بن الحسن ضيفا عليه ..

ومازال محمد بن الحسن بالخليفة ، حتى رضى عن الشافعى ، واستدعاه ليمتحن علمه .

وعقد له مجلسا من أهل العلم والفقه والرياضيات والطبيعات والكيمياء والطب .

قال الرشيد: «إننا نراعى حق قرابتك وعلمك فكيف علمك يا شافعى بكتاب الله عز وجل فإنه
أولى الأشياء أن يمتدأ به ؟

فقال الشافعي : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين فإن الله قد أنزل كتباً كثيرة ؟
فقال الرشيد ؛ « أحسنت . لكن إنما أسالك عن كتاب الله تعالى المنزل على ابن عمى محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم

قال الشافعي : «إن علوم القرآن الكريم كثيرة فهل تسألنى عن محكمه أو متشابهه أو عن تقديمه أو
تأخيريه أو عن ناسخه أو منسوخه ؟ .

فأعجب الرشيد وأهل المجلس بجواب الشافعى .

ثم أخذ الرشيد يسأله عن سائر العلوم الطبيعية والرياضية من طب وكيمياء وفلك وتنجيم وفراسة ..
فصفق الحاضرون إعجاباً بحسن إجاباته ، وأجازه الرشيد بخمسين ألف دينار ، فقبلها الشافعى
شاكراً ، وخرج إلى دار مضيئه ، فلحق به أحد كبار رجال الدولة فقدم إليه صرة كبيرة بها دنانير
ذهبية ، فردها الشافعى قائلاً : «لا أقبل عطاء ممن هو دونى إنما أقبل العطاء من الخليفة وحده»

عاد الشافعى إلى دار مضيئه محمد بن الحسن ، يتأمل كل الذى دار بينه وبين الخليفة .

تعلم الشافعى من المحنة ألا يزوج بنفسه فى صراع سياسى .

وحاول محمد بن الحسن أن يجذبه ليكون فى صف بنى العباس ، بدلا من بنى على ، ولكنه أثر
العافية وأقسم ألا يخوض غمرات الصراع السياسى ، وألا يقبل منصبا فى الدولة ، فلن يهب نفسه لشيء
بعد أعظم من العلم والفقه .. واعترف أنه أخطأ حين قبل المنصب فى اليمن ، فزوج بنفسه فيما ليس من
شأنه .

وعكف على دراسة الطب والعلوم الطبيعية والرياضية يستكمل مافاته منها ، واهتم بالرياضة
البدنية ، وعاد يتدرب على الرمى وركوب الخيل ، وقسم وقته بين هذا كله وبين دراساته الفقهية
ودراسة ماترجم من ثقافات المصريين القدماء القبط واليونان والفرس والهند .

واتخذ لنفسه داراً ، وبدأ يدرس فقه العراق على يد محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبى حنيفة .

لقد درس هذا الفقه مرة عندما كان فى نحو العشرين ، وها هو ذا اليوم فى نحو الخامسة والثلاثين
وقد أكسبته السنون خبرة ، وأنضجت الدراسة والمعاناة والتأملات عقله وقلبه ، يعيد دراسة فقه أبى
حنيفة وغيره من فقهاء العراق .

و يبذل فى كل أولئك من الجهد ماجعل الطبيب يحذره من السل .

صاحب الشافعي محمدا يتلقى منه فقه أهل الرأي ، ولم يجد في ذلك غضاضة ، فقد كان دائما مشوقا إلى المعرفة ، وإلى المزيد من العلم - وكان يقول : « من حسب أنه علم فقد ضل وجهل »

ولزم الشافعي حلقة محمد بن الحسن في بغداد ، وشاهد في الحلقة مخالفة لمالك ، وهجومًا على آرائه ، وكان يستحي أن يواجه محمدا في الحلقة بخلافه معه حول الإمام مالك ، فما يكاد محمد يتصرف عن حلقتة ، حتى يسرع الشافعي في مناظرة تلاميذ محمد ، مدافعا عن فقه الإمام مالك ، وعن أهل السنة ، حتى لقد أطلقوا عليه في العراق اسم « ناصر السنة »

وعرف محمد أن الشافعي يناظر في غيابه ، فأصر محمد على أن يناظره الشافعي .

وأبى الشافعي خجلا من محمد ، ولكن محمدا ألح عليه فتناظرا في رأى الإمام مالك في الاكتفاء بشاهد واحد مع اليقين

وظهر الشافعي على محمد في المناظرة

ثم رجع الشافعي عن هذا الرأى عندما رحل إلى مصر ، وسمع من تلاميذ الإمام الليث حجة شيخهم في التمسك بشاهدين .. فأخذ الشافعي برأى الليث ...

أعجب محمد بالشافعي ، وولع بمناظراته . وأعجب الشافعي بعلم محمد وبخلقه العلمي ، فما كان يغضب إذا غلبه مناظر ، وما أسرع ما كان يعترف لمناظره بالصواب إن اقتنع بحجته .

قال عنه الشافعي : مارأيت أحدا سئل في مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن .

وقد بلغ من حب محمد للشافعي ، أنه كان على موعد مع الخليفة ، وإذ بالشافعي أمام دار محمد ، فنزل محمد عن دابته ، وقال لغلامه اذهب فاعتذر . وأخذ بيد الشافعي ، فقال الشافعي : « لنا وقت غير هذا » فقال محمد « لا »

ودخل به داره يتناظران ويتدارسان

وعلى الرغم من أن محمدا من أهل الرأى من أتباع أبى حنيفة والشافعي من أتباع مالك شيخ أهل السنة - وبين أبى حنيفة ومالك خلاف كبير في الأصول والفروع - على الرغم من ذلك فإن محمدا كان يمدح لتلاميذه علم الشافعي وسأله لماذا يؤثر الشافعي عليهم على الرغم من خلافها فقال : لتأنيبه وتشبته في السؤال والاستماع .

أثرت الحياة الفكرية فى بغداد ثراء عظيمًا بمحاورات الشافعى ومحمد بن الحسن ، وكانت مثالا لأدب المناظرة ، وبراعة المتناظرين .

لكم كان الشافعى غفيف اللسان فهو لا يسيء إلى أحد ولا يجب أن يذكر أحد بسوء أمامه .

قال له أحد أصحابه فلان كذاب . فقال : لا تقل (كذاب) بل قل حديثه غير صحيح »

وكان يعظ أصحابه : « نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به . فإن المستمع شريك القائل .

والشافعى على الرغم من خلافه مع أبى حنيفة إمام الرأى كان إذا سئل عن مكانته بين فقهاء العراق — ومنهم أهل الحديث — قال : « سيدهم »

ولعل أروع محاوراته مع محمد بن الحسن . هى تلك التى دارت حول الغضب

قال محمد للشافعى : « بلغنا أنك تخالفنا فى مسائل الغضب » فقال الشافعى « أصلحك الله إنما هو شىء أتكلم به فى المناظرة فإنى أجلك عن المناظرة

ولكن عمدا صتم على أن يناظره

فسأله : « ماتقول فى رجل غضب ساحة وبنى عليها بناء وأنفق عليها ألف دينار ، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه ؟

قال الشافعى : « أقول لصاحب الساحة ترضى أن تأخذ قيمتها ؟ فإن رضى ، وإلا قلمت البناء ودفعت ساحته إليه .

قال محمد : فأتقول فى رجل غضب لوحا من خشب فأدخله فى سفينته ووصلت السفينة إلى لجة البحر ، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين . أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟

قال الشافعى « لا »

قال محمد : « الله أكبر تركت قولك ! ثم ماتقول فى رجل غضب خيطا فجرحوا بطنه فخاطوا بذلك الخيط تلك الجراحة . فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغمسب أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟

قال الشافعى « لا »

فقال محمد : « الله أكبر . تركت قولك » .

فقال الشافعي : رأيت لو كان اللوح لوح نفسه (لوح صاحب السفينة) وأراد أن ينتزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها فى لجة البحر ، أمباح له ذلك أم يحرم عليه ؟

قال محمد : « يحرم عليه » .

فسأل الشافعي : « رأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء أيحرم عليه ذلك أم يباح ؟

فأجاب محمد : « بل يباح » .

قال الشافعي : « رحمك الله فكيف تقيس مباحا على محرم ؟ » .

قال محمد : فكيف يصنع بصاحب السفينة ؟

قال الشافعي أمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل ، ثم أقول له انتزع اللوح وادفعه لصاحبه .

قال محمد : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » .

قال الشافعي : من ضره ؟ هو ضر نفسه ثم سأل الشافعي : « ما تقول فى رجل من الأشراف

غصب جارية لرجل من الزنج فى غاية الرذالة » .

ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء . فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التى هى أم هؤلاء الأولاد مملوكة له ماذا تعمل ؟

قال محمد : أحكم بأن أولئك الأولاد ممالك لك لذلك الرجل .

قال الشافعي أنشدك الله أى هذين أعظم ضررا أن تقلع البناء وترد الساحة لمالكها أو أن تحكم

برق هؤلاء الأولاد ؟

فسكت محمد بن الحسن ، أما تلاميذه فى الحلقة فمالوا إلى رأى الشافعي .

أقام الشافعي فى بغداد أعواما قلائل . استوعب فيها كل معطياتها من العلوم الطبيعية والدينية والرياضية والفقهية ، وناظر فقهاءها ، وقرأ عليهم كتاب الإمام مالك « الموطأ » ، ودافع عن أهل الحديث ، وأفاد من أهل رأى .

وشعر آخر الأمر بالشوق إلى مكة ، وبأنه قد جمع من المعارف ما يؤهله لأن يجلس في المسجد الحرام
مجلس المفتى والأستاذ وشيخ الحلقة

وكانت مناظراته قد أعجبت الرشيد ، فعرض عليه أن يوليه القضاء في أى مكان يريد ، أو يجعله
واليا على أى قطر يختار .

ولكن الشافعى استأذن الرشيد فى أن يتفرغ للعلم ، وأن يعود إلى مكة ليعيش بين أهله من قرينش
و ينشر ماتعلمه بين الناس .
وأذن له الرشيد .

عاد الشافعى إلى أم القرى . فاتخذ له مجلسا للفتوى والتدريس فى فناء بئر زمزم بجوار مقام إبراهيم
خليل الله ... وهو المجلس الذى اختاره من قبل فى عصر الصحابة ، عبد الله بن عباس مفسر القرآن
الكريم ، وأحد الذين حفظوا فقه الإمام على بن أبى طالب وأفضيته ، وكان نائبه على الحجاز عندما
كان الإمام على كرم الله وجهه أميراً للمؤمنين . يحكم الدولة الإسلامية الغنية من الكوفة فى بيت هو
من أدنى بيوت المسلمين

عاد الشافعى من بغداد ، ولايزال فى أذنيه طنين من ضجيج المناظرات .. وقد أتاح له مقامه
الطويل هناك أن يقترب من أهل الرأى ، وأن يقترب أهل السنة من الرأى .. وأن يقنع بعض أهل
الرأى بما عند أصحاب السنة ..

وما زالت صور من محاوراته مع محمد بن الحسن تلح عليه ..

فى حوار مع محمد بن الحسن شيخ أهل الرأى فى العراق بعد الإمام أبى حنيفة كان الشافعى
يحاول أن يقترب المذهبين ، وكان مفتونا بذلك الطريق الوسط الذى اختطه الإمام الليث بن سعد
المصرى بين أصحاب الرأى وأهل السنة .

إنه لا يستطيع اليوم أن ينحاز إلى أى الحزبين .. فكيف استطاع الإمام الليث أن يجد هذا المنهج
الوسط ؟

كانت آراء الليث قد انتهت إلى الشافعى منذ كان فى اليمن ، ولكنه كان فى حاجة إلى المزيد ،
ولا بد من السفر إلى مصر ليتلقى العلم من إمامها الليث بن سعد
ولكن أهله فى مكة أم القرى يستيقونونه .

وإذن فليقيم في مكة أم القرى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وحتى يؤذن له بالسفر إلى مصر .

لقد أصبح الآن يملك من عطايا هارون الرشيد مايسمح له بالتفرغ الكامل للعلم .

وأُنفق نصف ماحمله من العراق على فقراء مكة ، تنفيذًا لوصية أمه : أن يتصدق على الفقراء بنصف ما معه كلما قدم إلى أم القرى .

وهاهوذا الآن إمام يجلس للتدريس والإفتاء . ثابتا ، راسخا ، مطمئن النفس

وجعل مجلسه في المسجد الحرام ساعات قليلة بعد الفجر . أما بقية النهار والليل فقد خصصه للتأمل ، ولاستنباط منهج في الفقه .

لكم هونادم لأنه أضاع وقته ، إذ قبل وظيفة في اليمن فدخل فيما ليس من شأنه على حساب ماكان ينبغي أن يحصل من معرفة ، ويشيع من علم ، وعلى حساب طلب الحقيقة والحكمة ..

على أن الوقت لم يفت بعد ، وعليه أن يعرض مافات .. إنه ليعمل النهار والليل إذن ..

إنه ليفسر القرآن ويستنبط دلالات آياته ، ويدرس الناسخ والمنسوخ ، ويدرس السنة ومكانها من القرآن ، ويتعرف على صحيح الأحاديث من باطلها ، في عصر كثرفيه وضع الأحاديث إما مشايعة للفرق السياسية المتناحرة ، وإما كيدا للإسلام ، وإما غفلة من وضاع الحديث أو ناقله حتى لقد صح عنده أن بعض الذين سمعوا الأحاديث كانوا يسمعون بعضها فيكتفون به ، وقد يكون فيما لم يسمعه منها ماينسخ ما نقلوه .

ثم أخذ يفكر في كيفية استخراج الأحكام إن لم يكن هناك نص في القرآن أو السنة وكيف يجتهد المجتهد وماضوابط الرأي .

ووضع كتابا أسماه « الرسالة » فيه القواعد الكلية العامة لاستنباط الأحكام وأسس هذا الاستنباط ، وأعاد النظر فيه ففتح واختصر منه ولكنه لم يطمئن إلى نشره ، فأرى أن يتركه بعض الوقت عسى أن يعيد النظر فيه ، بعد طرح ما فيه من أفكار على أهل حلقتة ، ومناظرة شيوخ مكة وعلماء الأئصار الذين يفدون إلى البيت الحرام .

وطال مقامه بأمر القرى هذه المرة ، وطابت له فيها الحياة ، وجذب إليه الكثيرين من رواد الحلقات الأخرى في المسجد الحرام .

وجلس إليه أحمد بن حنبل فأعجب به ، فذهب أحمد إلى صحابه الذين يلتصقون العلم في حلقات

أخرى بالمسجد الحرام وأغراهم بالذهاب إلى حلقة الشافعي . و يروى أحد أصحاب ابن حنبل :
« قت فأتى بي أحمد بن حنبل إلى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تلو وجهه السمرة ،
حسن السميت ، حسن العقل ، وأجلسني أحمد بن حنبل إلى جانبه

وقال أحمد ابن حنبل لصاحبه : « اقتبس من هذا الرجل فإنه مارأت عيناى مثله ، فإن فاتنا لن
نعوضه أبدا » .

ثم عاد الشافعي من جديد إلى كتابه الرسالة ، يتأمله وهذبه حتى استقام له علم أصول الفقه ،
ف رأى أن يذهب إلى العراق يعرض على شيوخه هذا العلم الجديد و يناظرهم فيه .

كان قد جاوز الخامسة والأربعين ، وقد أصبحت له بركة مدرسة وأتباع . وقد أطلقوا عليه فى مكة
« المفتى المكي » ، و« العالم المكي » .

وجلس فى حلقة بجامع بغداد ، يشرح للناس ماوصل إليه فى « الرسالة » من أصول
وهناك بهر بعلمه الفقهاء والتلاميذ ..

ذلك أنه قد انتهى إلى أن القرآن الكريم قد جمع الأحكام وجاءت السنة شرحا وتبيانا لما فى
القرآن ..

فعلى المجتهد أن يبحث عن الحكم فى القرآن أو السنة .. فان لم يجد ففى إجماع الصحابة .. إجماع
الصحابة فى كل الأقطار لا فى المدينة المنورة وحدها ، بحيث لا يصبح إجماع إلا إذا اتفق عليه كل
الصحابة

فإن لم يجد المجتهد حكما فى كل ذلك ، فعليه أن يبحث فى علة الحكم الواردة بالنص ، و يلحق بهذا
الحكم مايتشابه معه فى العلة من القضايا الجديدة ، وهذا هو القياس ، وهذا أرضى الشافعي أهل الرأى
وأهل الحديث جميعا .

احتفلت به بغداد كما لم تحتفل بفقيه زائر من قبل ، وفرح به تلميذه أحمد بن حنبل الذى كان ألف
أن يختلف إلى حلقتة ويلزمه كلما زار مكة حاجا أو معتمرا ، قاصدا إليها على قدميه .. وتمنى التلميذ
على أستاذه أن يقيم فى بغداد سنوات فينشر علمه و يؤسس فيها مدرسة فقهية جديدة .

ولكن الحياة لم تطب للشافعي فى بغداد .. لكم تغيرت بغداد خلال هذه السنوات الطوال التى
أقامها الشافعي فى مكة .. !

لم تعد بعد هي بغداد التي أحبها .. مات خير أصدقائه محمد بن الحسن ، ولحق به آخرون ، وسجن الباقون أو تركوا العراق ، وذهب الرشيد ، فاضطربت الأمور بعد موته .. اختلف أولاده .. وحارب الأخ أخاه على الخلافة .. فقد ولي الأمين ولم يكديستقر على العرش حتى وثب عليه أخوه المأمون فقتله ، وتولى مكانه .

وما زالت أصداء النواح على البرامكة تملأ آفاق بغداد ، منذ نكبتهم الرشيد . وهم أقرب الناس إليه ، وأعمل فيهم السيف وآلات التعذيب حتى لا يرى فوق ظهرها برمكيا

ثم إن الرشيد بطش بكل معارضيه ، وما زالوا تحت الأصفاد في كهف سحيق .. وما انفك من بين رجال العلم من يكيد لمخالفه في الرأي ويحاول أن يوقع بهم عند المأمون ، الخليفة الذهبي ..

وشيء جديد يشغل مجالس الفقه عما ينبغي أن تشغل به مما يفيد الناس في دنياهم .. فالأفكار التي تطرح على ندوات العلم والفقه هي صفات الله وعلاقتها بذات الله تعالى .. والجبر والاختيار.

ثم إن العناية بالقرآن الكريم قد عدلت عن تدبر آياته وفهم الأحكام منها ، وتحوى مقاصدها بما يضبط معاملات الناس وسيرتهم في دينهم ودنياهم ، وانصرف العلماء والفقهاء إلا قليلا إلى مناقشة صفة القرآن الكريم : أقدم هو أم مخلوق ؟

جدل نهى الصحابة عنه ، وانصرف عن مصالح العباد ، ومباحث ما كانت تشغل حلقات العلم والفقه من قبل ، بل كانت تعرض لتختفى ، فها هي ذى الآن تسيطر على العقول والقلوب . ! وهكذا كله غير ما ينبغي أن يشغل المسلمون ! ! إن هذا لشيء عجيب ..

وعلى الرغم من الازدهار الحضاري الفائت ، فقد أحس الشافعي أن الجسارة الفكرية في مواجهة مقتضيات الحياة باستنباط الأحكام قد بدأت تنحسر ، ليزحف مذجسرة زائفة ، هي الجرأة على الشريعة نفسها ، وشغل الناس بما لا ينفعهم في مواجهة حياة كل يوم .

يواكب هذا كله دعوة ملحة إلى الزهد فيما أحله الله لعباده ، وحض الناس على القناعة بالفقر ، ليكنز الكانزون ، ويستمتعوا دون الرعية حتى بما حرم الله .. !

لم تعد بغداد هي المدينة التي أحبها الشافعي من قبل ، وأفاد من مناظراته لعلماؤها ، وأتقن فيها علوم الطب والفلك ، والفقه .

وإذن ما بقاؤه في بغداد ؟ !

والى من يأنس فيها ؟ !

ومع من يقضى وقته ؟ !

لقد ألف حين زارها فى المرة الماضية أن ينفق وقته مع صفيه وأستاذه محمد بن الحسن .. أين رفاق ذلك الزمان من العلماء والفقهاء ؟ لأحد بعد !

والإنسان يجب من المدائن تلك التى يجدها فيها الراحة والألفة ، وحسن الصحبة ، وجمال الرفقة .. ولكنه الآن فى بغداد لا يجدها من يأنس إليه غير أحمد بن حنبل . إنه لأحب تلاميذه إليه حقا ، وما يقيم الشافعى عليه فى بغداد الآن إلا من أجل أحمد بن حنبل ..

ومر عليه شهران فى بغداد ، واستدعاه المأمون ، فعرض عليه أن يوليه منصب قاضى القضاة ، وهو فى المنصب الذى كان يشغله محمد بن الحسن أيام الرشيد ، ولكن الشافعى كان قد آلى على نفسه ألا يتولى منصباً ، وأن يخصص كل وقته للفقهاء ، فإن وجد متسعاً من الوقت فليخصصه للشعر ، وما أقل ما كان يجده الوقت لممارسة هذا الفن الحبيب إليه ! .. وما أكثر ما كان يخشى أن يُعرف عنه أنه قد أدركته حرفة الشعر فينبذه الفقهاء المتزمتون . ؟

وتلقى دعوة إلى زيارة مصر من واليها الجديد ، ومن أحد تلاميذه الذين أملى عليهم «الموطأ» فى مكة من قبل ، وألف استقباله فى كل موسم حج ، وقد أصبح تلميذه هذا الآن فقيها ذا شأن فى مصر وتاجراً واسع الغنى وهو ابن عبد الحكم .

لقد طوف الشافعى فى الأفاق وعرف الدنيا وعرف الناس ، زار اليمن والعراق والشام وفارس والأناضول ، إلا البلد الذى سمع فيه من علم وحكمة ، وتمنى أن يزوره .. زار كل عواصم الفقه ... إلا مصر .. !

وتأقت نفسه إلى زيارة مصر .. إنه يعرف أن أول كتاب ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب مصرى فى الطب ، ترجمه فى صدر الإسلام عالم قبلى من أهل مصر .. وقد تعلم الشافعى من هذا الكتاب ... وهو يعرف أن حكاء اليونان الذين بهرتهم أفكارهم وكل آثارهم ، قد تعلموا الحكمة والطب والفلسفة والرياضيات فى مصر القديمة .. وهو يعرف أن مصر من بين كل البلاد المفتوحة هى البلد الوحيد الذى عرف عقيدة التوحيد قبل الديانات السماوية .. من يدري .. ربما كان بها رسل وأنبياء ممن لم يتحدث عنهم القرآن ، وقد أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن بأنه أرسل من الرسل من لم

ينزل قصصهم فى القرآن ، ولم ينبئهم بأمرهم فيما أنزل عليه من أنباء الغيب . !

وهو يعرف أن فى مصر مزاجا من الحضارات ، وأن الحضارة المصرية القديمة قد شكلت الإنسان المصرى فعلمته حب العدل والحرية والحقيقة والحكمة ، ثم جاءها الإسلام فأثبت فيها نباتا طيبا ، وصاغ لها حياة خصبة من الأخوة .. وانه ليتوق إلى التعرف على ماتركه الصحابة الأوائل فى مصر، منذ جاءوها فى جيش الفتح ، وهو بعد يريد أن يعايش تلك المدرسة المصرية العظيمة فى الفقه الإسلامى ، الغنية باجتهادات الإمام الليث ، رائد الشافعى فى الطريق الوسط بين أصحاب الرأى وأهل الحديث .

وأصبح الشافعى ذات يوم فأعلن أنه راحل من غده إلى مصر، فألح عليه تلميذه أحمد بن حنبل أن يبقى معهم فى بغداد . ولكن الشافعى كان قد عزم فما عليه إلا أن يتوكل .

وزار قبر الإمام أبى حنيفة ، وصلى ركعتين ... ولاحظ مراقبوه أنه عدل عن قواعده فى حركات الصلاة إلى قواعد أبى حنيفة . فلما سأله فى ذلك قال : «أدبا مع الإمام أبى حنيفة أن أخالفة فى حضرته» .

واجتمع خلق كثير فى وداع الشافعى . أحمد بن حنبل ما برح يحاول إقناعه بالبقاء فى بغداد ، فيمسك الشافعى بيد ابن حنبل و يترنم :

«لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامه والتفر»

«والله ما أدرى ألفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر»

وبكى أحمد بن حنبل . وبكى الشافعى والحاضرون ، ودعا الشافعى أحمد بن حنبل أن يزوره فى مصر، فوعده أحمد بالزيارة إن شاء له الله .

وصل الشافعى إلى مصر، واستقبله على أبواب الفسطاط عدد من الفقهاء ورجال الدولة كلهم يستضيفه

ويلح عليه أن يقبل الضيافة ودعاه الوالى إلى منزل كبير خصصه له ، ولكن الشافعى آثر الإقامة عند أقارب أمه ، تشبها بالرسول عليه الصلاة والسلام حين هاجر إلى يثرب ، فأقام عند أخواله .

وكانت جماعات القبائل العربية مازالت تفتد إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، فتستوطن المنازل التى تألفها ، إما فى الفسطاط أو فى الأقاليم .

وكان أول ماصنعه الشافعي حين استقر به المقام أن ذهب إلى قبر الإمام الليث فزاره .

وقال وهو يقف على قبره : « لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكنن لعالم ، العلم والعمل والزهد والكرم »

وبعد أن فرغ من زيارة الإمام الليث سأل عن دار السيدة نفيسة ، وكانت تقيم بمصر . منذ سجن أبوها ، وكان واليا على المدينة وهي حفيدة الحسن بن علي وزوجها هو إسحق المؤمن بن الإمام الصادق جعفر بن محمد حفيد الحسين بن علي رضي الله عنهم .

وأستاذنوا للإمام الشافعي في زيارتها فأذنت له ، ورحبت به ، وأعجبها عقله وورعه ، وسمع منها ما لم يكن قد وصل إليه من أحاديث شريفة .

وألف منذ تلك الزيارة أن يجلس في حلقتها فيسمع ، ويقرأ عليها اجتهاداته .. وكان إذا أقعده المرض عن زيارتها أرسل يسألها الدعاء فتدعوه بالشفاء ..

وبعد أن فرغ من أول زيارة للسيدة نفيسة سأل مرافقيه أن يصحبوه إلى « تاج الجوامع »

— فهكذا كان يسمى جامع عمرو إذ ذاك — فوجد الجامع يبعج بحلقات الدرس ، وشاهد عجا .. ! لم تكن كلها حلقات قرآن وحديث وفقه .. بل كانت فيها حلقات للقصاص واللغة ، والشعر ، وسائر فنون الفكر والمعرفة .. ما أروع انطلاق الحياة الفكرية هنا .. ! لقد كان من قبل يقول في حسرة :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت الآن أشعر من لبيد !

ولكنه هنا يستطيع أن يقول الشعر بلا حرج في هذه البيئة الفكرية البسمة

جلس للتعليم والإفتاء ، وفي أول حلقة له بالجامع جلس القرفصاء على حشية وكان مريضا بالبواسير وتصلب في الأطراف فأراد أن يمد رجله كما تعود منذ مرض عملا بتصحيح الأطباء ، ولكنه لم يفعل تخرجا منه ، واحتراما لبعض أتباع مالك وأبي حنيفة .. وكان أتباع أبي حنيفة يكثرون الفروض و يبحثون عن أحكام للوقائع المفترضة .. وسأل أحدهم : « إذا حمل رجل قرية بها ريح نجس أينقض وضوءه » ؟ هل انكشاف العورة ينتقض الوضوء فأجاب الشافعي : أن للشافعي أن يمد رجله ..

وجد تقاليد جديدة في الحلقات .. فالأستاذ لا يلقى الدرس على طلاب يستمعون ، كما ألف من

قبل وبصفة خاصة فى حلقة الإمام مالك .. ولكن الأستاذ يبدأ درسه بكلام قليل ، ثم يدير حوارا بينه وبين التلاميذ ، ومن خلال المحاورات تنفجر المسائل وتوضح الآراء

كانت هذه هى تقاليد المدرسة المصرية القديمة ، وعليها تعلم فلاسفة الإغريق ومنها أخذوا أسلوبهم فى المحاورات ...

وعلى هذا النهج سارت المدرسة المصرية فى الفقه الإسلامى

واتبع الشافعى هذا التقليد حتى فى دروس القرآن والتفسير ..

وأحاط به تلاميذ الإمام الليث وأطلعوه على ما حفظوه من شيخهم .. وكان يحسب أنهم هم الذين يلون القضاء ، وأن إليهم أمر الفقه ، ولكنه وجدهم معزولين ، يضطهدهم المتعصبون ، !

ووجد الحياة الفقهية يتنازعها أنصار الإمام مالك وأنصار الإمام أبى حنيفة ، والغلبة لأنصار الإمام مالك ، وفيهم مغالون يشتطون ، حتى لقد يؤذون من يعلن الخلاف مع مالك من أتباع الليث أو أبى حنيفة

وجادل الإمام الشافعى بعض هؤلاء المشتطين ، وقال لهم إن الإمام « مالك » بشر يعطىء ويصيب فانتفض أحدهم فى وجه الإمام الشافعى ، وسفه عليه ، ووجه إليه كلمات بذيئة ، وحمل الحاضرون هذا المتعصب السفیه وأخرجوه من المجلس ، والشافعى مستمر فى حديثه كأنه لم يسمع شيئا .. ! وعرف الشافعى أن هذا السفیه اسمه « فتيان » وبعد انتهاء الدرس طالب تلاميذه أن يصفحوا عن ذلك السفیه ..

ووضع الشافعى لنفسه نظاما لم يجد عنه . أن يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر بعلوم القرآن ، فإذا انتهى منها جلس إلى درس الحديث .. ثم يجلس بعد هذا مجلسا لم يجلسه من قبل فى حلقة قط ، ولكنه تمنى أن يجلسه ، وهو مجلس علوم اللغة والشعر وشتى المعارف الإنسانية الأخرى .. وفى هذا المجلس الأخير كان يعظ من يستمع إليه أو يحاوره : « إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا ، فأما الذى هو علم الدين فهو الفقه ، والعلم الذى للدنيا هو الطب ، فلا تسكنن بلدا ليس فيه عالم يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك » .

فى مجلسه الثالث كان إذا لم يجد بين الحاضرين من يحسن مذاكرته فى الشعر والأدب والعلوم الإنسانية طلب من صحبه أن يحثوا له عن أدباء مصر وشعرائها وعلماء المعارف الإنسانية ، فما يزالون يتذكرون حتى تحين صلاة الظهر ، فيصلى بهم ، أو يصلى خلف واحد منهم ، وينصرف الجميع .

و يعود الشافعى إلى داره .. وقد يصطحب بعض صحبه للغداء معه ، ثم ينصرف إلى العمل ..

وقد تعلم من أستاذه مالك بن أنس أن يحمل الناس على احترام خلوته للعمل وعكوفه عليه ..
فالمعمل عبادة يجب ألا يخلطها بشيء آخر ، ويجب ألا يسمح لأحد بإفسادها ، فالعلم لا يأتيك بعرضه إلا
أن تؤتيه كلك ..

حتى إذا فرغ من العمل وصلى العشاء ، جعل جزءا يسيرا من الليل لاستقبال الضيوف ، فيسمرون
معا ، ويتذاكرون الشعر والأخبار ، وبعض مايسرى عن النفس فى سمر لطيف عذب .

وكان حسن الإصغاء ، محبا للطرائف ، وقد أعجبه الملح المصرية ، فهو يطلب حكايتها من أصحابه
المصريين معلنا إعجابه بظرف أهل مصر ..

وهو نفسه يحكى الطرائف مما شاهد فى رحلاته الطويلة

من ذلك أنه رأى فى المدينة المنورة أربع عجائب لم يرها فى بلد قط .. رأى جدة عمرها إحدى
وعشرون سنة ! وقاضيا حكم بإفلاس تاجر فى دين قيمته أربعة أرتال من نوى البلح ! وشيخا
عمره تسعون عاما يدور نهاره حافيا راجلا قائما يعلم القيان الرقص والغناء ، فإذا جاءت الصلاة صلى
قاعداً .. واليا كان صالحا طيبا فقال « مالى لأرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على
أبواب الولاة ؟ قالوا له : « لأنك لا تضرب أحدا ولا تؤذى الناس » فقال : هكذا ؟ على بإمام
المسجد » فأحضروا له إمام المسجد فأمسكوا به على باب الوالى ، وجعل الوالى يضرب الإمام والإمام
يصرخ « أصلح الله الأمير » إيش جرى .. (أى شيء جرى ؟) وظل الإمام يصرخ والوالى يضربه حتى
اجتمع الناس .. وسرى عن الوالى وطابت نفسه ، فقد اجتمع الناس على بابه ! !

وكان مما يستعيد الشافعى روايته من ملح أهل مصر أن رجلا كان له غلام غيبى ، فقال له :
« اذهب الى السوق فاشتر حبلًا فى طول خمسة عشر ذراعا » فسأله الغلام وفى عرض كم » قال الرجل
فى عرضك ! ! فى عرضك ! ! « وغاب الغلام ساعة وعاد بلا حبل يقول : « لم أجد حبلًا فى عرضى »

اطمأنت الحياة بالشافعى فى مصر . وجاء رمضان فصلى التراويح بالسيدة نفيسة ، ولاحظ أن عددا من
النساء يحضرن دروس الفقه ، منهن بعض زوجات تلاميذه وأخواتهم وبناتهم . وفى حلقة الفقه بالجامع
جاءه رجل شاب كان قد طلق امرأته ثم ندم ، وأرجعها فى رمضان وقبلها فى النهار وهما صائمان ، واتجه
الرجل إلى الإمام الشافعى قائلا :

سلوا المفتى المكى هل فى تزاور
وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فأذناه الشافعى منه وقال مبتسما:

أقول معاذ الله أن يذهب التقى

تلاصق أكباد بهن جراح

فأحاط بالرجل عدد من المتعصبين وسألوه ، ليجعلوا من القصة مأخذاً وسبيلاً على الشافعى ..
فزعق فيهم الشاب : « ياناس .. أسأله عن امرأتى ، وحكى لهم حكاية إرجاعها وتقبيلها فى نهار
رمضان .. فالإمام الشافعى يرى أن قبلته لم تذهب تقاه وصيامه .. وهذا هو رأى إمامهم مالك نقلا عن
عمر بن الخطاب عن امراته عن أم سلمة أم المؤمنين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وفى هذه البيئة الفكرية المتحررة على الرغم من شغب المتزمتين استراح الإمام الشافعى فى مصر ،
فانبسطت نفسه ، وانطلقت أفكاره .

وأخذ يذيع شعره وكثير منه مشهور مثل قوله :

وانى لشتاق إلى أرض غزة
وان خاننى بعد التفرق كتمانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بترها
كحلت به من شدة الشوق أجفانى

وقوله :

كل العداوات قد ترجى مودتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

وقوله :

حسبى بعلمى أن نفع
مالذل إلا فى الطمع
مطار طير وارتفع
إلا كما طار وقع

وقوله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتنا
وإذا مت لست أعدم قبرنا
همتى همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا

ولكن الإمام الشافعى على الرغم من السماحة التى بهرتة فى مصر ، كان يعانى من ضيق أفق المتعصبين وعدوانهم على الناس .. وكان هذا النفري ينتسب إلى المذهب المالكى ويسيئون بسلوكهم إلى سمعة أستاذه وشيخه العزيز عليه .. فنصب نفسه مفندا لدعاواهم .

مرفى الطريق ببقية من هؤلاء يمسك برجل ويتهمة فى دينه ، والأخير يهزأ بالفقيه .. وأوشكا أن يتضاربا ، فخلصهما الشافعى وقال : ماخطبكما ؟ فقال الفقيه : « رأيتة بيول واقفا » . قال الشافعى : « ومافى ذلك » ؟ ، قال : « يرد الريح من رشاشه على بدنه فيصلى به ، » فسأله الشافعى : « فهل رأيتة أصابه الرشاش فصلى قبل أن يغسل ماأصابه ؟ ، فقال « لا » .. ولكنى أراه سيفعل » ، فضحك الشافعى وحاول أن ينصحه .. فغضب الفقيه ، وعربد على الشافعى وسبه .. وتأمله الشافعى ، فإذا هو « فتيان » الأحمق الذى سأل الشافعى حين قدم عما إذا كان ظهور العورة ينقض الوضوء ، ثم شتمه بعد ذلك فى جامع عمرو شتما منكرا .

وإن للشافعى مع « فتيان » هذا لسانا .. !

وكان « فتيان » هذا يقود جماعة من المتعصبين ، يرهب بهم أتباع الإمام الليث لأنه خالف الإمام مالك بن أنس ، ويرهب بهم من يلتفون حول الإمام الشافعى منذ اكتشف الشافعى أن الفقه المصرى يختلف مع الفقه المالكى فى كثير من الأصول والفروع ، فأخذ الشافعى برأى إمام الفقه المصرى .. الليث بن سعد .

وشرع المتعصبون لمالك يتهمون الشافعى بأنه لايعرف الحديث ، فرد عليهم أنصار الشافعى بشهادة أحمد بن حنبل وهو من أكثر الفقهاء انتصارا للحديث « مامن أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلا للشافعى عليه مئة . ذلك أن أصحاب الرأى كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حتى قدم الشافعى إلى العراق ، وأقام الحججة عليهم ! »

وعلى الرغم مما لقى الشافعى من المتعصبين ، فقد ظل يتابع حلقات الحوار والدروس ، والناس يفتدون إليه من مختلف الأقطار والأمصار ، مفتونين بطريقته فى الإلقاء والجدل ، وببلاغته حين يخضب

الجمعة حتى أسموه «خطيب الفقهاء»

ومرت به الشهور في مصر، وهو ينتظر مقدم صديقه وتلميذه أحمد بن حنبل .. وكثيرا ما كان يشرد ويقول: «وعندى صاحبى أحمد بالقدوم إلى مصر» .. ويتمنى و ينتظر ..

على أن الواقع المصرى الجديد، وما طلع عليه الشافعى فى مصر، من آراء وطرائق للاجتهد، جعله يعيد النظر فى كل ما كتبه من قبل .

لقد غير كثيرا من آرائه .

ومن أبرز الآراء التى ظهر فيها التأثير المباشر للبيئة المصرية رأيه فى الماء .. فقد كان يرى كالإمام مالك أن من حق صاحب الأرض التى بها بئر أن يبيع الماء ..

ولكنه فى أرض النيل، تابع رأى الإمام الليث . فى أن صاحب الأرض التى بها بئر ليس له إلا حق السبق فى الاستعمال .. أى الامتياز فقط، وللغير بعد ذلك حق الشرب وسقى الأرض بلا مقابل .

وشرح يراجع كتاب « الرسالة » مرة ثالثة و يصقل ماتضمنه من أصول الفقه .. بل أخذ يراجع كل ما كتب من قبل فأحرق بعضه .

ونظر فى الآراء التى تابع فيها شيخه (مالك)، وعكف على فقه مالك كله يحصه على ضوء ماتعلمه فى مصر من فقه الليث ..

فأعلن فى خاصته أن الإمام مالك بن أنس يقول بالأصل ويدع الفرع ويقول بالفرع ويدع الأصل .. ونشر كتابا عن خلافه مع مالك فى الأصول والفروع .. وقال إنه مع الليث فى خلافه مع مالك !

ثم عكف على فقه أبى حنيفة يحصه وانتهى من دراسته إلى نقد الإمامين مالك وأبى حنيفة . «فمالك أفرط فى رعاية المصالح المرسله وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول ..» وهكذا

وانقطع الشافعى، يعيد كتابة « الرسالة » و يؤلف كتبا جديدة فى الفقه، وينقح و يصبو فيها لم يحرقه من الكتب القديمة

وجهد جهدا شديدا فى هذا العمل

وروى بعض أهله «ربما قدمنا المصباح فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر بين يدى الشافعى ، كان يستلقى ويتذكر وينادى : «يا جارية هلمى مصباحا» فتقدمه ويكتب ويكتب ثم يأمر برفع المصباح . ثم يعود بعد برهة فيطلبه .. وهكذا . « وسألوه » « لماذا لا تبقى المصباح فقد أجهدت جارىتك وأهلك ؟ » . فقال : « الظلمة أجلي للفكر » فقد كان لا يحسن التأمل إلا فى السكون والظلمة .

وبعد أن فرغ من كتابة فقهه كله أرسل إلى صديقه أحمد بن حنبل أن يخبر الناس بترك كل ما كتبه الشافعى من قبل ، وأن يأخذوا آراءه من كتبه المصرية وأرسل إليه هذه الكتب المصرية . فلما نظر فيها أحمد بن حنبل أعجب بها وسأله أحد أصحابه ماترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك أم تلك التى كتبها بمصر ؟ قال أحمد : « عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه لم يحكم ما كتبه قبل ذلك ولكنه أحكم كل ما كتبه بمصر

اتجه الشافعى بالفقه اتجاها علميا جديدا ، فهو يعنى بالقواعد الكلية ولا يضيع وقته فى الفروع ، فالكلى ينطبق على الجزئيات .

وانتهى فى استنباط الحكم من غير النص ، إلى الاتجاه إلى الإجماع كمصدر للأحكام ، ولكنه لم يشترط إجماع الصحابة كما كان من قبل

والشافعى يطالب الفقهاء والولاة والقضاة بإتقان اللغة العربية ، لكى يفهموا النصوص حق الفهم .. فيها نزل القرآن تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .. فن لا يتقن العربية غير جدير بالنظر فى الشريعة .. وهو يعنى بإتقان العربية إتقان عاومها من نحو وصرف وفقه لغة وبلاغة وأدب وشعر

ولقد حضر رجل من خراسان حلقة الشافعى فى جامع عمرو فسأل : ما الإيمان ؟

فرد الشافعى : « فما تقول أنت فيه

فقال الرجل : الإيمان قول

قال الشافعى : من أين قلت بذلك ؟

قال الرجل : « من قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل

فسأله الشافعى : « فعندك الواو فصل » قال نعم »

قال الشافعى : فإذا كنت تعبد إلهين إلهما فى المشرق وإلهما فى المغرب لأن الله تعالى يقول (رب المشرقين ورب المغربين)

قال الرجل : « سبحان الله . أ جعلتني وثنيا ؟ قال الشافعى : »

بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل .

وقد استطاع الشافعى وهو فى مصر أن يتحرر فى آرائه .. فألف كتابا عن قتال أهل البغى لعله لم يكن يستطيع أن يضعه فى غير مصر ! .

وقتال أهل البغى قائم على تفسير قوله تعالى : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفتىء إلى أمر الله »

وقد ورد هذا النص باقتتال المسلمين ، إذا فئة منهم بغت على الأخرى ..

وأهل البغى عند الشافعى هم معاوية بن أبى سفيان وجنوده الذين حاربوا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب

والشافعى يرى قتالهم واجبا شرعيا ..

وكان بنو على مضطهدين فى حكم بنى أمية ، وظلوا كذلك فى حكم بنى العباسى .. الحكيم الذى عاش فى ظله الإمام الشافعى .. فرأيه فى أهل البغى يؤيد حزبا تحاربه الدولة ..

لم يحفل بذلك وهو مصر ، واحتج فى قتال أهل البغى وفى حكم الأسرى منهم بما صنعه الإمام على فى معركة الجمل ومعركة صفين .. فهو لم يقتل أسيرا منهم ، ولم يقتل رجلا مدبرا عن القتال . وهو لم يخن من أموالهم إلا السلاح والخيل والدواب . أى أدوات الحرب وحدها ! والإمام على لم يقتل مدبرا من أهل البغى لأنه ربما كان هذا المدبر بإدباره قد رجع عن البغى ونوى البيعة لأمر المؤمنين . ولم يكن قتال أهل البغى دراسة تاريخية ، بل دراسة فقهية لأن الأحزاب تتقاتل ، و ينبغى أن يتحدد حكم واضح فى الأمر كله ..

ولقد نقد بعض أصحاب أحمد بن حنبل شيخه الشافعى على كتابه قتال أهل البغى وقالوا إنه متشيع فقال أحمد : سبحان الله .. وهل أبتلى أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ؟!

مرة أخرى يضطر الشافعي إلى الاشتغال بالسياسة .. ولكنه في هذه المرة يضطر إلى الاشتغال بالسياسة لا بحكم الوظيفة أو المنصب ، بل بحكم انشغاله الكامل بالفقه والعلم .. ! وقد أتاحت له البيئة الثقافية في مصر أن يفكر و يقول و يكتب في طلاقة وأمن .

وفي مصر تحدث الشافعي عن الشورى ومكائنها في الإسلام ، واعتبرها فرضاً على الحاكم والمحكوم .. بها أمر الله ورسوله .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما لم ينزل فيه وحى « أشيروا على أيها الناس » .. وما كان في حاجة إلى مشورة ، ولكنه أراد أن يسن لولى الأمر من بعده . وروى عن أحد الحكماء أنه قال : « ما أخطأت قط ، إذا حزبني أمر شاورت قومي ، ففعلت الذي يرون ، فإن أصبت فهم المصيبون وإن أخطأت فهم المخطئون .

وعلى الحاكم أن يستشير أهل الرأي ، و يأخذ برأيهم فيما فيه مصالحهم .

ومن العدل أن يحسن اختيار الولاية ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

والشافعي يرى أن الحاكم واجب الطاعة مادام الناس قد اختاروه باختيار حر ، وبيعة لا إكراه فيها ولا زيف ، وإن كان هذا الحاكم قد غلب على الأمر وانتزعه من صاحبه ... وهو يكتسب الشرعية من مبايعة الرعية فإن رأوا في أمر الحاكم ما يخالف الله ورسوله فلهم ألا يطيعوه .

واستند في هذا إلى ما كان بين عثمان وعلي ، فقد هاجم أبوذر الكائز وعاب سلوك معاوية وجماعته ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فنجاه ، فلم يسكت أبوذر ، فنجاه الخليفة إلى مكان منقطع بالصحراء اسمه « الربذة » وأمر بأن يتجافاه الناس ، غير أن علي بن أبي طالب صحب أبا ذر ، وودعه كما وُدعه عدد من الصحابة . !

فقال عثمان لعلي : « .. ألم يبلغك أني نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه ؟ . فقال علي : « أو كل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافة اتبعنا أمرك ؟ بالله لانفعل » .

ثم إن الشافعي اهتدى إلى أن عمل أهل المدينة ليس حجة على المسلمين في كل البلاد ، فقد انتشر الصحابة في كل الأقطار وعلموا الناس ، وقد وجد في عمل أهل مصر ما هو أدنى للعدل وروح الشريعة ، كاستحقاق الزوجة لنصف المهر عند الطلاق .

بهذه الآراء الجديدة جلس الإمام الشافعى يعلم الناس ويحاورهم فى حلقاته الثلاث حلقة القرآن ، وحلقة الحديث ، وحلقة الأدب والمعارف الإنسانية ..

وفى هذه الحلقات لخص قواعد أصول الفقه بقوله : « نحكم بالكتاب والسنة المجمع عليها التى لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا حكمتنا بالحق فى الظاهر والباطن ، ونحكم بنسبة رويت عن طريق الانفراد لا يجتمع الناس عليها أى الأحاديث التى يروها آحاد ، ونحكم بالإجماع ثم القياس وهو أضعف من هذا ، ولكنه منزلة ضرورية لأنه لا يحل القياس والخبر موجود » .. وفى الحق أن الإمام الشافعى كلف نفسه من المشقة ما لا تحتمله طاقة بشر .

فقد أعاد فى نحو خمسة أعوام كتابة مآلفه فى نحو ثلاثين عاما ، وزاد على ذلك كتبا جديدة كتبها أو أملاها »

وبلغ مجموع ما كتبه فى مصر آلاف الصفحات ، وجمع معظم مآلفه فى مصر فى كتاب « الأم »

وشرع يدرس هذا كله فى حلقاته ، ويحاور فيه ، وينصح مستمعيه ألا ينظروا فى علم الكلام الذى يبحث فى القدر والجبر وصفات الله ، وأن يهتموا من علوم الدين بالفقه

وقال : « إياكم والنظر فى الكلام فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة كان أكثر شىء أن يُضحك منه ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة .

أجده طول الجلوس للكتابة والتدريس فاشتدت عليه علة البواسير ومرض الأطراف

ولعل أخطر وأحرج ما كان يدور فيه الحوار فى حلقات الإمام الشافعى هو خلافه مع الإمام مالك فى مصر من الحمقى والمتعصبين من لا يطبقون أن يجهر أحد بالخلاف مع مالك .

وقد اجتمع بعض هؤلاء بزعامة الفقيه الأحمق «فتيان» وطرح مسأله خلافية ؟ وساق «فتيان» أدلة مالك فى المسألة ، وساق الشافعى أدلته .. وظهر الشافعى على «فتيان» وأقحمه فضاق صدر «فتيان» وانفجر حمقه وشمتم الإمام الشافعى شتما قبيحا .

وكان «فتيان» هذا قد كرر العدوان على الإمام الشافعى ، والشافعى يصفح عنه

ولكن أصحاب الشافعى ذهبوا هذه المرة للوالى ورووا ما كان من أمر «فتيان» مع إمامهم ، وحقق الوالى الشكوى وشهد الشهود على «فتيان» ولكن الإمام الشافعى سكت حين سأله الوالى

فقال الوالى «لوشهد الشافعى على فتيان هذا لقطعت رأسه»

وأمر الوالى بأن يضرب «فتيان» بالسياط ، ثم طيف به على جبل ، وقد حلقت لحيته وشاربه ورأسه ، ومن أمامه المنادى ينادى : لا هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن الإمام الشافعى سعيدا بما حدث ..

عاد إلى بيته مهموما ، وغلبه نزيف البواسير ، فقد بلغ به الجهد الذى بذله وأثر فيه الانفعال .

وقال لمن حوله : إنه ليعرف علتة ، ولكنه يخالف فيها الطب . فقد كانت علتة تتطلب منه الراحة وعدم إطالة القعود فى الكتابة أو فى الحلقات

وزاره طبيب مصرى ،

فتناظرا فى الطب ، فأعجب به الطبيب المصرى ، وتمنى عليه أن يشتغل بالطب فقال الشافعى ضاحكا وهو يشير إلى أصحابه المنتظرين خارج غرفته ، « هؤلاء لا يتركوننى »

وخرج الشافعى من داره بعد أيام إلى حلقتة من جديد .

وتربص به بعض السفهاء ممن تعصبوا لفتيان .. حتى إذا خلت الحلقة من كل أصحاب الإمام الشافعى ، وبقي وحده ، وخلا الجامع من رواده ، باغته السفهاء ، وانقضوا عليه يضربونه ضربا عنيفا بهراوات كانوا قد أخفوها فى ملابسهم .. وظلوا يضربونه حتى سقط مغشيا عليه ، وهربوا .

وحمل الإمام إلى منزله فاقد الوعى ، وعندما أفاق أخذ يعانى أوجاع الضرب ، وآلام الصدمة ، والنزيف !!

ولم يسعفه العلاج فأرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء كما تعود كلما ألم به مرض من قبل ، فقالت لرسول الإمام « أحسن الله لقاءه وتمتع بالنظر إليه »

فعلم أنها النهاية .

وجاءه أحد عواده يقول له : « قوى الله ضعفك يا إمام » فتبسم الشافعى ورد عليه : « قوى الله ضعفى ؟ ! أتدعو الله أن يزيدنى ضعفا ؟ .. ادع الله أن يذهب عنى ضعفى وأن يقوى عافيتى لاضعفى »

ونصحه أن يعنى هو وسائر الفقهاء بإتقان علوم اللغة العربية والعلّة تشتد والنزيف يستمر ..

فنادى أحد أصحابه الذين لزموا داره خلال العلة وطلب منه أن يقرأ عليه ما بعد العشرين والمائة من سورة آل عمران

« وأوصى لجواريه الثلاث وغلّامه ، وترك لأبنائه ولأهله إرثهم الشرعى

حتى إذا كانت ليلة الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٢٠٤ هـ . انتقل إلى جوار ربه وهو فى الرابعة والخمسين ، بعد أن ملأ طباق الأرض فقهها وعلما ، خلال هذا العمر القصير

وشُيِّع يوم الجمعة آخر رجب وحملت جنازته إلى بيت السيدة نفيسة . فصلت عليه وقالت : رحمه الله . كان رجلا يحسن الوضوء .. وهى تعنى بالوضوء أصل العبادة أى أنه كان رجلا صالحا حسن العبادة .

وهكذا قضى الشافعى شهيد الرأى ، بعد حياة حافلة بالنضال الفكرى .

وعندما علم أحمد بن حنبل بوفاته بكى وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله كان كالشمس فى الدنيا وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف أولهما عوض ؟

ولكن الإمام أحمد بن حنبل كان نعم الخلف وخير العوض .

الإمام أحمد بن حنبل
الإمام المفتى عليه

صامت يطيل السكوت والتأمل ، حزين يكاد لا يتنسم ، وفى وجهه مع ذلك البشاشة وعلى قسماته الرضى ، لا يتكلم إلا إذا سئل فلا يبتدر أحداً بحديث .. حتى إذا جلس فى الحلقة بعد كل صلاة عصر فى المسجد الجامع ببغداد ، وسأله الناس فى أمور الدين والدنيا انفجر منه علم غزير نافع يبهر السائلين ! ..

قال عنه بعض الفقهاء : « إنه جمع العلم كله » . وقال عنه بعض العلماء : « إنه ليس من الفقه فى شىء » . وقال عنه الإمام الشافعى حين ترك بغداد إلى مصر : « تركت بغداد وما فيها أفتقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل » .

وفى الحق أن أحمد بن حنبل ظلم حيا وميتا .

أما حياته فقد كانت نضالا متصلا ضد الفقر، وضد عاديات عصره .. فقد حملته أمه وهى حامل به من « مَرزُو— حيث كان يعمل أبوه فى جند الخليفة— إلى بغداد ، ولم تكد تضع وليدها أحمد حتى مات وترك له عقارا عاشت من غلته هى والصغير .. حتى إذا شب الصغير وزادت مطالبه ، عرفت أمه ضيق العيش ، ولكن الأرملة الشابة رفضت أن تتزوج على الرغم من جمالها وشبابها وطمع الخطاب فيها ، ووقفت حياتها على تربية وحيدها أحمد ، فأحسن تربيته ، ودفعت به إلى مقرأ ليعلمه القرآن . فحتمه وهو صبى ، وظل حياته كلها يعاود قراءته والتفكير فيه ..

وعند ما وثبت به الحياة إلى الفتوة وجد من حوله دنيا عجيبة حقا ، تطفئ فيها البدعة على السنة ، ويشقى فيها عالم الأمر بجاهله . وتكتظ خزائن بعض الناس بالذهب والفضة بحيث لا يعرفون كيف ينفقونها ، وعلى مقربة منهم يسقط بعض النساء والرجال فى حمأة العار يبحثون عن الحياة الأفضل أو عن الطعام وسط أوحال النفاق والخطيئة ! ..

وأصوات خادعة أو مخدوعة تحبب الناس فى الانصراف عن طيبات الحياة بما أحل لهم ، باسم الورع أو الزهد ، وتحضهم على ترك الحقوق لها ضميتها أو مغتصبها ! ..

ووسط هذه النداءات المنكرة التى لم يعرفها السلف قط ، تزف عروس إلى ابن الخليفة الذى يجب أن يعيش كما يعيش أواسط الناس من رعيته ، فإذا بكل رجل من المدعوين إلى حفل الزفاف من كبار القوم يُسَلَّم رقعة هى صك هبة : بضیعة وجارية ودابة ... فضلا عن الدر المنثور ! ... أما سائر الناس فتنتثر عليهم الذنانير والدراهم وحقاق المسك والعنبر !

هكذا طالعت الدنيا شابا حفظ القرآن صغيرا وتدبر فى أحكامه وتعلم علم الحديث ، فما كان منه إلا أن أعلن إنكاره لهذا كله ، وسمى كل ما يحدث بدعة ونذر نفسه لقاءمتها وإلحیاء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاتهموه بالتزمت !

هكذا عاش حياته .. !

أما بعد موته فقد ابتلى ببعض أتباع نسبوا إليه ما لم يقل وما لم يصنع ، وفرعوا على أصوله ما هو برىء منها ، وأسرفوا على الناس حتى لقد كانوا يطوفون بمدائن المسلمين يغيرون بأيديهم ما يحسبونه بدعة ، أو منكرا ، ويفرضون ما يتخيلونه سنة ، وغالوا فى هذا حتى نال الناس منهم أذى وعنت ، فكرههم الناس ونسبوههم إلى الحماقاة وضيق الأفق وسخروا بهم ، وأزروا على مذهبهم .. وأصبحت كلمة الخنبلى أو الخنابلة تعنى التبلد والتحجر والتعصب المذموم ! !

ولقد كتب ابن الأثير يصف ما كان يحدث من نفر من أتباع الإمام أحمد سنة ٣٢٣ من الهجرة : « وفيها عظم أمر الخنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يكسبون الدور (أى يهاجونها) فإن وجدوا بها نبيذا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء . ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن التى معه من هى فأجبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأزعجوا بغداد . »

وما كان الإمام أحمد ليزعج أحدا ، وما كان فظا ولا غليظ القلب بل كان يجادل بالتى هى أحسن وكان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إعمالا لكتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ..

وما كان الإمام أحمد متعصبا لرأى ارتآه بل كان يحاور ، ويرجع عن رأيه إن تبين له ما هو أصح . حتى لقد نهى عن كتابة فقهه لأنه كثير العدول عن آرائه .. !

وما كان ضيق الأفق ، أو جامد الفكر ، أو منقبا عن عيوب الناس .. ما كان الإمام أحمد من هذا

كله فى شىء . فقد كان من أوسع الناس أفقا ، ومن أعمق العلماء إدراكا لروح الشريعة ، ومن أكثر الفقهاء تحريرا لها من الجمود وتحريرا بها فى المعاملات .

ولكنه عاش فى عصر تغشاه البدع و يسوده الترخص الذى قد يزلزل عمود الدين فكان عليه أن يأخذ الكتاب بقوة .. ! .. ولقد قال عنه أحد معاصريه : « مارأيت فى عصر أحمد بن حنبل ممن رأيت ، أجمع منه ديانة وصيانة وملكا لنفسه ، وفقها وأدب نفس ، وكرم خلق وثبات قلب وكرم مجالسة وأبعد عن التماوت .

ولد أحمد بن حنبل فى بغداد عام ١٦٤ هـ من أبوين عربيين .. مات أبوه وهو طفل وترك له معاشا ودارا يسكنها هو وأمه وعقارا يغل غلة لها قليلة ..

وكان عمه يعمل فى خدمة الخليفة الرشيد ، ويجمع أخبار بغداد و يسلمها إلى والى البريد (الأمير المسئول عن البريد) ليوصلها إلى الخليفة إذا كان الخليفة خارج بغداد .. وانقطعت أخبار بغداد عن الخليفة فأرسل إلى والى يسأله ، فسأل والى عم أحمد ، وكان أحمد غلاما صغيرا ، وكان عمه يرسله بالأخبار إلى والى ... فسأله عمه : « ألم أبعث الأخبار إلى والى ؟ فقال : نعم ، فقال عمه : « فلأى شىء لم توصلها ؟ » قال أحمد : « رويت بها فى الماء .. ! أنا أوصل الأخبار ؟ ! »

وحين سمع والى بما كان من أمر أحمد والأخبار قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون .. هذا غلام يتورع ، فكيف نحن ؟ » .

على هذا الروع نشأ أحمد بن حنبل ، حتى أن نساء الجند الذين سافروا مع الرشيد فى الغزو كن لا يجدن فتى غيره يثقن فيه ، فيقرأ لهن رسائل الأزواج ، ويمليه الردود .. ولكنه كان لا يكتب الكلام الفاحش الذى قد تمليه بعض الزوجات المشوقات إلى الأزواج .. !

ولقد أدرك منذ نشأ أن أمه تعاني فى سبيل توفير حياة كريمة له ، وأنها ترفض الخطاب من أجله ، فحرص على أن يعوضها ، وبذل كل جهده فى الدرس حتى حصل علوما ومعارف كثيرة فى سن صغيرة معتمدا على نفسه . قال أحد جيرانه : « أنا أنفق على ولدى وأجيشهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فأراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم .. أنظروا كيف أدبه وعلمه وحسن طريقتة ! » .

لقد أنضجته الاعتماد على النفس ، وحرصه على أن يكافئ أمه على صبرها وتضحيتها بالتفوق ، حتى لقد أعجب أساتذته فقال أحدهم : « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

على أن الفتى شعر أنه أصبح هما ثقيلا على أمه .. وإن كان قد أحسن مكافأتها بانقطاعه إلى

الدرس ، وذوبوع أمره بين الأساتذة والتلاميذ ..

وكان أحد قد رأى أمه تبيع درتين لتعينه على طلب العلم ، فألقى بينه وبين نفسه ألا يجشمها مالا بعد

وأراد أن يوفر لأمه ماترك أبوه من غلة العقار الذى مات عنه وهو بناء كبير يحوى عدة حوانيت تغل كلها سبعة عشر درهما فى كل شهر..! .. وكان فى أحد هذه الحوانيت نَساج فتعلم منه وعاونه ، فقد حفظ أحمد فىا يحفظ من أحاديث أن أطيّب ما يأكله الإنسان هو ما يكسبه من عمله .. وكان أحمد حفيا بالسنة حريصا عليها ، من أجل ذلك حرص على ألا يأكل إلا من عمل يده ..!

على أن عمل يده لم يكن يكفيه للطعام ولواجهة أعباء الحياة ، منذ صمم على أن ينزل لأمه عن غلة العقار الذى مات عنه أبوه ، فلجأ إلى الاقتراض ، ولقد أدرك بعض دائنيه ضيق حاله فأبى عليه رد الدين قائلا : « ما دفعتها وأنا أنوى أن آخذها منك » فقال له أحد : « وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوى أن أردّها اليك »

على أن الحياة كانت تثقل عليه بمطالبها فى بعض الأحيان ، فلا يجد طعاما .. فيذهب إلى المزارع والبساتين ، ليلتقط ما نزل على الأرض خارجها من الثمرات .. وقد هدته تجربته الخاصة إلى أن هذا الزرع يجب أن يباح لمن يحتاج إليه ، .. وإلى هذا المبدأ انتهى فى فقهه .. على ألا يدخل ذو الحاجة ملك الغير ليأكل ، إلا بإذن المالك ..

ولكم صقلته المعاناة وهدته إلى قواعد فى الفقه وإلى أحكام وفتاوى ! .. ذلك أنه كابد ضراوة الحاجة ، وعرف أحوال الناس ، واحتياهم على الحياة ، وذاق من البأساء ، وعرف أهوال الأسواق .. ! وقد أكسبه هذا كله بصّرا بالناس وفهما للعننيا ، وتقديرا لمتطلبات الحياة وضرورتها ، ونَبْض كل أولئك فى أحدث من فقه ورأى ..

ثم الرحلة فى طلب العلم . ولكم لاقى فى هذه الرحلات من أهوال !!

قام بمعظمها على قدميه إذ لم يكن يجد أجر الدابة .. وعمل فى بعضها حَمَلا ليعول لنفسه .. وعمل فى بعضها نساخا ، وكان حسن الخط .. وأكسبته كل هذه التجارب خصوبة فكر ..

وهو فى كل ما يعرض له يرفض العطاء ، و يصمم على ألا يأكل إلا من عمل يده ..

كان كثير الرحلة إلى اليمن يطلب الحديث من أحد علمائها ، ورأى الشافعي حين كان ببغداد رقة حال أحمد ، وعناؤه في رحلاته إلى اليمن ، وكان المأمون قد طلب من الشافعي أن يختار له قاضيا لليمن فعرض الأمر على تلميذه أحمد ، فأبى .. فلما ألح عليه الشافعي قال له أحمد : « إن عدت إلى هذا لا تراني أبدا » .

بدأ أحمد في طلب الحديث وهو في مطلع الشباب .. في الخامسة عشر من عمره .. وظل سبع سنوات يتلقى الحديث على شيوخه في بغداد ، ثم سافر في طلبه وهو في مطلع شبابه في الثانية والعشرين .. سافر ليلمس الحديث عند شيوخ البصرة ، فأقام عاما ، رحل بعده إلى الحجاز ، وهناك سمع للشافعي بالمسجد الحرام ، فقال لصحبه الذين قدموا الحجاز معه : « إن فاتنا علم هذا الرجل فلن نعوضه إلى يوم القيامة » .

ثم عاد إلى بغداد ، وعاد مرة أخرى إلى الحجاز .. وهناك سمع من الإمام مالك والإمام الليث بن سعد المصري وآخرين ، ثم سافر إلى اليمن ليلزم شيخها عبد الرازق بن همام ، وكان قد التقى به في الحج ، ووجد عنده كثيرا من الأحاديث ، فأثر أن يلزمه باليمن فالتقى منه .. ولقد حاول عبد الرازق أن يصله ببعض الدنانير ، ولكن أحمد بن حنبل أبى .. وصمم على أن يكسب عيشه بعمل يده فاشتغل نساجا .. وتوالى رحلاته إلى خراسان وقارس وطرسوس .. وإلى كل مكان يسمع أن فيه راوية حديث ..

كان أحمد قد تعلم الحديث أول ما تعلم من أبي يوسف أحد أصحاب أبي حنيفة .. وكان أبو يوسف قاضي قضاة الدولة ، وله حلقة درس يعلم فيها الناس .. وقد بُهر أحمد بعلم أبي يوسف ، وأعجب بجرأته في الحق .. وكان أحمد لا يفتأ يذكر بكبار ما صنعه أبو يوسف مع وزير الخليفة ، إذ رد شهادة الوزير قائلا : « لا تقبل شهادة الوزير لأنه قال للخليفة أنا عبدك ! .. فإن كان صادقا فهو عبد ولا تقبل شهادة العبد ، وإن كان كاذبا أو منافقا ، فلا شهادة لكاذب أو منافق ! » .

على أن أحمد بن حنبل على الرغم من إكباره لأستاذه أبي يوسف ، لم يجد عنده كل ما يريد من حديث .. فقد كان أبو يوسف من أصحاب الرأي .. وأحمد بعد أن حفظ القرآن يريد أن يحفظ كل الآثار التي خلفها الثقات من رواة الأحاديث فا ترك أحمد أبا يوسف قاليا له ، فقد شارك أبو يوسف في صياغة وجدان أحمد وضميره الديني والاجتماعي ، ولكنه تركه بحثا عما عند غيره وهو على مودة معه .

ودرس على عبد الله بن المبارك ، وكان فقيها واسع العلم ، واسع الغنى فى آن واحد .. ولقد حاول ابن المبارك أن يعين أحمد بن حنبل بالمال ، ولكنه أبى وقال إنه يلزمه لفقته وعلمه لا ماله ، بل على الرغم من ماله !!

وقد تعود ابن المبارك أن ينفق كل دخله على الصدقات وطلاب العلم . كان زاهدا .. والزهد عنده التقوى .. يعلم الناس أن العالم الذى يشيع علمه بين الناس أفضل ألف مرة من الذى ينقطع للعبادة .. وقد حكى أحد معاصريه أنه رأى بعيرين يحملان دجاجا مشويا لسفرة ابن المبارك ، وكان يطعم الناس الفالوذج ، ويأكل هو الخبز والزيت ، فإذا اشتبى طعاما ما طيبا لم يأكله إلا مع ضيف .. ويقول : « بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه . » .. وقيل له : « قلّ المال فقلل من صلة الناس » فقال : « إن كان المال قد قل ، فإن العمر قد نفذ . » وكان يقول : « ليس يلزمنى من الدنيا إلا قوت يوم فقط » ... من أجل ذلك أحب الناس عبد الله بن المبارك ، والتفوا حوله حتى إنه قدم الرقة وبها هارون الرشيد ، فاجتمع الناس وتزاحوا احتفالا به حتى « تقطعت النعال وارتفع الغبار » ، فأشرفت زبيدة زوج هارون الرشيد من قصرها ، فلما رأت زحاما لم تره قط سألت : « ما هذا ؟ » قالوا « الفقيه العالم عبد الله بن المبارك » . فقالت : « والله هذا هو المُلْك ، لا ملك هارون الرشيد الذى يُجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرطة والأعوان » ..

وكان أحمد من المعجبين بالعالم عبد الله بن المبارك ، كان معجبا بشخصه وبفقهه وعلمه وبسيرته بين الناس .. وعبد الله بن المبارك هو أحد الذين أُثروا فى أحمد بن حنبل وفى تشكيل فكره وسلوكه ومواقفه .. فقد أدرك أحمد فى مطلع شبابه مما تعلمه من ابن المبارك أن الدعوة إلى الفقر ليست زهدا ، وإنما هى تمكين للأغنياء من المال ، ليكون المال دولة بين الأغنياء .. وأن الزهد الحق هو ما سنّه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتابعه فيه أئمة الصحابة من بعده .. وهو ليس الإعراض عما أحل الله ، بل التعفف عن النظر أو التفكير فيما حرمه الله أو اشتها ما يكرهه .. الزهد هو التقوى .

تحمل أحمد المشقات ، وخاض الغمرات ، بحثا عن الأحاديث الصحاح يواجه بها ألوان البدع ..

ثم إنه خرج إلى طرطوس مرابطا مستعدا للجهاد ، ولبث فترة هناك ثم عاد إلى بغداد . فقد كان يرى الجهاد فریضة على كل قادر: الجهاد بالنفس أو المال أو بها جميعا

كان العصر زاخرا بالعلوم والمعارف ، وكان الفقهاء من قبله يعنون بها ويتعلمونها ، ولكنه لم يجد

منهم أحدا يتخصص فى علوم الحديث ، و يتوفر على الآثار وحدها ، فوهب نفسه لإتقان علوم السلف فحسب ، لأنه شعر بأن الأمة فى حاجة إلى هذا التخصص .

وظل يرحل ماشيا فى طلب الحديث إكبارا للغاية التى يسعى إليها أو عجزا عن النفقة ، يحمل فوق ظهره متاعه وكتبه ، و يؤجر نفسه للعمل إن نفذ زاده ... حتى جمع آلاف الأحاديث ، وهو مايفتا على الرغم من ذلك يجوب الآفاق ، حتى نخل جسده ، فلامه فى ذلك أحد أصدقائه قائلا : « مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة ومرة إلى الحجاز ومرة إلى اليمن ؟ ! .. إلى متى ؟ ! » فقال أحمد : « مع المخبرة إلى المقبرة . »

وما كان لينتهى مهما تكن المشقة .. فقد كان يطلب مع الحديث علوم الفقه .. كان يطلب فقه الخلفاء الراشدين ، وفقه سائر الصحابة ، وفقه التابعين وتابعيهم بإحسان .. وقد جلس فى رحلاته إلى الحجاز فى مواسم الحج إلى كل فقهاء عصره .. فى المسجد الحرام ، وفى الحرم النبوى ..

على أن أحدا لم يجذبه كما جذبه الشافعى ! ..

واتصلت بينهما المودة مذ لقيه لأول مرة فى المسجد الحرام .. وكان أحمد فى نحو الثانية والعشرين والإمام الشافعى يكبره بنحو ستة عشر عاما ، ومع ذلك فقد أحس بأن الشافعى ليس أستاذا ومعلما فحسب ، ولكنه أب أيضا ... !

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل درس فى مطلع شبابه على أبى يوسف وهو من أصحاب الرأى ، ثم درس على الشافعى ولزم فقهه وهو وسط بين أهل الحديث وأهل الرأى ، فقد كان أحد حريصا فى حياته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حرصا جعله يشبه به فى كل أمور الدين والدنيا ، فما حفظ حديثا عن الرسول عليه السلام إلا عمل به .. وحتى قرأ أنه عليه الصلاة والسلام تسرى بارية القبطية ، فذهب إلى امرأته ، وأعلمها بما علم ، واستأذنها أن يتسرى ، أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم فأذنت ، فأشترت هى له جارية ترضاها .. !

وهكذا كان فى بَرّه لأمه .. كان بالطبع برا تصنعه الفطرة ، ثم إتباعا للسنة ، فقد حفظ أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن أحق الناس بالرعاية فأجاب سائله « أمك » .. وأعاد السائل سؤاله مرتين : فأجابه : « أمك ثم أمك ثم أبوك » ..

وفى الحق أن أحمد بن حنبل كان مدينا لأمه بكل شىء .. فقد رفضت أن تدخل عليه زوج أم ، على الرغم من جمالها وشبابها وطمع الخطاب فيها .. ثم إنها لقنته منذ صباه كل ما حفظه من سير ، وأحاديث ، وقصص بطولات .. ورسخت فى أعماقه منذ كان طفلا قيم الإسلام الفاضلة ..

فهى كإبيه من بنى شيبان ، وكانت تحفظ مفاخر قومها ، وقصص العرب ، ومآثر الرسول والصحابة وتلقنها وحيدها ..

وهى التى اختارت له المكتب الذى يتعلم فيه القرآن ، ثم الشيوخ الذين يجلس إليهم بعد أن حفظ القرآن ، ليطلب عندهم الحديث والفقه . وكانت تخاف عليه وهو صغير برد الفجر إذا خرج إلى الدرس قبل الأذان .. وقد روى أحمد : « كنت ربما أردت البكور فى الحديث فتأخذ أمى بشيأى وتقول : « حتى يؤذن المؤذن للفجر أو حتى يصبح الناس » ..

حتى إذا كان فى الخامسة عشر ، جاء إلى بغداد عالم عظيم ، وأقام على الضفة المقابلة لدار أحمد بن حنبل ، وفاض نهر دجلة وارتفع الموج حتى ترك الرشيد قصره ونزل بأهله وأمواله وحاشيته إلى سفائن له ، ولكن طلاب العلم هرعوا إلى العالم على الضفة الأخرى فى الزوارق .. وأبى أحمد حين دعاه زملاؤه إلى العبور قائلا : « أمى لا تدعنى أركب الماء فى هذا الفيضان » .. وترك العبور فى حسرة ، وعاد إلى أمه لتطمئن عليه ... !

لكم كان برا بوالدته ! .. رآها رفضت الزواج لكى تتفرغ للعناية به ، فأبى هو الزواج ليفرغ للحدب عليها .. فما تزوج إلا بعد أن ماتت ، وكان قد بلغ الثلاثين ، لكيلا يدخل على الدار سيدة أخرى تنازع أمه السيادة على الدار !

وها هو ذا فى بغداد شاب جاوز الثلاثين ، محفوف الشارب ، مرسل اللحية ، أسمر الوجه ، تلوح فى وجهه الأسمر سكينه وطمانينة ، ويشع من عينيه بريق حاد ، نحيل الجسد ، متوسط الطول .. ممثل القلب بما يحدث من حوله .. كثير التأمل فى أحوال الناس ، مأخوذ بالبحث عن الخلاص ، مشدود إلى الحقيقة ، وإلى طريق العباد مما هم فيه ..

وما أشبع ما هم فيه !

ذلك أنه منذ صباه شهد بغداد تزخر بالوان الثراء الثقافى والمادى ، وتتصارع فيها المذاهب الفكرية والفقهية والعلمية ، وترتفع فيها القصور المحفوفة بالحدائق والزروع وجنات الفاكهة والريحان ، وتفويض فيها

الأموال والثروات . وفى بغداد مع ذلك من لا يجد قوت يومه ! .. وما بهذا أمر الله ورسوله ! . فقد ورث المؤمنون عن الرسول موعظة يتحتم عليهم أن يتدبروها : أنه ليس مؤمناً من بات شعبان وجاره جوعان ! ... وكفى فى بغداد من بيت بين الناي والعود والعزف والشراب والطعام والقصف ، والجيران جياح ! ! ! ..

ثم إن بغداد التى مازالت لياليها تضيء بآثار السلف الصالح ، وبالتعامات أفكار المجتهدين ، بغداد هذه تجلجلها المعصية والمظالم .. إذ شاع الانحراف ، وظهر الغزل بالمذكر ! ! وقد أحرق أبو بكر الصديق من قبل قوما تعاطوا هذا المنكر فى الشام ! !

ثم إن أموال الدولة تنفق بلا حساب على الندامى والمغنيات وأهل الطرب والمضحكين والمنافقين ! ! ! ..

وهذه الدولة العظيمة التى تحكم العالم كله ، وتصوغ حضارة لم يعرفها التاريخ من قبل ، وتسخر عقول المفكرين والعلماء فيها كل شىء لراحة الإنسان ، وتقتحم هذه العقول عوالم الأفلاك فى جسارة نادرة لتصبح الطبيعة أمام الإنسان كتاباً مفتوحاً ، طاقاتها ميسرات لفكره ... هذه الدولة التى حملت كل المعارف والكتب التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، فعربت كل معطيات الحضارة المصرية واليونانية والفارسية والهندية ، وأضافت إليها .. هذه الدولة نفسها لا تقيم العدل كما يجب .. وتسمح لنفسها بأن تقتل أكبر شعرائها بشار بن برد ، لأنه نقد الخليفة المهدي وقال عنه « خليفة الله بين الله والعود » .. فتحرق الدولة أشعاره وتفتري عليه ما لم يقله ، لتتهمه بالإلحاد والزندقه ، وتضربه حتى يموت ! !

وهذه الدولة تسمح لامرأة الرشيد بأن تتدخل فى القضاء ! ! .. ذلك أن وكيل امرأة الرشيد اشترى لها جالاً من رجل من خراسان بثلاثين ألف درهم ، وكان الخراسانى قد ساق الجمال ليبيها فى بغداد . واستلم وكيل امرأة الرشيد الجمال ، وما ظل فى دفع الثمن ، وعطل الخراسانى عن السفر .. ثم أعطى الخراسانى ألفاً ولم يدفع الباقي .. فشكاه الخراسانى إلى القاضى ، فأمر الوكيل بأداء باقى الثمن ، ولكنه قال إنه على السيدة أم جعفر امرأة الرشيد . فقال له القاضى :

« يا أحمق ! تقر ثم تقول على السيدة ؟ ! » .. وأمر القاضى بحبس الوكيل .

وعلمت امرأة الرشيد فقالت للرشيد : « قاضيك هذا أحمق . حبس وكيلى واستخف به ، امنعه من نظر القضية » فأجابها الرشيد ، وأطلق سراح وكيلها ، ووجه إلى القاضى يمنعه من النظر فى الدعوى ! ! .. ثار القاضى حين علم بإطلاق سراح الوكيل ، فلزم بيته ، وامتنع عن حضور مجلس

القضاء .. ولكنه حين علم ان الرشيد سيمنعه من نظر الدعوى ، خرج من داره ، وأرسل إلى الخراسانى أن يحضر شهودا ويلحق به فى مجلس القضاء .. وجلس القاضى ينظر فى الدعوى ويسأل الشهود ويستجلى بينات الخراسانى .. وحكم للخراسانى بالمال كله .. وأخذ يسجل الحكم ..

ثم جاء خادام أم جعفر امرأة الرشيد يقول للقاضى : « عندى لك كتاب من أمير المؤمنين . » فقال له القاضى : « مكانك نحن فى حكم شرعى .. مكانك حتى نفرغ منه » . فقال الخادم : « كتاب أمير المؤمنين » فقال القاضى : « اسمع ما يقال لك . »

ومضى القاضى يسجل الحكم وأسبابه حتى فرغ ، فأخذ كتاب أمير المؤمنين ، وكان فيه كما يعلم قبل أمر بستنحيته عن نظر القضية .. فلما قرأ القاضى كتاب الرشيد قال للخادم : « أقرئ أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم » . فقال الخادم : « قد عرفت والله ما صنعت . أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد .. والله لأبلغن أمير المؤمنين بما فعلت » فقال القاضى : « قل له ما أحببت »

كان أحمد بن حنبل يتأمل فى التدخل فى القضاء ويتألم ! ! ترى كم من القضاة يستطيع أن يصنع كما صنع القاضى حفص بن غياث ؟ .. ! من الحق أن الرشيد ضحك عندما سمع بما فعله القاضى حفص بن غياث ، وأمر له بجائزة قدرها ثلاثون ألف درهم مما جعل القاضى يقول : « الحمد لله كثيرا . من قام بحقوق الشريعة أبسه الله رداء المهابة » .. ولكن الخليفة لم يعاقب وكيل امرأته ، لأنه حاول أخذ الجمال من الخراسانى دون أن يدفع ثمنها .. ولم يمنع امرأته من التدخل فى القضاء ! . ومن يدرى فرما كانت هناك مظالم كثيرة أخرى لم يتقدم بها أصحابها إلى القضاء .. أو لعل من القضاة من لم يغامر كما غامر القاضى حفص !

هكذا كان أحمد بن حنبل يرى صور الفساد و يأسى ويفكر فى الخلاص .. فالحكام يسرقون ويقطعون يد السارق .. ومن العلماء من ينهى عن المنكر و يقترفه .. حتى صح فيهم ما قاله ذو النون المصرى : « كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها . واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا و طلبا لها .. كان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالا . وكان يُرى على صاحب العلم زيادة فى باطنه وظاهره واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر . »

لا خلاص إلا باللجوء إلى السنة واتباعها .. وإلا بالتأسى بسيرة السلف الصالح ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون . بما فيهم على بن أبى طالب .

وكان أحمد يعرف أن أشد ما يغيظ حكام بنى العباس هو نشر فقه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .. ذلك أن كثرة الثناء على الإمام على ، يثير عطف الناس على بنيه .. وكان بنوه قد ثاروا المرة بعد المرة على مظالم خلفاء بنى أمية ، ثم على خلفاء بنى العباس ، وحدثت فيهم من أجل ذلك مقاتل عظيمة .. ومن لم يُقتل من بنى على عاشوا يرسفون فى أغلالهم تحت الأبراج .

وكان فقه الإمام على بن أبى طالب وأفضيته ، فى صدور قلائل من العلماء أكثرهم من الشيعة . ثم أذيعت أراؤه وأفكاره منها بنو العباس أبناء عمومته فى محاربة مظالم بنى أمية .. ولكن بنى العباس خشوا أن يستعملها المعارضون فى نقدهم .. وخافوا أن يكتسب بها المعارضون حب الناس وتأييدهم .. وهكذا أخفى حكام بنى العباس أفضية الإمام على وفتاواه وفقهه .. واستخفى بها الصالحون ! ! .. وكان العباسيون كالأمويين لا يطيقون معارضة .. فما ترتفع رأس بالشكوى أو التقدأ أو الاعتراض ، حتى يهوى على عنق صاحبها سيف الجلاد ، أو يخرس لسانها فى غيابات السجون تحت وطأة عذاب غليظ ألم شديد ! .. !

ولكن أحمد بن حنبل ما كان يستطيع أن يتجاهل سيرة على بن أبى طالب ولا أفكاره لتكون من بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن يريد أن يعتبر بآثار السلف الصالح .

بحث الإمام أحمد عن فقه وأفضية الخلفاء الراشدين ، فأعجب بما عرفه من فقه الإمام على كرم الله وجهه ، وبدأ ينشره ويستشهد به .. فوجد عليه خلفاء بنى العباس وجدا شديدا ، وأهمهم أمره ! ! ولكنهم لم يظهروا الغضب عليه ، فما كان أحمد يعمل بالسياسة ، وما كان رأيه فى الخلافة ليزعجهم ، بل إن هذا الرأى على التقيض يرضى خلفاء بنى العباس . ذلك أن أحمد كان يرى وجوب طاعة الخليفة ولو كان فاجرا .. فطاعة الفاجر عنده خير من الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تصيب معهم الأبرياء ، وتضعف الدولة فيقطع فيها أعداء الإسلام ! !

وكان لا يشترط لصحة الخلافة إلا أن يكون الخليفة من قریش وإلا أن يبايعه الناس .

والبيعة شرط جوهرى لقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم . »

فإذا تغلب أحد على منصب الخليفة وإن لم تكن الخلافة حقا له ، وبايعه الناس بالخلافة ، وجبت طاعته أيا ما يكن أمره من العدل أو الظلم والفجور أو التقوى .. ويقول أحمد فى ذلك : « السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن اجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وسُمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه ، « وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان ، بالرضا أو بالغلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وهو مع ذلك لا يقر السكوت عن الخليفة الظالم ، ولكنه يرى أن النصح له أولى من الثورة عليه .. ! .. وهو يرى النصح فرض كفاية على كل أصحاب الرأي والعلم ، فإن قام به بعضهم سقط الفرض الشرعى عن الجميع ، وإن لم يقربه أحد أثم الجميع ..

ومن عجب أن أحد الذى فرض على الناس طاعة الخليفة وإن كان فاجرا ، نأى بنفسه عن الاتصال بالخلفاء ، ورفض أموالهم ، وأبى أن يتولى منصبا فى ظل أحدهم على الرغم من حاجته الملحة إلى المال .. لأنهم ظالمون !!

وقد هاجم بعض المفكرين من معاصرى أحمد آراءه فى الخلافة .. ، واتهموه انه ينسب إلى الرسول والصحابة نقيض آرائهم ، فالرسول يأمر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ويحذر المسلمين أن يسكتوا على الظلم والفجور ، لأنهم إذا سكتوا عنه عمهم الله بالعقاب .. والصحابة قَوْمُوا أولياء الأمر منهم وردوهم إلى الصواب ..

ثم إن هؤلاء المفكرين اتهموا أحمد بالدعوة إلى الإذعان والرضا بالظلم وبالمعصية ..

غير أن أحمد ارد عليهم أن خير التابعين عاشوا تحت مظالم الأمويين فلم يدعوا الرعية إلى الخروج عليهم .. وهو إنما يدعو إلى الطاعة مع استمرار النصيحة ، لا إلى السكوت عن المظالم .. وإذا كانت طاعة الحاكم الظالم ظلما ، فالخروج عليه ظلم أفدح ، لأن الخروج مجلبة للفتنة وفى الفتنة تنتهك الحرمات ، وتهدر دماء الأبرياء كما حدث فى كل الثورات فى العصر الأموى والعباسى .. !

ومهما يكن من شىء ، فاجتبرأ أحد من معاصرى أحمد على اتهامه بأنه ينافق الخلفاء ، ولكنهم عابوا رأيه ، واعتبروه خطأ فى تقدير ضررين أيها أقل ، وأيها أكثر فيدفع ..

على أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكن بدعا فى هذا الرأى ، بل كان فيه متفقا على نحو ما أتت به الأئمة الثلاثة من قبله : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى . فكلهم رأى أن طاعة الحاكم الظالم مع توجيه النصح له ، خير من الثورة عليه لما يصاحب الثورات من عدوان على الأنفس والحريات والأموال ... إلا الإمام أبا حنيفة ، فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على وأوشك أن يخرج معه مجاهدا ضد مظالم الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ..

وعلى الرغم من أن ابن حنبل كان شديد التأثر بالشافعى ، فقد اختلفا فى بعض شروط الخلافة . فالشافعى يجعل العدالة شرطا لصحة الخلافة .. وإن لم يؤيد الثورة على الخليفة إن كان ظالما . والجدير بالذكر أن الإمام الليث ما كان يشترط أن يكون الخليفة عربيا .. ولكنه اشترط العدالة والبيعة .. !

انصرف أحمد يجمع السنن وآثار الصحابة ، ويبحث من خلالها عن أحكام تنقذ الناس من الضلال .. وكان يجمع ما رواه الصحابة من أحاديث ، كل على حدة ، ويسند إلى الصحابي ما رواه .. فكان لا بد له أن يجمع ما رواه الإمام على بن أبي طالب لايبالي في ذلك أن يتهمه أحد بالتشيع أو بالميل إلى العلويين .. وفي الحق أنه ما كان متشيعا ولا صاحب ميل للعلويين .. ولكنه تعلم من أستاذه الشافعي أن الإمام على كان أحق بالخلافة من معاوية ، وأن معاوية كان باغيا ، ودافع أحمد عن رأي أستاذه في مواجهة منتقديه .. وقد روى أحمد عن أستاذه الشافعي : « قال رجل في علي : ما نفر الناس منه إلا أنه كان لا يبالي بأحد . فقال الشافعي كان في علي كرم الله وجهه أربع خصال لا تكون منها خصلة واحدة لإنسان إلا يحق له ألا يبالي بأحد ، كان زاهدا والزاهد لا يبالي بال دنیا وأهلها ، وكان عالما والعالم لا يبالي بأحد ، وكان شجاعا والشجاع لا يبالي بأحد ، وكان شريفا والشريف لا يبالي بأحد . وكان على كرم الله وجهه قد خصه النبي صلى الله عليه وسلم بعلم القرآن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعا له وأمره أن يقضى بين الناس . وكانت قضاياه ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيمضيها . »

وقد رأى أحمد بن حنبل أن اتباع أحكام الإمام على سنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر جميع أحكامه ، فكأنه هو الذي حكم ، . ثم انه قد خصه بعلم القرآن ..

وعجب علماء الشيعة والمفكرون الذين يؤيدونهم لأمر الإمام أحمد . ! لقد حسبوه عدوا لهم ، وعدوا للإمام على منذ أفتى بأن طاعة الحاكم واجبة حتى إن كان ظالما أو فاجرا ، والثورة عليه خروج على الإسلام ! . وكان الشيعة يرون أنه لا طاعة لحاكم ظالم ، ويجب على الرعية أن تثور عليه ، فإن سكتوا عنه فليس سكوتهم طاعة له واجبة ، بل اتقاء لظلم أفدح ، وانتظارا للفرصة المناسبة .. وإذن فرأى أحمد بن حنبل أن طاعة الخليفة الظالم الفاجر واجبة شرعا ، وأن الثورة عليه مخالفة للسنة ، إنما هو إدانة للشيعة ولإمامهم الحسين بن على سيد الشهداء رضى الله عنه ، وموافقة على مقاتل الطالبيين ، وشرها تلك المذبحة الوحشية الفاجرة فى كربلاء .. !!

مابال أحمد يسند بفتواه قتلة الإمام الحسين ، وقتلة الإمام زيد ، وغيرهم من أئمة الشيعة ، ثم ها هو ذا يمدح الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويعتمد على فقهه ؟ !!

كان اللجاج شديدا فى ذلك العصر بين دعاة الحرية السياسية والاجتماعية من حمة العدل وبين غيرهم من الفقهاء .. ومن أجل ذلك اشتدوا على أحمد بن حنبل ، لأنه كان يرى الطاعة للحاكم الظالم الفاجر ، ويرى الخروج عليه مخالفة للسنة .. فهو إذن يؤيد الظالم الفاجر زيد بن معاوية ، ويرى أن خروج الحسين كان مخالفة للسنة !! ... وهذا رأى فاسد ! ..

وفى الحق أن أحد ما رأى ذلك وما أفتى به .. فقد كان يرى معاوية باغيا على الإمام على كرم الله وجهه خرج عن طاعته وثار عليه ، فهو مخالف للسنة .. أما عن خلافة يزيد بن معاوية ، فإن أحد بن حنبل يرى أن معاوية أكره الناس على هذه البيعة .. ولا إكراه فى البيعة ، وليس على مستكره يمين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وما كان أحد بن حنبل من الذين يخوضون غمرات الصراع السياسى المتأجج ، ولكنه كان يقول ما يؤمن به اتباعا للسنة مها يكابد فى سبيل رأيه ، فهو أحرص الناس على التأسى برسول الله ، وكان يقول « صاحب الحديث من يعمل به . » .. وما كان يميز طعن الصحابة من الخلفاء الراشدين ، كما يفعل بعض غلاة الشيعة ، وكان هذا سببا آخر لخلاف هؤلاء معه .. وقد تحدث أمامه جماعة من الناس فذكروا خلافة على بن أبى طالب وتناولوا أمير المؤمنين بالتجريح ، فتغير وجه أحد وقال لهم : « من طعن فى على كرم الله وجهه فهو مخالف للسنة ، وليس للسلطان أن يمفوعه » .. ثم رفع رأسه وقال : « إن الخلافة لم تزين عليا بل على زيتها » .

ولقد سئل أحد عن حق على فى الخلافة فقال : « لم يكن أحد أحق بها فى زمن على من على ! ورحم الله معاوية ! »

وسئل عن تأييد أم عائشة لطلحة والزبير ضد على فقال : « أكان طلحة والزبير يريدان أعدل من على رضوان الله عليهم أجمعين ؟ »

وسمع أحد غلاة الشيعة بهذا فقال : « هذه الكلمات أخرجت نصف ما كان فى قلبى على أحد بن حنبل من البغض . »

وقد بنى أحد آراءه فى قتال أهل البغى على سيرة الإمام على كرم الله وجهه ، متبعا فى ذلك رأى الإمام الشافعى ، فلما عاتبه أحد أصحابه قال : « ويحك » .. يا عجباً لك ! فاعسى أن يقال فى هذا إلا هذا ؟ ! وهل أبتلى أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟ »

وفى الحق أن الشافعى أثر فى أحد كما لم يؤثر أستاذ فى تلميذه . حتى لقد قال أحد بعد أن أصبح إماما كبيرا : « إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرا (أى حديثا أو أثرا عن الصحابة) أخذت فيها برأى الشافعى . »

وقد بلغ تقديره للشافعى أنه أنكر على كل شيوخه أن يكتبوا فقههم فى كتب .. إلا الشافعى .. أنكر على مالك كتابة الموطأ وقال عنه : « ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم » وقرأ كتب شيخه أبى يوسف ، وكتب محمد بن الحسن ، وأنكر عليها أنها كتب فقهها .. وأبى على أصحابه أن يكتبوا

آراءه أو فقهه هو نفسه .. ولكنه عندما وصله كتاب الرسالة الجديدة الذى وضعه الشافعى فى مصر، بهر بالرسالة ، وقرأها على أصحابه . ، وحضهم على تعلمها ، واحتفظ بها فى خزانة كتبه كما يصون كنزا .. وهكذا صنع مع كل كتب الشافعى التى وضعها فى مصر ، وهى كتب تأثر فيها الشافعى إلى مدى بعيد بفقهاء الليث بن سعد إمام أهل مصر .

ولقد حمل أحد عن الشافعى تقديرا كبيرا للإمام الليث ، فكان لا يذكره إلا بالتقدير .

وقد كان أصحاب أحمد يعرفون ميله للشافعى وإكباره إياه .. وكان هو يوصيهم بقراءة كتب الشافعى قائلا إنه « مامن أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعى » . وكان الشافعى يبادلها هذا التقدير ، وقد عده الشافعى من العجائب : « ثلاثة من العلماء من عجائب الزمان : إعرابى لا يعرف كلمة وهو أبو ثور (وكان كثير اللحن) ، وأعجمى لا يخطئ فى كلمة وهو الحسن الزعفرانى ، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل » .

كما قال عنه الشافعى : « رأيت فى بغداد شابا إذا قال !! قال الناس كلهم صدقت . » قيل هو قال : « أحمد بن حنبل » .. وقال عنه : « خرجت من بغداد ، وما خلفت فيها رجلا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى ، من أحمد بن حنبل » .

وكان أحمد يضع شيخه فى أعلى مكان ، ويقول إن الله يبعث على رأس كل مائة عام إماما صالحا من عباده ، يحمي به السنن ويرفع شأن الأمة ، وقد كان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الاولى ، وعسى أن يكون الشافعى على رأس المائة الثانية »

على أن أحمد بن حنبل ، منذ وقف يتدبر أحوال المسلمين ، ويلمس طريق الخلاص ، ووسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة ، التمس طريقا يستنبط به الأحكام ، فلم يجد أفضل من أصول فقه الشافعى .

اجتمعت لأحمد خلال رحلاته عشرات الأحاديث النبوية ، فأخذ يروها للناس ويعمل بها .. وتأدب بأدب الرسول .. روى الحديث : « كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » .. فكان لا يلقى الناس إلا مبتسما ، ويقدمهم عليه إذا مشوا فى طريق ، أو دخلوا مكانا أو اصطفوا لصلاة الجماعة .. ويروى أحد أصحاب أحمد أنه دخل معه مكانا ، فإذا بامرأة معها طنبور (آلة للعزف) ، فكسر صاحب أحمد الطنبور ، وسئل أحمد عن ذلك فيما بعد فقال : « ما علمت بهذا ، وما علمت أن أحدا كسر طنبوراً بمحضرتى إلى الساعة » . ذلك أن أحمد ترك المكان مستكرا الأمرين جميعا : عزف المرأة على الطنبور ، وعدوان صاحبه عليها ! .. فهو يكره لأصحابه أن يغلظوا ، ويطالبهم حين يأمرهم بالمعروف ، أو ينهون عن المنكر أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كما علمه الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . »

وكان أحمد يكره الشطرنج و يراه لهوا يصرف الناس عن جد الأمور، فسمع أن صاحباً له دخل على جماعة ، حول رجلين يلعبان الشطرنج فطوح به ونهر الجماعة ، فغضب الإمام أحمد لما صنعه صاحبه بأصحاب الشطرنج .. !

كانت سماجته تسع الذين يسيثون إليه مهما تكن الإساءة فادحة ! .. وشى به رجل إلى الخليفة ، وزعم أن ثائراعلويا يختفى في داره .. ولوصحت الوشاية لقتل الإمام أحمد بإخفاء الثائر العلوي . فلما تبين للخليفة كذب الوشاية أرسل الواشي مصفداً إلى أحمد ، ليفتى برأيه في عقابه فقال أحمد : « لعله يكون صاحب أولاد يحزهم قتل ! »

وهكذا أخذ أحد نفسه بالتأدب بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان يقول : « إذا أردت أن يدوم لك الله كما تحب ، فكن كما يجب » .

إن أبرز ما يميزه لهو التواضع .. قال له أحد الناس « جزى الله الإسلام عنك خيراً فغشاه الحياء جزى الله الإسلام عنى خيراً ؟ ومن أنا ؟ وما أنا ؟ .. »

عرف شيوخته منه هذا التواضع منذ كان يطلب عليهم العلم ، فأشادوا به .

ذات يوم ضاق أحد شيوخته بالطلاب في الحلقة ، وغاظه عجزهم عن فهم الدرس ، فصاح الشيخ : « ألا تفقهون ؟ » فقال الطلاب : « كيف لا نفقه وفينا أحمد بن حنبل » . فقال الشيخ « أين هو ؟ » ودخل أحمد فقالوا : « ها هو ذا » وجلس أحمد حيث انتهى به المجلس كما تعود ، وكما عاش يفعل إلى آخر العمر ، فقال الشيخ لأحمد : « تقدم يا أحمد » فقال أحمد : « لا أخطو على الرقاب . » فصفق الشيخ فرحاً : « الله أكبر .. هذا أول الفقه » .

على أن تواضع أحمد وحياءه لم يمنعه من الجهر بالحق .. بل كان على التقيض شديداً على الباطل ، لا يبالي في ذلك لومة لائم .. لاحظ أن بعض الفقهاء يفضلون العباس على الإمام علي بن أبي طالب ، نفاقاً للخلفاء والأمراء من بنى العباس .. وسمع أحمد بن حنبل ، هذا الفقيه يذكر الإمام علي بن أبي طالب بكرم الله وجهه بما لا ينبغي ، ويشكك في حقه في الخلافة ، فأنبرى أحمد يقول للفقيه على مشهد من الناس : « من لم يُثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار .. سبحان الله ! .. أكان على كرم الله وجهه يقيم الحدود ويأخذ الصدقة ويقسمها بلا حق وجب له ؟ .. أعوذ بالله من هذه المقالة .. بل هو خليفة رضىه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلوا خلفه ، وغزوا معه ، وجاهدوا ، وحجوا ، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضين بذلك غير منكرين ، فنحن له تبع » .. ثم قال : « ما لأحد من الصحابة من الفضائل والأسانيد الصحاح مثل ما لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه » .

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل كان يرى أول الأمر أن طاعة الخليفة واجبة وإن كان ظالما أو فاجرا، إلا أنه عدل عن رأيه عندما ما أنضجته التجربة فيما بعد .. فعاد واعتبر طاعة الخليفة الظالم لونا من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن !

ذلك أنه بسمع قصة عن شيخه عبد الله بن المبارك ظلت تضنيه إلى آخر العمر .. فكانت دموعه تفيض من الندم ومن الرحمة والإشفاق ، كلما تذكر ما حدث لأستاذه عبد الله بن المبارك .. وهو الأستاذ الذى لزمه أحمد وإن لم يره قط .. فقد كان كلما لحق به فى مكان ليسمع منه ، وجده قد رحل عنه ، حتى مات الشيخ ، فلزم أحمد آثاره وفقهه وتتبع سيرته واهتدى بها .. وسمع أحمد فيما سمع أن شيخه ابن المبارك مروهوفى طريقه إلى الحج بمزيلة قوم ، فرأى فتاة تأخذ طائرا ميتا وتلفه ، فسألها عن أمرها فقالت : أنا وأخى هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزيلة ، وقد حلّت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام (أى أن الجوع اضطرهما إلى أكل الميتة) ، وقد كان أبونا له مال ، فظليّم وأخذَ ماله وقتل .. فقال ابن المبارك لوكيله : « كم معك من النفقة ؟ » ، قال : « ألف دينار » فقال : « عد منها عشرين دينارا تكفيننا إلى مرو ، وأعطها الباقي . فهذا أفضل من حاجتنا هذا العام » ، ورجع ..

ما ذكر أحمد هذه القصة إلا بكى .. فما فتواه إذن بوجوب طاعة خليفة ظالم ؟ !

أيطاع خليفة يظلم رجلا فيقتله ويستولى على ماله ويترك أبناءه جيعا ينقبون فى المزابل عن الطعام ، فلا يجدون إلا الميتة ؟ ! .. يا حسرتنا على العباد ! ! !

وإذن ماجدوى العلم والفقه وما جدوى كل شيء ؟ !

وما الإسلام إن كان على وجه الأرض من يلتمس القوت فى المزابل ، وفى الأمة مع ذلك مسلمون يملكون آلاف الآلاف ؟ ! .. وفيها فوق ذلك علماء يجدون الفقر ويدعون إليه باسم الزهد ؟ ! .. أى زهد هذا ؟ ! بل إنه لإعانة للظالم على ظلمه .. ! ثم ما هذا الانشغال الكامل بالمجردات ، والقضاء ، والقدر ، وخلق القرآن ، والجبر ، والاختيار ؟ ! ما الاهتمام بهذه الأمور والحوار المصطبخ حولها ، والعدل معطل ؟ ! ! . إن المفكرين ليخبطون فى العشوات ، ويتركون الحكام يقتلون المظلومين ويصادرون أموالهم ! . كم فى الأمة من رجال ونساء يسقطون فى الأحوال بدلا من أكل الميتة أو البحث عن القوت وسط المزابل ؟ ! ! . وكم من العلماء فكر فى هؤلاء الجيع والمظلومين ! ! .. أعلماء وفقهاء هم ، أم هم أوتاد ونخشب مسندة يرتكن إليها الباغون ! !

إن كل مافى أيدي الخلفاء والأمراء والأغنياء حرام عليهم ، ما دام فى الأمة جيع !

وَسَتُّكُونِي ظُهُورَهُمْ وَجُنُوبَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ بَمَا يَكْنُزُونَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، كَمَا أَنْذَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ !! .. والعلماء والفقهاء الذين يزينون لهم سيرتهم على أى نحو من الأثماء ، وحتى الذين يسكتون على هذا المنكر ، إنما هم جميعا شياطين خرس ، سيعاقبهم الله تعالى عقاب الشياطين يوم يقوم الحساب !!

إن مِنْ هؤلاء الفقهاء والعلماء مَنْ يُضَلِّلُ النَّاسَ عَنِ الْحَقِيقَةِ جَهْلًا مِنْهُ أَوْ غَفْلَةً أَوْ رِيَاءً لِلْحُكَّامِ . إِنْهُمْ لِيُحِبُّونَ الْفَقْرَ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّهُمْ لَيُعْظُونَ عَامَةَ الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يَفْكَرُوا فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ، عَسَى أَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ .. ولكن ما جدوى ذكر الله إذا لم يعمل بهذا الذكر ، إذا كنت تأكل الحرام ؟ .. إن من آكلى الحرام من يستطيع أن يذكر الله أضعاف أضعاف غيره من المشغولين بالسعى فى طلب الرزق !! .. ولكن ذكر الله ليس ما يتحرك به لسانك ، وإنما هو عمل الصالحات ! ..

ولقد طاف رجل على فقهاء بغداد يسألهم واحدا بعد الآخر: « بم تلين القلوب ؟ » قالوا: « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .. ثم لقي أحمد بن حنبل فسأله فقال أحمد: « بأكل الحلال » . فعاد الرجل يطوف بهم جميعا ويذكرهم جواب أحمد .. وكأنه نبههم من غفلة ، وفتح عيونهم على الحقيقة فقالوا: « جاءك بالجوهر. الأصل كما قال » .

ألف الناس أن يسألوا أحمد بن حنبل كلما لقوه ، فيجيبهم بعد التروى ، وكثيرا ما كان يقول: « لأدرى » ..

(وأغراه بعض المعجبين به أن يتخذ له حلقة فى الجامع ، ويجلس ليعلم الناس ويفتيهم ، فيصير إماما .. ولكنه تحرّج .. فقد كان يرى أنه يجب ألا يجلس للفتوى والتدريس حتى يبلغ الأربعين .. أى فى سن النبوة ! .. ثم إنه لا يستطيع أن يفتى وبعض أشياخه حى ، فالشافعى أستاذه ما يزال حيا بمصر ! ..

وأمر آخر: إنه يريد قبل أن يجلس للفتوى وللتدريس ، وأن يفرغ من تنسيق الأحاديث التى جمعها فى رحلاته العديدة المضية ، يريد أن يسند الأحاديث إلى رواها من الصحابة ويخص لكل واحد منهم مسندا .. وعمل كبير كهذا يقتضيه الاعتزال فى بيته ..

وبدأ يعتكف ليجمع مُسْتَدَه ، ويخص ما فيه من الأحاديث . وعاتبه بعض الذين ألفوا لقاءه ، فطلب منهم أن يتركوه ليعمل ما هو أجدى من غشيان مجالس ليس فيها غير أحاديث يثرثر بها قوم ألفوا السكوت على الباطل وظلم العباد ..

كان قد بدأ يدون (المُسْتَد) منذ بدء عنايته بالحديث ، وقد تعيّن عليه الآن أن يجمع شتات ما

كتب ، وأن يسطر على الورق كل ما حفظ ، وأن ينظر في هذه الأحاديث مع إمعان النظر في نصوص القرآن ، ليحسن استنباط الأحكام .

وجمع (المسند) في كتب متفرقة ، وظل يعمل فيه إلى آخر أيام حياته ، لينسقه ابنه ويصنعه من بعده .

وكان أحمد يكتب في مسنده كل ما يحفظه من أحاديث .. وقد قال هو فيما بعد لابنه عبد الله الذي روى فقهه وبوب مُشْتَدَّه ، بعد أن سأله عبد الله عن حديث جاء في المسند ، رويت بخلافه أحاديث أخرى قال أحمد لابنه : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندى ، لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بنى تعرف طريقتى في الحديث .

لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه . وقد لاحظ ابن الجوزى أن بعض فقهاء الحنابلة فيما بعد قد اعتبروا كل ما جاء في المسند من أحاديث صحاحا على الرغم من تنبيه أحمد بن حنبل نفسه .

حزن بن الجوزى لهذا ، وكتب : « قد غَمَّني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم صاروا كالعامية ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد رُوي . والبكاء يجب أن يكون على خسارة الهِمَم ولا حول ولا قوة إلا بالله . »

أصبح أحمد بن حنبل وما في بغداد أحفظ منه للحديث ، ولا أعمق منه بصرا بآثار الصحابة وفتاواهم ، فضلا عن فقهه بعلم القرآن

وشهد شيوخ بغداد بفضلته وعلمه وتقواه ، وجدارته بالتدريس والإفتاء .

وها هو ذا يبلغ الأربعين ، وقد مات الإمام الشافعي ، ووجب على أحمد أن يتخذ له حلقة للتدريس والإفتاء بالمسجد الجامع ببغداد .

وحدد موعدا لحلقاته بعد صلاة العصر كما فعل الإمام أبو حنيفة منذ أكثر من خمسين عاما ..

استقر لأحمد بن حنبل الآن منهج في استنباط الأحكام ، خالف فيه أبا حنيفة ومالك بن انس . وتابع فيه أستاذه الشافعي . وإذن فقد أصبح أحمد بن حنبل إماما ..

وشرع الإمام أحمد يفسر القرآن ، ويروي الأحاديث ويفسرهما ، ويشرح للناس مذهبه في استنباط الأحكام ، ويفتي فيما يطرح عليه من مسائل .

وفى هذه الحلقات علم الناس أن من روى حديثا صحيحا ولم يعمل به .. فقد نافق !

وفى هذه الحلقات تفجر فقهه أصولا وفروعا .. وأجاب على آلاف المسائل .. وازداد شهرة ، وتزاحم الناس على حلقاته ، وتركوا حلقات الفقهاء الآخرين ، حيث وجده الناس غزير العلم ، حسن الرأي ، حلوا الحديث ، رفيع الذوق ، كثير الحلم ، جميل المعشر .. ووجدوه حفيا بالفقراء من طلاب العلم ، بسواد الناس يقربهم ويهش لهم ..

وقد جر عليه هذا كثيرا من العناء ! فقد نفس عليه بعض فقهاء بغداد ، وتبدل فى قلوبهم إعجابهم به ، ورضاهم عنه ، لتشتعل الغيرة منه .

ثم إن طلاب العلم تابعوه إلى بيته ، ولم يتركوا له وقتا للراحة أو العمل .. وعاتبه أحد أصدقائه لأنه لم يعد يلقاه كما ألف من قبل فقال له : « إن لى أجباء هم أقرب إلى من ألقاهم فى كل يوم ، لا ألقاهم مرة فى العام .

أسرف عليه طلاب العلم ومحبه ، فأزعجه ، وما كان له حجاب ينظمون مواعيد الناس ، كما كان للإمام مالك والإمام الليث من قبل ، وما كان يستطيع أن يمتنع عن لقاء زواره إذا كان يعمل أو يستريح فى بيته كما تعود مالك والشافعى .. وأثقل عليه أصحاب المسائل ، وطلاب مودته ، فخشى أن يفتن بنفسه ، أو يدهمه الغرور والكبر والزهو أو المراءاة وشكاهم إلى الله تعالى ، وتمنى عليه لو أهل ذكره ، أو ألقى به فى شعب من شعاب مكة حيث لا يعرفه أحد .. !

ما كان الناس يتركونه ليستريح ، والحياء بعد يمنعه من صدهم .

ولاحظ أن فى حلقاته من يكتب إجاباته وفقهه ، فنهاه فما كان يجب كتابة الفقه .. وسأله سائل : « ليمّ تنهى عن كتابة الفقه وابن المبارك الذى نعرف موقعه منك كتب فقه أهل الرأى فى العراق ؟ » فأجاب : « ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقد أمرت أن نأخذ العلم من فوق . » « أى من القرآن والسنة . »

ذلك أن الإمام أحمد كان يخشى إذا دون الفقه أن تتجمد الأحكام ، ويشيع التقليد فيما يأتى من العصور ، والفقه ينبغى أن يتجدد بالضرورة وفق مقتضيات الزمان ، يضبط هذا كله ما جاءت به نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة ، فهى وحدها الجديرة بالتدوين ، بوصفها المعيار الموضوعى الشابت ، ووعاء الأحكام الشرعية جميعا ، إما بظاهر نصوصها ، أو بدلالاتها الواضحة أو الخفية ، وإما بالقياس على ما فى النصوص من أحكام إذا تشابهت العلل والحكم .

وتعود الإمام أحمد في حلقة درسه بعد كل صلاة عصر، أن يفتي الناس وطلاب العلم عما يسألون، وأن يشغل نفسه وأهل الحلقة بما اشتغل به السلف: القرآن وتفسيره

وكان يعلمهم أن آيات القرآن يفسر بعضها بعضا، أو تفسرها الأحاديث الشريفة، وآثار الصحابة الذين تلقوا علمهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ..

فوضوع الدرس إذن هو القرآن والسنة وآثار الصحابة. ثم إنه ليأخذ أهل الحلقة بإتقان اللغة العربية وآدابها وعلومها، ليسهل عليهم فهم القرآن والأحاديث ..

أما سائر المعارف التي انتشرت في عصر الإمام أحمد، فما كان يسمح بطرحها في الحلقة .. وبصفة خاصة الكلام في العقيدة .. وكان المعتزلة قد أحدثوا حركة فكرية عنيفة، وتصدوا للرد على النزادقة والملحددين بما عرفوا من علوم المنطق والفلسفة، ثم أخذوا منذ حين يطرحونهم وغيرهم من المفكرين قضايا الجبر والاختيار، والقضاء والقدر، ورؤية الله، وذات الله وصفاته، ووضع القرآن: مخلوق هو أم قديم ؟ .

ولقد تصاول المفكرون والفقهاء من قبل حول عدد من هذه القضايا مثل الجبر والاختيار، فمنهم من ذهب إلى أن الإنسان حر في حدود علم الله وتقديره

ومنهم من قال بالجبر، فالإنسان في كل أفعاله مجبر فهو مسير لا اختيار له

ومنهم من أنكسر هذا كله، وقال بأن الإنسان حر الاختيار، وأن حريته هي مناط التكليف وأساس الحساب، فإذا لم يكن الإنسان حرا فعلا لم يُحاسب، وفيما الثواب والعقاب ؟ ! .. إنه لعبث إذن وهو ما يتنزه الله تعالى عنه ..

ومنهم من قال إن صفات الله جزء من ذاته العليّة .

ومنهم من قال أن ماهو حسي من هذه الأوصاف والصفات يجب أن يؤول عن ظاهر معناه وأطالوا الحوار في أسماء الله تعالى أمى الذات أم صفات غير الذات العلية، وفي كيفية رؤيته يوم القيامة .

والعلم الذى يتناول هذه الأمور جميعا يسمى بعلم الكلام .. وكان علماءه أشداء في الجدل، متمرسون بأساليب الحوار ..

إلا أن الإمام أحمد بن حنبل رفض الحوار، أو التفكير في علم الكلام كله، وحث الناس على ألا يتناولوا من أمور الدين إلا ما جرت عليه السنة وآثار الصحابة .. قال: « لا أرى الكلام إلا ما كان في

كتاب أوسنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه أما غير هذا فإن الكلام فيه غير محمود» .

رفض أن يطرح في حلقاته أمر من العقائد ، على الرغم من أن الحياة الفكرية خارج حلقاته كانت تضطرب بهذه الأفكار التي تصطرع حولها عقول المفكرين والعلماء والفقهاء . وهو صراع طرح نفسه على مجالس الخلفاء ، فشجعوه وأقاموا له ندوات الحوار..

ولقد تلقى الإمام أحمد كتابا من أحد أصحابه يسأله عن مناظرة علماء الكلام ، فرد عليه الإمام أحمد : « الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيف . »

والحق أن الإمام أحمد بن حنبل كان شديد التمسك بسيرة السلف وآثار الصحابة فيما يمس العبادات والعقائد .

أما أحكام المعاملات فقد تطورها ، وتوسع فيها ، ووضع لها من القواعد ما يفتح أبواب الاجتهاد للفقهاء فى كل عصر كلما دعت الحاجة . فالرجوع إلى الحق فضيلة وهو خير من التماهى فى الباطل .

من ذلك أنه أباح كتابة بعض فقهه لمصلحة رآها . وكان يغير آراءه ومواقفه ، كلما تبين له وجه أصوب فى الأمر..

ومن ذلك أنه غير موقفه من علم الكلام .. إذ تبين له أن لا مصلحة فى السكوت عن علم الكلام .. وما كان العصر ليترك مثل الإمام أحمد فى صمته عما يثيره المتكلمون ، فوجد أن مصلحة الشريعة تقتضيه أن يقول آراءه فيما يشغل الحياة الفكرية والفقهية من حوله ، فهذا أجدى على الدين من الصمت ، والنهى عن الحوار أو التفكير! .

فأعلن آراءه فى قضايا الإيمان ، والقدر ، وأفعال الإنسان ، وصفات الله .. ولكنه دعا عددا قليلا من خاصة العلماء والفقهاء وصفوة الصحاب ليدفع فيهم هذه الآراء .. ذلك أن حلقاته فى الجامع كانت قد أصبحت تضم الآفا من طلاب العلم ومعبي آرائه .. وإنه ليخشى أن يتسع الحوار حول العقائد بين هذه الأعداد العديدة من الناس ، فيزيغ بصر ، أو يضل عقل ، أو تزل قدم بعد ثبوتها ، أو يستقر خطأ ما فى قلب من لم يؤهله علمه بعد لبحث أمور العقائد!

قال الإمام أحمد فى الحلقة التى يعقدها فى داره « إن الإيمان قول وعمل ، وهو يزيد وينقص ، زيادته إذا أحسنتم ونقصانه إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى

الإيمان . ولا يخرج منه الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو بردة فرضة من الفرائض جاحدا لها . فإن تركها تهاونا بها وكسلا كان في مشيئة الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه »

أما رأى الإمام أحمد في مرتكب الكبيرة فهو ليس كافرا ، ولا هو في منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان ، وليس معفوا عنه ، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله .. فن زعم أنه كافر « فقد زعم أن آدم كافر ، وأن أخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار . » .. وقال : لا يكفر أحد من أهل التوحيد وإن عمل بالكبائر .

وما كان للإمام أحمد ليجهز بهذه الآراء في حلقة العامة ، فيسئ فهمها أحد ويجسر الناس على اقتراف الكبائر .. بل خص بآرائه أهل العلم في حلقة الخاصة في داره ، حيث الجوالصالح للتفكير والحوار في أمور حرجة كتلك ..

وأما عن القضاء والقدر فقد قال : « أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين . » وقال : « الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة . »

أما عن صفات الله وأسمائه مما جاء في القرآن أو السنة ، فبرى الإمام أحمد روايتها واتباعها كما جاءت ، فلا تُقحم عليها مالا يصلح لضبطها وهو العقل .. فهي أمور اعتقادية ينبغي على المؤمن أن يسلم بها كما هي .. وكذلك رؤية الله تعالى يوم القيامة ، يجب فيها أن نؤمن بما جاء في الأحاديث الشريفة ، وقد رأى الرسول ربه ، ويجب أن نفهم الأحاديث بظاهرها .

على أن أحمد يرى في انشغال الفكر بهذه الأمور ترفا يصلح أن يتلهم به الخلفاء والأغنياء في قصورهم ! ، هو ترف يصلح للذين لا يعينهم العدل ، وقد تؤذيهم إقامته . والانشغال بهذا الجدل هو بعد إقصاء للفكر عن شئون الحياة ومجافاة لمقاصد الشريعة التي تتوخى مصالح العباد .. فالفقيه الحق الفاضل يجب أن يشغل من أمور الدين بما يقيم المجتمع الفاضل الذي أراده الشارع الحكيم أى بما يحقق مصالح الناس .

وإذن فينبغي ألا يشغل الفقيه التقى إلا بما يفيد الناس في حياة كل يوم .. إلا بما تحته نفع كما قال الإمام مالك بن أنس من قبل ، وكما صنع الأئمة العظام أبو حنيفة والليث بن سعد وابن المبارك والشافعي .

أما ما يعنيه الخلفاء والأمراء والأغنياء من شغل العلماء والفقهاء والمفكرين بغير واقع حياة الناس وصرفهم إلى التصارع العقلى فى المناهات ، فهذا كله لا جدوى منه ، وهو استدراج لهم لينشغلوا عن مصالح الأمة ، وعن استنباط الأحكام والضوابط التى تكفل هذه المصالح ، ليخلص للخلفاء والأمراء إلى ما هم فيه من ترف وظلم واستبداد ؟! وليظل فى الرعية من يبحث عن الطعام وسط المزابل ، والرعاة متخمون !!

هكذا كان الإمام أحمد ينظر إلى اشتجار الخلاف من حوله فى أمور العقائد ، وإلى انشغال الفكر بها ، وحرص الخلفاء والأمراء على تشجيع الانصراف إليها ..

لَكَأَنَّ ولاة الأمور لا يريدون للفقہ أن يُعتنى بأحوال الرعية ، وأن يقيم العدل ، وأن يضع الميزان .. إن هؤلاء الحاكمين ليشجعون الزهاد على تمجيد الفقر، والانصراف عن هموم الحياة ، وكأن الإسلام دعوة إلى الفقر! .. ثم إنهم فى الوقت نفسه يحضون أهل الفقه والعلم والفكر على الانصراف عن الواقع إلى ما وراء الواقع .. عن الحياة إلى ما قبل الحياة وما بعد الحياة ... فَمَن بعد ذلك يحاسب الحكام على ما لم يفعلوه للرعية ، وعلى ما يفترون !! ؟ ومن ذا الذى يدافع عن العدل والحق ومصالح الناس ؟! ؟!

ما كان للفقهاء الأبرار الذين وقفوا جهودهم على خدمة الشريعة أن يقموا فى الفخاخ !!

وهكذا جعل الإمام أحمد كل همه إلى ما يفيد الناس .

وفى الحق أن الإمام أحمد بن حنبل لم يهاجم ظلم الحاكم علنا ، كما فعل من قبله أبو حنيفة الذى حرص صراحة على الثورة ، ولكن آراء الإمام أحمد عن العدل وعن الأسوة الحسنة ، وعن حقوق ذوى الحاجة ، ثم فتاواه .. كل أولئك قد أوغر ضده الصدور .

وكان استنباطه للأحكام والفتاوى يعتمد على نصوص القرآن والسنة وأقوال الصحابة وآثارهم ، ثم القياس .

قال أحمد عن القياس : « سألت الشافعى عن القياس فقال يصار إليه عند الضرورة » .

وهذا هو ما فعله أحمد ، فهو لا يلجأ إلى القياس إلا إذا لم يجد حكما فى نص القرآن أو السنة أو أقوال السلف ، والسلف عنده هم الصحابة والتابعون .

فإذا اختلفت أقوال الصحابة اختار أقربها إلى نصوص القرآن أو السنة .

وإذا اختلفت أقوال التابعين اختار منها ما هو أقرب إلى القرآن والسنة أو ما وافق قول الصحابة

مجتمعين أو أقرب أقوالهم إلى النصوص .

وهو على خلاف من سبقوه ، يقدم الحديث الضعيف على القياس .. ما دام الحديث قد صح عنه وتأكد أنه غير موضوع ..

أما الإجماع فهويرى أنه لم يتعقد بعد الصحابة .. وقال فى ذلك : « ما يدعى الرجل فيه الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا .. ما يدريه ؟ فليقل لا نعلم مخالفا » . وقال : « قد كذب من ادعى الإجماع » . أما الصحابة فهم معروفون بأسمائهم ، والعلم بإجماعهم وخلافهم ميسور .

والإمام أحمد يلحق إجماع الصحابة بالسنة ، لأنهم لا يجمعون إلا على ما علموه علم اليقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم إما رواية عنه ، أو اجتهادا منهم أقرهم عليه ..

فالإمام أحمد لا ينكر الإجماع بعد الصحابة ولكنه لا يتصور حدوثه .. ولهذا اعتمد على القياس بعد النصوص وآثار الصحابة ..

على أنه إذ يعتمد القياس أصلا من أصول فقهه ، إنما يفعل ذلك اتباعا للسنة والسلف الصالح .. ويقول : « القياس لا يُستغنى عنه والرسول صلى الله عليه وسلم أخذ به ، وأخذ به الصحابة من بعده » .

ويتسع القياس عند الإمام أحمد أكثر مما يتسع عند غيره من الأئمة ، فالقياس عند الإمام أبى حنيفة شيخ فقهاء الرأى وشيخ القياسيين هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاتحاد العلة أو تشابهها . وعلى هذا سار الفقهاء الآخرون حتى الشافعى .

أما الإمام أحمد فلم يقتصر فى القياس على علة الحكم وحدها ، بل التفت إلى الحكمة

وعلة الحكم هى سببه ، أما الحكمة فهى هدفه .. وهى المصلحة التى يريد تحقيقها والمضرة التى يريد تجنبها فعلة الحكم بإفطار المسافر هى السفر ، أما الحكم فهى حفظ النفس ودفع المشقة .. وأخذا بالحكمة يباح إفطار من كان فى عمله مشقة بحيث إذا صام لم يتمكن من العمل ..

وعلى هذا النحو من التوسع فى القياس الأخذ بالقياس الظاهر والخفى ، وبمراعاة الحكمة إلى جوار العلة ، أدخل الإمام أحمد فى أقيسته الأخذ بالمصالح ، وهى التى لم يقم دليل على تحريمها أو إباحتها .

والإمام أحمد يأخذ بها قياسا على روح الشريعة المستوحاة من نصوص الكتاب والسنة ، وإن لم تكن قياسا على نص خاص .

ثم إنه أخذ بالاستحسان وهو الحكم فى مسألة بغير ما حكم به فى نظيرها ، رعاية للمصلحة على خلاف أستاذه الشافعى الذى قال : « الاستحسان تلذذ » .

وأخذ الإمام أحمد بالاستصحاب وهو مصاحبة الواقع ، فما ثبت فى الماضى ثابت فى الحاضر والمستقبل وقطعا ما يوجد ما يغيره دليل .. فما هو مباح يظل مباحا حتى يقوم دليل على الحظر

كما أخذ بالذرائع وهى الطرق والوسائل المؤدية إلى الفعل وتوسع فيها كما لم يتوسع إمام من قبله . فهو يرى أن الطرق لتحقيق المقاصد تابعة لها ، فوسائل المحرمات محرمة ووسائل المباحات مباحة كما قال ابن القيم أحد شراحه . والأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه ، فما الظن بهذه الشريعة التى هى أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ .. ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها ، علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها ..

من أجل ذلك اهتم الإمام أحمد بالباعث على الفعل ، وبنتيجة الفعل .. فمن أراد أن يقتل رجلا بسهم ولكنه أخطأه وأصاب حية كانت تريد أن تلدغ خصمه فهو آثم عند الله . لأن الباعث على فعله كان شرا وهونية القتل .. ومن سب آفة الوثنيين ، وكانت نتيجة فعله أن سبوا هم الله ورسوله .. فهو آثم . لأن سبهم الله ورسوله نتيجة لسبه آفة الوثنيين

ومها يكن اعتبار الإمام أحمد للذرائع والاستحسان والاستصحاب والمصالح : أصول مستقلة هى ، أم تدخل فى باب القياس ، فإن اعتماد أحد على هذه الضوابط قد وسع فقهه ، وجعله خصبا ، غنيا ، متحررا ، متجددا أبدا ، قادرا على مواجهة كل ما طرحه الحياة على عقول المجتهدين والقضاة ، حرصا على مصالح العباد . ويبدو هذا فى فروع الإمام أحمد وإجاباته على كثير من المسائل .. وفى كل ما عرف عنه من فتاوى وأحكام ..

وآراء الإمام أحمد كانت فى أكثرها إجابات عن مسائل ، وهى إجابات كان فيها متبعا السنة وفتاوى الصحابة .. والسنة عنده تبيان للقرآن .

وفى مسائل عديدة لم يجب الإمام أحمد ، لأنه لم يجد النص الذى يهتدى به ، ولكنه لم يكن يسكت ، بل يقول فيها كل أوجه الرأى .

على أنه كان أحيانا يقول : « لأدرى .. سل غيرى » .

وقد ذكروا أمامه أن ابن المبارك سئل عن رجل رمى طيرا فوقع فى أرض غيره لمن الصيد لصاحب الأرض أم للرأى ؟ فقال ابن المبارك : « لأدرى » . وسئل الإمام أحمد عن رأيه فى هذه المسألة :

« فأجاب هذه دقيقة .. وما أدرى فيها » .

وسأله رجل : حلفت بيمين ما أدرى أى شىء هو ، فقال ليت أنك إذا دريت أنت دريت أنا .

وفى أتباع الإمام أحمد للسنة وآثار السلف قال : « ما أجبت فى مسألة إلا بمحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجدت السبيل إليه ، أو عن الصحابة أو التابعين . فإذا وجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعدل به إلى غيره . فإذا لم أجد فن الخلفاء الأربعة الراشدين ، فإذا لم أجد فن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأكابر فالأكابر . فإن لم أجد فن التابعين ومن تابعى التابعين . وما بلغتى عمل له ثواب إلا عملت به رجاء ذلك الثواب ولو مرة واحدة . »

من أجل ذلك ظل إلى آخر حياته يبحث عن الأحاديث ، والآثار الصحاح من فتاوى الصحابة وأقضيتهم ، حتى أحاديث الآحاد ، والأحاديث الضعاف ، إن ثبت عنده أنها صحيحة غير موضوعة .. والضعاف من الأحاديث فى عرف ذلك الزمان ، غيرها فى عرف أهل هذا الزمان . فقد كانت الأحاديث فى عصره إما صحاح أو ضعاف .. فقد نفهم نحن أن الضعيف من الحديث هو المكذوب غير الصحيح أو المختلق ، أما فى عرف السلف فهو الحديث الذى ليس له سند قوى ، ومنه الحديث الحسن ..

كان الإمام أحمد إذا لم يجد ما يريد فى الحديث ، يلجأ إلى القياس الذى يُصار إليه عند الضرورة مع توسعه فى فهم القياس وتطبيقه . فأخذ بالمصلحة قياساً على مقاصد النصوص وروحها ، لا على نص بالذات ، وتحرى حكمة النص بدلاً من علته فحسب ، أو لجأ إلى الاستحسان ، وما إلى ذلك من أصول .. وقد سمعه بعض الناس يجادل فقيهاً آخر فى بيته ويقول له : « إيش (أى شىء) أنتم ؟ لا إلى الحديث تذهبون ولا إلى القياس ولا إلى الاستحسان . ما أدرى إيش أنتم ؟ »

أعمل الإمام أحمد فكره فاستنبط الأحكام من النصوص والآثار ، وعن طريق القياس بمعناه الواسع فحوى المصالح والذرائع والاستصحاب .. ولجأ إلى الاستحسان .

وفى الحق أنه كان متشدداً فى كل ما يتعلق بالعبادات والحدود التى هى قوام الدين ، لأنه رأى البدع تسود والناس يترخصون ، ويخرجون عن الدين ، أما فى المعاملات فقد اتخذ فيها مذهباً متحرراً ميسراً ، لأنه رأى أن الذين يستغلون الناس يضيقون عليهم باسم الدين ، ورأى من الزهاد الذين يلبسون الصوف ويسمون أنفسهم بالصوفية ، والفقراء ، من يزين للناس ترك السعى ، وحب الفقر ، والرضا بالظلم وللقعود عن طلب العدل ..

وأجابات الإمام أحمد عن المسائل ، وفتاواه يظهر فيه تشدده فى العبادات والحدود ، وتيسيره فى المعاملات .

من ذلك أنه عندما فشت الفاحشة فى عصره ، وشاع الشذوذ الجنسى حتى أصبح أهل الشذوذ يجيرون ويتبجحون به ، وأصبح لهم شأن فى الدولة نشر الإمام أحمد أن الصديق أبا بكر أمر بإحراق أهل الشذوذ ، عندما أرسل إليه خالد بن الوليد أنه بعد أن فتح الشام وجد فيها أهل قرية يقتربون هذا المنكر ، فأشار عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنها ، بإحراقهم أسوة بقوم لوط .

— ومن ذلك أنه رأى الولاة يتقبلون الهدايا ، فروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه أحد عماله يحمل مالا كثيرا فاحتجز نصف المال وقال إنه له فقد أهدى إليه ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ المال كله للمسلمين ، وحذرهم أن يقبل أحد منهم هدية إن تولى أمرا من أمور المسلمين وتساءل الرسول إن جلس أحدهم فى بيت أبيه وأمه أكان يهدى إليه ، أم أنه يهدى إليه لأنه تولى أمرا ؟ فإن استحل مالا بهذه الطريقة فقد استحق النار . !
وتأسيسا على هذا الأثر أفتى الإمام أحمد أنه لا يحق للقاضى أن يقبل هدية ، ولا أى مستخدم فى الدولة ، ولا لمن يسعى فى مصلحة لغيره عند السلطان أو أولى الأمر . . . وأفتى بأن من زاد ماله وهو يلى منصباً ، وجب على السلطان أن يأخذ نصف ماله فيرده على المسلمين .

— ومن ذلك أن الإمام أحمد رأى الناس قد قست قلوبهم ، فأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يحمل حيوانا فوق طاقته ، وأن الكلب إذا حضر طعام أحد ، فعليه أن يلتقى إلى الكلب بشيء منه ، وكان الناس قد فهموا منه أن ظل الكلب نجس ، فسخر به بعض حساده ، وما كان قد قال هذا قط ، ولكنه أزرى بالأثر ياء وأنكر عليهم أن يطعموا كلابهم أفخر الطعام ، وفى الأمة من لا يجد طعامه إلا فى المزابل ، وقد لا يجده حتى فى المزابل ! ! من أجل ذلك شهروا به !

على أن الإمام أحمد نفسه جلس مرة يأكل رغيفا وما لديه طعام غيره ، فجاء كلب فبصص بذيبه . . فألقى إليه الإمام أحمد باللقمة بعد اللقمة حتى تقاسما الرغيف ! ! . . والإمام أحمد يرى فى سؤر الكلب نجاسة ، على غير ما رآه الإمام مالك الذى اعتمد على آية تحمل أكل ما يصيده الكلب ، فقال : « أحل لنا صيده فكيف يحرم سؤره ؟ » . . ولكن من رأى الإمام أحمد كراى غيره من الفقهاء والأئمة إلا الإمام مالك بن أنس أن الكلب إذا لعق الإناء وجب غسله بماء طاهر ، سبع مرات عند بعض الأئمة ، وحتى يظهر عند أحد وإن بلغت ثمانى مرات أولها بالتراب عند الجميع . . ولم يُجزأ أحد قتل الطير إلا لمصلحة أو الحاجة ، ولا دودة القز إلا لاستخراج الحرير . واعتمد الإمام أحمد فى هذا على الحديث الذى يحرم قتل العصفور إلا لمصلحة أو الحاجة .

— ومن ذلك أن الشرط فى العقد الصحيح مالم يخالف القرآن والسنة ، ومالم يحل حراما أو يحرم حلالا . وإذن فللزوجة أن تشتترط على زوجها ألا يتزوج غيرها . فإن خالف الشرط فسخ العقد ووقع الطلاق . ولما أن تشتترط عليه ألا يسافر معها .

— من ذلك أنه إذا هلك أحد من العطش أو الجوع فى بلاد المسلمين ، فكل أثيراء المسلمين آثمون ، وعليهم الدية ، وولى الأمر مسئول وعليه الدية . . وهى ذية المقتول عمدا . . نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فن قتلها فكأما قتل الناس جميعا .

— من تسبب فى القتل قاتل وإن لم يقتل بيده ، وإن لم يقصد القتل . . وقد أخذ هذا الحكم من قضاء للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . فقد أدخلت فتاة فى ليلة زفافها إلى بيتها شابا كانت تعشقه وأخفتها ، واكتشفه الزوج فقتله ، فحكم الإمام على الزوجة الخائنة بالقتل ، وعفا عن الزوج لأنه يدافع عن عرضه .

— ومن ذلك أن التية هى التى تكيفُ العقد وعلى هذا فزواج المحلل باطل .

— يجب نفى أهل الدعارة والمجون والفسق إلى مكان يؤمن فيهم شهرهم .

— القاعدون عن طلب الرزق اكتفاء بالعبادة ، يجب إجبارهم على العمل ، لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، وطلب الزهد فرارا من المشقة إثم ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل .

— إذا حكم للمدعى بيمينه بشهادة شاهد واحد ، ثم ثبت كذب الشاهد ، فعليه الغرم كله ، أى رد مادفع للمدعى بغير حق ، فإن كانا شاهدين تقاسا الغرم .

— لا يجوز الشراء من يرتخص السلع لينزل الضرر بجاره ، وعلى السلطان أن يمنع من البيع . كذلك يطرد السلطان من السوق كل تاجر يرفع السعرو يضارب فيه . . فإذا تعدد التجار ، وجب اقتلاعهم من السوق ومنعهم من التجارة .

— تمنع المضاربة على السعرنزولا أو صعودا لمن لا يريد أن يشتري .

— لا احتكار . . فالمتكرر ملعون .

- يمنع كل بيع فيه شبهة ربا ، كالبيع للمدين ، كمغالاة بعض التجار فى الربح فهو ربا ، وتحل مصادرة هذا المال ، وردة بيت المال ومنع مقترف هذا العمل من الاتجار .
- أعمال السمسة غير جائزة . والسلطان مسئول عن مطاردة السماسرة ورد أموالهم إلى المسلمين لأنه مكسب على حساب الغير بغير عمل ففيه شبهة القمار .
- وما كان الإمام أحمد ليحرم أو يحلل صراحة بل كان يتورع عن هذا كغيره من الأئمة السابقين .. ويكتفى بأن يقول « أكرهه أو أحب » من ذلك أنه سئل عن بيع الماء فقال : « أكرهه » .. وهو يريد أنه حرام .. وسئل عن الخمر يستعمل كالخل فقال : لا يعجبني ..
- ومن ذلك جواز تحويل الدين وهو استيفاء للحق .. وهى ما تسمى حوالة الحقوق ..
- ومن ذلك أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، فكل تصرف مباح حتى يثبت دليل المنع .
- ومن ذلك : إذا شك المطلق أنه طلق واحدة أو ثلاثا .. فهى طلقة واحدة لأن الحلال ثابت بالمقد فلا يزول بالشك .
- جواز إجبار المالك على أن يسكن فى بيته من لا مأوى له ، بأجر المثل ، إذا كان فى بيته فراغ لا يحتاج إليه . والحكم ينطبق على صاحب الخان (الفندق)
- يجبر أصحاب السلع على بيعها بسعر المثل ، فإذا امتنعوا ، رفعهم السلطان من السوق وصادر أموالهم ورد نصفها إلى بيت المال .
- ومن امتنع عن أداء الزكاة ، أو ما ظل ، أو لم يؤدها كاملة أخذت منه قسرا ، وصودر ماله ورد نصفه إلى بيت المال .
- يُمنع تلقى السلع قبل نزولها فى الأسواق ، لكيلا يتحكم تاجر أو عدد من التجار فى السعر .
- من وقع فى معصية وعاجل بالتوبة حال تلبسه بها أو بعدها فهو معفون عنه . كمن يفتصب عقاراً ثم يندم ويعترف ويخرج من العقار فهو فى حال توبة ، فيعفى عنه .
- وكان قد صح للإمام أحمد من السنة والآثار عن الشروط فى العقود ما لم يبلغ غيره من الأئمة من

قبل . ولذلك خالفهم جميعا فى الشروط ، فأجاز كل شرط فى العقد ما لم يحرم حلالا أو يحل حراما .. وتوسع الإمام أحمد فى ذلك حتى أجاز شرط الخيار فى عقد الزواج . بحيث يكون لأحد الطرفين حق الفسخ بعد مدة معينة فإذا مضت المدة ولم يفسخ ، استمر العقد .. وفى رأيه أنه لا دليل من الشرع يمنع هذا الشرط ، ثم إن حق الفسخ يمنع الخديعة . فإذا خالف الزوج الشرط فسخ العقد ، وبمقتضى رأيه فى الشروط أجاز للبائع أن يبيع ويحتفظ بحق الأنتفاع مدة معينة ، فله أن يشترط الإقامة بسكنه الذى يبيعه مدة معينة . وأجاز اشتراط البائع على المشتري أنه إذا أراد بيعه فهو للبائع بضمنه الذى تقاضاه من قبل . وأجاز أن يشترط البائع على المشتري وجوه استعمال موضوع البيع . فقد سئل عن رجل اشترى جارية فاشترط البائع عليه ألا يستخدمها إلا فى التسرى فحسب ، فلا تخدم ولا تقوم بعمل آخر ، فقال أحمد : « لا بأس » .

— جواز البيع من غير تحديد الثمن ، إذا اتفق المتعاقدان على سعر السوق عند التسليم دون مساومة . ويسمى بقطع السعر . وما فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى آثار الصحابة ما يحرم هذا ، فهو على قاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة .

— يجب التشدد فى الطهارة .. فالمضمضة والاستنشاق من فرائض الوضوء وهى عند غيره من الأئمة سنة .

— من ولى أمرا من أمور المسلمين فاحتجب عنهم فى داره جاز حرقه .. فقد احتجب سعد بن أبى وقاص وراء الباب عن الناس فى قصره وهو أمير بالكوفة ، فأرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب من أحرق عليه قصره .

— للماربشمر غيره أن يأكل حتى يشبع ما لم يكن على الثمر سور أو حارس .. ولكن لا يجوز للمار أن يحمل من الثمر .

— للرجل أن يشهد على امرأته بالزنا ويقسم اليمين دون حاجة إلى أربعة شهداء ، إذا رأى رجلا يعرف بالفجور يدخل إليها ويخرج . وتعاقب الزوجة بجمد الزنا .

— للمرأة إذا تزوج عليها زوجها أن تطالبه بمؤخر صداقها وإن لم تطلق .

— البينة التى تثبت الحق لصاحبه ليست محصورة فى أشكال أو صيغ ، بل هى كل ما يبين به الحق ،

من الأمارات والأدلة ، فلو تنازع الساكن ومالك المسكن على شيء نفيس مخبأ في المسكن ، فالشيء لمن وصفه منها وصفا دقيقا منضبطا ، وإن حلف الآخر وجاء بالشهود .

— لا يتحقق السجود في الصلاة إلا بأن تمس الأنف الأرض ، وذلك من تمام شعور العابد بالعبودية (والأرض هي ما يصلى عليه العابد مجردة أو مفروشة) .

— تغسل النجاسة بما طاهر حتى يزول كل آثارها ، وأقل ما تغسل به النجاسة سبع مرات . وإذا شك المتوضئ في طهارة الماء ، تركه وتيمم .

— السنة في الصلاة أن يخفف الإمام فلا يطيل رعاية لحال المأمومين ، وتكره إمامة من لا يرضى عنه أكثر المصلين .

— الأذان في الصلاة يجب أن يكون باللغة العربية (وقد أجاز غيره من الفقهاء أن يكون بغيرها) . وكذلك الصلاة .

— السنة في الصيام هي الفطر في السفر . والفطر في الغزو أخرى . وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم للفتح في رمضان ، فأفطر بعد صلاة العصر ، وشرب على راحلته ليراه الناس وقال : « تَقَوُّوا لأعدائكم » ..

— طاعة الوالدين فريضة ، وهي جزء من الإيمان ، وقد جعلها الله بعد التوحيد ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » فمعية الوالدين أو الإساءة إليهما كالشرك به تعالى بهذا نزل القرآن وعليه نصت الأحاديث الشريفة ورعاية الأم أولى كما جاء في الحديث . وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قصة زاهد شغلته العبادة عن الرد على أمه وكانت في حاجة إليه ، فأصابها أذى ، فعقب الرسول على سلوك العابد بأنه لو خرج من صلاته ، وأجاب أمه ، لكان أحب إلى الله تعالى وأقرب . وقد روى الإمام أحمد عن الصحابة والتابعين أنه إذا أستاذن ولد والدته للخروج مجاهدا في سبيل الله ، فأذنت له ، وعلم أن هواها في المقام ، فليقم . وقال الإمام أحمد لطالب في حلقة تريده أمه على التجارة ، وهو يريد العلم : « دارها وأرضها ولا تدع الطلب . »

— يجوز للأب أن يفضل أحد ولده بالهبة إذا كان هذا الولد في حاجة بسبب العجز عن الكسب لانقطاعه للعلم ، أو لمهارة به ، أو لكثرة عياله .

الأحكام يجب أن توفق بين الظاهر والباطن ، فيؤخذ بالظاهر إذا كان الحال فى غنى عن البيئنة لأن الأمارات القوية تؤيده أو كان بيئنة فى ذاته . كأن يظهر الحمل على امرأة ليس لها زوج ، أو كأن يشاهد رجل يجرى وفى يده عمامة ، وعلى رأسه عمامة أخرى ، يطارده رجل آخر بلا عمامة ! لا يؤخذ بالظاهر على اطلاقه ، فقد ثبت أنه يجافى الحقيقة .

فقد حدث أن جاءت امرأة بمخاصم زوجها ، فأرسلت عينها وبكت . فقال أحد القوم : « مهلا » فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وحدث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن امرأة بالمدينة أحببت شابا من الأنصار ، ولكنه لم يطعها فيما تريد ، فجاءت ببيضة وألقت صُفرتها ، وسكبت البياض على فخذيها وثوبها ، ثم جاءت إلى الخليفة عمر صارخة فقالت : « إن هذا الرجل غلبنى على نفسى وفضحنى . وهذا أثر فعاله . » فسأل عمر النساء قتلن له : « إن ببدنها وثوبها آثار الرجل » . فهم بعقوبة الشاب ، فأخذ يستغيث ويقول : « يا أمير المؤمنين ثبت فى أمرى . فوالله ما أتيت فاحشة ولا هممت بها ، فلقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت » . فنظر عمر إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقال : « يا أبا الحسن ما ترى فى أمرها . » فنظر على إلى ما على الثوب ، ودعا بجم حار شديد الغليان ، فصب على الثوب فجمد البياض ، وظهert رائحة البيض ، فزجر الخليفة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه المرأة فاعترفت ، وعاقبها .

ومن رأى الإمام أحمد أنه لا يؤخذ بالظاهر على إطلاقه حتى إذا اعترف المذنب . وقد روى أنه حدث فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن أتى برجل وُجِدَ فى خربة بيده سكين ملطخ بالدم وبين يديه قتيل يتشحط فى دمه . فسأله أمير المؤمنين فقال : « أنا قتلته . » فقال : « اذهبوا به فاقتلوه . » فلما ذهب به أقبل رجل مسرعا ، فقال : « يا قوم لا تعجلوا . ردوه إلى على » . فرده . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين . ما هذا صاحبه . أنا قتلته » فقال على للأول : « ما حلك على أن قلت أنا قاتله ولم تقتله ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين ، وما أستطيع أن أصنع ، وقد وقف العسس على الرجل يتشحط فى دمه ، وأنا واقف ، وفى يدي سكين وفيها أثر الدم وقد أخذت فى خربة ؟ فحفت ألا يقبل منى ، فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسى لله . » فقال على : « بشئها صنعت ! فكيف كان حديثك ؟ » . فقال الرجل إنه قصاب ذبح بقرة وسلخها ، وأخذه البول فأسرع إلى الخربة يقضى حاجته والسكين بيده ، فرأى القتل فوقف ينظر إليه فإذا بالشرطة تمسك به . وأما القاتل فاعترف بأن الشيطان زين له أن يذبح القتل ليسرقه ثم سمع خطو أقدام فاخترفى فى الظلام ، حتى دخل القصاب فأدركه العسس فأمسكوا به . ولما رأى الخليفة أمر بقتل القصاب ، خشى أن يبوء بدمه فاعترف . وأخلى على سبيل القاتل لأنه إن كان قد قتل نفسا ، فقد أحيا نفسا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . » وأخرج الدية من بيت المال .

وكان الإمام يستشهد فى أحكامه بالأخبار والقصاص ، فيها عبرة لأولى الألباب كما قال الله تعالى . وكان يطلب من تلاميذه أن يكثروا من قراءة القصاص ليعتبروا

ومما رواه من قصص تؤيد رأيه فى عدم الأخذ بالظاهر على إطلاقه ، أن امرأة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اغتصبها رجل وهى فى الطريق إلى المسجد لصلاة الفجر ، فاستغاثت برجل مر عليها ، وفرّ المغتصب ، ومرنفر وهى ما تزال تصرخ فأدركوا الرجل الذى كانت قد استغاثت به ، فأخذوه وجاءوا به إليها ، فقال الرجل : « أنا الذى أغشيتك وقد فر الآخر » فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وشهد عليه القوم . فقال : « إنما كنت أغيشها على صاحبها فأدركنى هؤلاء فأخذونى » فقالت : « كذب . هو الذى وقع على » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا به فارجموه . » فقام رجل فقال : لا ترجموه وارجمونى فأنا الذى فعلت بها الفعل . فقال القوم : « يارسول الله ارجمه » فقال : « لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم .

— يفضل الإمام أحمد للمسلمين أن يغزوا تحت قيادة القوى وإن كان فاجرا ، على الضعيف وإن كان صالحا ويقول : « أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره لنفسه . وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين . فيغزى مع القوى الفاجر جلبا للمصلحة العامة .

— لا يحبس المدين فى دين . فلم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فى دين قط ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده ، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الحبس فى الدين ظلم » . وكذلك لا يحبس الزوج فى مؤخر الصداق ، ولم يحبس الرسول ولا أحد من الخلفاء الراشدين زوجا فى مؤخر صداق أصلا . ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده لامرأة بصداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها » . كما جاء فى رسالة الليث إلى مالك . فالأمة مجمعة على أن المرأة لا تطالب به قبل أجله بل هو كسائر الديون المؤجلة فليس لها حق فيه إلا بالموت أو الطلاق أو الزواج بغيرها .. ولا تقوم مصلحة الناس إلا بهذا . ويضيف الإمام أحمد فى ذلك : « من حين سلب النساء على المطالبة بالصدقات المؤخرة (أى مؤخر الصداق) ، وحبس الأزواج عليها ، حدث من الشرور والمفاسد ما الله به عليم . وصارت المرأة إذا أحست من زوجها بصيانتها فى البيت ، ومنعها من البروز والخروج من منزله والذهاب حيث شاءت ، تدعى بصداقها وتحبس الزوج عليه ، وتنطلق حيث شاءت . فبييت الزوج ويظل يتلوى فى الحبس ، وتبيت المرأة فيما تبئت فيه » .. !

— كل أنواع المعاملات مباح إلا ما يحظره نص أو القياس على نص . وكل العقود واجبة الوفاء إلا إذا قام دليل شرعى على المنع . وكل ما احتاج إليه الناس فى معاشهم ولم يكن سببه معصية لم يحرم عليهم ، لأنهم فى معنى المضطر الذى ليس بباغ ولا عاد . ولا يشترط لانعقاد العقد أى شكل أو صيغة بل ينعقد بالنية والإفصاح عنها . وبعض العقود لا يثبت إلا بالكتابة . وقد ينعقد العقد بممارسة الفعل أو بما يقتضيه العرف . كالعقد مع صاحب الخان (الفندق) أو صاحب الحمام ، ينعقد بدخول المكان ورضا صاحبه . وأكثر تصرفات التجارة قائم على العرف . ولكن النية والقبول يجب ألا يعيب أيها شىء ، فأساس المعاملات الرضا ، وكل ما يشوب الرضا يفسد التعاقد ، أكرها كان أم خديعة أم غشا أم تدليسا أم غبنا .

وقد حدث فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تزوج شيخ كبير يخطب بالسواد بفتاة شابة حسناء وبعده حين ظهر البياض على شعر الزوج ولحيته ، فكرهته العروس وقالت إنها خدعت بشبابه .. وما هو بشاب . وشكاه أهلها إلى عمر قائلين : « حسبناه شابا » . فضربه عمر ضربا موجعا وقال له : « غررت بالقوم » . وفرق بينها .

— الغاية ترتبط بالوسيلة المؤدية إليها ، وترتبط المقدمة بالنتيجة ، فإما هو سبيل إلى المباح مباح ، وما هو وسيلة إلى المحظور محظور ، وإذا فسدت احدهما فسدت الأخرى ، فأثبات الحلق مباح بل هو مطلوب ، على ألا تكون الوسيلة محظورة كشهادة الزور .

وتستثنى من القاعدة حالات الضرورة أو الحاجة .. فيجوز للطبيب الاطلاع على عورة المريضة لعلاجها وإنقاذ حياتها .

— من الواجب توفير كل ما فيه صلاح الناس ، وفتح الطريق للتوبة وإصلاح ذات البين وصيانة كيان الأسرة .

وروى احمد : « جاءت إلى على بن أبى طالب امرأة فقالت : « إن زوجى وقع على جاريتى بغير أمرى » . فقال للرجل : « ماتقول ؟ » . قال : ما وقعت عليها إلا بأمرها . فقال : « إن كنت صادقة رجعتك (بالزنا) وإن كنت كاذبة جلدتك الحد (للذف) » . « وأقيمت الصلاة فقام أمير المؤمنين على يصلى . وفكرت المرأة فلم تر لها فرجا فى أن يُرجم زوجها ، ولا فى أن تجلده فولت هاربة . ولم يسأل عنها أمير المؤمنين » .

وقد قيل للإمام أحمد « فلان يشرب » . فقال : « هو أعلمكم شرب أم لم يشرب » . وقال عن جماعة من العلماء يشربون النبيذ : « تلك سقطاتهم لكنها لا تذهب حسناتهم » .

— على القادر أن يتفق على كل ذوى الأرحام الفقراء قربوا منه أو بعدوا . وعلى الموسرين من المسلمين أن يخرجوا من أموالهم إلى بيت المال صدقات ، حتى لا يكون فى أرض الإسلام صاحب حاجة مسلما كان أم غير مسلم .

— يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا أمر لا تختص به جماعة منهم ، بل هو فرض على الجميع . ويجب اتباع الحسنى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكما جاء فى الحديث الشريف : « كل من رأى سيئة فسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة » ، على أن يكون النصيح بقول التى هى أحسن . والمسلمون مطالبون شرعا إذا كلم بعضهم بعضا بأن يقولوا التى هى أحسن « فرب حرب أهاجها قبيح الكلام » . فإن لم يتحدثوا بالحسن من القول ، وقعوا فى المعصية بخالفهم قوله تعالى : « قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم » .

بهذا الفقه خالف الإمام أحمد فى كثير من المسائل كل من سبقه من الأئمة وبصفة خاصة الإمامين أبا حنيفة ومالك بن أنس .. ولكنه كان أكثر اقتداء بالشافعى فى مذهبه المصرى الذى تأثر فيه بالإمام الليث بن سعد . على أن الإمام أحمد اختلف مع الشافعى اختلافا كاملا فى الأخذ بالاستحسان وفى شروط العقود ، فقد وقع لأحمد من الحديث والآثار ما لم يقع للشافعى ، وقد صرح نظر الشافعى حين قال لأحمد هو ومن معه من أهل الحديث : « أنتم أعلم بالحديث والأخبار منى فإن كان صحيحا فأعلمونى » .

سار الإمام أحمد فى أكثر اجتهاده على طريق الإمام الشافعى ، حتى لقد رفض الإمام الطبرى اعتبار ابن حنبل فقيها أو مجتهدا ، وعده متبعا وراوية للحديث ومقلدا ! ..

وقد خوطب الإمام أحمد فى التزامه طريق الشافعى فقال : « لم نكن نعرف الخصوص ولا العموم حتى ورد الشافعى ، وكان الفقه قفلا ففتح الشافعى . وهو فيلسوف فى أربع فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه » .

تابع الإمام أحمد طريقه : فهو يجيب على المسائل ، ويعلم التفسير والحديث ، ويراجع ما جمع من الأحاديث ، وفى مراجعاته لما حفظ وجمع من أحاديث ، حذف كل ما حفظه عن عالم ذى مكانة من أهل الحديث ، لأنه شتم معاوية بن أبى سفيان وأرسل إليه أحمد بذلك .. فعجب المحدث لأنه يعرف أن أحمد بن حنبل يرى معاوية من أهل البغى أمتهن ببغيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه !!

إن أحمد وصاحبه حفظا الأحاديث معا من شيخهما عبد الرزاق فى اليمن ، ولقد سمعاه معا يشتم أمير

المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .. وعثمان أفضل من معاوية !! .. وإذن فما ينبغي لابن خنبل، أن يروى الأحاديث الكثيرة التي حفظها عن شيخها عبد الرزاق ! أرسل المحدث إلى صاحبه أحمد يذكره بذلك كله .. !

فلم يشأ الإمام أحمد أن يحاور صاحبه ، فقد شغله فقهه ، واستغفره غلبة أصحاب الكلام على قصر الخليفة وعلى الحياة الفكرية ، فشدد النكير عليهم ، وشرع يهاجمهم فى حلقاته العامة بالمسجد ، وأخذ يحذر منهم طلابه ومرىدى حلقاته قائلا : « لا تكاد نرى أحدا نظرفى الكلام إلا وفى قلبه رَغَل (أى فساد) . » ولم يتهيب أصحاب الكلام هجوم أحمد ، بل مضوا يحاجون فى القضية التى كانت تفضينهم منذ زمن بعيد وهى قضية خلق القرآن .

والقضية ليست بنت العصر .. ولكن أصحاب الكلام من المعتزلة أثاروها من قبل فى عصر بنى أمية ، وأصابهم منها عنت شديد وعذاب عظيم ! فقد بدأ المعتزلة فى حكم هشام بن عبد الملك يتكلمون فى حرية الاختيار وفى البيعة والشورى ، فهزوا أركان السلطان ! ...

ثم تكلموا فى خلق القرآن . فانتهر الحاكمون الفرصة ، واتهموا أصحاب هذا الرأى بالكفر .. ولم يجادلوهم فى غيره من الآراء . وقبضت الدولة على أول من قال بهذا الرأى وهو « الجعد بن درهم » . فحبس وعذب فى فجر عيد الأضحى .. وخطب والى العراق فى الناس العيد وقال فى آخر خطبته : « انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم » . ونزل من على المنبر فذبح الجعد كما تذبح الأضحية ! !

ثم إن حكام بنى أمية طاردوا المعتزلة والمتكلمين بتهمة الكفر ، وأثاروا عليهم العامة ، حتى جاء وقت لم يستطع فيه مفكر منهم أن يجهر بفكره .. ولكن هذا الفكر استمر ونما تحت المطاردة والاستبداد ، كما عاش وميض نار الثورة على بنى أمية تحت الرماد ، حتى أصبح له ضرام ، وقودُه جثث وهام ! .. !

وإذ سقطت دولة بنى أمية وخلفها بنو العباس ، ظهر المعتزلة بفكرهم ، واهتموا أكثر ما اهتموا بالقضية التى ذبح أول من أثارها والتى لاقوا النكال فى سبيلها وهى قضية خلق القرآن ! .

وكان بوسع الإمام أحمد أن يشهر بهؤلاء ، فقد دعى إلى عشاء عند أحدهم ، ووجد فى داره كثيرا من الفقهاء يشربون وقد بلغ بهم السكر مبلغه . ، وأمامهم ترقص الإمام و يفتنين عاريات ، فخرج أحمد من المكان ، وعندما سئل من غده عما رأى لم يقل شيئا ، وقيل له أن مخالفه كانوا سكارى ، لم ينطق ذلك أنه وهب نفسه للعلم ونأى بنفسه عن السياسة ، وأخذ الخصوم بعوراتهم !

ولكنه ما كان يستطيع أن يبعد .. فالسياسة هى فن الحياة وهى « ما كان فعلا يكون معه الناس

أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى .
وعلم الدين ترسم ملامح المجتمع الذى أرادته الشارع الحكيم بما نفهمه من روح النصوص .

فسر الإمام أحمد قوله تعالى فى سورة النور: « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » بقوله تعالى فى
سورة الحديد: « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم
أجر كبير » .

فالأغنياء مستخلفون فيما يملكون ولا ينبغى أن يقول الواحد منهم « هذا ملكى » بل عليه أن يقول :
« هذا ملك الله عندى » ... وإذن فللمال وظيفة اجتماعية ، وإنفاق المال للمصالح العام واجب شرعى ،
جعلته الله جزءا من الأيمان .. من أجل ذلك حرم الله الربا ، واعتبر المرابين كفارا ، وحرم الرشوة :
« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم
تعملون ، وحرم كل أنواع الكسب بلا عمل ، وحرم الوساطة فى التجارة والصفقات (أى السمسة) .
أو العمولة بلغة العصر !

ثم إن الإمام أحمد أخذ يعلم الآلاف الذين يرتادون حلقتة أن الذين يستغلون مواقعهم ليكسبوا بغير
الحق لهم الويل كل الويل وكان قد أئذروهم بذلك من قبل ، فرفضوا قوله لأنهم حسبوه من اجتهاده ،
ولكنه روى حديثا صحيحا قوى الأسناد عمق الثبوت .. : « أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه أحد
الولاة فقسم ما جمع من مال قسمين ثم قال للنبى عليه الصلاة والسلام : « هذا لكم وهذا أهديت » إلى
فغضب النبى وقام يخطب فى الناس : (أما بعد .. فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله
فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه أهديت إلى . فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أهديت
إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد فيه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة ، إن بعيرا
له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبعر . وكان أبو ذر الغفارى حاضرا فقال للرجل : لا تحزن . إن الدنيا
دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسمى من لا يقين له . اذهب اعتذر للنبى صلى الله عليه
وسلم)

وروى أحمد عن السلف الصالح أن عمر بن الخطاب خصص أرضا إلى جوار المدينة ، جعل كلاًها
لماشية الفقراء وحرمتها على أنعام الأغنياء وقال : « إن تلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله وإن تهلك
ماشية الفقير يأتنى بأولاده متضورا طالبا الذهب والفضة . فبذل العشب اليوم أيسر على من بذل
الذهب والفضة يومئذ » .

ثم أخرج الإمام الأحاديث الشريفة التى تؤم الاحتفاظ بالمال وفى الأمة فقراء .

وتحرز في رواية آثار علي بن أبي طالب التي تحكى عن جهاده في إعادة توزيع ثروة الأمة ، وأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء ورده على الفقراء .. تحرز الإمام أحمد في ضرب الأمثال بسيرة علي بن أبي طالب عندما كان أميراً للمؤمنين ، وفي اختياره لدار الخلافة بيتا في الكوفة هو من أدنى بيوت الفقراء ، ليضرب الأمثال لأولياء الأمر في عصره ومن بعده ... تخرج الإمام أحمد من الحديث عن سيرة الإمام علي لكيلا يجدوا عليه سبيلا فيتهموا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة بأنه شيعي .. و يثور عليه أمراء البيت العباسي الحاكم ! ..

وعلى الرغم من تحرزه هذا ، أوغرت فتاواه وآراؤه صدور هؤلاء الحكام .. وتربصوا به ، وزعموا أنه بما يفسر من آيات ، وبما يخرج من أحاديث ، وبما يروى من آثار الصحابة ، إنما يثير الفقراء ضد الأغنياء ، ويهين الصوفية ، ويحرض العامة على الخاصة !! .

وأغروا به بعض المنافقين ليجرحوه ! .. ولكنهم ما كانوا لينالوا منه .. فقد عرف الناس من هو الإمام أحمد .. !!

وما يزال في أعماق أحمد جراح من قصة الفتاة التي كانت تبحث عن القوت في مزبلة قومها ، وعلى مقربة منها ينثر الدر والذهب لتمشى عليه المحظيات .. وعلماء يجلدون الفقر ويدعون إليه الأمة !! ثم جاء عصر المأمون ..

وقد استولى المأمون على الحكم بعد معركة مريرة مع أخيه الأمين .

ذلك أب الرشيد استخلف ابنه الأمين ، وهو ابن من زوجته العباسية بنت عمه زبيدة ، وأوصى بولاية العهد من بعد الأمين للمأمون ، وهو ابن الرشيد من جارية فارسية

ولم يكفد الأمين يتولى الخلافة ، حتى عزل أخاه المأمون من ولاية العهد مستنفضا التعصب العربى ضد الموالى ومنهم الفرس .

وأيد الأمين في هذا عدد من فقهاء بغداد من أهل السنة .. إلا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة ، فقد كان لا يعنى بغير العلم !

ونخرج المأمون على أخيه الأمين بالسيف ، وغلبه ، وقتل الأمين ، وأصبح المأمون هو أمير المؤمنين .

وكان الأمين والمأمون على طرفى نقيض : فالأمين يعتمد على نسبه الهاشمى أبا وأما ، فحسبه هذا

النسب ! .

أما المأمون فقد عرف أنه يجب أن يعزب نفسه لا بنسبه ، ومن أجل ذلك حرص على أن يتعلم ويتشقف ، وقد كان معلمه يضره وهو صغير فلا يشكو ، على نقيض الأمين الذي كان مدللا من معلمه ومن الحاشية ، لا حظ له من الثقافة ، ولا هم له إلا التوفر على المتاع الذي تقدمه له حاشيته .. !

كان المأمون واسع الثقافة ، يولع بالفقه وآداب اللغة والفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والفلك والرياضيات .. ويدرس معطيات كل الثقافات .. فشجع على نقلها إلى العربية عندما أصبح خليفة ..

ونظر المأمون في أمر الدولة فوجد أن الصراع يكاد يمزقها : صراع بين العلويين والعباسيين ، وبين أصحاب الفرق من أهل السنة ، وأهل الرأي ، والمعتزلة وغيرهم من الفرق .. ووجد أن بعض أفراد أهل البيت المالك يشتتون في ظلم الرعية مهددين كل شيء ، فيعشق أحد كبارهم امرأة حسناء متزوجة ، ويحاول ، تطليقها وحين يرفض زوجها أن يطلقها ، يرسل الهاشمي الكبير من يخفونها من زوجها عنوة ، ويغتصبونها قبل أن يهدوها إليه !

ويعجب رجل آخر منهم بغلام مليح فيخطفه من أبيه وأمه ، ويضعه أمامه على الحصان ويطيّره إلى بيته ! .. وهذان الرجلان من أهل البيت المالك العباسي يصنعان هاتين الفاحشتين بامرأة وغلام من أهل مكة والمدينة ولا يجدان أدنى مقاومة .. !

أما بغداد .. فأشبع ما يغشاها من فساد .. وإلى جوار هذا كله ينتفض فكر عظيم يعيشه فقهاء البلاد ، ومثقفون شرفاء يعانون من غاشية الظلم والفحشاء ! ..

والدولة تتسع ، وقد خلف هارون الرشيد ملكا عظيما ضم أكثر بلاد الدنيا ، حتى أصبح الرجل في أي مكان في العالم لا يعتبر مثقفا أو متحضرا ، إلا إذا أتقن اللغة العربية .. !

ثم إن المظالم التي كابدها الناس فجرت الثورات ، فقامت في أطراف الدولة ثورات تطالب بالمساواة في كل شيء وتطرفت حتى طالبت بشيوع النساء ! كما حدث في الأطراف الشرقية ، وقامت ثورات أخرى تطالب باحترام تعاليم الإسلام كثورة أهل مصر ! !

والخلافات الفقهية والفكرية تستمر حتى لتتحول إلى عداوة ! وبعض العلويين ينهضون مطالبين بحققهم في الإمامة والخلافة ! . ونفر من المتشددين يقطعون الطريق على أهل البدع ، ويضربون لاعبي الشطرنج ، أهل الطرب ، ومن يلبس الحرير أو الذهب ، ويريقون الخمر ، ويحطمون آلات الغناء ! !

كان على المأمون أن يواجه هذا كله .. وأن يرفع مظالم أسلافه من الخلفاء ، وبصفة خاصة مظالم

أربع سنوات حكمها أخوه الأمين ، الذى ترك أمور الدولة لحاشية فاسدة ، أغرقته فى المذات ، حتى لقد حارب معركته الأخيرة التى قتل فيها وهو سكران يجرع الخمر من قدح ذهبى يسع أربعة أرتال .. !

ورأى المأمون أن أخطر ما يهدد الدولة هو سلطان قادة البيت العباسى .. والصراع بين العلويين والعباسيين ، والخلاف بين الفرق المختلفة .

أما الثورات فى الأطراف ، فقد أنفذ إليها جيوشا يقيمها . ثم رأى أن يوفق بين أبناء العمومة من شيعه علويين وعباسيين ، فنظر فىمن يوليه العهد ليكون خليفة من بعده ، فلم يجد أحكم ولا أتقى من الإمام على بن موسى وهو إمام الشيعة .

وأخذ يضرب رؤوس الفساد فى البيت المالك العباسى ممن يخطفون الزوجات والفلمان ، ويستغلون قربتهم من السلطان لابتزاز الأموال ، أو لإرهاب الناس . وأمر بأن يلغى السواد من أعلام الدولة وهو شعار العباسيين ، ليحل بدلا منه اللون الأخضر شعار العلويين .

وحاول أن يرد بعض أموال الأغنياء إلى الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ..

وثار عليه العباسيون وأغنياء الدولة واجتمعوا فى بغداد ، وكان هو ما يزال بعيدا عنها ، فخلعوه وأفتى عدد كبير من فقهاء السنة بأن المأمون خارج على الإسلام ، وبايعوا بدلا منه إبراهيم بن المهدي وهو أحد كبار المغنين والملحنين .

وبايعه الذين كانوا يكسرون آلات الغناء ، و يضربون المغنين والمغنيات ! !

وزحف المأمون على بغداد ، وحين أوشكت أن تستسلم ، اختفى إبراهيم بن المهدي ، وتسلسل إليه الذين خلعوه من قبل ، فبايعوه !

ودخل المأمون بغداد ، فخضع له الجميع !

وعفا عنهم إلا قليلا منهم ، قتلهم وصلبهم على أبواب بغداد مدينة السلام ! .

وكان ولى عهده على بن موسى ، قد مات من قبل فجأة فى ظروف مشبوهة ! .. وقيل إن أعداء الشيعة دسوا له السم فى الطعام ! .

أما أحمد بن حنبل فقد ظل بعيدا عن كل هذا المضطرب ، مشغول القلب بعلمه وفقهه ، لا يراه الناس إلا فى حلقاته يعلم الناس ويجيب على المسائل .

وحين دخل المأمون بغداد واستقر بها ، أسرع بترجمة كل ما لم يترجم بعد من الثقافات والحضارات الأخرى ورصد لذلك أموالا طائلة ، واستعان بمثقفين مسيحيين ويهود .

وإذ أمر بترجمة ما عند اليونان والمصريين ، اتهموه بأنه يروج للوثنية ، ففى ذلك التراث الحضارى كلام عن الآلهة المتعددين .. !

من أجل ذلك توقف المأمون عن ترجمة المسرح المصرى والأدب المصرى القديم ، فضاعت آثاره ، إذ لم يجد من يترجمه من بعد

وتوقف عن ترجمة المسرح اليونانى والأدب اليونانى ، ولكن هذا التراث وجد من الأوربيين من ينقله عبر الأجيال ..

كان نفر من أهل السنة فى بغداد يلعنون الفلسفة والمنطق ، وكل ما لم يعرفه السلف من معارف وعلوم .. ولكن المأمون شجع هذه العلوم والمعارف ، ومنح تلاميذ جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق كل ما يريدون من أموال ومعامل ليطوروا علم الكيمياء .

واعتبر بعض أهل السنة هذا العلم شعوذة وبدعة ، وشجعهم على ذلك أن نفرا من المشتغلين بالكيمياء ، أخذوا يعملون لتحويل بعض المعادن الخسيسة إلى الذهب النفيس .. !

ثم إن الصراع احتدم حول خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة .

وما كان الإمام أحمد بن حنبل على صلة بكل هذا المضطرب ، واكتفى بأن يحض الناس على أن يهتموا من الدين بما فيه نفع للناس ، وبما يقيم المجتمع الأمثل .

وجد المأمون أن الفتنة توشك أن تنفجر بين أهل السنة والمعتزلة ، وكان هو نفسه يدين بأراء المعتزلة ، وبصفة خاصة بطرائقهم الفلسفية وباستخدامهم المنطق فى مجادلة الملحدين والزنادقة .. وكان راعيا لأصحاب الفلسفة ، مؤمنا إيمانا عميقا بأن القرآن مخلوق ، وبأن الجدل وسيلة صالحة للوصول إلى الحقيقة .

واصطنع لنفسه أعوانا من الجانبين .. فجعل الرجل الأول فى قصره واحداً من كبار أهل السنة ، وهو يحيى بن أكرم ، وقرب إليه فى الوقت نفسه عددا من مفكرى المعتزلة على رأسهم الجاحظ شيخ كتاب ذلك الزمان ، وأحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة .

ولكن أحمد بن أبى دؤاد كان عنيفا على أهل السنة ، يتهمهم بالكفر لأتهم ينكرون خلق القرآن . فإن لم يكن القرآن مخلوقا وكان قديما فهو إذن شريك لله تعالى فى القدم .. وهذا شرك !

أما المعتزلة فكانوا يرون أن الله خلق كل شيء فالقرآن من الأشياء التي خلقها الله تعالى ..

وحاول أحمد بن دؤاد أن يقنع المأمون بقهر مخالفه على اعتناق رأيه ، ولكنه أبى ذلك فالمأمون يرى أن غلبة الحجة خير من غلبة القوة .. فالقوة تزول ، أما الحجة فباقية ما بقى العقل .

وجمع المأمون أربعين من المفكرين والقضاة والعلماء والفقهاء فتناظروا عنده ، غير أنهم لم ينتهوا إلى اتفاق ! .. ولم يشهد أحمد بن حنبل هذا الاجتماع ، إذ كان لا يفشى مجالس الحكام ، ولا يقبل عطاءهم ، مهما تكن شدة حاجته ..

كان مشغولا عن كل هذا بما هو فيه من تدريس وعلم وجمع للأحاديث . ثم إن رأيه معروف لا يجادل فيه بعد .. فقد نهى عن الخوض فيما لم يخص فيه السلف ، والسلف لم يخوضوا في خلق القرآن .. ولقد أعلن أكثر من مرة : « ما أفلح صاحب كلام . »

بعد المناظرة خرج أهل السنة يهاجون أصحاب الكلام في الحلقات ، و يتهمون من يقولون بخلق القرآن بأنهم كفار .. أو بالقليل أصحاب بدعة ! !

ولم يستطع يحيى بن أكثم وهو من شيوخ أهل السنة أن يُسكِت أصحابه ، فعرّضوا بالمأمون نفسه !

وشجع انشغال المأمون بالخلافات الداخلية جيوش الروم فهددت أطراف الدولة ، فخرج المأمون بجيشه مجاهدا ، وأخذ معه الجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد .. وأصبح ابن دؤاد مستشاره الأول ..

وحين استقر الخليفة على رأس جيشه في طرطوس ، داهمه المرض ، فانتهاز أحمد ابن أبي دؤاد الفرصة وأنبأه أن أهل السنة في بغداد قد انتهبوا فرصة غيابه ومرضه ليشعلوا الفتنة ضده ، فهم يكفّرون من يقول إن القرآن مخلوق وعلى رأسهم الخليفة .. ! !

وإذن فالخليفة مطالب بأن يصنع شيئا لإنقاذ الدولة ! وأمر الخليفة بأن يتولى أحمد بن دؤاد عنه أمر الذين يكفّرون من يقول بخلق القرآن .. فأرسل إلى نائب الخليفة في بغداد بأن يجمع كل الفقهاء والعلماء والقضاة وأهل الرأي ليمتحنهم في خلق القرآن . فن أنكر خلق القرآن فليعزل من منصبه ، ولئیسندّر من ليس في منصب منهم أنه لن يتولى منصباً أبداً ، ولن تقبل له شهادة ، وليأمر القضاة منهم بأن يمتحنوا الشهود في خلق القرآن ، فن خالف رأى الخليفة فلا تقبل شهادته ... وسمى له أسماء من يجب أن يمتحنهم وفيهم أحمد بن حنبل !

ورفضوا جميعا القول بخلق القرآن

فأرسل الخليفة يطلب سبعة منهم ، فأجابوه إلى ما أراد ، فأعادهم إلى بغداد ، وطلب إعلان

اعترافهم ، وطلب إعادة سؤال الباقيين فى بغداد .

وجاء نائب الخليفة بهؤلاء .. فمنهم من أبى الخوض فى الموضوع كالإمام أحمد بن حنبل ، ومنهم من قال إن الرأى ما يراه الخليفة ، ومنهم من أنكروا خلق القرآن ، ومنهم من أقر بأن القرآن مخلوق ..

وأرسل نائب الخليفة فى بغداد إلى أحمد بن دؤاد بما حدث .. فأرسل أحمد بن أبى دؤاد بأسم المأمون رسالة طويلة ، يسب فيها الجميع ويتهمهم بالرشوة والفساد ، والسرقة ، والنفاق والتظاهر وحب الرياسة .. لم يتروك أحداً منهم إلا الإمام أحمد بن حنبل ، فقد اتهمه بالجهل ! .

ثم إنه أمر نواب الخليفة بأن يهددهم بالقتل ، إذا لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق .. فن وافق منهم فليُشهر أمره فى الناس ، ومن لم يوافق فليرسله فى الأصفاد والأغلال إلى أمير المؤمنين ! .

وأمير المؤمنين إذ ذاك قد ثقل عليه المرض .. فقد اشتى رطبا غسله فى ماء جدول بارد ، فأصابته حمى زادته مرضا على مرض ، حتى كان يفقد الوعى فترات طويلة ، ولم ينفعه طب !

قال أحمد بن حنبل حين سئل أول الأمر عن القرآن : « هو كلام الله »

فسأله نائب الخليفة أمخلوق هو؟ قال : « هو كلام الله لا أزيد عليها » .

وسئل ما معنى « سميع بصير ، أهو سميع من أذن يبصر عن عين ؟ » قال الإمام أحمد : « ما أدرى ، هو كما وصف نفسه » ..

دعا نائب الخليفة كل العلماء والفقهاء والقضاة ، وعرض عليهم رسالة أحمد بن دؤاد التى يهددهم فيها الخليفة بالقتل إن لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق ..

وأحضرهم جميعا فإذا بهم كلهم يجيبون بأن القرآن مخلوق .. !

وكان الإمام أحمد رجلا ليئا ، فلما سمع العلماء يجيبون ، انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللين الذى كان فيه .. وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : « سيصيبك بعدى بلاء شديد » فقال أبو ذر : « أفى الله يارسول الله ؟ » قال : « نعم » « فاغرورقت عينا أبى ذر ، وأدرك أنه من أهل الجنة ! !

اغرورقت عينا الإمام أحمد .. ورفض الإذعان . وتابعه تلميذ له من جيرانه ، وهو طالب علم شاب ، رقيق الحال اسمه محمد بن نوح . وإذ رأى الحاضرون أن جميع الفقهاء والعلماء والقضاة فى العراق قد وافقوا أحمد بن أبى دؤاد على رأيه قال قائل منهم للإمام أحمد : « ألا ترى أن الباطل ظهر على

الحق؟» قال الإمام أحمد: «كلا. إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق.»

وضعت الأغلال والأصفاد على الإمام أحمد، وتلميذه الشاب محمد بن نوح.. وحُملاً معاً على دابة واحدة، وسيقاً من بغداد إلى طرطوس!! .

وانتشر الخبر فى كل أنحاء العراق. وسخط الناس على المعاملة التى يلقاها الإمام أحمد حتى إذا كان فى بعض الطريق قابله رجل فقال له: «يا هذا.. ماعليك أن تُقتل ها هنا وتدخل الجنة!» .. ثم قابله أعرابى فقال له: «يا إمام. إن يقتلك الحق مت شهيدا، وإن عشت عشت حميدا» ..

تسامع الناس بما كان من أمر الإمام أحمد.. وتناقلت خبره الركبان إلى خارج العراق، فغضب له حتى الذين ليسوا على رأيه وما لقبه أحد إلا قوى قلبه وشد أزره.

وشرد أحمد بن حنبل وهو يعانى فوق مركب خشن تحت الأغلال، وتساءل لماذا يمتحنه الخليفة المأمون بخلق القرآن؟! ما شأنه هو؟! إنه يمتحن الذين يتولون مناصب فى الدولة كالقضاة، والذين ينالون من عطائه.. والإمام لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

لقد جمع العلماء للمناظرة فى هذا الأمر وهو فى بغداد منذ ست سنين.. فما باله الآن بعد أن ترك بغداد مجاهدا فى سبيل الله يمتحن العلماء؟! .. وما باله لا يسير على سنة أبيه هارون الرشيد الذى أُنذر زعيم المعتزلة فى زمانه بالقتل، إن هوجاهر بأن القرآن مخلوق، وشغل الناس بهذه القالة؟! ..

ما بال المأمون يخالف نهج أبيه، ويخالف نفسه، و يعدل عن المناظرة إلى التهديد بالقتل؟!

ماذا حدث ليتغير المأمون؟! .. ولماذا يزوج بالإمام أحمد فى هذه الفتنة؟!

الذى حدث أن أحمد بن أبى دؤاد زعيم المعتزلة، قد أصبح صاحب الرأى، وله الأمر؟! وأحمد بن دؤاد هذا لن يستريح حتى يرى كل الرؤوس منحنية كرامسه.. وبصفة خاصة رأس الإمام أحمد الذى يتعذب بعفته وشموخه المنافقون!

كان ابن دؤاد يلهث لينال منصبا عند المأمون، وأحمد بن حنبل رفض منصب قاضى اليمن ليسير على قدميه من بغداد إلى صنعاء ويطلب الحديث ويعمل حالاً فى الطريق، ونساجاً للسرراويل ونساجاً بصنعاء ليوفر لنفسه النفقة!!

ثم إن أحمد بن أبى دؤاد ينحنى متقبلاً لعتاء الخليفة، وأحمد بن حنبل يأباه!

وفى حلقات المسجد الجامع ببغداد يجتمع الآلاف حول الإمام فى حلقة ، أما ابن أبى دؤاد فلا يجروأ أحد على الجلوس فى حلقة ولم يكتمل حلقة قط عشرة من طلاب العلم وأصحاب المسائل !! .

فإذلال الإمام أحمد هو عزاء ابن دؤاد عما يتردى فيه من هوان !

ولكن الجاحظ وهو أعظم المفكرين والكتاب فى عصره ، يقيم مع الخليفة هناك .. فما بال الجاحظ لا يعظ الخليفة ؟ ! .

من الحق أن الجاحظ سخر بعدد من العلماء المتزمتين من أجل السنة ، وجعلهم هزأة ، وأسماهم الحمقى من معلمى الصبية ، ذلك أنهم اتهموه بالزندقة افتراء عليه ، ولكن الجاحظ يعرف قدر الإمام أحمد بن حنبل ، فما باله يترك المأمون يطلب مثل أحمد أمامه وهو فى الأصفاد !

كان المأمون نفسه قبل أن يمرض كان قد دخله شىء من بعض أهل السنة ، وكان الإمام أحمد إماما لأهل السنة ، فواقفهم وأقوالهم تحسب عليه على الرغم من شقائه بهم وبعده عنهم ... !

فهذا النفر من علماء أهل السنة قد سكتوا عن المظالم من قبل ، وشغبوا على أهل الغناء ولاعبى الشطرنج فى بغداد ، ثم بايعوا زعيم أهل الغناء إبراهيم المهدي أميراً للمؤمنين بدلا من المأمون ثم انهم أهدروا دم المأمون !! حتى إذا غلب المأمون ، تسللوا إليه وهو على أبواب بغداد ، ينافقونه وبياعونه ، سارين فى الليل أو سارين فى النهار !

ثم إنهم أنكروا عليه اهتمامه بالفلسفة والعلوم وحرضوا عليه العامة فى بغداد ، لأنهم يخالفونه فى القول بخلق القرآن !

وهاهم أولاء بعد أن هددهم يذعنون له ، ويقول قائلهم : « ما تعلمنا العلم والفقه والدين إلا من أمير المؤمنين ، ويهدرون فى ذلك آراءهم وكرامتهم نفسها !! !

ولكن الإمام أحمد بن حنبل طراز آخر من الرجال !

وهو أشد الناس ضيقا بهذا النفر وإنكارا لهم وإزراء عليهم .. إلا أنه لا يتبع عورات الآخرين !! ولقد اعتزلهم حين عاتبوه ، وواجههم على الرغم من لينه بأنهم قوم لا يحسنون إلا الغيبة والمرااة والكذب والنفاق ، وأن انصرافه عنهم إلى العلم هو العمل الصالح الذى يليق بالأتقياء .. !

الآن المأمون كان يعرفهم شدد عليهم النكير ، فاعترفوا ، فأعلن على الناس عيوبهم ؟ ! . !

لقد أذاع المأمون على الأمة ما صح عنده من مطاعن على هذا النفر من الفقهاء : الفساد ، والرشوة

والنفاق والتصاغر، والحقد والوشاية إلى مثالب أخرى غليظة ذكرها الطبرى بالتفصيل فيما كتب عن أحداث سنة ٢١٨ هـ !؟ .. ربما .. !!

ثم .. لماذا يقترب المأمون هذا البغى ، وهو يجاهد فى سبيل الله ، وأحمد بن حنبل يدعو المسلمين إلى نصرته ؟ ! أيمن أن تزدهر حضارة كل هذا الازدهار وتتألق فيها عقول المفكرين والعلماء وحرية الفكر على الرغم من ذلك تنتهك !؟

لعل ابن أبى دؤاد يريد أن يقنع الناس أن كل العلماء والفقهاء ، يجب أن ينحنوا ، بما أنه هو نفسه قد انحنى !! ..

ولكن الإمام أحمد بن حنبل ، كان يدرك أنه مسئول أمام الله عن الدفاع عما يؤمن بأنه حق ، فإن مات فى سبيله فهو شهيد ! ..

إنه لا يعرف أن المأمون لا يأخذ بالوشاية وهو يعتبر الآخذ بالوشاية أظلم من الواشى ، فا خطبه معه ؟ .. وهو يعرف أن المأمون لا يشتم أحدا ، فكيف طعن فى كل فقهاء السنة أشجع مطاعن !؟ ! إنه إذن لتأثير خارق على المأمون يمارسه بن أبى دؤاد ! ..

وقد ظلت الحادثات طوال رحلة الضنى من بغداد إلى طرطوس ، تلح على أحمد وتواجهه بأنه مسئول عن الحقيقة .. فإن تخلى عنها لحظة ، انهار كل شىء فى أعماق الناس ! !

وهكذا سار الإمام أحمد بروح شهيد ! .

سيناضل عما يؤمن به ، لكيلا تسقط رايات الحقيقة ، ولكى تظل الفضيلة شامخة أبدا ! .

أما المشفقون على الإمام أحمد ، فقد نصحوه بأن يستجيب تقيه .. ولكنه رأى أن التقيّة فى موقف كهذا لا تجوز ، أيقول غير ما يراه ؟ ماذا يتقى ؟ ! .. أهو الحكم بموته ؟ إنه سيموت فى يوم ما ولكن الناس ؟ .. لعلهم سيعتقون الرأى الخطأ ، ويبقى هو مسئولا أمام الله عن تضليلهم !

بل لاجتياز التقيّة إلا فى زمن غاشم يعلم الناس فيه الحقيقة ، فلا يضلّهم قول أو سكوت .. أما هذا الزمان فهو زمن يعدل فيه الخليفة ، ويخرج فيه مجاهدا أعداء الإسلام .. والحقيقة فى حاجة إلى رماة بواصل ، وإلى شموع تحترق لتضىء الظلمات .. وإلا تحبّط الجاهلون فى عشوات الضلال ! !

لقد أذعن كل الفقهاء والعلماء إلا اثنين .. هو وتلميذه محمد بن نوح .. وبالأمس كان معها اثنان آخران .. ولكن مَسَّ الحديد وثقل الأغلال ، وإهانات الأوغاد ، ثقلت عليها .. فأجابا فيما دعيا إليه ،

فأطلق سراحهما .

وسيزر الإمام أحمد ابن السادسة والخمسين ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح فى الأغلال والأصفاة ، تحت الإهانة ، وهما على بعير واحد إلى آخر الأرض .. !

وسأله رجل فى الطريق وقد رأى ضعف جسمه : « إن عرضت على السيف تجيب ؟ » قال : « لا » . فقال الرجل : « الله أكبر .. هذا هو الإمام أحمد » .

وألح الشعور بالمسئولية على الإمام أحمد .. وكان جلدا ، ألف مشقات الأسفار ، أما تلميذه الشاب فلم يحتمل المشقة ، وأنهكه ما عانا ، فاعتل .. وما كان محمد بن نوح ليمتحن لولا أنه تلميذ الإمام أحمد وجاره .. كم من الناس يعذبون من أجلك يا أحمد ؟ ! ! ولكنه بلاء فى الله يا أحمد ! ! بلاء فى الله شديد ! !

حتى إذا كانا فى خان على الطريق ، قابل أحد رواد حلقتة فى بغداد ، وكان عزيزا لديه .. فقال له الإمام أحمد : « لقد تَعَثَّيْتُ » .. فقال الرجل : « ليس هذا عناء يا إمام .. أنت اليوم رأس الناس ، والناس يقتنون بك » .

وأطرق الإمام أحمد وهو يتأوه .. أواه .. هنا العبرة يابنى .. أنا المسئول عن موقف الناس ! !

وأضاف الرجل : « فوالله لئن أحببت بخلق القرآن ، ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . » وهز الإمام أحمد رأسه وما تزال الدموع تبلبل لحيته .. والرجل مستمر فى قوله : « إن الخليفة إن لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت . فاتق الله ولا تجبههم بشىء . » .. وارتفع صوت الإمام أحمد من خلال الدموع : « ماشاء الله ماشاء الله » . ثم قال : « أعد على ما قلت » فأعاد الرجل .. وهبت على الإمام أحمد نسمة من الرضا بقضاء الله ، جففت الدموع التى بللت لحيته فانطلق صوته الندى : « ماشاء الله ماشاء الله » .. وطابت نفسه بما كان قد صمم عليه .. ألا يجيب المأمون إلى ما يدعو إليه ! !

واقترب الإمام وتلميذه محمد من طرطوس .. فإذا برجل يقبل إلى أحمد متهللا : « البشرى ! لقد مات المأمون » .

كان أحمد قد دعا الله ألا يرى المأمون ! ! .. فلم يره قط !

وأعيد أحمد وتلميذه محمد بن نوح إلى بغداد ، وترفق رجال الشرطة بهما فى الطريق ، فإيدرون ما يكون شأن الإمام أحمد مع الخليفة الجديد ؟ ! ربما أكرمه فبأهواهم بغضب الخليفة الجديد ! .

وأحسنوا إلى الإمام أحمد وتلميذه محمد بن نوح .. ولكن محمد بن نوح الذى أضواه السفر تضعف

وخارت قواه ، وعكف عليه أمامه يعالجه بلا جدوى ، فقد نفذ الزيت من المصباح ، وحُمّ القضاء ..
وأمسك المناضل الشاب بيد أستاذه قائلا : « الله الله !! إنك لست مثلى . إنما أنت إمام يقتدى به ،
وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله » .

وسقط ميتا !!!

وما وعظ تلميذ أستاذه كما صنع محمد بن نوح مع الإمام أحمد بن حنبل .. ! ولكنه مات شهيدا
دفاعا عما يؤمن به .. وبكاه الإمام أحمد أحريكاء وصلّى عليه .. وقال عنه : « ما رأيت أحدا على
حدائثه سنة وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح . »

عهد المأمون لأخيه المعتصم — وهو ابن جارية تركية — فتولى الأمر

وكان المعتصم قوى الجسم حتى ليحمل حديدا يزن ألف رطل ويسير به خطوات !

وكان على هذه القوة والبسطة فى الجسم قليل الحظ من الثقافة .. حتى لقد أقصاه أبوه هارون
الرشيد !

ولكن المأمون رأى أن جهاد أعداء الدولة يحتاج إلى رجل سيف فى قوة المعتصم وحزمه وشدته ،
أوصاه بالإبقاء على ابن أبى دؤاد فترك له المعتصم شئون الدولة فأدارها الوزير على هواه .. أما المعتصم
فوهب نفسه للحرب .. وكان أحمد بن أبى دؤاد حسن التأنى حلو الحديث بارع النفاق ، وكان على
دراية بشيء من أخبار الأولين ، وبأطراف من الثقافة لا يعرفها المعتصم ، فاستطاع أن يستولى على
عقل الخليفة ، واستصدر أمرا بجبس أحمد بن حنبل فى السجن الكبير ببغداد ، وانشغل الخليفة المعتصم
بتوطيد أركان الدولة فولى الأتراك من أخواله

وفى أول حكمه توالت أحداث غريبة ومبالغة : مات الإمام محمد الجواد فجأة كما ذهب من قبله
إمام الشيعة أبوه الإمام على بن موسى بن جعفر الصادق فى ظروف مريبة .. ثم اتهم العباس بن
المأمون بالتآمر على عمه المعتصم فقتل !

وفى السجن ترك الإمام أحمد شهورا تحت الأصفاد شهورا طويلا ، ودسوا إليه خلافا عليه من يزينون
له الاعتراف بخلق القرآن ! .. وعادوا يذكرونه بجواز أن يقبل المؤمن غير ما يؤمن به أو يسكت على ما
ينكره من باب التقيّة فقال لهم : « إذا سكت العالم تقيّة والجاهل يجهل فتى يظهر الحق ؟ . إن من
كان قبلكم كان أحدهم يُنشر بالمنشار ثم لا يصدّه ذلك عن دينه » .

دسوا عليه أكثر الناس تأثيرا عليه وأقرب الناس إليه : عمه !! ولكن بلا جدوى !

ثم عادوا يخوفونه بالتمذيب والضرب بالسياط .. وأنس إلى جاره بالسجن فقال له : « ما أبالي بالحبس وما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر . » فقال له جاره السجين : « لا عليك . فإنا هو لإسوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقي . »

ومرت الشهور بعد الشهور والإمام أحمد فى حبسه بين الترغيب والترهيب ..

وأحبه من فى السجن ، فأحاطوا به يلقون عليه المسائل فيجيب ويعلمهم مما علم رشدًا .. وأكبره الجميع فى السجن حتى السجانون .

أما خارج السجن ، فقد كانت بغداد تموج بالسخط على من سجنوا الإمام أحمد ! .

وتصاعدت نفثات التلاميذ والأتباع ورواد الحلقة ، استتكارا لما حدث لإمامهم ! .

أما زملاؤه من العلماء والفقهاء الذين أجابوا المأمون لما أراد ، فقد أسرعوا إلى مصانعة المعتصم ، وكانوا يتمنون فى أعماقهم أن يسقط الإمام أحمد كما سقطوا .. ! فلماذا يظل هو وحده دونهم نظيف الصفحات نقى السيرة مرتفع الهامة ؟ !

وإن بعضهم على الرغم من كل شيء ليعانى من تأنيب الضمير ..

وأرسل إليه أحد المعجبين به وهو شيخ فى نحو التسعين ومَن يقول له : « أثبت فقد حدثنا الليث بن سعد عن ... عن أبى هريرة : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه »

وانشרכת نفس الإمام أحمد ، فها هو ذا شيخ فى التسعين يرسل إليه يشد أزره لا يبالي بمحدث شريف لم يعرفه من قبل !

فقام فى السجن يؤذن بالصلاة وعرف ابن دؤاد أن خصمه قد فتن كل من فى السجن : المسجونين وحتى السجانين ! ! فأمر بنقله إلى سجن خاص فى قبو بدار والى بغداد ، ليكون وحده

وضاعفوا له القيود والأغلال وأقاموا عليه سجانين من شذاذ الخلق ، من نماليك أترك ، فيهم الغلظة والغباء ، والجهل باللغة العربية فلا يفهمون ما يريد إن هو طلب منهم شيئاً : ماء أو نحوه !

وأرسلوا إليه من الفقهاء من يناظره ، ولكنه لم يزد على ما قاله من قبل ، وظل يرفض القول بخلق القرآن .

ثم حملوه إلى دار الخلافة وهويرسف فى أغلال وقيود وسلاسل يكاد يسقط من تحتها .. ! .. فقد كانوا كلما مر عليه يوم ، زادوا عليه فى ثقل الحديد !

وكان الوزير وقاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد قد أرسل إلى كل ولاية الأمصار باسم المعتصم يأمرهم أن يمتحنوا العلماء والقضاة والفقهاء فى خلق القرآن ، فن أنكر منهم ، حل فى الأصفاد مهانا إلى دار الخلافة ببغداد ..

ومثل أحمد أمام الخليفة وحوله حشد من العلماء والفقهاء المناقطين وابن أبى دؤاد .. وإذ بالإمام أحمد يرى فى الأصفاد صديقا له من مصر ، درس معه على الشافى فى مكة وبغداد .. وهو الآن فقيه عالم تقى مسموع الكلمة فى مصر .. وقد سحبه فى سلاسل الحديد لأنه رفض القول بخلق القرآن ! .. وكان أحمد منهكا بما عاناه ، ولكنه حين شاهد صديقه الفقيه المصرى تهلل قائلا : « أى شىء تحفظ عن أستاذنا الشافى فى المسح على الخفين عند الوضوء ؟ ! » وانفجر ابن أبى دؤاد محمقا : « أنظروا رجلا هوذا يقدم لضرب العنق يناظر فى الفقه ؟ ! » .

بدأ الخليفة يحاكم أحمد بن حنبل

يحكى الإمام أحمد ما جرى فى هذه المحاكمة : (قال المعتصم لأحمد بن أبى دؤاد : « أدنه » فلم يزل يذنبنى حتى قربت منه . ثم قال : « اجلس » . فجلست وقد أثقلتنى الأقياد . فكثت قليلا . ثم قلت : « تأذن لى فى الكلام ؟ » فقال : « تكلم » . فقلت : « لإم دعا الله ورسوله ؟ » قال المعتصم : « شهادة ألا إله إلا الله . » فقلت : « فأنا أشهد أن لا إله إلا الله » .

ثم روى الإمام أحمد أن المعتصم قال له أنه لو لم يجده فى يد من قبله لما عرض له . ثم سأل أحدا ممن كانوا حوله : « ألم أمرك برفع الهنة ؟ ! »

وأمر الفقهاء الموجودين فناظروا الإمام أحمد فى خلق القرآن

قالوا له : « ماتقول فى القرآن ؟ » ماتقول فى علم الله عزوجل فسكت ، فقال بعضهم : « أليس قد قال الله عزوجل (الله خالق كل شىء) والقرآن أليس هو بىء ؟ » فرد الإمام أحمد : « قال تعالى : (تدمر كل شىء بأمر ربها) أفدمرت إلا ما أراد الله عزوجل ؟ والله تعالى لم يسم كلامه فى القرآن شيئا . يقول الله تعالى : (إنما قولنا لشىء . فالقول ليس الشىء ولكن الشىء هو الذى يقول له الله . ويقول تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا) فالشىء ليس أمره وإنما هو ما يأمره .. وقال له بعضهم فى الأثر « إن الله خلق الذكر أى القرآن »

قال هذا خطأ . حدثنا غير واحد إن الله كتب (لاخلق) الذكر .

واحتجوا عليه بما رواه ابن مسعود : « ما خلق الله عز وجل من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » فقال أحمد : « إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن .

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد أقنع المعتصم من قبل ، أن من رفض القول بخلق القرآن لا يمتنع له أن يجلس للناس ، ليحدثهم أوليغيتهم ، في جامع أو في داره أو في أى مكان ، بل هو مخالف للإسلام ، يجعل القرآن قديماً كالله تعالى ، فهو مشرك يحل دمه !! وما عاد في أهل السنة بالعراق من يرفض الاعتراف بخلق القرآن إلا إمامهم أحمد بن حنبل وهو يزهم جميعاً !!

وكان الخليفة المعتصم لقله حظه من العلم لا يريد أن يخوض في المسألة كلها ، فكان يقول كلها أنهموا الإمام أحمد بن حنبل بالكفر : « ناظروه ، ناظروه »

فوثب أحمد بن أبى دؤاد مغيباً : « يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع . » وتتابع الفقهاء الحاضرون يشتمون الإمام أحمد بن حنبل فلم يعبأ الخليفة بهم وقال لهم : « ناظروه »

وكانوا كلهم قد ناظروه .. فأقبل ابن أبى دؤاد يناظره

فلم يلتفت إليه الإمام أحمد .

فسأله الخليفة : « ألا تكلمه ؟ » فقال أحمد : « لا أعرفه من أهل العلم فأناظره ... »

ثم استطرد : « يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل . »

فأقبل الخليفة يفرى الإمام أحمد ويقول له : « والله إنى عليه لشفيق . » ثم قال للحاضرين « والله إن أجباني لأطلقن عنه يدي ولأركبن إليه بجمدى .

فلم يزد جواب أحمد على أن قال : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل » .. وقال الخليفة لأحمد : « ما أعرفك » فقال أحد الفقهاء الحاضرين وقد أنه ضميره : « يا أمير المؤمنين . أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتكم والحج والجهاد معكم . » فقال المعتصم : « والله إنه لعالم وإنه لفقير . وما يسوءنى أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الشرك .

ثم قال : « يا أحمد أجبنى إلى شىء فيه أدنى فرج لك ، حتى أطلق عنك يدي » فقال أحمد : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل . » ولم يزد على ذلك !

وقام الخليفة مهموماً ، وأعيد أحمد إلى السجن وأرسلوا إليه من يناظره فى السجن و يندره : « أن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقىك فى موضع لا ترى فيه الشمس . ويقول إن أجبني أحمد أطلقت عنه يدى . »

فلم يجبه أحمد ... !

وفى اليوم التالى أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة المعتصم ، وكان الوقت رمضان .. وأحد قائم ليلة صائم نهاره .. وقد أوشك الخليفة أن يطلقه لتهدأ عنه الثورة التى أوشكت أن تنفجر فى بغداد غضبا للإمام أحمد

فقال ابن أبى دؤاد : « يأمر المؤمنين إن العامة تصدقه .. والعامة تقول أن أحمد بن حنبل قد دعا على المأمون فأت ، إن العامة وهم حشوا الأمة يصدقونه ويتبعونه بالحق والباطل . فإن تركته شجعت عليك العامة ، وخالفت مذهب المأمون ، فيقول العامة أن أحمد غلب خليفتين » .

واستفزز هذا الكلام المعتصم فقال : « ناظروه لآخر مرة » . وناظروا أحمد فى خلق القرآن وفى رؤية الله تعالى فاحتج عليهم بحديث صحيح : « اما انكم سترون الله ربكم كما ترون هذا البدر (وكان الرسول مع صحبه فى ليلة البدر) ! وشك ابن أبى دؤاد فى صحة الحديث ، فأكد الإمام أحمد صحة الحديث واستشهد بفتوى فقير ، مشهور بالأمانة والعفة ، يحسن رواية الأحاديث .. ولكنه كان فقيرا جهد الفقر لا يملك قوته يومه . وقد اعتزل الناس ، واختفى طوال أيام الأمتحان بخلق القرآن ، فتركوه . وأسرع إليه بن أبى دؤاد وقد عرف من الجواسيس أين يختفى وسأله عن حاله ، فلم يجده معه درهما .. وسأله عن الحديث الذى رواه أحمد فى المناظرة أمام المعتصم .. فقال الرجل انه حديث صحيح .. وألح عليه أن يكذب الحديث وقال ان مجلس الخليفة منعقد وهو ينتظر الجواب ، والخليفة فى حاجة إلى من يكذب هذا الحديث .. ثم أضاف .. هذه حاجة الدرهم .. وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وما زال يلح حتى قال الرجل : « فى الأسناد من لا يعمل عليه » !

وأسرع به ابن أبى دؤاد يروى ما سمعه على الخليفة فى المجلس ! ! ودمعت عينا أحمد أسفا على المحدث الفقير الذى انهار أمام الحاجة ! !

وأرجعوا أحمد إلى السجن .. ليعودوا به فى اليوم التالى إلى دار الخلافة ، فيمروا به على قاعات عديدة حشد فيها سجانون وسيافون غلاظ .. عسى أن يرهبه المنظر .. ويفريه الخليفة لآخر مرة ، فيابى أن يقر بخلق القرآن فيصرخ فيه الخليفة : « عليك اللعن خذوه واسجنوه .

فأخذوا الإمام فعلقوه ، وظلوا يضربونه ويقولون له : « أجب » فلا يجيب ..

صبراً يا أحمد .. إنه بلاء فى الله شديد !

واشتد به الوجع واللظى وهو صائم .. وأغمى عليه .. حتى إذا أفاق جاءوه بماء ليشرّب . فقال :
« لا أفطر » .

وطرحوه على وجهه وداسوه بالنعال .. حتى أغمى عليه .. ورأوا دماعه تسيل ، فلتوا منه رعباً

وعندما أفاق أحمد ، أخذ ينظر إليهم بلا اكتراث ، ولكنها نظرات يخالجها الازدراء !!

و يقول أحد الذين شاهدوا تعذيبه : « ما كنا فى عينه إلا كأمثال الذباب » .

ومن خارج دار الخلافة ، اجتمع الآلاف من محبيه وتلاميذه ، وحتى الذين لا يرون رأيه كانوا
ينكرون فى صراخ غاضب ما يحدث له .

وتعالى هدير الاحتجاج والاستنكار .. وأغراه أحد الحاضرين أن يعترف لينجو من العذاب ويخرج
إلى محبيه فقال : « أقتل نفسى ولا أقتل هؤلاء جميعاً »

ودخل أحد الفقهاء داره على بناته ، فوجدهن يبكين ويطالبنه أن يذهب إلى المعتصم مستشفعاً
للافراج عن أحمد بن حنبل .. وقال البنات لأبيهن : « أدركوا ابن حنبل قبل أن يضعف من التعذيب .
فلأن يرسل إلينا نعى أبينا أهون علينا من أن نسمع أن أحمد بن حنبل قد أذعن !! »

ووقف أحد الفقهاء بباب المعتصم يصرخ « أضرب سيدنا ؟ ! أضرب سيدنا ؟ ! لا صبر لنا »
وانفجرت المفاتات تلعن ابن أبى دؤاد والمعتصم نفسه !

وأوشكت الثورة أن تشتعل فى بغداد ، وكان المعتصم يعد العدة لجهاد الروم .. فلعن الجميع ، وأمر
أن ينفوه من كل هذا ليفرغ هو للحرب

وأطلق سراح الإمام أحمد ..

وأعيد إلى بيته يعالج جراحه ، ولزم داره مريضاً منهكاً .. وقيل له : سيعذب الله المعتصم فيك لأنه
ضربك وأنت ساجد .. فذكرهم قول الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على
الله » .

وعندما علم أن المعتصم خرج ليحارب الروم فانتصر وفتح عمورية ، فرح الإمام أحمد وقال !! عفا
الله عنه بما جاهد فى سبيله » .

وقد عوتب الجاحظ عن موقفه من محنة أحمد فقال : « لو كان كل كشف هتكاً ، وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تبعاً لمورة . »

وكان تعليق أحمد على قول الجاحظ : « عفا الله عنه » .

لقد ظل أحد في سجن المعتصم نحو عامين ونصف ، يضرب بالسياط ، و يعذب بالسيف ، ويوطأ بالأقدام عندما يسجد في الصلاة .. و يغرونه خلال هذا التعذيب بكل طيبات الحياة إن هو .. صدل عن رأيه ، وهو يهيمهم لنفسه : إنه لبلاء في الله شديد .

وبعد أن شفى أحمد من آثار التعذب ، خرج إلى حلقتة ، فاستقبلته بغداد استقبال الفاتحين .. ولم يستطع أحد أن يمنع الناس عنه .. وعاد يحدثهم و يعلمهم كما عودهم من قبل . حتى إذا مات المعتصم ، وتولى الواثق ، حاول أن يسير سيرة المأمون .. وجمع إليه أهل العلم والفلسفة ، وحفلت مجالسه بمناظرات علمية وفقهية خصبة .. وناظر هو نفسه في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وكان مجلسه يجتمع المثقفين من جميع الديانات .

ولقد حاولوا أن يغروا الواثق بالإمام أحمد ولكنه سئم هذا الأمر ، وخشى الثورة ، ورأى أن يترك الناس على آرائهم .. ثم إن القول بخلق القرآن صار مادة لعبث ظرفاء العصر ، فقد دخل على الواثق أحدهم يقول له : « عظم الله أجركم في القرآن . فإن القرآن قد مات ! » . فنهز الخليفة الواثق قائلاً : « و يلك ! القرآن يموت ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين أستم تقولون إن القرآن مخلوق ؟ فكل مخلوق يموت ! فبم يصلى الناس التراويح ؟ » . فضحك الواثق وقال : « قاتلك الله أميسك » .

حقاً لقد سئم الناس ، وسئم الحكام .. إلا ابن أبي دؤاد .. فما زال بالخليفة حتى استدعى الإمام أحمد فقال له : « لاجتمعن إليك أحدا ولا تسكني في بلد أنا فيه » .

فاختفى الإمام أحمد ، وحمل إلى الواثق فقيه من الأمصار اشتد في الهجوم على من يقولون بخلق القرآن .. وكان الرجل في الأصفاد ، فأمره الخليفة أن يناظر ابن أبي دؤاد .. فقال الرجل : « شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده وأنت تدعو الناس إليه ، ليس يخلو من أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم . وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيا لكع ابن لكع ، أجهل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، وتعلم أنت ! ! » .

فوثب الواثق من مجلسه ، وهو يردد كلام الرجل ضاحكاً ، وأمر بإطلاق سراح الرجل .

ولم يعد الواثق إلى امتحان في خلق القرآن .. وانصرف إلى الحرب حتى مات ..

ومات الواثق وتولى ابنه المتوكل .. فأحسن إلى الإمام أحمد وحاول أن يصله بالمال .. ولكن الإمام أحمد ظل على عهده يرفض العطاء . على أنه رخص لأولاده في قبول عطاء الخليفة ، وظل يعلم الناس حتى بلغ السابعة والسبعين ، فرض واشتد به المرض ، وكان قد أصبح في عصره أوحد عصره حقا .. وقد ألف كبار رجال الدولة أن يخوضوا الطين إلى بيته الواقع في شارع ضيق مترب ، موفدين من الخليفة يطلبون منه الرأي . وما كان يبخل بالرأي .. وقال عنه المتوكل : « لو نُشِرَ أبى المعتصم وقال فيه شيئا لم أقبله .. » .

ولم يطل المرض بالإمام أحمد بن حنبل .. فات بعد أن ترك ثروة ضخمة من الأحاديث والفقه ، وهو يوصى أتباعه وأصحابه أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويذكرهم بأن الله تعالى قال لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا » .. فالقول اللين واجب في الدعوة ..

على أن أتباعه اشتدوا على الناس حتى أزعجهم وجعلوا الأجيال تنسب إلى الإمام ماليس فيه .. !

ولقد أمر المتوكل بالضرب على أيدي أتباع الإمام أحمد حين هاجموا أهل البدع من أصحاب الغناء والطرب ولاعبى الشطرنج .. وحين أفسدوا ملابس النساء بالخبر .. وكان الإمام أحمد قد رخص بهذا للسلطان إن خرج النساء متعطرات متزينات .. وكان النساء قد زحمن شوارع بغداد بملابس وعطور تشير الفتنة .. وملأن ليلها بالمغامرة ! فانتزع أتباع ابن حنبل سلطة الخليفة ، وأخذوا لهم يعاقبون الناس .. فأمر الخليفة بأخذ أتباع الإمام أحمد بالشدّة ، وزج بهم في السجن ، ولكنه قال في الإمام أحمد : « لقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ، ورفع علمه أيام حياته وبعد موته . وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين . » ..

على أن الإمام أحمد تدبر قبل موته رأيه في خلق القرآن

فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع .. فالقرآن بحروفه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق ، وهو من علم الله ، وعلمه غير خلقه . فالقرآن غير مخلوق ، ولكنه حادث بحدوث التكلم ..

والأمر كله لا يستحق المحنة التي سقط بسببها شهداء كمحمد بن نوح ، والبويطى الفقيه المصرى تلميذ الشافعى ، ونال بسببها بعض الفقهاء والعلماء تشهيرا أزرى بهم في عيون الناس ، ونال فيها الإمام

أحد أبلغ الأذى .. فالقول بخلق القرآن أو عدم خلقه لا يحقق شيئا من مصالح العباد ، ولا يقيم المجتمع الأمل الذى هو هدف الشريعة !!

على أن الإمام أحمد نال بسبب هذا الأذى مكانة كبيرة ، فقد كان مثالا خارقا لصاحب الرأى الذى يناضل فى سبيل رأيه .. فأكبره الذين يوافقونه والذين يخالفونه على السواء .. إلا الذين فى قلوبهم مرض !

ومهما يكن من أمر ، فقد واجه عضرا تشيع فيه البدع ، فواجهه بالتشدد فى الأخذ بالسنة فى العقائد والعبادات

وهو عصر يطرح على العقل مستحدثات الأمور ، فواجهه الإمام أحمد بالتيسير على الناس فى المعاملات

وبهذا حض على الأجتهد وحذر من التقليد

ولكن مناصريه من أهل السنة ضيقوا على الناس

ثم جاء من بعده أتباع أساءوا إليه ، فافتُرى عليه التزم ، والتضييق وكل ما عاشه يناضل ضده !

وجاء آخرون أجتهدوا على طريقتهم وتمسكوا بالسنة فى مواجهة البدع .. واتخذوا مثله مواقف صلبه فيما يعتقدون أنه الحق .. فأصابهم فى ذلك بلاء شديدا .

ومن الإنصاف للإمام أحمد بن حنبل أن ينزهه الناس بما صنعه بعض الأراذل من أتباعه فى العصور المتأخرة . فلا ينسب التزم وضيق الأفق إلى هذا الإمام العظيم .. الذى كان متبعا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سماحة الخلق ، ولين الجانب ، والقول الحسن ، والبر والورع والتقوى ونصرة المظلوم .

من الظلم أن يطلق على المنتطعين والجامدين وعلى كل فظ غليظ القلب : أسم الحنابلة .. فقد كان الإمام أحمد داعيا إلى الحركة ، ومواجهة كل عصر بأحكام جديدة يقاس فيها على روح الشريعة ، ويؤخذ بمقاصدها العامة .. وكان عدوا للتقليد والجمود ، أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، متبعا للسنة فى كل شىء حتى فى أخص دقائق الحياة ..

لقد ماتت أول زوجة للإمام أحمد وهو فى الستين ، فتزوج بعدها بأيام لأنه علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ تزوج لم يعيش بلا زوجة .. وماتت الثانية وهو فى السبعين ، فتزوج بعدها بأيام من جارية له .. ذلك أنه تعلم من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجل يجب ألا يعيش بلا امرأة !!

وقد أصابه ابن أبي دؤاد بأبلغ الأذى ، ولكنه عفا عنه بعد أن خرج من المحنة . ولم يسمح لأحد أن يجرحه أمامه ، وبكى الإمام أحمد عندما علم أن ابن أبي دؤاد فجع بفقد ولده ! ! ..

ودعا الإمام أحمد لكل الخلفاء الذين أساءوا إليه ذلك أنهم جاهدوا في سبيل الله ! . وحض أتباعه على تأييدهم ..

لقد كان الإمام أحمد يعلم الناس قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ماجاء إلا ليتمم وليكمل مكارم الأخلاق ..

من أجل ذلك احترم الإمام أحمد أهل الديانات السماوية التي سبقت الإسلام ، لأن الرسالة المحمدية ، ما جاءت إلا مكتملة لها .. وأخذ نفسه وأصحابه بمكارم الأخلاق .. وعلم الناس أن هدف الشرائع جميعا هو العدل لقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »

ومن أجل ذلك طالب أهل الشرائع جميعا أن يسيروا في الناس بالعدل ، وأن يناضلوا دفاعا عن العدل ، فهو قوام الحياة وضمان الحرية ، وحصن الإنسان .

والإمام أحمد بن حنبل على الرغم من كل خلاف معه ، إمام قد أغنى الفقه ، ونفع الناس ، وأقام السنة ورد البدع .. ولئن أساء إليه بعض أتباعه ، فافتري عليه ما هو برىء منه ، إنه سيظل بنصاعة سيرته ، وصلابة أتباعه للسنة ، علما من أعلام الفقه الإسلامي ، ودعوة مستمرة إلى التجديد أخطأ أم أصاب ..

إنه واحد من أولئك العلماء العظام الذين اجتهدوا بعد عصر الصحابة والتابعين ، واختلفوا في مناهجهم ، فمنهم من خرج بسيفه على الحاكم الظالم كما صنع الإمام زيد بن علي ..

ومنهم من دعا إلى أعمال العقل ، وحض على التفكير في خلق السموات والأرض ، واستعمل معطيات العلوم والمعارف الكونية للاستدلال على حقائق الدين ، كما صنع الإمام جعفر الصادق مع فهم دقيق معجز للقرآن والسنة ، ومقاصد الشريعة والعمل على تطبيق مبادئها في الحياة اليومية ، حتى لقد رفض الخلافة ليتفرغ للعلم والفقه !

ومنهم من اتجه إلى الأخذ بالرأى وتوسع فيه وأفاد من النظر العقلي كالإمام أبي حنيفة النعمان ، الذى لزم الإمام جعفر الصادق سنتين تعلم فيها الكثير ، وإن اختلفا من بعد ، حتى قال أبو حنيفة النعمان « لولا السنن هلك النعمان » ! .

ومنهم من عول على الحديث وحده ، ووجد في عمل أهل مدينة رسول الله أخذًا بسنة رسول الله ، ثم اجتهد فتوسع في الأخذ بالمصلحة على خلاف غيره ، كالإمام مالك بن أنس

ومنهم من اتخذ منها وسطا بين الرأي والحديث في استنباط الأحكام ، وجعل سيرته الخاصة مثلا للبر والتقوى ولسماحة الإسلام وحضه على العدل والإحسان كالإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر ، حتى لقد كان يأتيه خراج ضيعة له بالفرما (بور سعيد الحالية وما حولها) فلا يسه بل يضعه في صرر ، ويجلس على باب داره ذات العشرين بابا ليوزعه على المحتاجين صرة بعد صرة ، ويحسن إلى أقباط مصر اتباعا لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ منهم الأصدقاء ، ويحضهم على نقل ثقافة مصر إلى اللغة العربية ، ثم يشتري بيتا من واحد منهم لحاجته إليه ، فإذا علم أن صاحب البيت باعه لأنه محتاج ، بكى ، وترك له البيت والثمن ، وأجرى عليه رزقا ! . ثم أعلن في الناس أن ولي الأمر آثم إن ترك أحدا في دار الإسلام له حاجة ! ! ثم يستنبط من منهجه الوسط بين الرأي والسنة قواعد للمعاملات تقيم العدل بين الناس ..

ومن هؤلاء الأئمة العظام محسن زاهد عبد الله بن المبارك يترك الحج ، ويتصدق بكل ما حمل من مال وزاد لفتاة حسناء تبحث عن قوتها وسط المزابل ، خشية أن يفرها الشيطان بالبحث عن الطعام في وحل الخطيئة .. ! .

ومنهم من وضع أصول الفقه وحمل بين جنبيه معطيات السنة والرأي جميعا ، وصحح مفاهيم الناس عن السنة والرأي ، وجادل أهل الزيغ بمنطق العصر كما فعل الإمام الشافعي ..

عاشوا كلهم في سنوات متقاربة ، بفكر خصب ، كحلقات ذهبية نادرة في سلسلة نورانية .. عاشوا كلهم خلال قرن واحد من الزمان ، في أواخر العصر الأموي وأواسط العصر العباسي ، وعرفوا البلاء والمحنة فما وهَّؤوا ، وما نزلوا عن رأي ، وما أحنوا رأسا ، بل كانوا كمعدن الحديد تزيد النار صلابه ، وكالذهب يكسبه اللهب نقاه .. ! ..

ويا لله كم نفتقدهم في مثل هذا الزمان !!

ومهما تختلف آراء هؤلاء الأئمة العظام فيما بينهم ، فقد احتفظ كل واحد منهم باحترامه لصاحبه أو لمن سبقه ، وبفضيلة العرفان .. فكانوا مثلا في أدب الخلاف .. كما كانوا بحق منارات !

كلهم جاهد الظلم والتهمر ، ودافع عن حق الإنسان في الحرية والعدل والسعادة والحياة الكريمة الفاضلة .. وكلهم قاوم قاذورات عصره : من النفاق ، والكذب ، والزيف والاستغلال !

ومهما اختلف نحن معهم اليوم ، فينبغى علينا أن نذكرهم أنهم سلف صالح أغنوا الحياة الفكرية والفقهية باجتهاداتهم الخصبه ، وينبغى علينا أن نتخذهم مثلا رائعه لما ينبغى أن يكون عليه رجل العلم والفقه والفكر.. ذلك أنهم ناضلوا بفكرهم الثرى والرائد ، ليحققوا المجتمع الذى أرادته الشريعة ، وليجعلوا الإنسان على الصورة التى أرادها لها الله تعالى حين قال لنبيه الكرم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

الإمام ابن حزم
أديب الفقهاء

لم يعرف تاريخ الفقه من قبله رجلا كتب فى الحب وأحوال العشاق بمثل هذه الرقة والعدوابة والصراحة ، وجادل الفقهاء فى الوقت نفسه بكل تلك الحدة والعنف والصرامة .. !

اجتمعت فيه صفات متناقضة : لين الطبع وسعة الأفق وعدوابة النفس ، مع التشدد والتضييق وسرعة الأنفعال ، والتعصب لكل ما يعتقد أنه حق ، ورفض ماعده .. فهو يناقش كل وجوه النظر فى المسائل ، حتى إذا اطمأن إلى رأى ، أدان كل مخالفه بلا رحمة ، وسخر بهم ، وكال لهم الاتهامات لايراعى لهم فضلا ولاوقارا .. !

من أجل ذلك أحبه بعض الناس حتى تحدوا فيه كل حكام عصرهم ، وكرهه آخرون حتى أهدروا فيه تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق إذ أغروا به السلطان . !

يشهد مجالس الأئس ، ويسمع مع ظرفاء عصره ، ويستمتع للفناء حتى يؤذن للفجر فينصرف للصلاة ، ثم يعتكف النهار والليل بعد ذلك بعيدا عن السمار والظرفاء ، يقرأ ويتأمل ويكتب ، ثم يخرج ليحضر مجالس العلم يتلقى ، ويحاور الشيوخ ، ويعلم الطلاب .

ولد وعاش ومات فى الأندلس — أجل بلاد المسلمين وخيرها — فى شرفرة من عصور التاريخ الإسلامى .. إذ كانت الدولة الإسلامية العظمى فى الأندلس ، قد تمزقت إلى دو يلات صغيرة ، فذهب زمن الخلفاء أولى العزم العماليق العظام ، ليجيء بدلا منه عصر الحكام الأقزام ، ليتصارعوا فيها بينهم ، وليكيد كل واحد منهم لأخيه ، ويعريد على دو يلاته فينقصها من أطرافها ، ويحالف الفرنجة الطامعين فى أن يستعيدوا الأندلس بأسره .. ومن هؤلاء الحكام الأقزام من رضى الدنيا فى دينه ودنياه ، فأغرى الفرنج بالأموال الطائلة ليعينوه على أطماعه فى الدو يلات الإسلامية المجاورة الأخرى .. !

وهكذا انطفأت منارات المعرفة فى قرطبة ، وهى التى كانت تضىء لكل ماحولها ومايلها من بلاد أوربا ، فأصبحت قرطبة عاصمة الدولة الكبرى فى الأيام الزاهية الذاهبة ، دولة من الدويلات الإسلامية .. ! وانصرف أهل قرطبة من جد الأمور الى هزلها ..

ونهب خزائن الكتب فى قرطبة . ، وهى خزائن لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .. وانصرف أهل قرطبة عن اقتناء الكتب كما تعودوا ، إلى حيازة الجوارى الحسان والغلمان ! . وبعد أن كان الأثرياء يتنافسون على شراء الكتب الجديدة ، حتى لقد كان المؤلفون فى المشرق العربى ينشرون كتبهم فى الأندلس ، قبل أن تظهر فى بلادهم ، كما صنع صاحب الأغاني ، بعد كل هذا أصبح الناس يتنافسون على شراء الجوارى الشقراوات والغلمان من فرنسا وإيطاليا والجزر المجاورة فى المحيط والبحر الأبيض المتوسط .

وبدلا من التفتن فى إقامة خزائن للكتب ، تفننوا فى بناء الأجنحة للجوارى ،

وذوى فن النسخ واقتنر الناسخون ، لتزدهر صناعة النخاسة ويشرى النخاسون ! .

وأصبحت أسواق الأدب فى متنزهات قرطبة مغانى للعشاق وخمائل للمتعة !

وإذ بالعقل العربى فى الأندلس يهجر تقاليد الإسلام فى البحث والمغامرة واكتشاف المجهول وإغناء الحياة بالإضافات ، ليسقط فى الجمود والتقليد . ! وإذ بالناس يتخذون الشيوخ أولياء من دون الله ، و يتشفعون بهم من دون العمل .. !

وخلال هذا التحول كانت الفضائل تهاوى ، وقيم الإسلام تترنح ، والباطل يغشى وجه الحياة ، والإنسان الصادق يغترب .. والحق كسير!

وانطفأت الحمية . ، وخبت الغيرة ، وتزائل قدر الكتاب والشعراء والمفكرين ومهرة الصناع وأهل الفنون ، المنتجة ليعلم مقام الجوارى والغلمان والخنثين والشذاذ .. !

وخلال هذا كله يتناقل الناس قصة أمير فى أشبيلية اشتهت إحدى نساءه أن تغوص بأقدامها فى الطين ، فأمر بأن تصنع لها بركة من المسك المعجون بالماء العطر... ! أنفق على هذه البركة ما يكفى لتجهيز جيش ، حتى إذا أحاطت جيوش الفرنجة بأشبيلية والأمير ونساؤه يعبثون عراة فى طين المسك لم يجد الأمير فى خزائنه ما يتقوى به على الدفاع عن مدينته . !

وهكذا سقطوا فى الطين .. المعطر!

وفى بعض نواحي الأندلس تقل المياه ، وينقطع المطر فتجف الأرض ، ويمعش الأحياء ، وبدلاً من أن يؤدي المسلمون صلاة الاستسقاء ، عسى أن يستجيب لهم الله فيعم الماء ، ليستقوا الأحياء والأرض ، كانوا يتجهون الى قلنسوة جلبها أسلافهم من الإمام مالك ، ليستقوا بها .. !

ثم يتناقل الناس قصة رجل فاضل من أهل العلم عشق جنديا حسن الطلعة من جيش الفرنجة الذى كان يحاصر إحدى المدن ، فاستخلص الرجل الذى كان فاضلا هذا الجندي لنفسه ، وأمره على قصره لينهى ويأمر فيه ، وأباحه حريم القصر ، لينال الرجل العالم من الجندي ما يريد .. !

وحين كانت خزائن الدويلات خالية مما تتطلبه مؤنة الجيش ، بنى أحد الأمراء قصرا ضخما وجلب له غرائب الأزهار والأشجار والطيور النادرة ، وشق له نهرا صغيرا من قمة الجبل حيث تتراكم الثلوج فى الشتاء لينحدر الماء إذا ذابت الثلوج ، و يصب فى جداول تتخلل حدائق القصر ، وتنتهى إلى بحيرة صنع قاعها من الرخام الأزرق الفاخر الثمين ، ورصعت شطآنها بالأحجار الكريمة ! لتسبح فيها الجوارى الشقراوات المجلوبات من جنوب فرنسا ، على شعاع الشمس إذا كان النهار ، وعلى ضوء القمر أو المصابيح الذهبية فى ليالى الصيف .. !

وسط هذا الجو الزاخر بصور رائعة من جمال الطبيعة ، ومظاهر مؤسفة من فساد المجتمع نشأ ابن حزم . عاش فى هذا المضطرب نحو اثنين وسبعين عاما .. أشتغل خلالها بالسياسة والأدب ، والفقه ، والشعر ، وكابد الحياة والناس ، وعرف المتاع والعذاب ، وحاول أن يتعاطى الفلسفة والمنطق وعلوم الاجتماع والفلك والرياضة وعلم النفس وسماه بهذا الأسم ، وأحتك بمجتمعه ، فصوره ورسم أعماقه ومفاسده ومظالمه ، وهب فى أفعال يرفض مجتمعه ذلك ، ويحاول أن يهدم واقعه لينبئه من جديد !

وفى سبيل ذلك لم يكتف بالكتابة بل خاض غمرات الصراع السياسى وأشترك فى مغامرات عسكرية .. وعرف الحب والنعم ، وعرف الجوى ، ولم يتحرج — وهو الفقيه الذى يتربص به أعداؤه — من التصريح بتجاربه ومشاهداته ، فى بيان مشرق عذب ، لم يتكلف فيه تغطية العبارات والألفاظ ..

وترك مؤلفات كتبها بلغت عدتها أربعمائة بين كتب طوال ورسائل قصيرة كالمقالات .. ذلك أد ، ابن حزم كان حين يعكف على القراءة والكتابة لا يخرج عما أخذ فيه ، ولا يسمع لأى ظرف مهما يكن خطره بأن يعطله !

وكثيرا ما كان يرفض الخروج من غرفة عمله ، ويأمر برد زواره وقاصديه ! ولقد أغضب بسلوكة ذلك . كثيرا من أصدقائه والمقرين إليه ، ولكنه كان يعتذر إليهم إذا خرج من عمله يستروح ، فلولا أنه يأخذ نفسه بالشدة فى العمل ، لما أتبع له أن ينجز شيئا .. والعمل عنده عبادة ، ولئن اعتكف العابد

ليتعبد ، فما ينبغي أن يصرفه عن شأنه أى طارق حتى يفرغ مما هو فيه !

ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى آخر شهر رمضان قبيل شروق يوم عيد الفطر عام ٣٨٤ ، فى قرطبة حاضرة ذلك الزمان .

كان أبوه وزيراً للخليفة الأموى هشام المؤيد وهو من أواخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس ..

ولد ابن حزم فى قصر فاخر ، فقد أصاب أجداده وأبوه ثروة ضخمة ، فترك أبوه منازل الآباء فى غربى قرطبة حيث يسكن أوساط الناس ، وأخذ لنفسه قصراً منيفاً فى حى السادة شرقى قرطبة ، على مقربة من دار الخلافة .

تفتحت عيننا الصبى على مجال الترف ، ومسارح المتاع ، ومغانى الجمال ، فى قصر أبيه الشامخ على مرتفع يشرف على كل قرطبة ، محاطاً بمجذائق واسعة ، ترتفع فيها الأشجار ، ويضوع الزهر ، ويفرد الطير ، وتنساب الجداول الصغيرة ، ويتفجر الماء فى نافورات منمنمة الحواشى والجنبات بالفسيفساء ..

على مرائى الجمال ومغانى الحسن تلك تفتحت عيناه .. فما سمع فى طفولته غير الشدو ، والغناء ، ومارأى غير الوجوه الصباح ، وخضرة الحدائق ، وروعة ألوان الطبيعة الفتانة ، وماملأ صدره إلا بشذى الزهر وعطر الفاتنات .. الجبال على البعد تجلج هاماتها الثلوج وتغمر الخضرة الريانة كل سفوحها .. وهمس الجداول ، وخرير الأنهار ، ورنين الضحكات الفضية ، وعطو الأنسام ، وحلاوة الأنغام واتساق القدود ، ونضارة الحدود والتماع الأضواء على الملابس الزاهية تلف القامات المتأودة .. أشعة واهنة من الشمس تتسلل من وراء السحاب وتتخلل الأغصان اللفاء ، فتوشى الظلال على الأديم ذى الأعشاب .. منابر الذهب والفضة .. هذا هو كل ما عرفه ابن حزم منذ نشأ حتى وثب به الصبا على أوائل الفتوة .. وبلغ أول سنوات الشباب ..

وهو فى الخامسة عشرة ، تمرد على الخليفة هشام المؤيد أقرب الأمراء إليه ، فساقوا جيشاً من العرب والبربر والفرنجة فأسقطوا الخليفة ، ولوا مكانه رجلاً آخر من بنى أمية .. وعزل الحاكم الجديد والد ابن حزم من منصبه واعتقله ، ثم أفرج عنه ، بعد حين ..

قال ابن حزم : « شئنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتنحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح وأرزمت الفتنة وخصتنا ،

إلى أن توفي أبى الوزير رحمة الله ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت
لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربعمائة ..

كان ابن فى الخامسة عشر حين سقط الخليفة هشام المؤيد، وعزل أبوه من منصب الوزارة، وصادرت
الدولة الجديدة قصره فى شرقى قرطبة وماوصلت إليه من أمواله .. وبقي للأسرة بعد ذلك شىء .. منازل
قديمة فى غربى قرطبة انتقلت إليها، وضبياع ودور متفرقة فى أرجاء الأندلس .

ولقد عاش أبوه معتزلا الناس أربع سنوات بعد النكبة، ثم مات حزينا محسورا، وتآمر الفرنجة والبربر
وبعض بنى أمية على الحاكم الجديد، فوثبوا عليه، ولولوا مكانه رجلا آخر، وعاثوا فى قرطبة فسادا فنهبوا
الأموال وانتكوا الحرمات واعتصبوا النساء .

وهاهو ذا الآن يصبح وحيدا بعد أن قتل أبوه الوزير صبيرا وكمدا .

ترك الفتى قرطبة باكيا، وكتب يصف حالته « ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب
علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة » ..

كان إذ ذاك فى العشرين .. فتى منقل القلب بالهموم، تضطرم أعماقه بالإصرار على أن يغير هذا العالم
المشخن بالفوضى والمظالم والفساد !

لقد علمه أبوه الوزير وثقفة لكى يصبح وزيرا مثله، فقد كانت الوزارة فى ذلك الزمان تورث كما يورث
الملك ! وقد علمه أبوه منذ بدأ يمشى، أنه قرشى من بنى أمية .. جاء أجداده مع الفتح الإسلامى . علمه أن
جده الأعلى كان أخا بالولاية ليزيد بن أبى سفيان الذى بعثه أبو بكر الصديق فى أول بعثة لفتح الشام ..

وإذن فعاوية عمه، وأجداده هم الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها الدولة العظمى .. فالوفاء لأسلافه
يقضى عليه بأن ينتصر للأمويين، ويدافع عنهم، ويدعم دولتهم .. فإذا سقطت هذه الدولة فالوفاء يقتضيه
أن يعمل من أجل إحيائها ..! .. فإذا تصارع أمراؤها فليعتزل هو الصراع !

كان قبل، قد نال قسطا من التعليم . وما أرسله أبوه ليتعلم فى حلقات الجامع، أو عهد به إلى مدرس ..
بل آثر أن يعلمه فى القصر .

ولأن أباه كان خبيرا بما آلت إليه الحياة من فساد وتفسخ، لم يشأ أن يعهد بهذا الطفل إلى معلمين من
الرجال .. بل اختار له معلمات من النساء من قريباته « من الجوارى .. وكانت من نساء قرطبة فقيحات
وروايات شعر ومقرئات ومحدثات وطبيبات وعلمات بالفلك والفلسفة .

ربى ابن حزم في حجب النساء كما قال ... ولازمهن حتى بلغ مرحلة الشباب .. وأتاح له لزومهن معرفة كثير من أحوالهن وأسرارهن ، ودراسة خلجات قلوبهن ، والاطلاع على مايلكن من فضائل وريذائل . ا
كتب عن هذه المرحلة من صباه فيما بعد ، فأعلن عدم ثقته بالنساء ، وحكم عليهن في ألفاظ مكشوفة
أنهن مالم يشغلن العلم أو العمل متفرغات البال للرجال .

«قرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم ، يوكل ثقة له بنسائه ، يلقي عليهم ضريبة من غزل
الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر، فالمرأة بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ثم يقول : « لقد شاهدت
النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأئى ربيت في حجبورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم
أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب » ثم يسترسل « وهن علمتنى القرآن ،
ورويننى كثيرا من الأشعار، ودريننى على الخط . ولم يكن وكدى (اى همى) ، وأعمسال ذهنسى
منذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا
لأنس شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فطرت به ، فأشرفت
من أسبابهن على غير قليل .

ويعترف أنه منذ الطفولة قد اطلع من أسرار النساء والرجال على أمر عظيم ، و أصل ذلك أنى لم
أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت فى ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : (الغيرة من الايمان) فلم أزل باحثا عن أسرارهن ، وكن قد أنس منى بكتمان ، فكن يطلعننى على
غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبههن فى السر ومكرهن
فيه عجائب تذهل الأبواب ثم يضيف : « .. أنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا
أنى برىء الساحة » .. وثم يقسم بأغلظ الأيمان على عفته ، وأنه لم يقترف حراما قط . !

وابن حزم يروى ذكريات طفولته عن النساء الذى عهد إليهن أبوه بتربيته .. وهن كما قال من الجوارى
المهذبات ومن قرابته .

وكان أبوه يزوره خلال الدرس ليطمئن عليه ، وقد أقام عليه رقباء ورقائب من الشيوخ والنساء العجائز .
على أنه صبا إلى شقراء منهن فأمتمت منه ولاحقها فى شرفات القصر عسى أن تبادلها مايجس ،
فيستوهبها أباه ، ولكنها ظلت تتمنع فأبأها عليه أبوه ، ووهبه شقراء أخرى ، ولكن الفتى لم يستطع السلوعنا
سنوات ... فزوجه أبوه من شقراء أجل من تلك ، ووهبه جارية شقراء أيضا ، وعاش ابن حزم لا يستحسن
غير الشقراوات كما قال ...

وكان قد حفظ القرآن وقدرنا صالحا من الشعر وجود الخط .. وأن له أن يفارق مدرسة النساء إلى

حلقات الرجال .

واختار له أبوه عالما زاهدا ناسكا فاضلا . وتحرى الأب أن يكون معلم ابنه حصورا ..

كتب ابن حزم « وأنى كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة مقصورا ، محظورا على بين رقباء ، ورقائب (من النساء) ، فلما ملكت نفسى وقلت صحبت أبا الحسن بن علي الفاسى . وكان عاقلا عالما من تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح ، وفى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للأخرة . وأحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له امرأة قط . ومارأيت مثله علما وعملا ودينا وورعا ، فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمت مواضع الاساءة وقبح المعاصى . ومات أبو الحسن رحمه الله فى طريق الحق .. »

صحب ابن حزم هذا الشيخ الذى أختاره له أبوه ، فأنترعه الشيخ من كل دواعى الإغراء لمن هو فى مثل سنه ، فما كانت النساء تحجب عن الرجال ، وكان هذا كما يقول ابن حزم هوجارى العادة فى التريبة ببلاد الأندلس .

بدأ الجلوس إلى شيخه وهو فى نحو السادسة عشر وصحبه إلى حلقات علماء التفسير والحديث واللغة .

بهر الفتى أشياخه بسرعة استيعابه ، وقوة حفظه ، ودقة فهمه .. وبعد أن استوعب ابن حزم مافى مجالس القرآن والتفسير ، صحبه شيخه ومربيه إلى حلقات الفقه .

حتى إذا خرج مربيه إلى الحج فمات فى بعض الطريق ، استقل ابن حزم بحضور الحلقات وقد علم من شيخه الراحل قدر كل واحد من أصحاب الحلقات .. فلزم الحلقات بالجامع الكبير بالجانب الغربى من قرطبة ، حيث يعيش أواسط الناس وسوادهم ، وأهل العلم والطلاب . وفى هذه الحلقات عنى إلى جانب علوم الدين بدراسة النحو وعلوم اللغة والفلك والفلسفة والمنطق وسائر المعارف الإنسانية الموجودة فى عصره .

ولقد اهتم بالنحو اهتماما خاصا ، وأدرك أن اتقان النحو هو سبيله إلى فهم النصوص . ذلك أنه كان قد شهد عجبا مما يؤدى إليه الجهل الشائع بالنحو . حتى لقد تفكه بحكايات عن ذلك فيما بعد .. فروى أن رجلا كان يتولى صلاة الجمعة فى جامع قرطبة « وكان عديم الورع قليل الصلاح . فخطبنا يوم الجمعة فى جامع قرطبة فتلا فى خطبته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) فقرأها بنونين (عنتم) . فلما انتهت الصلاة جاءه بعض تلاميذه وكانوا يأخذون عنه رأى مالك ، فذكروا له الآية صحيحة ، فأنكرها وزعم أنه هكذا تعلمها وهكذا يعلمها . فلما احتكموا إلى المصحف ، دخل وعاد بالمصحف وقد حذف نقطة من على تاء عنتم ، لتكون نونين ! » ..

ويروى عن مقرئ آخر يعلم الناس القرآن ، وهو عربى بل قرشى ، « وأحد مقرئين ثلاثة كانوا يقرئون

العامّة في قرطبة» ، وكان لا يحسن النحو . فقرأ عليه قارئ يوماً في سورة ق (ذلك سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) فرد عليه القرشي « تحيد بالتونين » ، فراجع القارئ وكان يحسن النحو ، فلج المقرئ وثبت على « التونين » . وانتشر الخبر ، حتى وصل إلى فقيه كان صديقاً لذلك المقرئ ، « فذهب إليه وقال للمقرئ القرشي : « انقطع عهدى بقراءة القرآن على مقرئ ، وقد أردت تجديد ذلك عليك » . فسارع الفقيه إلى ذلك . فبدأ يقرأ من سورة ق حتى إذا بلغ إلى الآية المذكورة ردها عليه المقرئ بتونين كلمة (تحيد) . فقال الفقيه للمقرئ : « لا تفعل . ماهى إلا غير منونة بلا شك » . فلج المقرئ . فقال له الفقيه : (يا أخي إنه لم يحملنى على القراءة عليك إلا ردك إلى الحق فى لطف . وهذه عظيمة أوقعك فيها قلة علمك بالنحو . . . فإن الأفعال لا يدخلها التونين البتة) . فتحير المقرئ ولم يقتنع حتى جاءوا بالمصحف وبعده من مصاحف الجيран فوجدوها مشكولة بلا تونين »

ظل ابن حزم يدرس العلوم الدينية واللغوية والعلوم الإنسانية ودرس الكتب المترجمة فى الأدب والفلسفة والحطابة والفلك . ودرس الرياضيات . ودرس الشعر العربى وأخبار العرب والتاريخ .

ولقد درس العلوم الدينية على مذهب الإمام مالك ، وكان هو المذهب الرسمى للدولة ، فقد فرضه الأمويون ، وما كانوا يعينون قضاة أو يسمعون لفقيه أو عالم ، بالفتيا أو إلقاء الدروس ، إن لم يكن من أتباع الإمام مالك . . ولم يسمحو لمذهب غيره بالوجود فى الأندلس ، كما فرض العباسيون فى المشرق مذهب الإمام أبى حنيفة . . ولهذا قال ابن حزم : « مذهبان أنتشرا بقوة السلطان ، مذهب أبى حنيفة فى المشرق ومذهب مالك فى المغرب . »

أنكب ابن حزم على طلب العلم . ، حتى أصبحت قرطبة مسرحاً للحرب بين الجماعات المتصارعة ، وانتهبت منازل أسرته فى غربى قرطبة ، ووجد الفتى الأمراء الأمويين فى صراعهم الداخلى يرمون قرطبة بجند البربر وعسكر الفرنجة على قرطبة الشاء ، ليفسدوا فيها ، ويسفكوا فيها الدماء . . حتى لقد قتلوا نحو عشرين ألفاً من أهلها من بينهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمقرئين والقراء وشيوخ المساجد !

فرحل الشاب إلى مرية بعيداً عن قرطبة ليقم فى ضيعة لأهله هناك ، وفى أعماقه ينزف القلب المحزق ، ويحتمد فى صدره الشوق إلى أن ينقذ الإسلام ، وأن ينشل الأندلس بأسره من كل هذا الهوان ! . . !

ولكن كيف ! ؟ ما عساه أن يصنع هو وحده ، وهو بعد طالب علم فى الثانية والعشرين ، بلا جيش ولا نصير ! ؟

فلتفرغ هناك لدراسة كل ما بين يديه من آثار فى الدين والفكر، وكل معطيات العقل الإنسانى ..
فليعمر عقله بالعلم وقلبه بالأمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ...

وعندما يجيء الوقت ، سيشرح قلمه ليوواجه القوضى ، والعار ، والفساد ، بأقوى مما يستطيعه السيف
البتار.. !

وفى المرية ، وجد عددا كبيرا من الشيوخ ممن هاجروا فى أرض الله الواسعة ، نأيا بأنفسهم عن
مضطرب الفتنة والدماء فى قرطبة المنتهكة ، التى غمرت أجواءها العطرة الطيبة ، رائحة الموت ، والحياة
المتعفة ، ورائحة العار... !

ولزم ابن حزم من وجد فى « المرية » من شيوخ قرطبة وأخذ عنهم ، وقسم وقته بين حضور الدروس
فى المسجد ، والقراءة فى البيت ... وظل على هذه الحال نحو ثلاث سنوات .

ولكن الأمراء الأمويين فى صراعهم على السلطة سقطوا جميعا فآل الأمر فى قرطبة إلى آل حود ...
وهم علويون ، وبين الأمويين والعلويين خصام متقد !

أستولى العلويون على قرطبة ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أقطار الأندلس ، فتوجس ابن حزم
فى نفسه خيفة مما قد يقع له .. فهو ابن أسرة تنتمى للأمويين .

وصحت مخاوف ابن حزم طالب العلم الذى أصبح فى الخامسة والعشرين ، إذ أوقع به وإلى
« المرية » ، وأتهمه بالتآمر مع صاحب له يعيد ملك بنى أمية .. فأعتقله هو وصاحبه شهرا ثم أمر
بإبعادهما . فتطوع أحد أصحاب حاكم « المرية » باستضافة ابن حزم وصاحبه .. يقول ابن حزم
« فأقامنا عنده شهورا فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم
معروفا ، وأتمهم سيادة ، ثم ركبنا البحر قاصدين بطنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن
محمد وساكناه بها .

كان المرتضى عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر رجلا صالحا ، هرب من قرطبة حين
أشتعلت فيها الحروب الداخلية بين أبناء عمومته من الأمويين ، واعتزل الفتنة ، ثم ظهر بعد حين فى
(بطنسية) ، ودعا لنفسه بالخلافة ...

بادر ابن حزم بتأييد المرتضى ... فهذا هو ذا رجل صالح من بنى أمية ، على نقيض الأمراء
الأمويين الآخرين الذين أباحوا قرطبة جيوش البربر والفرنجية ، وارتضوا أن يؤدوا الجزية للفرنجية
ليستعينوا بهم فى الصراع على الحكم !

وكان المرتضى متفهما يعرف ابن حزم عنه التقوى وحسن الدين ، ويتوسم فيه أن سيعيد مجد جده الأعلى عبد الرحمن الناصر ، أيام نهض يوحد الأندلس ، ويستعيد فيه عظمة الإسلام ، فسعى فى عمارة الأرض ، وجعل من قرطبة حصنا حصينا للإسلام ، ومشرقاً لنور المعرفة ، وجعل متنزهاتها ندوات للثقافة والجدل الفلسفى ، يتمشى فيها المفكرون يجادلون و يعلمون ، كما كانت أثينا فى عصورها الزاهرة .

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد نفسه يريد أن يعيد قرطبة والأندلس كله الى أيام جده حين كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسعون إليه أو يقدمون له الجزية ، وحين كان العلماء والفقهاء والمفكرون والكتاب والشعراء هم قسماات الوجه المضى لقرطبة ، ودولة الإسلام فى الأندلس !

ولكن المرتضى عبد الرحمن بن محمد لم يكن يملك من مواهب رجل الدولة إلا الصلاح وحسن النية والرغبة الصادقة فى الإصلاح .. ولاشياء بعد ! .. لاحزم ، ولاقدرة ، ولاحسن بصر بالرجال ، ولاسائر الوسائل التى تكفل النجاح لمن يريد أن يتولى أمر الناس ويقود أو ينشئ دولة . !

ولكن ابن حزم وجد نفسه مندفعاً إلى مبايعة الرجل الصالح ، عسى أن يستطيعا معا هدم هذا العالم الفاسد وبناءه من جديد على البر والتقوى والنجدة والعدل .

أقام ابن حزم فى بلنسية مع المرتضى عبد الرحمن بن محمد يدعو إليه ، ويحشد له طلاب العلم ويخطب الناس و يطالبهم بأن يبايعوه بالخلافة

على أنه ظل خلال نشاطه السياسى العام ، يواظب على حلقات الدرس ، فيتلقى عن شيوخها .

وذات مرة سأل ابن حزم شيخ الحلقة عن مسألة من فقه مالك ، فأجابه شيخه ، ولكن ابن حزم لم يقتنع بالإجابة فاعترض ، وضاق به الشيخ ، فقال له أحد الطلاب المقربين إلى شيخ الحلقة : « ليس هذا من منتحلاتك ! » ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت ينتحل كتابة الشعر والنثر الفنى فحسب ، وكان زملاؤه يشهدون له بطلاوة الأسلوب ورشاقة العبارة . ولم يستطع ابن حزم أن يرد فإ كان يعرف فقه مالك بعد ، وضحك منه الشيخ والطلاب .

غضب ابن حزم حتى قام لينصرف من الحلقة ، ولكنه كظم غيظه وقعد إلى نهاية الدرس . ثم اعتكف فى داره يقرأ النهار والليل فى فقه مالك ، وفقه الأئمة الآخرين أصحاب المذاهب ، وخرج بعد عدة أشهر إلى الناس ، فحضر الحلقة التى شهدت السخرية منه .. فناظر الشيخ والطلاب أحسن مناظرة ، فأدهشهم ، وقال وهو ينصرف : أنا أتبع الحق وأجتهد ، ولا أتقيد بمذهب .

وأثناء انقطاعه لقراءة الفقه ، أعجب بمذهب الشافعى ، فال إليه ولكنه لم يتقيد به ... أعجبه فى الشافعى تمسكه بالنصوص من القرآن والسنة ، وعزوفه عن تقليد من سبقه ، وأستنباطه الأحكام من

النصوص ، واعتباره الفقه هو النص أو الحمل على النص (أى استخراج الحكم من النص أى القياس عليه)

غير أن ابن حزم لم يلبث أن هجر القياس ، ووجد أن مقاله الشافعى فى رفض الاستحسان ، يصلح حجة لرفض القياس ، وأنه لاحكم الا فى تضمنته نصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة إجماعا لا يختلف عليه واحد منهم رضى الله عنهم

وقد اهتدى إلى هذا الرأى عندما ما كان يقرأ فقه الإمام الشافعى ، وما كتبه الآخرون عنه ، فوقع على كتاب داود الأصبهاني عن مناقب الشافعى .. وأعجب الشاب بالأصبهاني وكتابه ، وحاول أن يتبعه ولكنه لم يجد فى بلنسية ما يغيته .. لو أنه يعود إلى قرطبة أم المدائن فى الأندلس ! ففى قرطبة مهما يكن من أمر ما ليس فى غيرها من المدائن !

ولقد عاتبه بعض أصدقائه فى موقفه من المذهب المالكى ، فقال لهم ان الإخلاص للإسلام هو الذى دفعه إلى أن يترك المذهب .. وما يبالى هو ما يكون من أمر ، مادام الإخلاص للإسلام هو رائده فيما يأخذ وما يدع من الأمور! وروى لهم أن عيسى عليه السلام سأله أحد الحوارين ما هو الأخلص ومن الأخلص فقال عليه السلام : « الأخلص من إذا عمل خيرا لا يمهه أن يحمده الناس » .

عاد ابن حزم يدعو إلى المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، حتى اجتمع للمرتضى جيش يصلح للزحف ، فقرر أن يزحف إلى غرناطة فيستولى عليها ، ويجيش من أهلها عسكريا كثيفا يستولى به على قرطبة التى أمتنع فيها العلويون .

وسار ابن حزم مع الجيش تحت راية المرتضى ولكن الجيش لم يصل إلى غرناطة

فقد اغتيل المرتضى وهزم جيشه ، ووقع ابن حزم فى الأسر!

وبعد حين أطلق من الأسر ، فأختار أن يعود إلى قرطبة ليتفرغ للعلم بعد أن غاب عنها نحو ستة أعوام .

هاهو ذا من جديد فى قرطبة مدينته التى لم يحب ركنا آخر من الأرض كما أحبها ، والتى عرف فيها عذوبة أيام الصبا ، ثم قسوة الحياة منذ عزل أبوه ، ومات ، وشاهد طرقاتها الظليلة ومنتزهاتها الغناء يختلط فيها دم الإنسان بالمعرة والأوحال ! ولكنها مهما يكن من أمر ، خير المدائن عنده ، ومهما يكن ما حدث فيها للفكر والمعرفة ، فما زالت هى هى أزخر بلاد الدنيا بالمعارف .. ومهما يكن ما حدث لخزائن الكتب فيها ، وللفقهاء والعلماء ، فإنه يستطيع أن يجد فيها من الكتب ومن البيئة الثقافية ما لم يجده وما لن يجده فيما عداها من أرض الله .

منذ وقع ابن حزم وهو فى بلنسية على كتاب للفقير داود بن على الأصبهانى ، وهو حريص على أن يستزيد من فقه الرجل

ووجد فى قرطبة كل كتب داود الأصبهانى . التى تضمنت منهجه فى الاعتماد على النصوص من القرآن والسنة وإجماع الصحابة فى إستنباط الأحكام .

وداود الأصبهانى من مدينة أصبهان تعلم فيها ورحل إلى بغداد وغيرها من حواضر الإسلام ، ولد عام ٢٠٢هـ وعاش خمسين عاما تفقه فيها على مذهب الشافعى ، ولكنه رفض وخالف الشافعى فى الإجتهد ، وهو الإعتماد على النص ، أو القياس على النص . وقال : « إن الشريعة لا رأى فيها ولا اجتهاد ، فهى نصوص فحسب ، ولاعلم فى الإسلام إلا من النص » . وقد سأله أحد الذين يعرفون اعجاب به بالشافعى : « كيف تبطل القياس وقد أخذ به الشافعى ؟ ! » « فأجاب : « أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الإستحسان فوجدتها تبطل القياس ... » « وقيل عنه : « أنه أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس فى الأحكام قولاً وأضطر إليه فعلا وسماه الدليل » ... والدليل الذى يعنيه داود مفهوم من ظاهر النص كأن يقول الحديث الشريف . « كل مسكر خمر . وكل خمر حرام » . فهما مقدمتان دون ذكر النتيجة والنتيجة المحذوفة المفهومة من ظاهر النص : أن كل مسكر حرام . وهذا ليس قياسا ، بل فهم لظاهر نص فيه إيجاز بالحذف . وكأن يقول الله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر الله لهم ماقد سلف . » فهذا شرط للمغفرة ، وهو يعم كل من يعصى الله والرسول لا الكفرة وحدهم .

قال عنه أحد معاصريه : « لو اقتصر على ما هو فيه من العلم لظننت أنه يكذب به أهل البدع مما عنده من البيان والأدلة . ولكنه تعدى .

وكان زاهدا عابدا . ولقد وجه إليه أحد المعجبين من الحكام يوما بألف درهم تعينه على العيش فردها قائلا لمن جاء بها : « قل لمن أرسلك بأى عين رأيتنى ، وما الذى بلغك من حاجتى وخلتى حتى وجهت إلى بهذا ؟ »

وقد وجد ابن حزم فى قرطبة حين عاد إليها هذه المرة بعض الذين تأثروا بآراء داود ، ووسعوا منهجه الظاهرى ، وتركوا كتبهم فى خزائن الكتب بقرطبة ، وفى صدور بعض أتباعهم ، فدرس ابن حزم كتبهم وتعلمذ عليهم .. وخلال خمس سنوات وهب فيها نفسه للعلم ، ودراسة الفقه الظاهرى ، لم يعد الشاب يفكر فى السياسة . وأعلن الخلاف مع الشافعى متابعا فقه أهل الظاهر وقيل لى فى خلافه مع الشافعى بعد أن أحبه وأعجب به ، فاستشهد بما قاله الإمام الشافعى حين عوتب على خلافه مع الإمام مالك وهو شيخه : « أقول فى هذا ما قاله أرسطو حين خالف أفلاطون : أفلاطون أستاذى وأنا أحبه ولكن الحقيقة أحب الى من أفلاطون . »

وتمر الأعوام وابن حزم لا يشغله إلا الدرر الجاد .

ووجد بعض المتعصبين من اليهود والنصارى يطعنون فى الإسلام مستغلين الضمور الفكرى والفقهى ، وشيوع التقليد ، وتجمد العقل ، فأنبرى لهم ابن حزم يجادلهم ، ويسفه آراءهم ، فى حدة وعنفة ، مؤكدا أن ما اعترى الحياة الإسلامية من فساد وبلادة ، وما يشيع فيها من جمود فكرى ، وتقليد أعمى للسلف ، ليس من الإسلام . ولكنه محنة للإسلام .

ولهو يعد نفسه لمعارك فكرية أخرى يجلو فيها حقائق الإسلام كما هى فى أصلها الثابت من ظاهر النصوص وإجماع الصحابة .. وهو سعيد بتفرغه للعلم ، يكتب النثر الفنى والشعر ، و يناقش آراء أرسطو فى المنطق ، وفتاوى الفقهاء المقلدين .. وهو ينضج على نار التأملات ، وإقراءات الجادة المتصلة منهجه فى الفقه ... وهو مستغرق مستوعب فى العلم .. إذ بالسياسة تفرض نفسها عليه مرة أخرى ، وتفتح بابها فى عنف ، وتنتزع انتزاعا من تأملاته وقراءاته وكتاباته ومناظراته ..

كان قد سثم السياسة فتركها ، وظل يرقب بألم ما يضييق به صدره ولا ينطلق به لسانه : تناحر الأمراء على السلطة ، وقتك بعضهم ببعض ، وهم خلال هذا الصراع قد وطأوا أكناف قرطبة وهامتها لسنايك خيل الفرنجة «فلحق بيوتات قرطبة معرة فى نساءهم وأبنائهم .»

إنه متعب من السياسة وأهل السياسة ... متعب من الأصدقاء ... متعب من الحياة .. متعب من كل شىء .. ولاراحة له إلا فى العلم والكتابة .. !

فقد رأى فيما رأى : هشام المؤيد الأموى الذى استوزر أباه ، يعزل ، ثم يحتفى ، ثم يظهر ، ثم يتولى الأمر ..

لكم فجع ابن حزم فى هشام هذا بعد أن تعود احترامه وأشرب حبه منذ الصغر ! . ذلك أن المؤيد هذا ، تولى الخلافة من جديد وأصبح أمير المؤمنين ، فناوأه أمير آخر من بنى عمومته ، وزحف بجنده ، فاستنصر هشام بالفرنجة وعرض أن ينزل لهم عن قشتالة . ! .. ونصره الفرنجة بهذا الثمن ، ولكن مناوئته غلبه على قرطبة وأسقطه ، ثم قتله ... واستعان هو الآخر بالفرنجة ليوطد أركان ملكه !

لكم هو مزرى كل هذا .. !

غير أن السنوات تمر ، والانقلابات تستمر ، وتتوالى التغيرات فلا يستطيع العقل أن يلاحقها .. وهاهو ذا يستقر فى قرطبة من جديد ، ولكن تحت حكم العلويين من آل حمود الذين أسقطوا حكم الأمويين .

وتمضى الحياة وهو سعيد بنشاطه العلمى وهوموه الفكرية ..

هدباً ابن حزم عن السياسة ، ولكن أهل قرطبة لم يهدأوا .. فثاروا على حاكمهم العلوى واختاروا واحداً من بنى أمية ليولوه الخلافة مكان الخليفة العلوى .. وهو حفيد آخر للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر .. صاحب قرطبة فى زمن البطولات والشموخ . !

كان ابن حزم قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وحين رأى إصرار أهل قرطبة على تولية حفيد آخر لرجل العصر الذهبى عبد الرحمن الناصر ، أنضم إليهم ، فأكان بوسعه أن يسكت . !!
مرة أخرى تغزو قلبه الأشواق إلى بناء الأندلس من جديد واستعادة الأيام الرائعة الغابرة .. فترك تأملاته وكتبه ومناظراته وقلمه وإنضم للثائرين ! ..

وعزل أهل قرطبة الخليفة العلوى ، وولوا مكانه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر . ولم يكذب يتولى حتى عين ابن حزم وزيراً له .

ولكن الخليفة الجديد لم يكن يملك من المواهب شيئاً ولم تكن له ميزة تؤهله لأن يكون أمير المؤمنين .. إلا أنه حفيد عبد الرحمن الناصر ! كان شاباً فى نحو الثانية والعشرين ، غريراً ، ساقط الهمة ، سيطرت عليه النساء وأهل الدسائس ... وكان الى ذلك طائشاً يأخذ بالظن ، مزهواً بشبابه وشرائه ، مفتوناً بالسلطة .. فلم يكذب يستقر على عرش قرطبة ، حتى شك فى جماعة من الذين حملوه إلى العرش وهم من أهل المشورة والرأى والحكمة فى الأندلس ، وكأفأهم على ما بذلوه من أجله بعزهم وإقصائهم وإلقاء بعضهم فى غيابات السجون ، واتهمهم بالتآمر عليه ليولوا مكانه أموياً آخر وأظهر بدلاً منهم عدداً من الرقماء وأهل الشذوذ وأصحاب السمعة السيئة !!

ولم ينتصحب بنصيحة أحد ، فقد أفتعته شكوكه وأفتعته بطانته أن كل من يعارضه يريد أن يسقطه ، ويوالى عليه أحد أبناء عمومته من الأمويين وثار قرطبة من جديد وأخرجت قادتها من السجن عنوة ، وزحف الثائرون على قصر الخليفة فانتزعوه منه وقتلوه .. ولم يكن قد مر على ولايته أكثر من شهرين .. !

وداست أقدام الثائرين ابن حزم وزير الخليفة المخلوع .. واتهموه بأنه سكت على المظالم ، فألقوا به فى السجن ولبث فى السجن عدة أشهر .

ثم راجع الشوار أنفسهم وفحصوا أعمال ابن حزم خلال ولاية الخليفة المقتول ، فلم يشبوا على ابن حزم الموافقة على الفساد أو المظالم ، وثبت لهم أنه كان عاجزاً .. كان وزيراً لا يؤخذ برأيه ، ولقد حاول أن يعتزل ، ولكنه خاف طغيان الخليفة .. ففضى الشهرين وزيراً يتحمل الوزر بلا غم ..

خرج ابن حزم من السجن وفي عزمه ألا يتعاطى السياسة أبدا وأن يهب عمره كله للكتابة .. وعاد إلى العمل .. يقرأ و يكتب و يناظر ..

ولكنه لم يكده يتفرغ لعمله أربع سنوات حتى ظهر رجل آخر أموى اسمه هشام من أحفاد عبد الرحمن الناصر

هشام آخر!! وهو مرة أخرى من أحفاد الخليفة الذهبى العظيم !! .. ما أكثر ما تسخر الحياة باين حزم الباحث عن الهدوء!

مرة أخرى يترك القلم والورق والمناظرة و ينضم إلى الثوار!

ونظر هشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر فيمن حوله من الرجال ، فاختار ابن حزم وزيرا .

ولكن الخليفة الجديد كان هو الآخر مغيبا للظنون ، فلم يحقق شيئا مما عقده الناس عليه من آمال ، وشغله الصراع مع بنى عمومته والأمراء الآخرين ، وازدادت الدولة ضعفا ، وصح فيها قول كبير الفرنجة أيام الفتح الإسلامى : لا تقاوموا الفاتحين فهم يتحركون بروح الفداء و يزحفون بالحرص على الإستشهاد وطمعا فى نعيم الآخرة ، و بإيمان جائح يستطيع أن يقتحم كل الصعاب .. ولكن انتظروا حتى يشغلوا بالمال والسلطة ، و يتنازعو على الحكم ، وحينئذ يستطيع الفرنجة أن يستردوا الأندلس .

وفى الحق أن العرب حين نزلوا أرض الأندلس ، بعزم ، وجسارة قلب ، وإرادة لا تقهر ، اجتاحوا الأندلس بمثل طاقات المد ، فهى لا تتوقف ولا يقاومها أحد بعد . وكانوا قد أحرقوا السفن من ورائهم ، فما إلى فرار من سبيل ، ولا محيص .. فإما الشهادة أو النصر !

ولكن نبوءة كبير الفرنجة تحققت ، فتدهورت الأمور وتمزقت الدولة حتى أصبحت حراب الفرنجة تسند عرش أمير المؤمنين . !

على أن قرطبة ثارت على أمير المؤمنين هشام المعتد بالله ، وأسقطته وأسقطت معه الدولة الأموية كلها ، فلم تقم قائمة لها إلى الأبد .. وتولى بدلا من الأمويين ملوك الطوائف .. وقسموا إمارات الأندلس فيما بينهم ، واختفى الخليفة المخلوع فى أحد الثغور حتى مات بعد ست سنوات من خلعه .

أما ابن حزم ، فلم يبق وزيرا حتى سقط الحكم الأموى ، بل اعتزل المنصب حين تأكد له أنه لن يستطيع أن يحقق شيئا للدولة بما عاش يحلم به ، إذ استيفن أن حفيد عبد الرحمن الناصر هزى ل لارجاء فيه

ماضعف ابن حزم أمام السياسة ، وماحقق من خلالها شيئا ينفع الناس ! ؟

لقد وجدها أداة فاسدة للتعبير، فليبحث إذن عن أداة أصلح !

ووجد فى الكتابة التعبير عن أشواقه فى إصلاح أمور الأمة ، والنهوض بأحوال المسلمين ، وعزاء للقلب المعذب . وأنه ليشعر فى أغوار نفسه أن جهاده بالفكر والقلم كالجهاد فى سبيل الله بالسيف والمال ..

ولكن فى أى أرض يختار معركته . ! .. ؟

لم يشأ أن يحيا فى قرطبة تحت ظلال حكم ملوك الطوائف .. ، فتركها وطاف بالأندلس ، يجمع من حوله طلاب العلم فيلقى عليهم الدروس و يناظرهم ، و يفرغ لنفسه يقرأ و يتأمل و يكتب .

كانت له ضياع فى أكثر من مكان فى ريف الأندلس ، فكان يقيم فى المدن القريبة من هذه الضياع ، ثم يطوف بالعاملين فى الأرض يتأمل أحوالهم ..

وهاله ما هم فيه من شقاء .. ! وإنهم ليدفعون إيجارا باهظا للأرض ، ولا يكادون مايكفيهم للعيش بعد أداء الأجرة للملاك ! .. ! والملاك يحصلون على هذه الأموال الطائلة و بينون القصور و يقتنون الجوارى الحسان و يعيشون حياة فارغة من البطالة واللهو .. !

وفكر ابن حزم فى القاعدة الشرعية التى يقوم عليها هذا النظام ، وعاد يقرأ النصوص فى القرآن والسنة من جديد ، وتتبع الآثار وأخبار الصحابة ، حتى انتهى به النظر إلى أن نظام الإيجار فى الأرض الزراعية حرام ، فقد جرت السنة على المزارعة : يأخذ المالك نصف الإيراد أو ثلثيه أو ثلاثة أرباعه أو أقل من ذلك والباقى يحصل عليه الزارع .. هكذا فعل الرسول «ص» بأهل خيبر .. إذ زارعهم مناصفة .

وأعلن هذا رأى فقامت عليه القيامة .. وأسرع كبار الملاك إلى الفقهاء يلتمسون منهم دفع البلاء الذى سينجم عن رأى ابن حزم

وأجمع الفقهاء على أن ابن حزم يحرف فى الدين ، فهو يبتدع رأيا يخالف به كل الأئمة أصحاب المذاهب : مالك بن أنس ، وابن حنيفة التميمي ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، بل انه ليخالف ما جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .. ثم إنه يناقض حتى شيخه الفقيه الذى

نقل عنه استنباط الأحكام من ظاهر النص أو الإجماع وهو داود الأصبهاني، إمام أهل الظاهر الذي أخذ عنه ابن حزم كل الأصول والفروع في الفقه .

لقد أتى ابن حزم أذن بما لم يقل به الأوائل .. وأنها لكبيرة أراد بها إثارة الفتنة بين الزراع وأصحاب المزارع ... فما ينبغي للحكام أن يتركوه يحدث من البدع أكثر مما أحدث .. !

واتهم ابن حزم مخالفيه بالجهل وقال أن فقيها عظيما هو إمام أهل مصر الليث بن سعد قد نادى بهذا الرأي منذ أكثر من قرنين ، وكانت له ضياع كثيرة ، لم يؤجرها منذ اهتدى إلى هذا الرأي ، بل كان ينتفع بها بالمزراعة ، وكان يجعل معظم ما يحصل عليه في صرر ويجلس أيام الحصاد أمام باب داره في الفسطاط بجوار جامع عمرو ، فيوزع الصرر على الفقراء والمساكين وذوي القربى كل واحد صيرة أو أكثر من الصرر ويرسل بعضها خفية إلى أصحاب الحاجات من أهل العلم . : معلمين وطلاب .. !

ولم يتهم أحد من الفقهاء الإمام الليث بأنه يثير الفتنة ، وحين عارضه بعض فقهاء عصره ممن يعيشون في ظروف إجتماعية مختلفة قال : « نحن أهل مصر والنوبة أدري بأحوالنا من سوانا » !

لم يشغب أحد على الإمام الليث لأنه رأى قصر استثمار الأرض الزراعية على المزارعة ، ولذلك لم يتوقف كثيرا ليدافع عن رأيه وليطنب في تقليده وتسيبيه ! .. وكان كل مالقيه الإمام الليث من خصومه فيما بعد ، هو إهمال آثاره ومؤلفاته ثم طمسها بعد موته ، حتى لقد تحسر الإمام الشافعي على ضياع هذه الآثار النفيسة ، فوقف على قبر الليث وبكى .. ثم قال : « إنه أفقه من مالك ، ولكن أهل مصر أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به ! !

فما بال فقهاء عصر ابن حزم يتهمون بالزيف ، وبالبدعة .. ؟ ! وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .. !

إنه ليخرج على مذاهب الأئمة الأربعة الكبار ، وبصفة خاصة مذهب الإمام مالك الذي جرى على أحكامه القضاء في المغرب والأندلس ، ومذهب الإمام أبي حنيفة الذي جرى عليه القضاء في المشرق ، فهما قطبان تدور عليهما الشريعة وألفتيا ، .. وهذه كبرية عند المقلدين ! !

واستنفر هذا الإتهام ابن حزم إلا أنه يخالف مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة مبتدع من أهل النار ! ؟

ورد على متهميه بهجوم عنيف على متبعي المذهبين ، قبل أن يبدأ في توضيح رأيه في المزارعة والإجارة ...

قال . إنه يفتى من السنة ، فالمزراعة هى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يؤجر أرض خيبر حين فتحها الله عليه ، وإنما تركها مزارعة بالنصف لزارعها ، وكانوا هم يهود خيبر ، ثم مضى يقول : « فالمتبع هو القرآن والسنة لاقول أبى حنيفة ولاقول مالك لأنه لم يأمرنا قط باتباعها . فتبعها مخالف لله تعالى . وإن كانت فتياهما مخالفة للنص فلا يحل لأحد أتباع ماخالف نص القرآن والسنة . وهكذا نقول فى كل مفت بعد رسول الله .. قال معاوية لابن عباس : (أنت على ملة ابن عمك على ، قال : لا . ولا على ملة عثمان . أنا على ملة النبي صلى الله عليه وسلم) وقالت الخوارج لعمر بن عبد العزيز : (نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب . فقال عمر بن عبد العزيز :) (قاتلهم الله ، والله ما أردت دون رسول الله إماما) فإن توهموا بكثرة أتباع حنيفة ومالك وولاية أصحابها القضاء فالكثرة لاحجة فيها و يكفى من هذا قول الله تعالى وإن تطع أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله ، وقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا . فطوبى للغرباء) . وأذرع عليه السلام بدروس العلم (أى اضمحلاله) وظهور الجهل (أى تفوقه) . . .

ثم يضيف ابن حزم ساخرا : « فلعمري لئن كان العلم ما هم عليه من حفظ رأى أبى حنيفة ومالك والشافعى فما كان العلم قط أكثر مما هو منه الآن ، وهيات ! »

ثم يستطرد ابن حزم « ولكن الحق والصدق هو ما أنذره رسول الله . والذي درس هو أتباع القرآن والسنن فهذا هو الذى قل بلا شك وأصحابه هم الغرباء القليلون جعلنا الله منهم ، ولا عدا بنا منهم وأما ولايتهم القضاء فهذى أخزى وأندم ، وما عناية جورة الأمراء وظلمة الوزراء خلة محمودة ، ولا خصلة مرغوب فيها فى الآخرة . وأولئك القضاء وقد عرفناهم إنما ولاهم الطغاة العتاة من بنى العباس (فى الشرق) وبنى مروان (فى الغرب) بالعنايات والتزلف إليهم عند دروس الخبير وانتشار البلاء ، وعودة الخلافة ملكا عضوضا ، وابتزازا للأمة . فهو لاء القضاء هم مثل من ولاهم من المبطلين سنن الإسلام المحيين لسنن الجور والمكر « وأنواع من الربا والرشوة » ، وأنواع الظلم وحل عرا الإسلام . وقد علمنا أحوال أولئك القضاة الذين يأخذون دينهم عنهم ، وكيف كانوا فى مشاهدة إظهار البدع من المحنة فى القرآن بالسيف والسياط والسجن والقيد والنفى (يشير إلى محنة خلق القرآن التى جلد وعذب فيها الإمام أحمد بن حنبل) فمثل هؤلاء لا يتكثروهم ، وإنما كان أصل ذلك تغلب أبى يوسف (تلميذ أبى حنيفة) على هارون الرشيد (فى بغداد) وتغلب يحيى (من أتباع مالك) على عبد الرحمن بن الحكم (فى قرطبة) فلم يقلد القضاء شرقا وغربا إلا من أشار به هذان الرجلان . والناس حراص على الدنيا ، فنتلمذ لها الجمهور لا تدينا ، ولكن طلبا للدنيا » .

ثم يمضى فى دحضه آراء المتمسكين بالمذاهب فيقول : « ونحن فى غنى فانص ولله الحمد عن هذا

التكليف ، وفى مناديج رحبة (جمع مندوحة) عن هذا التعسف ، بنصوص القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا سبيل إلى وجود شرع لم يتص على حكمه » .

وقال عن خصومه أنهم أحد رجلين : إما رجل لا يعلم السنة فهو جاهل ، أو رجل علمها ، وتركها إلى أقوال الأئمة أصحاب المذاهب فهو يخالف أوامر الله ورسوله . وكلا الرجلين فاسد الرأى ساقط الفتيا « ولا يحق له أصلا أن ينتحل العلم أو الفقه » .

ويسوق ابن حزم بعد هذا حجته الدامغة من السنة بأسانيدھا الصحاح الثابتة :

— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها ، أو لينحها ، فإن أبى فليمسك أرضه .

— عن نقل متواتر موجب للعلم المتيقن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الأرض . وعن نقل آخر متواتر إنه نهى عن أن يؤخذ للأرض أجرة .

— من النقل المتواتر : « أعطى النبي صلى الله عليه وسلم خيبر اليهود على أن يعملوها و يزرعوها . ولم يشتر ما يخرج منها » وشطر ما يخرج منها أى نصفه . و يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها ، على أن يعملوها من أموالهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نصف ثمرها ، و يروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر أراد إجلاء اليهود عنها فسألوه أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها وهم نصف الثمرة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقركم بها على ذلك ماشئنا » . ففروا بها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ..

ولم يسكت مخالفوه من الفقهاء والعلماء فردوا عليه الإتهام بالجهل ومخالفة الله ورسوله ، واتهموه بقصور الفهم ، إذ لم يفهم أن صلى الله عليه وسلم حرم إجارة الأرض بحكم خاص لا يجوز تعميمه ، لأنه كان بشأن واقعة معينة ، وهذا هو عين مافهمه أصحاب المذاهب من الأئمة الكبار . فقد اقتتل رجلان على إجارة أرض زراعية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع » أى لا تؤجرها فهو لم ينه عن المبدأ نفسه ، ولكنه نهى عن الإجارة إذا أفضت إلى نزاع يتقاتل فيه مسلمان ، فرد عليهم أن هذا يمكن أن ينطبق على المزارعة أيضا ، فقد يؤدى النزاع فيها إلى اقتتال مسلمين ! .. ولكنهم أيدوا رأيهم فى إباحة الإجارة بما قاله سعد بن أبى وقاص : « أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كراء الأرض بالذهب والورق » .

ولكن ابن حزم رد قولهم عليهم ، بالطعن فى قوة السند الذى روى الحديث الوارد فى واقعة الإقتتال ، والخبر المنقول عن سعد بن أبى وقاص ، وذهب إلى أنه حتى لو صح الأثران ، فما يجوز

العدول عن السنة الثابتة إلى خبريروه صحابي واحد يكن خطر شأنه ! واتهمهم بأنهم بإباحة الأجر إنما يظلمون الزراع ويحابون الملاك ! لأن يؤدي التزامه ويسلم المالك الأجرة المتفق عليها كاملة ، مها يقل الإنتاج ، أو حتى إن لم تنتج الأرض أصلا . وهذا هو الظلم بعينه ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

واستخلص النتيجة في حسم : « لا تجوز إجارة الأراضى أصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شيء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنانير ولا بدراهم ، ولا بشيء أصلا ، فتى وقع فسخ أبدا ، ولا يجوز فى الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها . أو المغارسة كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء أقل أو أكثر جاز إستئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعا لذلك البناء غير داخلة فى الإجارة أصلا ... ثم يكرر » لا يجوز كراء الأرض بشيء أصلا لا بدنانير ولا بدراهم ولا بعرض ولا بطعام مسمى ولا بشيء أصلا « ... فهو يعتبر إجارة الأرض بأى مقابل حراما » ... ويضيف « ولا يحل فى زرع الأرض الا أحد ثلاثة أوجه : إما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه وبذره وحيوانه ، وإما أن يبيع لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا ، فإن أشتركا فى الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ من الأرض كراء فحسن ، وأما أن يعطى أرضه لمن يزرعها بذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء ويكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى إما النصف أو الثلث أو الربع ، ونحو ذلك ، أكثر أو أقل . ولا يشترط على صاحب الأرض شيء من كل ذلك . ويكون الباقي للزارع قل ما أصاب أو كثر . فإن لم يصب شيئا فلا شيء له ولا شيء عليه . فهذه الوجوه جائزة . فمن أبى فليمسك أرضه » .. ثم يقول أن عقد المزارعة ليس له أجل « لأنه لم يوجب نص ولا إجماع فهو شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل بحكم النبى صلى الله عليه وسلم ... وليس لأحد أن يوجب ولا يحلل إلا بنص ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله تعالى وشرع من الدين ما لم يأذن به الله . قال الله تعالى : « أم للانسان ماتمنى ... » .

أما إجازته التعاقد فى المزارعة على مادون النصف على خلاف فعل الرسول فهو ليس خروجا على السنة أو قياسا عليها .. ويقول « إن حكم سائر الأجزاء كحكم النصف فإذا كان النصف حلالا ، فسائر الأجزاء حلال ، وهذا برهان ضرورى متيقن لا يجوز خلافه .. فإن المتعاقدين على النصف قد تعاقدوا على مادون النصف بدخول ذلك النصف » .

وجرى فى المساقاة على رأيه فى المزارعة . فأفتى بأن إيجار الماء لسقى الزرع لا يجوز . ولا يجوز شراؤه للوضوء أو الشرب .

لم يقتنع بهذه الآراء أحد من الفقهاء أو كبار ملاك الأرض الزراعية ، ولكنها بهرت شباب العصر المخلصين ، المتطلعين إلى العدل ، فألتفتوا حوله أينما اتجه ..

وجاه تجمعهم حوله ، من فتك بعض أعدائه به .. فقد كادوا له عند أمراء الولايات التي طاف أو يطوف بها ، وحرص عليه كبار الملاك والفقهاء المخالفون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، فقد وجد الحماية في حصن حصين من إعجاب الشباب والزراع والفلاحين به ، والتفافهم من حوله في جولاته بريف الأندلس .. وخشى الأمراء أن يبطشوا به ، فتنفجر الثورة عليهم .. ولكنهم ضايقوه وضيقوا عليه ، فأخذوا يقتطعون من أملاكه ، و يصادرون بعض أراضيه ، حتى اضطر الى الرحيل عن الأندلس كله ، بعد أن طاف بمعظم ريفه ومدنه والجزر التابعة له . إلى حاضرة أخرى من حواضر الفقه والفكر يشد الرحال ويركب البحر..

الى القيروان ، حيث تسربت كتب نادرة من خزائن قرطبة بعد نهبا ، وحيث يعيش عدد من فقهاء الأندلس ممن هاجروا في الأرض بعد فساد الأمر في الأندلس ، وبعد أن طفا الزبد ، وذهب ماينفع الناس !

وفى القيروان التقى بكثير من العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل المغرب ، وبقصاها من علماء المشرق .

وهناك استمع الى الفقهاء وناظرهم وناظروه وجلس إليه طلاب العلم .

ولكنه لم ينس قرطبة ولا الأندلس ، ففى قلبه حنين متوقد ! وإن نفسه لتتمزق حشرات .. !

كتب إلى صديق له بالأندلس : «أنت تعلم أن ذهني منقلب ، وبالى مضطرب بما نحن فيه من نيو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفرة ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع الى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لاجعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ماعودنا . وأن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم مما تحيف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمه التى غمرتنا لا تحمد ولا يؤدى شكرها ، والكل منحه وعطاياها ، ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبنا ، وكل عارية راجعة الى معيها وله الحمد أولا وآخرا » .

ولقد حاول أمير القيروان أن يصله ببعض الهدايا والمال ، تقديرا له ولكن ابن حزم رفض ، وكان يرفض عطايا الأمراء بعد بنى أمية ، ثم إنه على الرغم مما فقدته لم يكن فى حاجة ، وأنه ليشعر بعد فى أغوار نفسه أنه فوق الأمراء والوزراء لأنه كاتب وفقه ومفكر .

ولم يكن ابن حزم يأبى على غيره أن يقبل الهدايا من السلطان ، وكان يعجب لمن يتعففون عنها

بشبهة أن الحرام داخلها بغضب أو نحوه ، وهم فى ذات الوقت يسكتون عن المحرمات التى يفترونها
الأمرء كالغضب والفساد والإفساد ومالى ذلك ؟ ..

كان يهزأ بهم و يزرى عليهم إذ يتأون بأنفسهم عن الشبهات ، وهم يستبيحون المحرمات . و يغرقون
فيها إلى الأذقان ! .. وشبههم بالذين سألو عبد الله بن عمر عن المحرم فى الحج أو العمرة أعمل له أن
يقتل حشرات الفراش ؟ فسألهم ابن عمر : « من أنتم ؟ » فقالوا من « الكوفة » فقال لهم « قاتلكم
الله . تسألون عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى الله عنها ! ؟ »

استقر ابن حزم فى المغرب سنوات ، لم ينقطع فيها عن القراءة والكتابة ، على الرغم من أنه كان
ينفق وقتا طويلا فى مناظرة الفقهاء والجلوس فى الحلقات ليتلقى عنه طلاب العلم فى إعجاب به
شديد فى القيروان وغيرها من مدن المغرب .

وعلى الرغم من بعده عن الأندلس لم يهدأ عنه مخالفوه من الفقهاء هناك ، اذا استمر على منهجه من
نبذ المذاهب الأربعة ، ومهاجمة أتباعها ومقلدى الأئمة الكبار ، وازداد عنفا على مخالفيه ، واشتد فى
وجوب الاعتماد على النصوص وحدها ، وهاجم الذين يعتمدون على الرأى إن لم يوجد نص
وقادته حماسته للمنهج الظاهرى ورفضه للقياس وللاجتهاد بالرأى إلى الوقوع فى التناقض .

ذلك أنه كان يرى أن الحكم إذا لم يوجد فى النص أو فى إجماع الصحابة فهو على استحباب
الحال .. أى على الاباحة لأن الله تعالى قال : « وخلق لكم مافى الأرض جميعا » فكل مافى الأرض
مباح لبنى آدم ، الا ما حرمه الله تعالى بنص فى القرآن أو بالسنة النبوية . وتفهم النصوص بظاهرها
ولكل انسان حق فهمها ..

التزم ابن حزم هذا المنهج التزاما صارما شجع به غير أولى العلم على الفتيا ، فتجاسر بعضهم على
الشريعة ، وأشتطوا فى ذلك ، فخالقوا بسوء فهم نصوص القرآن والسنة وأجماع الصحابة ، على تقيض
ما أراد ابن حزم .

ثم ان ابن حزم نفسه فى رفضه القياس وأدوات الرأى الأخرى لاستنباط الأحكام فيما لم يرد به نص
ولم ينعقد عليه إجماع .. ابن حزم فى منهجه هذا وقع فى غرائب ! .

ذلك ان الفقهاء الآخرين عللوا الأحكام وفهموا أسبابها ، فألحقوا الوقائع الجديدة فى الحكم عليها ،
بما أوردته النصوص ، اذا اتحدت العلة وتمثلت الحالات .. أما ابن حزم فهو يرى أن الشريعة غير معللة
ولامسببة إلا بنفسها ، وإلا إذا وردت العلل والأسباب فى نصوصها .

ومن الغرائب التي وقع فيها :

أجمع الفقهاء على نجاسة الخنزير ولعابه قياسا على نجاسة لعاب الكلب ، ولكنه خالفهم جميعا لأن النص لم يرد على الخنزير ، ولا حرام ولا حلال إلا بنص ، فسؤر الخنزير إذن طاهر و بول الإنسان ينجس الماء لأنه حكم بنص ، وقياس الكلب والخنزير وسائر الحيوان خطأ .. فبوها لا ينجس الماء لأنه لا نص ولا إجماع !

— وأباح لغير المتوضئ بل وللجنب والحائض والنفساء مس المصحف والقراءة فيه . وهو في هذا كله يأخذ بأراء شيخ أهل الظاهر داود الأصبهاني الذي قال أنه لا نص يمنع هؤلاء من القراءة في المصحف

— واعتبر العمرة فرضا كالحج ، وركنا من أركان الإسلام لقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله »

— وقال أن الزواج واجب وفرض شرعى على كل من هو قادر على النفقة والعدل مع زوجته ، وذلك بنص الحديث الشريف : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج »

وهو في كل ما يأخذ وما يدع من أمور الدين لا يقبل مخالفة و يقسوعلى معارضيه و يتهمم بالجهل ، وقلة الدين ، وارتكاب الأخطاء الشنيعة . « !

وكان هذا الأسلوب في الجدل يوغر الصدور .

وقد وصفه بعض أصدقائه : « أوتى العلم كله ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم » .

وبدأ الذين ناظرهم في القيروان والمغرب يضيقون به .. فلم تعد الحفاوة كما ألفها في أول سنوات قدومه . !!

ثم إنه لقي صديقا عزيزا قادمًا من الأندلس ، ولاين حزم سبق فضل عليه ، ولكن الصديق نسي الفضل السابق وتجافى المودة ابن حزم . وحز هذا في نفسه وأدرك أن الحملة عليه من فقهاء الأندلس مع تغير الحال به ، وغضب أمراء الأندلس عليه . كل ذلك أفسد عليه بعض المودات والقلوب ، حتى قلب مثل هذا الصديق . !

ورأى ابن حزم أن يكشف للمسلمين حقيقة مهاجميه من فقهاء الأندلس عسى أن يبطل تأثيرهم

على الآخرين فكتب: «... قد يحمل أسم التقدم فى الفقه فى بلد ما عند العامة من لآخر فيه ، ومن لا علم عنده ، ومن غيره أعلم منه . وقد شهدنا نحن قوما فساقا حملوا اسم التقدم فى بلدنا وهم ممن لا يحمل لهم أن يفتوا فى مسألة من الديانة ولا يجوز قبول شهادتهم . وقد رأيت أنا بعضهم ، وكان لا يقدم عليه فى وقتنا هذا أحد فى الفتيا وهو يتغطى بالديباج الذى هو الحرير المحض لحافا ، ويتخذ فى منزله الصور ذوات الأرواح من النحاس والحديد تقذف الماء أمامه ، ويفتى بالهوى للصديق ، وعلى العدو فتيا ضدها ، ولا يستحى من انحراف فتاوية على قدر ميله الى من أفتى وانحرفه عليه . شاهدنا هذا نحن منه عيانا ، وعليه جمهور أهل البلد ، إلى قبائح مستفيضة ، لانستجيز ذكرها لأننا لم نشاهدها »

ثم يوجه حديثه إلى الناس كافة فيطالبهم من جديد بالإجتهد لإستنباط الأحكام من النصوص ، فهذا خير من التقليد « والمجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب . فهو فى تقليده عاصى لله عز وجل لأنه فعل أمرا قد نهاه الله عنه وحرمه عليه .. وكل من عمل عملا بخلاف الله تعالى فهو باطل ... والمجتهد المخطئ أعظم أجرا من المقلد المصيب وأفضل ، لأن المقلد المصيب آثم بتقليده غير مأجور بإصابتة ، والمجتهد المخطئ مأجور باجتهاده غير آثم بخطئه . فأجر متيقن وسلامة مضمونة أضمن من أجر محروم وإثم متيقن بلا شك .

وهذا أغضب فقهاء الأندلس جميعا فكلهم مقلد للإمام مالك ، ثم أنه ليتهمهم بالفسق والجهل ومخالفة الشريعة فى حياتهم الخاصة وباقتراف المنكر والتزوير فى فتاويهم .

وأغضب معهم فقهاء القيروان والمغرب كله لأنهم هم أيضا مقلدون للإمام مالك ... ومامنهم مجتهد واحد مخطئ أو مصيب !

واستعرت الحملة عليه فى الأندلس ، واتهمه فقهاؤها بالقذف فى المحصنين والمحصنات ، وطالبوا أمراءهم بإقامة الحد عليه .

ونبأه المغرب العربى ، واضطربت تحته أرض القيروان التى اطمأن عليها سنوات ، وزادت الجفوة بينه وبين فقهاؤها ..

ولكن كيف العودة ؟ وهم هنالك يتربصون . به و يترقبون عودته ، وهنا فى القيروان والمغرب أيضا أصبحوا من المتربصين !

واعتزل الحياة والناس ، والكتابة فى الفقه ، وانكب على قراءة اليونانيات والمعارف الأخرى وعادوته طبيعة التحدى فرفض منطق أرسطو! ولكن أبن حزم لم يحكم الحججة لاضطراب نفسه وقلقه مما

يعانى .. وأتاح لمنافسيه أن يسخروا به لأنه يطاول أرسطو بغير دليل مقنع !

وخلال قراءاته المتنوعة فى المعارف الإنسانية قرأ أن جالينوس يفضل اللغة اليونانية على غيرها من اللغات ويقول أن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

ووقف ابن حزم عند رأى آخر يذهب الى أن العربية هى «أفضل اللغات لأنه نزل بها كلامه تعالى» .

كتب ابن حزم يناقش أصحاب هذه الآراء : « وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لامعنى له لأن وجوه الفضل إنما هى بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) « وقال تعالى » (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك ... ثم قال عن دعوى جالينوس أن لغة اليونان أفضل اللغات « وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة غير لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكره جالينوس » .. أى اما نباح كلاب أو نقيق ضفادع .. ثم استطرد : « ان الله قد كلم موسى عليه السلام بالعبرانية (وهى لغة موسى وقومه) ونزل الصحف على إبراهيم عليه الصلاه بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساوى واحدا . أما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء فى النص والإجماع ولا نص ولا إجماع فى ذلك . إلا أنه لا بد من لغة يتكلمون بها ضرورة ... وقد ادعى البعض أن اللغة العربية هى لغة أهل الجنة ، واحتج بقول الله عز وجل (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .. فقلت له : قل إنها لغة أهل النار لقوله تعالى عنهم أنهم قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . ولأنهم قالوا : ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . ولأنهم قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . ثم يستطرد : « ... وقد أدى هذا الوسواس الباطل باليهود الى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية ، فلا يكتبون عليهم غيرها .. وفى هذا من السخف ماترى . وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه . عز وجل لا اله الا هو وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وخلال اعتكافه فى القيروان كتب رسالة فى أسماء الله الحسنى ، وخرج بها على فقهاء القيروان والمغرب ، فأبدوا إعجابهم بها ، وعجب سائر العلماء لابن حزم هذا : لحدة طبعه وعنقه ، ولعمق فكره ، وجمال أسلوبه وانفجار علمه وتدقيقه .. وكرر أحدهم مقاله صديق لأبن حزم من قبيل « هذا الرجل أوتى العلم كله » ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم فهو يصك مخالفه صك الجندل للوجه . »

ورضى هو عن زوال الجفوة بينه وبين علماء القيروان والمغرب .

وأستبد به الإصرار على التفرغ للكتابة فى الفقه والأصول والأدب . وهو يفكر فى أى مسائل الفقه والأصول يبدأ ، إذ برسالة تأتية من صديق فى الأندلس ، فهى رسالة أسعدته حقاً .. فهذا الصديق مرشح لمنصب أمير على إحدى مدائن الأندلس ، وهو يطلب من ابن حزم أن يكف عن الكتابة فى الفقه والأصول حتى تهدأ الثورة عنه فى الأندلس ، وحتى يرتب له أمر عودة كريمة هادئة فى المدينة التى سيصبح أميرها .. واقترح الصديق على ابن حزم أن يكتب رسالة عن النساء والرجال والحب .. !

فليكتب عن العشاق فهذا أروح لنفسه ، وهوبلا ريب صارف عنه غضب الأمراء وتربص الفقهاء وكيد كبار الملوك فى الأندلس .

أخذ ينتقل بحرية فى مدن المغرب العربى ، ويستحضر ذكرياته ومآمره من تجارب ، وماحفظ من أخبار .

ثم عكف يكتب رسالته عن الرجال والنساء والحب وسماها « طوق الحمامة فى الألفه والألاف » . وهى ، رسالة عن أحوال المحبين وعلامات الحب ومايعرض فيه من وصل وهجر ، واقتراف للمعصية ، وتعفف عنها ..

على أن ابن حزم لم ينس فى أول كتابه « طوق الحمامة » مايصنعه به مخالفوه من الفقهاء والعلماء فقال عنهم « وأساءوا العبث فى وجهى ، وقد فونى بأنى أعضد الباطل بمجتنى ، عجزا منهم عن مقاومة ماأوردته من نصر الحق وأهله ، وحسدا لى » .

ولقد حذر ابن حزم فى صدر كتابه طوق الحمامة ، أن يظن أحد به ظن السوء ، فىأثم بهذا الظن .. وبعض الظن إثم .. ثم يشكر لصديقه وده الصحيح . « وأنا لك على أضعافه » ويحمد له مشاركته إياه فى الخلو والمر والسر والجهر ويستشهد بأبيات له :

أود ودا ليس فيه غضاضة	وبعض مودات الرجال سراب
ومالى غير الود منك إزادة	ولا فى سواه لى إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى	هباء ، وسكان البلاد ذباب

ثم يقول : وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ، ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه ، ومايقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيدا ولا مفننا ، ولكن موردا لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره والأولى بنا مع قصر أعمارنا إلا نصرفها الا فيما نرجوه رحب المنقلب وحسن المآب غدا . ثم يستطرد كأنه يعتذر عما سيورد من أخبار العشاق فيذكر

ما جاءت به الآثار: «أجوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق» وأجوا النفوس أى أحلوها على الاستجمام .

«من لم يحسن يتقنى لم يحسن بتقوى» . و يتقنى يكون فتى فى مرجه ..

«أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد» .

ثم مضى يقول : إنه يكتب عما شاهده وعيانه وما حدثه به الثقات من أهل زمانه خلال تجربة طويلة عرف فيها الحياة وعرف الناس .

وبكتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » وأسلوبه الذى يعتبر من أرقى أساليب النثر الفنى صح أن يطلق عليه « أديب الفقهاء » .

ومن عجب أن ابن حزم فى كتابته عن خلجات النفس ، لم يقف عند الظاهر كما ألزم نفسه فى الفقه والأصول بظاهر النص ، بل تعمق النفس البشرية ، وزاوج بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، وأدرك خفايا الصبوات والنزعات .

ومن عجب ان ابن حزم أيضا أنه وهو الإمام الفقيه الذى يتربص به الفقهاء من مخالفيه ، قد كتب عن الحب والمحبين بعبارات لم يتحرج فيها من شيء ، ولم يتحرر تغطية الألفاظ التى ينبغى أن تعطى .

والأخبار التى رواها فى « طوق الحمامة » مما شاهد وعين أو سمع مع ثقات ، تصور الحياة الإجتماعية فى الأندلس ، أصدق التصوير ، وأعذبه أيضا !

وكثير مما كتبه ابن حزم فى طوق الحمامة لا يمكن إعادة نشره الآن بعباراته وألفاظه العارية ، فقد ينبو بها ذوق العصر ، وينكرها الحياء العام ، وحسن الآداب فى هذا الزمان !

وفى طوق الحمامة فوق هذا رصد لبعض الوقائع الهامة فى تاريخ الأندلس ، وهى وقائع عاش فى غمارها . ابن حزم .. والكتاب ينتهى بمواعظ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتبين فضل الطاعة وقبح المعصية ..

غير أن ما يسترعى النظر فى هذا الكتاب هو هذه الحياة الغريبة التى كان يحياها الأثرياء من أهل الأندلس .. حتى لتكتب نساء الملوك والأمراء أشعار غزل فيمن يعشقن ولا يجدن إليهم سبيلا ، وويل يومئذ للمعشوق إن عرفه أهل العاشقة !!

ومن عجائب الحب فى ذلك العصر أن بعض قواد الجيوش بذلوا حياتهم لافى ميادين المارك مستشهدين ، ولكن فى مخادع نساء فروا إليهن بعد الهزيمة ، فأكتشفهم العدو المنتصر فقتلهم وسبا النساء !!

وكتاب طوق الحمامة ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب ، فاكتب أحد من فقهاء أو علماء الإسلام كتابا أو فصلا أو مقالا فى الحب بمثل هذه الروعة أو الصراحة ، ولا بمثل هذا العمق فى تحليل النفس .

وقد أراد ابن حزم أن يقول فى هذا الكتاب أن علاقات الرجال بالنساء علاقات إنسانية ، وضرورة من ضرورات الطبيعية ، وفترة ، فما ينبغى أن يحجم العلماء والفقهاء عن تناولها ، وإنما عليهم أن يبصروا بها الرجال والنساء ، وما يلزم لهم أو يحرم عليهم من هذه العلاقة ... وهو يكرر القول أن الجسد لا يصح إلا بشيء من المرح ، فيجب ألا يعزف أحد عن المرح ، فالمرح هو الذى يقوى النفس على مواجهة جد الأمور ، وليس تقل الظل من الدين فى شيء ، وقد كان الرسول يمزح ، وكذلك الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وبدأ ابن حزم رسالته طوق الحمامة بالكلام فى ماهية الحب بقوله : « الحب — أعزك الله — أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرى حقيقتها الا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ولا محظورا فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل » ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير» وذكر بعض أسماء الخلفاء العشاق فى الأندلس ... واستطرد : « ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم واحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغى الأخبار به عنهم — لأوردت من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل . [ولكنه تحدث عن حب الصالحين ، ومنهم أحد فقهاء المدينة السبعة .] وذكر أن المحبة ضرورية فأفضلها المتحابين فى الله عز وجل ، ثم محبة القرابة ، ومحبة الألفة ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر ، ومحبة العشق الصحيح الممكن من النفس التى لافناء له إلا بالموت : « وإنك لتجد الانسان السالى برغمه وذا السن المتناهية ، إذا ذكرته تذكره وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب واحتاج له الحنين » .

وعرف محبة العشق بأنها « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ... وإنك لاتجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكله ، واتفاق فى الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه ، زادت المجانسة وتأكدت المودة . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : (الأرواح جنود مجنودة ماتعارف منها ائتلف وماتنافر منها اختلف) وقول مروى عن أحد الصالحين : (أرواح المؤمنين تتعارف) . ولهذا اغتم بقرائى حين وصف له رجل من أهل التقصان يحبه فقتيل له فى ذلك فقال : « ما أحبنى الا وقد وافقت فى بعض أخلاقه » . ويمضى فى الحديث عن « العلة التى توقع الحب » فيقول : « الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل إليه ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ... فإن ميزت وراءها شيئا اتصلت

وصححت المحبة الحقيقية . وان لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبا الصورة وذلك هو الشهوة» :

ثم يمضى فى رسالته فيرسم ظاهر المجتمع الأندلسى وأعماقه ، و يعلل تعلق الإنسان بشكل معين فيروى عن نفسه أنه أحب شقراء فى صباه فظل يحب الشقراوات وهكذا كان أبوه ، وعلى هذا سار الخلفاء والكبراء فى الأندلس .

ويكتب عن حب الفقهاء ، ومافيه من طرائف ... ثم يصور ألوانا من الفحشاء يستعيز بالله من شيوعها فى قصور الكبراء والأثرياء ، وفى الخمائيل المتناثرة بالمدن الكبرى فى الأندلس .

وكأن شيئا لم يكن يشغل الفئة الإجتماعية التى تحرك فى إطارها ابن حزم إلا العشق والعلاقات الشاذة ! .

وهو فيما يروى من أخبار يؤكد عدم ثقته بالنساء ، يسوق خبرا عن امرأة « حجت خمس مرات وهى من المتعبدات المجتهدات . » قالت : « يا ابن أنخى لا تمس الظن بامرأة قط فإنى أخبرك عن نفسى بما يعلم الله عز وجل : ركبت البحر منصرفه من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن قد حججن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيتة فى أول ليلة أتى إلى إحدى صواحبى ف.... (وذكرت نوعا فاحشا من الغزل) فأمكنته فى الوقت من نفسها .. ثم مر عليهن كلهن فى ليالى متتاليات ... فلم يبق له غيرى ، فقلت فى نفسى : (لأنتمن منك .) فأخذت موسى وأمسكتها بيدي فأتى فى الليل على جارى عادته فرأى موسى ، فارتاع وقام لينهض ... فأشفقت عليه وقلت له وقد أمسكته : (.. أو اخذ نصيبى منك) .. وتنى المتعبدة المجتهدة خبرها بإعتراف ثم بقولها « ... وأستغفر الله » .. والكلمات والعبارات المكشوفة التى روى بها ابن حزم الخبر ، إذ لا يمكن نقلها !

و يعلل ابن حزم مظاهر الفساد التى غشت المجتمع الأندلسى . باختلاط الرجال والنساء بلا قيود ، وإظهار النساء زينتهن وهن يعرضن للرجال ، وفراغ بال النساء ، فلا شىء يشغل المرأة الغنية فى الأندلس على الإطلاق .. حتى أعمال المنزل كن لا يقمن بها فلدنهن الجوارى أو الخصيان !

ويحمل على خروج النساء وحدهن بلا زوج أو محرم ، والتقاؤهن بالرجال فى المنتزهات ، وقال إن هذا الأختلاط بلا رقابة هو ذريعة الفساد وانتشار الفحشاء .. وساق خبرا عن فتاة حجازية حملت من أحد ذوى قرباها ، فلما سئلت فى ذلك قالت : « قرب الوساد وطول السواد . » أى طول الليل .

وهو إذ يسوق أخبار الفحشاء فى رسالته يستخلص منها العبرة ، و يسوق النصيحة الى الرجال

القوامين على النساء ، أن يسدوا أمامهن ذرائع المعصية . من البطالة وحضور مجالس السمر والأفراد بالرجال . ويقول فى ذلك إن المرأة الصالحة إذا سدت أمامها ذرائع الفساد ظلت على صلاحها ، أما الفاسدة فإذا سدت أمامها الذرائع تحايلت عليها تمارس الفساد !

وقد روى ابن حزم طرائف عن وسائل الاتصال بين المحبين ، منها تبادل خصلات الشعر ، واستعمال الحمام فى نقل رسائل تحت الأجنحة !

وعلى الرغم من صور الفساد التى رسمها ، فقد صور مظاهر العفة أيضا : كيف تصون فتاة نفسها على الرغم من الإغراء ، وكيف يعف فتى تراوده امرأة ذات جاه وجمال وسلطة ونفوذ ، ستؤذيه إن لم يطاوعها فيما تريد منه .. !

وهو يروى ما شاهده من طرائف المحبين فقد شاهد فتاة فى أحد المتنزهات تتبع فتى وتطارده وهو لا يكلمها ... حتى إذا غاب عنها انكفأت تقبل مواقع قدميه ، والأرض التى مشى عليها ... !

ويسوق غرائب عن صور الشذوذ ! من ذلك أن رجلا كان صالحا فأضله الشيطان قال إلى فتى من طلاب العلم مليح الوجه ، وترك الرجل المسجد الذى كان يعلم فيه إلى المسجد الذى كان يتلقى فيه الفتى العلم . « وكان الفتى يفضب ويضجر ويقوم إليه فيوجهه ضربا ، و يلطم خديه وعينيه ، فيسر الرجل بذلك ويقول : (هذا والله أفضى أمنيته والآن قرت عيني) . »

ولم يكن ابن حزم قليل الثقة فى السافرات المتبرجات المختلطات وحدهن ، بل أعلن فى رسالته سوء ظنه بالنساء كافة حتى المحجبات العابدات المصونات !! فىقول : وكم داهية دعت الحجب المصونة ، والأستار الكشيفة والمقاصير المحروسة .. ولولا أن أنبه عليها لذكرتها .. « ولكنه تحدث عن يعش فى المقاصير المحروسة .. عن مغامرات بعض أمهات الخلفاء وماقال عشاقهن من شعر فيهن ، وما أصاب عشاقهن من نكبات .. !! »

وفى أكثر من موضع من رسالة « طوق الحمامة » يصف الأسمار ، ومجالس الأتس فى الأندلس ، ومتنزهاتها ، وما يحدث فيها .. فهذا فتى وفتاة « اجتمعا فى مكان على طوب » .. وآخرون « يضطجعان أمام الناس ، وبينها المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقى رأسهما وراء المسند يقبل كل واحد منها صاحبه ولا يريان ، وكأنها يتمددان من الكلل » وفتى وفتاة خرجا فى نزهة مع الكبار من أهلها ، فأمرت السماء ببلل الجميع ، فألقى إليها أحد الكبار بغطاء التفا به وجمعها ، ليتقيا المطر متلاصقين تحت الغطاء ..

وكانت كل هذه المراثى وغيرها من ألوان المعاصى التى جهر بها الناس تثير سخط ابن حزم ، وتستدعى همته لمقاومة الفساد بدءا بما شاهده فى قصور العلية حيث كانت تضطرب حياته ، إلى المنتزهات العامة حيث يتعاطى سائر الناس فنون العشق الحرام !

وأهى ابن حزم رسالته بإعلان سخطه على صور الفساد التى ساقها ، والتى ذكر أسبأ بعض أبطالها وكتّم البعض ، وعلى صور أخرى أشار إليها ولم يكتب عنها لشدة فحشها كما يقول !

وفى آخر الرسالة كتب فصلا عن جزاء أهل الفساد وما ينتظرهم فى الآخرة ، وما يجب أن يعاقبوا به فى الدنيا من نفى وجلد ورجم حتى الموت ، وتحريق بيوتهم وأجسادهم . ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وهذا هو واجب المسلم ، فإن لم ينهض به أئم . !

على أن هذا الوعظ كله لم يشفع لابن حزم ، فقد هاجمه كثير من الفقهاء عندما ظهر كتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » واتهموه أنه يجرى الشباب على المنكرات وعلى الفجور ، وأنه بما ساق من أخبار يرسم لهم ويسهل عليهم اقتراح المنكرات ! (واتهموه بأنه يهدر هيبة الفقهاء بما ذكر عن صور فسق بعضهم .. وهم أفراد منبوذون لم يعد أحد يسلكهم فى زمرة الفقهاء .

لقد كتب عن فسق من كان عليه مدار الفتيا فى قرطبة . أى مفتيها الأكبر .. وهو فقيه أسقطه فسقه وتبرأ منه الفقهاء والطلاب ، وما ذكر ابن حزم ما كان من هذا الفقيه وأمثاله ، إلا تشهيرا بالفقهاء كافة ، وتحريضا للعامة على إهانتهم والازدراء بهم !! .

لم يكن الفقهاء المنحدرون من أصول عربية هم وحدهم الذين سخطوا على كتابه طوق الحمامة ، بل أنكروه البربر أيضا .. ذلك أنه قال عنهم : « فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتمهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره بن أراد ، أن يتوب إلى الله ، فلا يمنع من ذلك . وينكرون على من تعرض له بكلمة (يمينه من المعصية) ويقولون له أتحرّم رجلا مسلما من التوبة ؟! لم يتقبل البربر هذه السخرية منهم ، وكانوا يحكون بعض إمارات الأندلس ، ومنهم قواد لسكر إمارات أخرى ، فتوعدوا ابن حزم ..

مأباله ومأبال قومه من عرب وبربر ممن يعيشون فى الأندلس ؟! إن هو كتب فى الفقه كفروه ، فإن كتب فى الحب ارجفوا عليه وشهروا به وتوعدوه !! فيما عساه يكتب بعد ؟ وإذن فليترك الحديث على الرجال والنساء ، والحب ، والفقه ، والأصول ! فليكتب فى السياسة ، وفى التاريخ ...

ونشر رأيه فى الخلافة بعيدا عن شبهات الكتابة فى الحب وأحواله والفقه وأصوله .

اشتراط أن يكون الخليفة قرشيا ، ورجلا ، وعاقلا ، وعالما بشئون الحكم ، وصالحا ، لكى تصح له

الخلافة أو الإمامة .. وقرر أن الخلافة ليست وراثية : « لاختلاف بين أحد من المسلمين فى أنه لا يجوز التوارث فيها .. ولا فى أنها لا تجوز لمن لم يبلغ .. ولا خلاف بين أحد فى أنها لا تجوز لامرأة » .

أما طريقة تولي الخلافة فهى أحد طرائق ثلاث : إما أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى واحد يختاره إماما من بعده ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فعل أبو بكر .. فتم البيعة على الخليفة المختار .

وأما أن يعهد الخليفة الحى لرجال ثقات ، أن يختاروا من بينهم واحدا ، ثم تم عليه البيعة ، كما فعل عمر ، إذ عهد إلى ستة من الصحابة ، مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، لينتخبوا من بينهم رجلا .

وأما أن يتقدم رجل صالح كفاء ، يرى نفسه أهلا للخلافة ، فيدعو إلى نفسه ، ويبايعه الناس ، فيجب اتباعه ومن يخرج عليه فهو من أهل البغى .. كما قام على بن أبى طالب فدعا لنفسه وبايعه الناس ، فوجب اتباعه ..

وعلى أية حال فيجب ألا يبقى المسلمون أكثر من ليلتين بلا إمام . بهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تصح الخلافة إلا بالبيعة الحرة .

وتناول ابن حزم موقف على ومعاوية .. ثم أقدار الصحابة من الخلفاء الراشدين ، والمفاضلة بينهم . وحسب رأيه كان يجب على معاوية أتباع على ، وعدم اتباعه بغى عليه ، فعواوية ومن معه إذن من أهل البغى .. !

ولكن ابن حزم لم يدين معاوية بالبغى على الإمام على كما قضى بذلك الأئمة الذين تعرضوا لهذا الأمر من قبل ، فاتخذوا أحكام البغاة من سلوك على مع معاوية وجنده ، واعتبروا على بن أبى طالب ، أول من ابتلى بأهل البغى ، فاصنعه معهم أحكام يجب اتباعها شرعا ... بهذا أفتى الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ومن تابعهم .

لم يدين ابن حزم معاوية ! ذلك أنه أموى بالولاء كما قلنا ، متمصب لهذا الانتفاء .. وهو مع ذلك لم يؤيده فى الخروج ورفض البيعة للإمام على

وفى رأى ابن حزم أن واقعة الجمل التى حارب فيها معاوية عليا ، لم تكن حربا حقا ، فلم يجتمع معاوية ومؤيدوه للحرب ، بل اجتمعوا للتشاور . وكان الجند كثيفا فى معسكر على ومعسكر معاوية .. وتجادل الجند ، فاشتبكوا دون أن يريدوا اقتتالا .. !

أما أهل صفين فقد أرادوا القتال حقا . وابن حزم لا يعفيهم من البغى ، ولا يدينهم به ، وإنما يترك أمرهم إلى الله تعالى . !

و يقوم ابن حزم مكانة على بين الخلفاء الراشدين ، فيجمله آخرهم مكانة .

و يتحدث عن أهل البيت الذين وردت فيهم الآية فيستثنى منهم على بن أبى طالب ، و يفسر الآية بأنها تعنى نساء النبي ، و يفضل عليهن عائشة .. يفضلها عن خديجة و فاطمة الزهراء رضى الله عنهن جميعا . و يذهب إلى أن عائشة هي سيدة نساء أهل الجنة ..

و لم يكذب ابن حزم ينشر هذه الآراء حتى زلزلت الأرض من تحته زلزلا عنيفا .. ذلك أن أبناء فاطمة كانوا قد أسسوا دولة إسلامية ضخمة ، لتعيد الإسلام إلى عصوره الزاهرة ، و هي دولة أسسها الدولة الفاطمية ، أسسها الفاطميون فى المغرب ، ثم زحفوا إلى مصر فلكوها ، و أنشأوا مدينة القاهرة ، و الأزر الذى عمر منذ إنشائه بالشيوخ و الطلاب ، و أرتفعت منارات القاهرة تضىء لما حولها ، بعد أن خبت منائر بغداد و قرطبة .. و أصبح الأزر بمجهود علمائه و شيوخه و طلابه قلعة الإسلام فى احياء السنة ، و محاربة البدع ، و نشر علوم الدين و اللغة و آدابها ، و سائر المعارف الإنسانية ، و تفجر منه علم عزيز ، عم الدنيا ، و توجهت فيه شعلة الفكر تحرق اسمال الممرد و التخلف ، و تنير أطباق الظلمات المتراكمت ، و تملأ العقول بوهج خالد من الإيمان و الثقافة ، و أصبح حصنا للدين و اللغة و المعرفة .

إن الذين يحبون و يشايعون على بن أبى طالب و بنيه قد أصبحوا ، يقودون مصر و المغرب العربى و الأندلس ، و كثيرا من أقطار الإسلام ! ثم أن الشيعة و أهل السنة على السواء لا يقبلون ما قاله ابن حزم عن الإمام و النباغين عليه ، و عن الظاهرة خديجة ، و فاطمة الزهراء التى قامت دولة بأسرها تنتسب إليها .. و الأندلسيون بصفة خاصة لم يعودوا يحملون للأمويين ، ما حملوه من تقدير و حب ، أيام الخلفاء العظام ، بل لقد شيعوا الأمويين باللعنات ، حين سقطت دولتهم ، لكثرة ما عانوا من مظالم فى نهايتها ، و ما عاينوا من فساد ، و لأن الأمراء الأمويين فى أواخر عهد الدولة الأموية ، خرجوا عن تقاليد السلف الصالح بالأندلس ، و أهدروا الإسلام و أسقطوا هيبة الخلافة ، و انشغلوا بالترف ، و الصراع ، و اللهو .. و منهم من أذل العلماء و أهل الفكر و الفقه ، ليسود الندامى و الجوارى و الغلمان ، و منهم من نزل لأمره الفرنجة عن بعض أرض المسلمين ، و دفع لهم الجزية ، و استعانهم على بنى عمومته .. و تركهم يجوسون خلال الديار ينتهكون و يغتصبون و يقتلون ! !

و لئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم حين أفتى بما خالف كل أصحاب المذاهب من الأئمة السابقين ، و حين شوه بعض الفقهاء و العلماء و أدانهم بالفسق ، و ذكر عنهم أخبار مهينة .. لئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم و هو يصنع هذا كله و اكتفى بجفافاته و الغضب منه ، ان النار

الآن لا يستطيعون السكوت بعد ، وهويناصب على بن أبى طالب العداء .. !

ثار عليه الناس جميعا ، واتهموه بأنه « ناصبى » قد ناصب على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء العداء ! فلا مقام له بينهم فى القيروان والمغرب كله بعد ، فما من أحد يستطيع أن يلقاه بغير الإنكار له . !!

أما فى الأندلس فهم ينتظرونه لينزلوا به العقاب .. عسى أن يشفى العقاب صدور قوم موغرين ! .

وهكذا وجد نفسه قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلا هو يستطيع البقاء فى المغرب كله ، ولا هو يجسر على العودة إلى الأندلس . !!

غير أن صديقه الذى كان مرشحا لتولى إمارة إحدى الإمارات ، قد أصبح اليوم أميرا على « ميورقة » إحدى جزر الأندلس ..

ودعا صديقه ليقم فى الجزيرة الجميلة الهادئة . وكان الأمير الجديد ذا مكانة فى الدولة ، فوعد ابن حزم بالحماية ... وشرط عليه ألا يشتغل بالسياسة ، وألا يكتب ما يثير الناس . ، وأن يتفرغ للكتابة فى الدين ... فهو مهما تكن مشاكل الكتابة فيه ، أقل هما من الكتابة فى السياسة

إن هذا هو ما يريد ابن حزم على التحقيق : السكينة ، والملجأ الأمين ، فى مكان هادئ جديد ، بجوار صديق كرم ، والعودة إلى الكتابة فى الفقه والأصول

لقد أنضجته التجارب والمحن والقراءات والتأملات .. وأن له أن يصوغ منهجه وآراءه الفقهية المتناثرة فى مجلدات متكاملة .

وسافر إلى « ميورقة » ليقم فى أطيب حال ، فى ظل ظليل من حماية أميرها ومودته .. وكان الأمير قد أعد قصرا فاخرا لابن حزم ، وهب له بعض الجوارى الشقراوات . فهو يعرف ذوقه . وخزانة كتب جمع فيها كل ما يطيب لقلبه أديب كابن حزم ...

وكما يعتكف العابد فى المحراب ، اعتكف ابن حزم فى داره ، لا يخرج منها إلا لحظات لصلاة الجمعة ، أو للسمر مع صديقة الأمير ، فيدارسه فيما أهدى إليه من آراء وأفكار .

لقد خرج ابن حزم من كل مأمربه بعبرة جعلها دستورا لما تبقى من حياته : « ليس فى العالم منذ كان إلى أن يتناهى ، أحد يستحسن المهم ، ولا يريد إلا طرحه عن نفسه ، فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى ذلك السر العجيب وأثار الله لفكرى هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل

موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذي هو المطلوب النفس فلم أجد لها إلا في التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للأخرة» .

علمته الأيام في تداولها بين الناس أن « لذة العالم بعمله ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل ، أعظم من كل لذة في الحياة الدنيا .. وإذن فليمنح هو ما بقى له من العمر للذات العليا : العلم والحكمة والاجتهاد لله .

وأنه ليعرف فيما عرف من العجائب « أن الفضائل مستحسنة مستثقلة ، والردائل مستقبحة ومستحبة » .. فليكن إذن من النفر القلائل الذي يناضلون من أجل الفضائل مهما تكن مستثقلة لكم صقلته السنوات !

فها هو ذا ينصح من يلتمس عنده حسن النصيحة : « احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من أن توصف بالدهاء ، فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك ، وربما قتلك » .. ويقدم نصيحة أخرى : « إياك ومخالفة الجليس ، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك وأخراك وإن قل ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلا . وأن لم يكن لابد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » .

واعتذر للناس كافة عن حدته في الكتابة والجدل بمرض أصابه ولزمه ، فبدل خلقه من دعة إلى عنف : « لقد أصابتنى علة شديدة ولدت ربوا في الطحال شديدا ، فولد ذلك علي من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلت الصبر ، والنزق واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى . وصح عندي أن الطحال موضع الفرج وإذا فسد تولد ضده » .. ولكنه مع ذلك لم ينكر أن مصاولة المخالفين هي التي حفزته إلى كثرة القراءة وإمعان النظر ، وقدحت ذهنه ، فأندلعت منه الأفكار .

ما أعجب ما مر به في حياته المضطربة من أحوال الناس ! ...

وإنه في تلك الجزيرة الهادئة من جزر الأندلس ، ليشعر بالطمأنينة ، والسكينة ، وبالراحة ، والأمن ، في ظل جسارة صديق يتحدى الخطر .. إنه في إعجابه العميق بمرودة صديقه هذا الذي يحميه ويكرمه متفضلا عليه لا رادا لجميل سابق أو لسالف عارقة .. انه في مكانه هذا ليذكر صديقا آخر في الزمن البعيد ، كان كاتباً ، ونمت بينها المودة والمحبة وهما في السنوات الخضر من أول العمر .. ما أبعد الفرق بين الصديقين .. !

كتب ابن حزم عن ذلك الصديق القديم : « كان متصلا بي ومنقطعاً إلى أيام وزارة أبي رحمة الله

عليه ، فلما وقع بقرطبة ما وقع ، وتغيرت أحوالي ، خرج إلى بعض النواحي ، فأتصل بصاحبها وعرض
جأه . وحدثت له وجاهة وحالة حسنة . فحللت أنا تلك الناحية في بعض رحلتي ، فلم يوفني حتى ،
بل ثقل عليه مكاني ، وأساء معاملتي وصحبتى . وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد
وأشتغل عنها بما ليس مثل شغله ... فما كلفته حاجة بعدها .. » .

مهما يكن من الصعاب التي مرت به ، فما هوذا الآن في لين من العيش لا ينقصه إلا أن يكتب ،
وينشغل بالعلم ، والحكمة ، والأجتهاد لله عزوجل ... وكل ما حوله من راحة ، ومتاع ، ودعة ، وطيب
العيش ، وجمال الطبيعة ، وصباحة الوجوه ، ودفء المودة ... كل ما حوله يعينه على ما يريد من تفرغ
للكتابة ..

على أنه لم يلبث غير قليل في معتكفه الرائع . ذلك ، حتى أخرجه الناس منه ، ليتلقوا عنه ، وذهب
إليه بعض العلماء لينظروه .. لقد وجد في ميورقة تلاميذ وأتباعا معجبين به على الرغم من كل ما يثار
حوله ... ولقد ناظره أحد الفقهاء يوما فلما ظهر عليه ابن حزم قال الفقيه : « تعذرني ، فإن أكثر
مطالعاتي كانت على شرح الحراس » (جمع سراج) . فقال ابن حزم « وتعذرني ، فإن أكثر
مطالعاتي كانت على متابر الذهب والفضة » .

وامتدت عليه حياة صديقه أمير ميورقة إلى حيث أراد أن ينتقل من أرض الأندلس ، فذهب إلى
بعض المدائن المجاورة يناظر ويعلم ، ثم ذهب إلى قرطبة نفسها ، في موكب من الأتباع ، والدواب
تحمل كتبه حيثما أنتقل .

وعاد إلى ميورقة لمعتكف من جديد .. ولقد لقي أحد الفقهاء في بعض رحلته ، فتناظرا أمام
الناس ، وحين انتصر ابن حزم في المناظرة قال له الفقيه : « أنا أعظم منك همة في العلم ، لأنك إنما
طلبت وأنت معان عليه فتسهر بمشكاه الذهب ، وطلبت وأنا أسهر بقنديل السوق » . فرد ابن حزم : « هذا
الكلام عليك لالك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته
في حال ماتعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر في الدنيا والآخرة . »

وعنى ابن حزم في تلك الفترة بصقل آرائه وأفكاره وصياغتها في الصورة التي ستركها من بعده
للتاريخ .

واتخذ لنفسه منهجا عقليا خالصا تأثر فيه بالإمام جعفر الصادق عل الرغم من انتمائه وولائه
الأموى . فأعتمد كما اختط الإمام الصادق جعفر بن محمد على الإستقراء والتجربة ، وبصفة خاصة
في دراسته عن الأخلاق التي ضمنها رسالة صغيرة عرفت باسم حكم ابن حزم أو مداواة النفوس . ولا

ريب أنه أفاد من تراث الفكر المصرى القديم ، والفكر الفارسى ، والهندى ، واليونانى ، وكانت كل تلك الآثار قد ترجمت إلى العربية منذ أجيال .. ولم يعتمد على إمامه بالفكر الإنسانى فحسب ، بل على فهمه لأحوال المجتمعات التى عاش فيها ، وعلى تجاربه وحسن معرفته بالناس والحياة .

ومن هذا التجاريب والدراسات والمعارف استقرأ آراءه فى الأخلاق . فهو يرى أن هدف النشاط الإنسانى هو دفع المم والحصول على اللذة ، وهى عنده لذة الروح .

ويرى فى الفضيلة رأى أرسطو ويقول : « الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط ، وكلا الطرفين مذموم ، والفضيلة بينهما ... حاشا العقل ، فإنه لا إفراط فيه ..

وهو يرى رأيا قريبا من رأى أفلاطون فى أصول الفضائل وأصول الرذائل : « أصول الفضائل أربعة ، عنها تتركب كل فضيلة وهى العدل والفهم والنجدة والوجود .

وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة ، وهى أضداد الذى ذكرنا ، وهى الجور ، والجهل ، والجبن ، والشح . والعفة والأمانة نوعان من أنواع العدل والوجود .

وأفلاطون يرى أن أصول الفضائل هي : المعرفة (وهى الفهم عند ابن حزم) ، والشجاعة (وهى النجدة عند ابن حزم) ، والعفة ، والعدل . وابن حزم يضع السخاء أو الجود مكان العفة . ذلك أنه يرى أن العفة التى جعلها أفلاطون أصلا من أصول الفضائل ، إنما تدخل فى العدل والوجود .

وابن حزم يدعو العلماء والفقهاء إلى التفقه فى العلوم الإنسانية .. تأثرا بالإمام الصادق الذى مارس الكيمياء ، وأسس قواعدها ، وربى تلميذه جابر بن حيان على إتقان الكيمياء ، وأنشأ له معملا ، وظل يرعاه حتى ترك جابر بن حيان فى الكيمياء تراثا شارك فى صنع التقدم الإنسانى كله عبر العصور .

قال ابن حزم : « كشف العلوم النافعة يزيد العقل جودة ويعفيه من كل آفة ، ويهلك ذا العقل الضعيف » ..

وهو فى رسالته عن الأخلاق يضع ضوابط للخير والشر ، وينتهى إلى أن الدين ضرورة للجماعات البشرية ، فهو الذى يجمعها وينشر فيها الثقة بين الأفراد ويعمها بالفضائل ، ويجمعها على الحب والخير والحق .

وهو لا يخصص الإسلام وحده بذلك ، بل كل دين سماوى . قال : « ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك . ولا تشق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ومن استخف بجرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء تشفق عليه » .

فهذا الفقيه الذى كان يتعصب لآرائه حتى ليصف نفسه بالنزق ، والذى اشتد على بعض اليهود والنصارى الذين هاجوا الإسلام ، وأخرجهم من ذمة الله ورسوله لتجهمهم على ما أوحى به الله إلى رسوله .. هذا الفقيه نفسه يطالب المسلمين ألا يثقوا بمسلم غير متدين ، وألا يأتمنوه على شيء ، و يدعوهم إلى الثقة بالمتدينين من اليهود والمسيحيين ، وإلى أئمتانهم على كل ماهو غال وعزيز على المسلمين . !

ذلك أنه يرى الدين أساس الفضيلة ، كل الديانات السماوية دعوة إلى الصدق ، والإخلاص ، والمحبة ، والكرم ، والمروءة ، وسائر الفضائل .. وأن كل دين سماوى إنما جاء مكلا لما قبله ، حتى بعث الله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متما لمكارم الأخلاق .. فالمتدين من اليهود والنصارى أدنى بها إلى مبادئ الإسلام وإلى الله تعالى من المسلم غير المتدين .. !

ومكارم الأخلاق التى جاء بها القرآن ، مصدقا لما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، يمكن التعرف عليها بالعقل . والمسلمون مأمورون بالتدبر ، والتفكر ، وإعمال العقول لمعرفة الخير والشر ، والفضائل والردائل ... على هذا نص القرآن الكريم والسنة الشريفة . فإذا أعمل الناس عقولهم اهتموا إلى سواء السبيل .. قال تعالى عن الضالين : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

وإذن فوظيفة العقل عنده هو هداية صاحبه إلى الخير والفضائل . أما الذين يشحنون عقولهم لاجتلاب المنافع ، غير مباليين بالفضيلة ، فهؤلاء ليسوا هم أصحاب العقل ، بل هم أصحاب الدهاء ، فالعقل لا يقود إلا إلى الحق ، والخير ...

وهو نفسه قد آثر العلم على جميع اللذات ، وترك جمع المال إلى هوم العلم ، وكان قادرا لو أهتم بجمع المال على أن يكون من أغنى أغنياء عصره . ولكن تصاريف الزمان علمته أن المال ، واللذة الحسية ، وكل فنون المتاع إنما هى عرض زائل ، ولا يبقى إلا الحكمة والعلم . « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . » و يقول : « للعلم حصة فى كل فضيلة ، وللجهل حصة فى كل رذيلة .. » .

ورأى ابن حزم . أهل زمانه يستخفون بمن يصرف جهده عن الاستزادة من المال ، ليستزيد من العلم والحكمة فيقول فى هذا : « ترك المبالاة بكلام الناس والمبالاة بكلام الخالق عز وجل هو العقل كله ، والراحة كلها . من قرآن يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . ومن حقق النظر وراضى نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمته فى أول صدمة كان اغتباطه بدم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . لأن مدحهم إن كان بحق وبلغه سرى فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، وإن كان بباطل فسره ، فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد .. وأما ذم الناس فإن كان بحق فرما كان سببا فى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهده فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل فصبر ،

اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر...»

وهو يرى من حسن الأخلاق أن يثبت الإنسان على الفكرة والعمل ، ماقتنع بأنه على حق ، فإذا اكتشف أنه على الباطل ، فالثبات لجاج ، وهو مذموم ...

ثم ينتهى ابن حزم فى حديثه عن الأخلاق إلى أن خير ما يفعله المسلم ليستقيم له الخلق الفاضل ، هو التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرنا الله بهذا : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » ثم أن الله تعالى وصفه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقد قال عليه السلام : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق أو كما قال . »

ويقول ابن حزم عن القواعد والضوابط التى وضعها للأخلاق ، إنه « أفاد فيها » مما منحى الله تعالى من العلم بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الأزدىاد من فضول المال . »

يرى ابن حزم أن الإنسان عنده علم البديية وهو علم النفس... فالطفل يدرك بالبديية أن الجزء أقل من الكل ، وأن المكان الواحد لا يشغله جسمان فى وقت واحد . فهو يتنازع على المكان الذى يريد أن يقعد فيه ، علما منه بأن هذا المكان لا يسعه مع غيره ، وهو يدرك أنه لا يجتمع الأمران ، المتضادان ، فأنت إذا وقفته بغير إرادته بكى . ، حتى إذا تخلص عاد إلى القعود . وإذا كبر الطفل أدرك أن الأخبار عما هو غائب لا يصح أن تتعارض ، فإذا تعارضت شك فى الجميع أو ألغاه . . وهكذا يعرف الإنسان أخبار الأنبياء ووقائع التاريخ ، فإذا كبر عقله أستطاع أن يعرف الصادق من المنقول عن الرسول (ص) ، وبذلك يتحقق أن علم العقل أساس لعلم النقل . . وابتعاد الخبر مدعاة لخطأ ، كالأعداد فى الحساب كلما كشرت الأعداد زادت مظنة الخطأ فى أجزاء العمليات والمعادلات الحسابية والجبرية عليها .

ويضيف أن هذا ليس هو سبب الخطأ فقط ، بل أن هناك عوامل أخرى تفسد النقل وهى الشهوة والإنحياز . على أن العقل يظل قادرا على التمييز أبدا .

وهو يؤمن بكل ما جاءت به النصوص ، معملا العقل فى تفسيرها بظاهرها . فإذا كانت النصوص قد أجمعت على أن الله هو خالق كل شىء ، فلا أحد يخلق فعلا من الأفعال ، وإلا كان شريكا لله تعالى فى الخلق ! ولكنه يناقش هذا النظر ويقول أن الأخذ به يسقط التكليف ، فلا حيلة للإنسان إذن والله يخلق أعماله ، ولا إرادة للإنسان ولا إختيار ، ولكنه الجبر قطعا .

و يصحح هذا الفهم بقوله أن الله خلق في العبد الاستطاعة والاختيار، فهو يختار ما يفعله وما يستطيعه . وبذلك يكلف الله العباد، ويحاسبهم على أعمالهم .

ثم يتحدث عن الاجتهاد بالرأى فيذهب إلى أنه ليس من الشريعة . لأن الله لم يفرط في الكتاب من شيء ..

فلا مجال للرأى إذن لأن كل الأحكام واردة في نصوص القرآن والسنة أو إجماع الصحابة ، فإن لم يوجد فيها الحكم فقد نص القرآن على إباحة ما لم يحرمه الله ، فيكون الحكم في كل واقعة حيث لائنص هو الإباحة أو استصحاب الحال بحكم النص القرآني : « وخلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

على هذه الأصول يستنبط كل الأحكام الخاصة بالعقيدة وبالمعاملات ، أى بالدين وبالشرعية .. وهو فى القضايا الفكرية التى تتعلق بالعقيدة يمتحن النصوص والإجماع فيجد فيها إجابة عن كل سؤال .

فقد زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر مآله إلى النار .

وقالت المعتزلة أنه فى منزلة بين المنزلتين فلا هو كافر ولا هو مؤمن .

وذهب بعض أهل السنة إلى أنه ليس مؤمنا ، ولكنه مسلم لم يخرج عن الإسلام إلى الكفر، بل خرج عن الإيمان إلى الفسوق .. وبسئ الاسم الفسوق بعد الإيمان .

وذهب آخرون الى أن الحكم عليه يرجأ إلى يوم القيامة ، فإن شاء الله أخذه بالكبيرة وإن شاء عفا عنه ، وهؤلاء هم المرجئة .

أما ابن حزم فقد استنبط حكمه من النصوص ، وأفتى فى مرتكب الكبيرة بفتوى بعض أهل السنة : « فمن تاب بعد ارتكابه الكبيرة غفر الله له والله غفور رحيم » أما من قبل التوبة النصوح ، فإن رجحت حسناته سقطت كبائره لأن للحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة .. هذا هو نص القرآن الكريم .. فإذا استوت حسناته مع سيئاته فهو على الأعراف ينتظر الجنة ، (وعلى الأعراف رجال ينتظرون) ، ثم يدخلون الجنة آخر الأمر . أما إن زادت سيئاته على كبائره فإلى النار . غير مخلد فيها أبدا ، بل يخرج منها إلى الجنة بقدر ما توهله الحسنات . »

و يعرض ابن حزم لمشكلة أخرى كانت مثارة من قبل عصره ، وهى وحدانية ذات الله تعالى .. أنه صفات منفصلة عن الذات ؟ أم أن أسماء الله الحسنى هى صفاته ، وكلها هى الذات الألهية . ١٩

قال ابن حزم : « وأما إطلاق لفظ الصفات لله عز وجل فحال لا يجوز ، لأن الله لم ينص فى كلامه المنزل على لفظ الصفات وعلى لفظ الصفة . ولا حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله صفة أو صفات . نعم ولا جاء ذلك قط عن أحد الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين . »

فهو يعتبر الألفاظ التى تدل على صفات إنما هى من أسماء الله تعالى ، مثل السميع البصير القادر القدير الحكيم العليم الرحمن الرحيم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى . وهذا بنص الآية : « وله الأسماء الحسنى .. »

أما عن الألفاظ الموهمة للتشبيه مثل « وجه ربك » و « يد الله » فهو يطالب من يريد أن يفهمها أن يتدبر النص القرآنى فى لغته ، وأن يتعمق دراسة اللغة العربية ، فقد نزل القرآن بلسان عربى مبين .

ومن يدرك أسرار اللغة ، يفهم بالضرورة أن الله تعالى حين يتحدث عن وجهه ويده ، لم يرد عضوا بعينه فى الجسم المحسوس ، بل أراد الذات نفسها . فعندما تقول العرب « ماملكت يمينى مثلا » فالمعنى « ماملكت أنا » لاما ملكت يدى اليمنى دون يدى اليسرى .

وهكذا فسر قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » أى يبقى ربك سبحانه فهو وحده الذى لا يفتنى . وفسر قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » بقوله : « الله فوق أيديهم » . وفسر : « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف شاء » بقوله : « الله ينفق كيف يشاء » .

ومن فهم غير ذلك فليعد دراسة أساليب العرب وآدابهم ليعرف أن للإلفاظ فى اللغة العربية دلالات مجازية ، وهى من دلالات ظواهر الألفاظ .

إلى هذا أنتهى ابن حزم فى الخلاف الذى ظل مشتجرا حول الأسماء والصفات ، وأتهم كل من لم يوافقهم ، بأنه لا يعرف أساليب العرب ، ولا أسرار اللغة التى نزل بها القرآن ، ونصحه بأن يصنع ما صنع الليث بن سعد والشافعى : أن يخرج إلى بادية نجد أو الحجاز ليتقن اللغة ، وأن يحفظ أشعار القدامى وبصفة خاصة شعر الهذليين .

فأسماء الله ليس فيها ما أسماء القرآن بالمشابه ، أى لا يعرف معناه ولا حكمه . فلا متشابه فى القرآن إلا الحروف التى بدأت بها بعض السور مثل ألف لام ميم ، (ألم) ، وألف لام راه (أ ل ر) وصاد (ص) ، ونون (ن) ، وقاف (ق) إلى غير ذلك ، وإلا ما أقسم به الله تعالى مثل « والذريات » ، و « الشمس وضحاها » و « الفجر » . و « لا أقسم بهذا البلد » . وليس لأحد الحق فى أن يبحث فى هذا المتشابه ، فقد يقوده البحث إلى الزبغ والضلال ،

بهذا أمرنا الرسول (ص) واتبعه الصحابة

وقد ضرب عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة ، رجلا من الصحابة أسواطا ، لأنه سأله عن معنى والذاريات ، وأمر المسلمين ألا يسألوا عن شيء من متشابه القرآن لم يشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين ظهرانيهم .

فإنه لارأى فيما لم يوضحه الرسول .. وقد أمر المسلمين ألا يسألوه فيما سكت عنه ، فإهلك من قبلهم من الأمم الى الشغب على أنبيائهم بكثرة السؤال .

قال الله تعالى : « ما فرطنا في هذا الكتاب من شيء » . فإمكان الرأي إذن ، إلا إذا قلنا أن القرآن قد فرط في شيء ؟ ! ... وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . » فلا حكم إلا بما قضى به الله ورسوله ، ثم أولوا الأمر .. أى الأجماع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينزع العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتوا بالرأى فضلوا . وأضلوا » .

ثم يستدل بأقوال الصحابة فى النهى عن الأخذ بالرأى ، ويرفض الأحاديث والأخبار التى تواترت عن الاجتهاد بالرأى ، ويتهم روايتها بالضعف أو الكذب ..

يذهب ابن حزم الى أن القرآن وحده هو الأصل الوحيد للشرعية ، وفيه أمرنا باتباع الرسول . فالسنة حجة . قال تعالى مخاطب رسوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، فالرسول (ص) يبين القرآن ، وأهل الذكر مسئولون عن بيان ما فى القرآن والسنة . لما تعلموه من الرسول

والبيان كما يقول ابن حزم « يختلف فى الوضوح ، فيكون بعضه جليا ، وبعضه خفيا ، فيختلف الناس فى فهمه ، فيفهمه بعضهم بفهمه ، وبعضهم يتأخر عن فهمه . كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « إلا أن يوتى رجلا فهما فى دينه . »

هاهوذا يستشهد بقول الإمام على كرم الله وجهه ! .

وفى الحق أن ابن حزم ماناصب الإمام عليا العداة .. !

فابن حزم قد اعتمد فى بعض فقهه على أقضية للإمام على ، وفتياه ، وعلى آراء لحفيده الإمام جعفر الصادق ..

ولقد ذكر ابن حزم أن عمر بن الخطاب كان يستفتى على بن أبي طالب فيما يغم عليه من الأحكام ويقول: «على أفضانا» فإذا عرضت لعمر قضية ولم يجد عليها قال: «قضية ولا أبا الحسن لها»...

وما اعتمد ابن حزم على آراء الإمام على تكفيرا عما سلف منه، أو نفاقا للأمرء والعلماء ممن يفضلون عليا على سائر الصحابة، بل توقيرا للإمام على، وعرفانا بمكانته من الرسول عليه الصلاة والسلام، وبمكانه في الإسلام، وفضله في إرساء قواعد الشريعة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.

هو إذن يرى أن الأحكام كلها في القرآن، والقرآن هو الذي نص على حجية السنة إذ أمرنا باتباع الرسول، ونص على حجية الإجماع بنصه على أهل الذكر وهم الصحابة، فإذا لم يمكن استنباط الحكم من القرآن أو السنة أو الإجماع. فلا سبيل إلا الاستصحاب وهو بقاء الحكم المبني على النص حتى يوجد دليل من نصوص تغييره. قال تعالى: «وخلق لكم مافي الأرض جميعا». وقال تعالى: «ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين.» وإذن فقد «أباح الله تعالى الأشياء بقوله أنها متاع لنا ثم حظر ما شاء. وكل ذلك بشرع. أي بنص..»

وقاده التزامه هذه الأصول التي خالف فيها جميع الأئمة والفقهاء إلى مخالفتهم في كثير من الفروع. فاعتبر التزام أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة يجب اتباعها، وإن لم يصحب فعله أمر. وعاب على أتباع مالك ترك هذه السنة فقال: «اختاروا الصوم في رمضان في السفر، ورغبوا عن فعله عليه السلام في الفطر. ورغبوا عن فعله عليه السلام في التتيل وهو صائم، وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على من رغب عن ذلك أو تنزه عنه وخطب الناس ناهيا عن ذلك. وتركوا فعله عليه السلام في تطيبه في حجة الوداع وأخذوا بأمره متقدم لو كان على ماظنوه لكان منسوخا بفعله عليه السلام... ولا يجوز أن يقال عن شيء فعله رسول الله أنه خصوصي إلا بنص في ذلك، لأنه عليه السلام قد غضب على من قال ذلك، وكل شيء أغضب رسول الله (ص) فهو حرام. وذلك مذكور في حديث الأنصاري الذي سأله عن قبلة الصائم فأخبره عليه السلام أنه يفعل ذلك فقال الأنصاري: «يا رسول الله إنك لست مثلنا. قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فغضب عليه السلام وقال: «والله أنى لأتقاكم الله وأعلمكم بما أتى وما أذر»..... وقد روت عائشة: «أنه عليه السلام كان يترك الفعل وهو يجه، خشية أن يفعله الناس فيفرض عليهم، كما فعل عليه السلام في قيام الليل في رمضان، قام ثم تركه خوفا أن يفرض علينا. وإنما قلنا هذا لئلا يقول جاهل: أيجوز أن يترك عليه السلام الأفضل ويفعل الأمل فضلا؟ فاعلمناه أنه عليه السلام يفعل ذلك رفقا بنا... وكذلك الشيء إذا تركه عليه السلام ولم ينه عنه ولا أمر به فهو مباح. وضرب مثلا لذلك «من أستمع زمارة الراعي، فلو

كان حراما لما أباحه عليه السلام لغيره ، ولو كان مستحبا لفعله عليه السلام» وكان ابن حزم يحضر مجالس الغناء فى قرطبة اعتمادا على هذا .

وروى عن عائشة أنها سألت زوج بنت أختها وكانت من أجل فتيات عصرها ألا يداعيها ويقبلها ، فتخرج الفتى فقالت له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وهو صائم فى نهار رمضان .

وعاد أتباع مالك يغلظون له ويحاولون الأيقاع به فى كل فقهه وأصوله ... وذهبوا إلى أنه يخالف إجماع أهل المدينة ، وإجماع أهل المدينة سنة ، لأنهم نقلوا عن الرسول عليه الصلاة والسلام مئات عن مئات وآلآفا عن آلاف ، فهى سنة أقوى من النقل عنه عليه السلام واحدا عن واحد .. وهذا هو رأى الإمام مالك نفسه .

ولم يصبر ابن حزم على إتهامهم إياه بأنه يخالف السنة ، فانقض يسفه من يقول بهذا ، ويردد حجة الإمام الليث بن سعد فى رده على الإمام مالك أن الصحابة وفى صدورهم علم الدين والشريعة ، تفرقوا فى الأمصار يعلمون الناس ، وملأوا المدائن ، فليس لأهل المدينة امتياز عن أهل الكوفة التى أقام بها الإمام على وعبد الله بن مسعود ، ولا عن أهل مصر التى أقام بها عبد الله بن عمرو بن العاص . وغيره من الصحابة ، ولا عن غيرها من أقطار الأرض التى عاش فيها صحابته .. وكان علم بعضهم أغزر من علم الذين بقوا فى المدينة فضلا عن السابقة فى الإسلام .

وأضاف بعد ذلك أن أهل المدينة ساروا على خلاف سنة الرسول فى كثير من أمورهم ، فعندما تولى عمر بن الخطاب ، أنكر على حسان بن ثابت انشاده الشعر فى المسجد ، فلما قال له حسان : « قد أنشدت فيه وفيه من هو خير منك » ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت عمر ومضى .

فهذا يبين أنه لا حجة فى قول أحد ولا فى عمل بعد النبى عليه الصلاة والسلام .

ثم أن ابن حزم انقض على أهل المدينة انقضاضا : « فأى برهان على أن المدينة أفضل البلاد كما يقولون ؟ أن مكة هى أفضل البلاد بنص القرآن . ومع ذلك ففضلها لا يوجب اتباع أهلها دون غيرهم . ولا يختلف مسلمان فى أنه كان فى المدينة منافقون ، وفيها شر الخلق . قال تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) . وقال تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) . وكان فيها فساق كما فى سائر البلاد ، وزناة وكذابون

رشربة خمر وقذفة كما فى سائر البلاد ولا فرق . وأهلها اليوم — وإنا لله وإنا إليه راجعون — غلاة الروافض الكفرة . أفتررون لهؤلاء فضلا يوجب أتباعهم من أجل سكانهم المدينة ؟ فإن قالوا (لا ، لكن إنا نوجب الحجّة بالفضلاء من أهل المدينة) ، (قلت لهم ومن أين خصصتم فضلاء المدينة دون فضلاء غيرهم من البلاد ، وهذا مالا سبيل الى وجود برهان على صحته أبداً وأيضاً فالمدينة فضلها باق كما كان لا يتغير ولن يتغير أبداً ، وأهلها أفسق الناس . فقد بطل أن يكون للبقعة حكم فى وجوب اتباع أهلها ، وصح أن الفاضل فاضل حيث كان ، والفاسق فاسق حيث كان » واتهم القائلين بتفضيل أهل المدينة بأنهم « تابعوا خطأ مالك ، وقد ولد مالك بن أنس سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وثمانين سنة ، فأخبرونى عن أى مذهب كان الناس قبل مالك ؟ ... فقد وليها من الفساق كالذين ولوا البصرة والكوفة كالحجاج ونخالد القسرى (الذى ذبح فى المسجد أحد الفقهاء من معارضيه يوم عيد الأضحى وقال عن ذبحه إنه أضحية ! الدماء والأموال والأحكام ، وموضعهم من الفسق بالدين بحيث لا ينفى ولا فرق بين إجماع أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الفسطاط هذا إن أرادوا من كان بها من الصحابة والتابعين » وتساءل : « أكان بالمدينة من هو أفضل من على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنها وقد أقاما بالكوفة ؟ »

ورد على اتهامه بالكفر لأنه يخالف إجماع أهل المدينة فقال : « إن كان مخالفة أهل المدينة كفراً ، فلتتحكموا بالكفر على أمير المؤمنين على بن أبى طالب والصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنها فقد خالفا إجماع أهل المدينة ! »

ولقد قاده الإقتصاد فى استنباط الأحكام على ظاهرة النص إلى مخالفة إجماع الفقهاء وأئمة المذاهب من قبله .

- فهو يرى أن المرأة تستطيع أن تحج وحدها دون اصطحاب الزوج أو أحد المحارم على الرغم مما ذكره فى طوق الحمامة عن خمس حاجات عابدات مجتهدات زاهدات فى الدنيا اقتفرن الخطيئة مع أحد ملاحى السفينة وهن فى طريق العودة فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .
- لا يميز ابن حزم فسخ الزواج بحكم القاضى لعيب فى الزواج ولا لعدم النفقة ولا للضرر ولا لغياب الزوج لأن أمر الطلاق للزوج ، وإذن فكل من فرق زوجين بغير قرآن أو سنة فقد دخل فى صفة الذين ذمهم الله تعالى بقوله : « فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ونعوذ بالله من هذا » . على أنه يقرر أنه يجوز الحكم بالطلاق فى حالة واحدة هى ظهور عيب بعد اشتراط السلامة من العيوب . ومعاد هذا الشرط فشروط الزواج باطلة : كأن تشرط الزوجة ألا يتزوج عليها أو أن تكون العصمة بيدها أو ألا يسافر ويتركها .
- يمين بالطلاق باطل ، فلا يقع طلاق والحالف آثم لأنه لا يمين إلا بالله تعالى

— المفقود حكمه حكم الحى حتى تثبت وفاته ثبوتا قاطعا .
 — الزوجة عند عجز الزوج عن الانفاق عليها لا تطلق ، بل ينفق عليها ولى الأمر ان كانت فقيرة ، من أموال الصدقات ، فإن كانت غنية وجب عليها أن تنفق هى على نفسها وعيالها وعلى زوجها .
 — كل تصرفات المريض مرض الموت من وصية وهبة وطلاق وزواج صحيحة ، لا قيد عليها لعدم ورود نص بمنعها أو تقييدها . وبعض الصحابة لا يعترف بطلاق المريض مرض الموت ، ويعتبره فرارا من الميراث .. ويستشهد بفتيا للإمام على بن أبى طالب ، ففى عهد عثمان طلق أحد الأنصار الأغنياء زوجة أنصارية ، وكانت زوجته الثانية بنت عم على بن أبى طالب ، فلما مات الزوج أرادت زوجته الثانية أن تحتص وحدها بميراث الزوج لأنه طلق الأولى فى مرض موته ، فاستشار عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى هذا ، فأثاه على بن أبى طالب فأشار بأن المطلقة ترث لأن الزوج يفر من قواعد الميراث ، فشرك عثمان بين الزوجتين وإذ راجعته الزوجة الثانية قال لها : « هذا رأى ابن عمك » .

— اعتبار الوصية فرض لازم لقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . » ولا يوجد نص يفسخ هذا الحكم . ولكنه يشترط ألا تضر الوصية بالورثة ويقول فى هذا « فرض على كل مسلم أن يوصى لقرابته الذين لا يرثون ، فإن لم يفعل نفذ من ماله ما كان يجب عليه أداءه ، وعلى ولى الأمر تنفيذه فى حدود الثلث » .
 وقد أخذ القانون المصرى برأى ابن حزم فى فروع الولد الذى يموت فى حياة أبيه . ورأى أن تكون بمقدار نصيب الوالد المتوفى على ألا تزيد على الثلث .

— حقوق الله فى التركة مقدمة على حقوق العباد ، وأول حقوق الله هى الزكاة المتأخرة .. ويقول : « أن حقوق الله أحق بالفضاء من غير تخريج ويجب الأخذ بظاهر النص » ... وبهاجم الأئمة الأربعة لقولهم بغير هذا . ويصف رأى مالك بأنه « أفجشها تناقضا وأوحشها شدة وفسادا » لأن مالك قدم حقوق العباد ، أما عن حق الله فالله غفور رحيم . ويقول أستاذنا المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة تعليقا على قول ابن حزم فى مالك « وإننا لنستغفر الله تعالى لنا وله على نقده لقول مالك بهذه اللغة ونقلنا له » .

— أوجب ابن حزم إعطاء الأقارب واليتامى عند قسمة التركة إذا حضروا عند القسمة . وذلك بما لا يجحف بحقوق الورثة . وولى الأمر ملزم بإجبار الورثة على إعطاء أولئك ما تطيب به نفوس الورثة .. وذلك أخذا بظاهر نص الآية : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارتزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً . ثم يضيف : « أمر الله تعالى فرض لا يحمل خلافه وعن ابن عباس : يزعمون أن هذه الآية نسخت (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فلا والله مانسخت ، ولكنها مما تهاون الناس بها ... هى واجبة ، ويعمل بها ، وقد أعطيت بها .

ويرد ابن حزم على من فهموا أن الأمر فى الآية الكريمة ليس أمر وجوب بقوله : « لا يفهم

أحد من (افعل) أن شئت فلا تفعل .. وليس وجود آيات قام البرهان على أنها منسوخة أو مخصصة أو أنها نذب ، بموجب أن يقال - فيها لادليل بذلك فيه - هذا نذب أو هذا منسوخ أو هذا مخصص ، فيكون قولاً باطلا . »

ابن حزم لا يحدد قدر ما ينبغي أن يأخذه أولو القربى واليتامى والمساكين إن حضروا قسمة التركة ، بل يترك ذلك لما تطيب به نفوس الورثة ، فإن لم يفعلوا ، فرض ولى الأمر ما يراه مناسباً وعادلاً ..

يحيى ابن حزم لولى الأمر أن يفرض على التركة حصصاً للفقراء والمساكين وإن لم يحضروا القسمة ، على أن تنفق عليهم هذه الحصص . وأحق الفقراء والمساكين بهذه الحصص من كان ذا قربى .. وقد أخذ القانون المصرى بهذا النظر مع تعديل يسير فى فرض ضريبة التركات ورسم الأيلولة .

الأشهاد على البيع واجب شرعى ... قال فى ذلك ابن حزم : « وفرض على كل متبايعين لما قل أو كثر أن يشهدا على تباعها رجلين أو رجلاً وامرأتين من العدول ، فإن لم يجدا عدولاً سقط فرض الأشهاد ، فإن لم يشهدا وهما قادران على الإشهاد فقد عصيا الله والبيع تام ، فإن كان البيع بشمن الى أجل مسمى ، فرض عليها مع الأشهاد المذكور أن يكتباه ، فإن لم يكتباه فقد عصيا الله عز وجل ، والبيع تام . فإن لم يقدر على الكتابة ، فقد سقط عنها فرض الكتابة . » وابن حزم يستنبط هذا الحكم من ظاهر الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأت كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليلل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل ليه بالعدل ، وأستشهدوا من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحداً فتذكر أحداً الأخرى ، ولا يأت الشهداء إذا مادعوا ، ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، وأتقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شىء عليم . »

ويقول ابن حزم عما جاء فى نص الآية : هذه أوامر مغلظة مؤكدة لا تختمل تأويل ولا ويشرح أحكام الآية : « أمر بالكتابة فى المداينة الى أجل مسمى ، وبالإشهاد فى التجارة المدارة ، كما أمر الشهداء ألا يأتوا أمراً مستويماً ، ثم أكد تعالى أشد تأكيد ، ونهانا عن أن نسأم فى كتابة ما أمرنا بكتابته صغيراً كان أو كبيراً . وأخبر تعالى أن ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتاب ، وأسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة خاصة - دون الأشهاد - فى التجارة المدارة ، ولم يسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة فيما كان ديناً الى أجل .. فقد قال تعالى بعد أن فرض الكتابة : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ،

وجهور الفقهاء يرون أن الإشهاد في البيع والكتابة في التدين ، والكتابة في الثمن المؤجل ليست من المفروض الواجبة بحيث يأثم تاركها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصنع ذلك ، وقد اشترى فرسا من أعرابي ، ولم يشهد ولم يكتب ، فباع الأعرابي الفرس مرة ثانية لمشترا آخر بثمن أعلى ! .. ويرى ابن حزم أن خبر الأعرابي ضعيف السند ، وهو إن صح دليل على وجوب الإشهاد والكتابة ، ويجب أن تكون هذه القصة قد وقعت قبل نزول الآية ، ولعلها هي ومثيلاتها كانت من أسباب نزول الآية ..

— لا يميز خيار الشرط وهو حق البائع أو المشتري في الفسخ خلال مدة معينة . و يقول ردا على جمهور الفقهاء الذين ذهبوا الى جواز هذا الخيار: « كل بيع وقع بشرط خيار للبائع ، أو للمشتري أولهما جميعا ، أو لغيرهما ، خيار ساعة أو يوم أو ثلاثة أيام ، أو أكثر أو أقل ، فهو باطل » . و يضيف : « كل ذلك شرع لم يأذن الله تعالى به ، ولا أوجبه سنة » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط) »

وكان دليل جمهور الفقهاء على إجازة الشرط أن أحد الصحابة كان يغبن في البيع والشراء ، فأمره الرسول (ص) ألا يعقد صفقة حتى يشترط لنفسه الخيار في إبرامها أو فسخها خلال ثلاثة أيام ليشير من هو أعرف منه بأمر التجارة .

فرد ابن حزم لأن هذا حكم خاص بحالة ذلك الصحابي ، ولا يجوز اعتباره حكما عاما .

— لا تحرم إلا ينص فإذ ذريعة إلى حرام ليس حراما ، وقد نهى الله عن تحريم ما لم يحرمه هو ، والا كان هذا التحريم افتراء على الله . . . قال تعالى : « قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » .

ولكن الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اعتنق مذهبيهما يقسمون الشريعة الى مقاصد وذرائع . فالمقاصد هي هدف الشريعة ، وهي تحقيق المصلحة ودرء المفسدة . والذرائع هي الوسائل أو الوسائط المؤدية الى المقاصد . والذرائع ترتبط بالمقاصد تحليلا وتحريما . وعلى هذا فلا يجوز بيع السلاح في وقت الفتنة ، ولا يصح البيع الذي يخفى ربا أو يؤدي إليه ، و يبطل الزواج المؤقت الذي يكون وسيلة وذريعة لتحليل الزوجة المطلقة ثلاثا . فكل تصرف قصد به الحرام أو أدى الى مفسدة يعتبر باطلا وقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام ألا تقطع يد السارق في الغزو حتى لا يفر الى العدو

و يرد ابن حزم على كل هذا بقوله : « أن السنة يجب أن تطبق لأنها سنة دون محاولة تخريج أو تعليل أو قياس عليها فهي نص واجب اتباعه بظاهره ، أما من حكم . باحتياط أو بشيء خوف ذريعة الى ما لم يكن بعد ، فقد حكم بالظن ، وإذا حكم بالظن فقد حكم بالكذب والباطل ، وهذا لا يجل ، وهو حكم بالهوى وتجنب للحق ، نموذ بالله من كل مذهب أدى الى هذا . مع أن هذا المذهب في ذاته متخاذل متفاسد متناقض ، لأنه ليس أحد أولى بالتهمة من أحد ، وإذا حرم شيئا حلال خوف تذرع

إلى حرام فليخص الرجال خوف أن يزنوا ، وليقتل الناس خوف أن يكفروا ، ولتقطع الأعناب خوف أن يعمل منها الخمر. وبالجملة فهذا المذهب أفسد مذهب فى الأرض ، لأنه يؤدى إلى إبطال الحقائق كلها ، وبالله تعالى التوفيق . »

وهكذا استنصر من جديد أتباع الإمام مالك ، واستنصر أيضا أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، بوصفه فاستنكروا الزعم بأن مذهب كل من الإمامين هو أفسد مذهب فى الأرض ! .. وغلظوا مع ابن حزم واشتدوا عليه

تصح شهادة الأصول والفروع والأزواج ماداموا عدولا . وهاجم الفقهاء الأربعة أصحاب المذاهب الذين لم يجيزوا هذه الشهادة ، حرصا على العدل ودفعاً لشبهة الأحنياز ، فقال عن الفقهاء أصحاب المذاهب : « لقد أدامهم هذا الأصل الفاسد الى أن حكموا فى الشيء بالتهمة التى تحل ، فأبطلوا شهادة العدول لأبائهم وأبنائهم ونسائهم وأصدقائهم ، تهمة لهم بشهادة الزور والحيث . والحكم بالتهمة حرام لايجل ، لأنه حكم بالظن ، وقد قال تعالى عاثبا لقوم قطعوا بظنونهم : (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) وقال تعالى عاثبا قوما قالوا : (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) قال تعالى : (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئا) وقال تعالى : (أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الظن أكذب الحديث) ..

هاهو ذا من جديد يسرف فى الهجوم على الأئمة الكبار أصحاب المذاهب ، ويستثير أتباعهم ضده ، ويجلب عليه سخط أهل الورع ممن يروعهم أن يتهم الأئمة مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد ، بالتناقض والتخاذل والتفاسد .. وأنهم يتبعون هوى الأنفس !

— وما خالف فيه إجماع الفقهاء قوله أن العبد كالحرفى حق الزواج بأربع . وقد اقترب من الإمام مالك فى هذا النظر ، ولكنه هاجمه حتى فى اتفاهه معه .. ! واتهم الإمام مالك بن أنس بالتناقض ، لأنه خالف فى حكمه هذا أقوالا لبعض الصحابة لم يعرف لها مخالف . ومالك يعتبر هذا إجماعا يجب أتباعه فكيف يخالفه ؟ وكان أحرى بمالك فى رأى ابن حزم ألا يعتبر إجماعا الا ماتواترت الأخبار الصحاح على أن الصحابة أجمعوا عليه يقينا .

وعلى أية حال فقد خالف ابن حزم آراء مالك وغيره من الأئمة أصحاب المذاهب فيما عدا هذا من أحكام العبد ، فأعترف له بحق تملك الجوارى والتسرى بهن ، وبكل حقوق الملكية . لأن حق الملكية يرتبط بالإنسانية لا بالحرية ، ولا شأن له بما يطرأ على الإنسان من عبودية . فالعبد والحر متساو يان ، وقد وجه إليها الله تعالى خطابه فى القرآن الكريم بلا تفرقة فقال : (يا أيها المؤمنون) ، أو (يا أيها الناس) ، ولم يقل يا : (أيها الأحرار) ولا : (يا أيها العبيد) ، وعلى هذا جرت السنة ، فللعبيد كل حقوق الأحرار ، ولا فرق بينها ألا فيما جرت به السنة فى الحدود ، فعلى العبد نصف

ماعلى الحر من عقوبات ، وليس لأحد أن يشرع مع الله ورسوله أو بعد القرآن والسنة . والقول بأن للعبيد نصف مال المحر خروج على الشرع .

عندما أثار ابن حزم حقوق العبيد ، قامت عليه القيامة من جديد .. فما هوذا يدعو الى المساواة بين العبيد والسادة بل يميز العبيد فيفتى بأن لهم كل حقوق السادة ونصف ماعلى السادة من عقوبات . !

فهو إذن يثير العبيد على سادتهم !

ومن قبل أثار العاملين فى الأرض على الملاك ! .. والنظام فى الأندلس يقوم على وضع أدنى للفلاحين ، والعاملين فى الأرض والعبيد .. !

غير أن ابن حزم يرى أن هذا كله ليس من الاسلام فى شىء ، فهو خروج صريح على نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

واحتشد على ابن حزم كل خصومه من الأمراء والكبراء والوزراء الذين جهر بتقدمهم ، ومن العلماء والفقهاء الذين عنف عليهم فى الذم ، واحتشد معهم كل من استفزتهم حديثه فى الحديث عن الأئمة أصحاب المذاهب ..

تكاثرت الخصوم على ابن حزم فدبروا له أمرا ، وأغروا به الحكام لينزلوا به جزاء الخارج عن الدين ، ومثير الفتنة !

لم يعد له من أحد فى الأندلس إلا بعض شباب العلم وطلابه ، وإلا أمير ميورقة .

أما هؤلاء الشباب فكانوا معجبين بمسارته ، ونصاعة بيانه ، وشدة تمسكه بالقرآن والسنة ، وحرصه على ألا يستنبط الحكم أو يستخلص الفتيا إلا من ظاهر النص ، فى وقت شيوع البدعة والتقليد وتعبد العقل ..

وما كان الشباب يغضبون من عنفه على أئمة المذاهب ، لأن سقم الفكر ، وإفلاس الملكات ، والضحالة ، قادت البعض إلى تقديس هؤلاء الفقهاء ، فنسوا أنهم بشر يحطون ويصيبون ! ! فكان لا بد للناس من فقيه عالم ، كابن حزم يصدم جهودهم ، ويحرك صمت الحياة الفكرية الرتيبة الآمنة من حولهم ، وينبه الغافلين والمقلدين ، ويعيدهم إلى القرآن والسنة ، ويلزمهم اتباع النصوص !

ومهما يكن من عنف ابن حزم الذى وصل إلى حد النزق كما عبرهونفسه ، فما كان هذا كله ليصرف عنه الشباب ، بل كان يشاكل ما فى أعماقهم من فورة الحمية والغيرة والحماسة .. !

وأما النصير الآخر الذى كان لابن حزم غير هؤلاء الشباب ، فهو أمير ميورقة صديق ابن حزم وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم وهذا الأمير يسيطر عليه رعايته .. وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، وهو بعد صاحب نفوذ كبير وعلاقات حسنة ، فالكل يخطب وده .

غير أن أمير ميورقة مات فجأة ، وهو أنضر ما يكون عافية ، وأشد ما يكون قوة .. !

وأصبح ابن حزم فى ميورقة بلا ولى ولا نصير: الأحران تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، وهو يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء ، والفقهاء ، وكبار الملاك ، وتجار المبيد ، وكل من أسخطهم عليه من قبل !

ولكنه استمسك ، واعتصم بالصبر والمصابرة ، وعاد إلى حلقاته يعلم الشباب ويحاورهم ويحاورونه كما تعود .

وجد العزاء فى العمل ، وفى العودة إلى الحلقة ، فما من شىء يشرح صدره للحياة كنعمة التعبير عن أفكاره بالكتابة ، وكالجلوس إلى الشباب .. فهو يجد فيهم أمه فى الإصلاح .. !

ما من انسان فى الأندلس يرتاح إليه بعد ، كما يرتاح إلى هؤلاء الشباب الذين يأنس فيهم الصفاء ، والطهر ، والغيرة ، وصدق المودة ، والشوق المحتدم إلى الخلاص ، وإلى بناء عالم من العدالة والحق والخير على دعائم من تعاليم الاسلام !

انهم ليريدون أن يعرفوا الطريق ، وانى ليحمد الله أن قبضه لهم ليقودهم على الحق وما كان عنفه ليغير عليه قلوب الشباب ، بل كان على النقيض ، فهو يوافق ما فى أغوارهم من احتدام ، و يشاكل مافى طبيعتهم الفتية من غيرة للحق وشدة على الباطل . وكان فى هذا العنف رجح لحماسة أولئك الشباب .

وأما النصير الآخر الذى كان يعتزم ابن حزم مع هؤلاء الشباب ، فهو صديقه أمير ميورقة . وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم والأمير يسيطر عليه كل حمايته ورعايته .. ! وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، واسع النفوذ ، قوى الشكيمة ، يخطب وده سائر الأمراء والفقهاء والرؤساء .

وكان ابن حزم يشعر بالطمأنينة والسكينة تحت رعايته ، ويستجم من عناء العمل فى مجلسه . وكان الأمير غريز العلم ، ظريفا ، طيب المعشر ، حلو الأحاديث ، وكان يسرى عن ابن حزم برواية ما يحفظ من طرائف وأخبار عن منافسيه من الفقهاء ، وقد روى لابن حزم قصة صوفى من أهل الأندلس ، عرف بالعداء لابن حزم وبالصلاح وكثرة السياحة والتجوال . وقد سافر الصوفى إلى مصر

فى بعض سياحاته وعندما عاد روى للأمير عجبا عن رحلته تلك : « كنت بمصر أيام سياحتى فتاقت نفسى إلى النساء . فذكرت ذلك لبعض اخوانى فقال لى : « ها هنا امرأة صوفية لها بنت مثلها جميلة قد ناهزت البلوغ . فخطبتها وتزوجتها ، فلما دخلت عليها وجدتها مستقبلة القبلة تصلى ، فاستحييت أن تكون صبية فى مثل سنها تصلى وأنا لأصلى ، فاستقبلت القبلة وصليت ما قدر لى ، حتى غلبتني عيني ، فنامت فى مصلاها ، ومنت فى مصلاى . فلما كان فى اليوم التالى ، كان مثل ذلك أيضا ، فلما طال الأمر عل ، قلت : « ياهذه ألا إجتماعنا معا ؟ » قالت : « أنا فى خدمة مولاي ، ومن له حق فأمنعه . » فاستحييت من كلامها ، وتماديت على أمرى نحو الشهر ، ثم بدا لى السفر فقلت لها : « ياهذه » قالت : « لييك » ، قلت : « إني أردت السفر » ، فقالت : « مصاحبيا بالعافية » . فقلت فلما صرت عند الباب قامت فقالت : « ياسيدى كان بيننا فى الدنيا عهد لم يقض الله بتمامه ، عسى فى الجنة إن شاء الله يقضى بتمامه » . فقلت لها : « عسى الله » ، « أستودعك الله خير مستودع » فتودعت منها وخرجت ثم أكملت سياحتى فى بلاد الله وعدت الى مصر بعد سنتين فسألت عنها فقيل لى : « هى على أفضل ما تركتها من العبادة والأجتهاد » فلم أفكر فى زيارتها ! . »

هكذا كان الأمير يسامر صديقة ابن حزم ويخفف عنه برواية ما يعرف من الطرائف عن خصومه من الفقهاء والمتصوفين .

كان الأمير يؤتسه ، ويسرى عنه ، ويصونه من عادات الخصوم ، ومكائد الحساد ، وبغى الشائين .

ولكن الأمير مات فجأة ، وهو أضر ما يكون عافية وأشد ما يكون قوة ، وأعذب ما يكون ظرفا . !

وأحسن ابن حزم ، كأنما يد باطشة تلوى عنقه ، وتدق عظامه ، وتلقى به بغتة فى عراء مخيف لا ظل فيه ولا ماء ، ولا شئ غير جوارح الطير ، والوحش ، والهوام السامة . !!

لقد أصبح الشيخ فى ميروقة بعد طول الأنس والمتعة وحيدا بلا ولى ولا نصير : الأحزان تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمرء وصغار الفقهاء وكبار ملاك الأرض والنخاسين . . !

ولكنه استطاع على الرغم من كل شئ أن يجمع شتات نفسه التى توزعتها الأحزان ، وأن يواجه العادات بكل القوة التى يمنحها الأيمان بالله ، فكفكف دمعه العصى الذى انهمر يفضل لحيته الشهباء حزنا والتياعا على صديقه الأمير . .

أذن ابن حزم لقضاء الله فصر وصابر ، وعاد الى حلقة الدرس يعلم الشباب الذين التفوا حوله

أكثر مما ألتفتوا من قبل ، لا يخشون فيما يؤمنون به لومة لائم ، ولا يباليون في حبهم لشيخهم بما قد ينزل بهم من بطش خصومه . !!

وجد العزاء في العمل ، وفي لقاء هؤلاء الفتية طلاب علمه من أهل الجسارة والمروءة .

مامن شيء كان يستطيع أن يشرح صدره للحياة والمستقبل كهذا الحب في الله يعمر قلوب شباب مؤمنين تضطرم أعماقهم بالأشواق الطيبة إلى بناء عالم من العدالة والخير والفضائل على دعائم من تعاليم الإسلام .

ومامن شيء كان قادرا على أن يضيء بالبهجة قلبه الحزين ، ويعيد الثقة إلى نفسه المضطربة ، كأستغراقه المخلص في الكتابة مواجهها ضلالات العصر ، وعلى شباة قلمه يتناثر الشرير يحمل اللهب المتأجج في أطواء نفسه ، وينير الطريق إلى الحق أمامه وأمام الآخرين .. !

وبالله كم ارتفع قدر ابن حزم في ميورقة وماحولها ، حتى لقد توافد عليه الطلاب والباحثون عن الحقيقة من كل أقطار الأندلس . ، فأصبحت له الرئاسة على الناس .. !

ولكن خصومه يجدون منذ اليوم في الأيقاع به ، والكيد له عند سائر الأمراء ، بعد أن مات نصيره ووليه أمير ميورقة ..

وذات صباح فوجيء ابن حزم بأمر جليل من أمور الأندلس لم يستطع عليه صبيرا ... وكانت أمور السياسة في الأندلس قد آلت إلى فضائح كما قال أحد مؤرخي ذلك العصر : « صار الأمر إلى الأخلوقة والفضيحة : فهناك أربعة حكام كلهم يسمى بأمر المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا في مثلها ومنهم من لا يصحب إلا كل ساقط رذل ولا يججب عنهم حرمه (أى نساءه)

من بين هؤلاء الأربعة الذين يزعم كل واحد منهم أنه هو الخليفة و يسمى نفسه أمير المؤمنين ، نهض أمير أشبيلية يحاول الوثوب على الإمارات الأخرى ليضمها إلى ملكه ، واستبد بالأمر و بطش بأهل الشورى ، وقتك بمن يعارضه ، حتى لقد طارد أحد معارضيه الذين فروا منه إلى الحجاز وهو عالم كفيف فأرسل الأمير من يدس السم للرجل ، فمات .. !

قام حاكم أشبيلية يدعو أهل الأندلس إلى مبايعته هو وحده خليفة على الأندلس كله وأمر المؤمنين . وادعى أنه هو الخليفة الأموي المقتول هشام بن الحكم المؤيد !!

وعندما بلغ ابن حزم ما يدعيه أمير أشبيلية أذاع الشيخ على الناس : « أخلوقة لم يقع مثلها في الدهر ، فإنه ظهر رجل بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد ، وأدعى أنه هو ،

فبويح له ، وخطب على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره . «

ويجن أمير أشبيلية حنقا على ابن حزم ، وأمر الشرطة أن تأتي به من ميورقة ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقتحم عليه أو يفضى إليه !

لقد حماه الشباب الذين بهرتم علمه وإخلاصه ، وجموع الفلاحين الذين يدافع عن حقهم فى الأرض ، فتحصن فى قلعة منيعة من حب المعجبين به ..

وفكر أمير أشبيلية فى أن يكيد له كيذا يسقطه أمام محبيه ، فيسهل على الأمير بعد ذلك أن يفتك بالشيخ فى معزل عن حصنه الحصين !

وكان صغار الفقهاء يفرّون به ، و يريدون التخلص منه ، وخصومه وحساده يفتون بإهدار دمه ! ..

واتفق أن أبا الوليد الباجى الفقيه الأندلسى عاد الى الأندلس بعد رحلة طويلة فى المشرق أستغرقت نحو ثلاثة عشر عاما .. وكان الباجى فقيها غزير العلم ، ولكنه كما قال عنه أحد معاصريه « كان مشهورا بأنه يجالس الرؤساء ويمدحهم بشعره ويسترضيهم حتى ينال جوائزهم ، وكانت عليه مطاعن فى دينه » .

هاهوذا إذن الرجل الذى يستطيع أن يقذفه الأمير على الشيخ ابن حزم : فقيه واسع العلم يقبل أن يوجه علمه إلى ما يرضى الأمير ! ..

ولاذ صغار الفقهاء من أعداء ابن حزم بالفقيه الباجى ، واجتمعوا كلهم عند أمير أشبيلية وأحكوا الخطة التى يسقطون بها ابن حزم أمام المعجبين به والملتفين حوله . فها هى إلا أن يناظره الباجى ويفحمه فى المناظرة حتى تسقط هيئته ويتخلى عنه الجميع ! !

قدم الباجى الى ميورقة فى موكب ضخم من أهل الوجاهة وصغار الفقهاء أعداء ابن حزم ، وعدد كبير من حترفى الشغب ، وأهل الأبتزاز ومحترفى الإرهاب ورجال الشرطة السرية !

وذهب الباجى فى موكبه ذاك الى حلقة ابن حزم فى جامع الجزيرة ، وأغرى عددا من الفقهاء الذين صحبوه ليجادلوا ابن حزم فينكوهه ، ويستفزه بالافتراءات والتهجم عليه حتى يفقد السيطرة على نفسه قبل أن يبدأ الباجى مناظرته .. ! ولكن ألسنة الفقهاء قصرت عن مجادلة ابن حزم وكلامه . فتقدم الباجى يناظره ، فأفحمه ابن حزم ، فأراد الباجى أن يكرهه وأن يمرض عليه فقراء الطلاب والفلاحين من وراة الحلقة فقال : « تعذرنى فأكثر مطالعائى كانت على سرج الحراس » . فرد ابن حزم :

« وتعذرنى فأكثر مطالعاتى كانت على منابر الذهب والفضة . » وصفق أتباع ابن حزم طربا ...

وخرج الباجى فى موكبه ، وظل ليلته يعد مع أنصاره الشراك لابن حزم .

وفى اليوم التالى أقبلوا الى الحلقة ، وبدأت المناظرة ، ولم يكد الباجى ينتهى من كلامه حتى وثب أنصاره فصنفقوا وتصايحوا اعجابا بما قال . وجاء دور ابن حزم ليرد ، ولكنهم قاطعوه بالصفير والزعيق والسخرية والضحكات والتهريج عليه ، وغمر صخبهم المكان ، ولم يمكنوا ابن حزم من الكلام إذ ضاع صوته وسط الشغب والتهريج ، فعزف عن الأستمرار فى المناظرة

وقام من المسجد أسفا ، فاعلنوا أنتصار الباجى ، وانكسار ابن حزم ..

وظلوا يطاردون ابن حزم بصياحهم وشغبهم : « أبو الوليد الباجى ناظر ابن حزم ، فانكسر ابن حزم أمامه »

أوى ابن حزم إلى داره لا يبارحها مدة يومين ، وصدى أليم من سخرية المشاغبين تلح عليه ، وأعداؤه يحتلون حلقتة و يصرفون عنها مريديه .

ثم جاءه من يخبره أن أمير المؤمنين (وهو أمير أشبيلية) أصدر أمره بجمع تداول مؤلفات ابن حزم ، وجمعها كلها من خزائن الكتب العامة والخاصة فى جميع بلاد الأندلس !!

وماهى الا أيام حتى أحرقت مؤلفات ابن حزم فى جمع من أعدائه وحساده وشائثيه وضحكاتهم الشامتة تتعالى فى جنون وحشى .. !

آية قارعة هذه التى نزلت بالرجل فى شيخوخته . ! إنها لقاصمة الظهر . !

إنه الآن ليقرع أبواب الستين ، ومامن عزاء بعد ، ولاعوض عما ضاع ، ولاهو يستطيع أن يكتب من جديد بعض هذه الصفحات الطوال التى أودعها كل روعة حياته ، والدمع ، والفضنى ، والمعاناة ، والأمل والبهجة ، وحبات القلب ... !

ولكنه أستطاع ! ..

ازدرد الدم النازف من جراحاته ، واستعلى على النكبة ، وواجههم من علياء صموده بشعره

يتحدى :

فأن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذى
تضمنه القرصاس ، بل هوفى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل ، و يمدفن فى قبرى

وأستقلت ركائبه .. ترك ميورقة الجزيرة التى عرف فيها حلاوة الأمن وطيب الألفة .

ترك ميورقة بعد أن تحولت طرقات الجزيرة الى مرابض للمتربصين ، وأصبحت حلقات العلم فيها
فخاخا ومصائد .. !

ومضى فى ركب حزين من أهله وجواريه وخزانة كتبه .. إلى حيث لا يعلم أحد مكانه ، ولا يلقى
أحدا من الناس ! !

« وطفق الحكام يقصونه عن قريهم ويسرونه عن بلادهم » كما قال أحد مؤرخيه (أبو حيان)
أختفى زمنا ، ثم سار إلى القرية التى ولد فيها أبأوه قبل أن يستوطنوا قرطبة ، حيث تركوا له ضيعة
يكفيه دخلها و يوفر له حياة ميسرة ، وحيث مازال يعيش أقرباؤه ..

وفى أحضان ذلك الركن الهادئ من ريف الأندلس ، بين الفلاحين الذين أحبوه وعرفوا فيه قبل
أن يلقوه مناضلا عن حقوقهم ، قرر ابن حزم أن يعيش مابقى له من العمر .

لم تكن النار التى التهمت كتبه قد استطاعت أن تمس شموخه ولا إصراره ... فما زال قادرا على
أن يبدأ من جديد على الرغم من كل شيء !

لابطش أمير أشبيلية ، ولابقى كل أعدائه ، ولا المكر السىء ، ولا شىء على الإطلاق يستطيع أن
يمتد الى تلك البقعة الهادئة أو ينال منه ... فلا سلطان لأمير أشبيلية على هذا المكان الجميل من ريف
الأندلس ، ولا رأى لفقيه هنا الا رأى ابن حزم : ابن القرية وحامى العاملين فيها ..

وعلى وهج النار التى التهمت مؤلفاته ، أضاعت نفسه بالإصرار وإرادة التعبير .

وعاد يلتقى بشباب آخرين . فقد توافد عليه الشباب من القرية ومن كل أرجاء الأندلس ، وقد
زادهم صمود الشيخ فى محنته إعجابا به . وفاضت عيناه العظيتمان من الفرح حين أخرج إليه بعض
هؤلاء الشباب مؤلفاته التى أخفوها فنجت من الحريق ! .. وأخذوا ينسخونها بهمة عالية متحمدة ،
ويوزعونها خفية فى كل أقطار الأندلس ، وخارجه . ونسخوا ووزعوا من هذه الكتب الناجية من
الحريق أضعاف ما كان موجودا من قبل !

وبدأ الشيخ يملى عليهم ما احترق من المؤلفات ، و يؤلف كتبنا جديدة .

وفى قريته النائية حيث لا يصل إليه فحيح العداء ، ولا صخب الحساد ، وحيث تقصر عنه يد الحكام ، وحيث حب الناس يعمر نفسه بالصفاء ، وحيث كل ماحوله من جمال الطبيعة وطيبة القلوب يعمر نفسه بالأمل ، وبقنعه بأن الحياة جديرة بأن نحياها ، وبأن نجعلها متاعا حلال للآخرين هناك فى هذا الهدوء النابض بروعة المودة ، واستطاع ابن حزم أن يحكم مؤلفاته التى أعاد كتابتها بعد احتراقها والتى صنفها .. وكانت مناظراته مع مريديه فى جو مترع بالمحبة سبيله إلى الاتقان ..

لقد عاش كل حياته السابقة يستنبط الأحكام من ظاهر النص ، فها هو ذا الآن يستخلص الحكمة من باطن النفس . !

إنه ليفهم ظاهر النصوص بكل معانيها الصريحة والمجازية ، بلا نظر فى الدلالات والإشارات الخفية ، وهو فى الوقت يستطن خفايا النفوس وأسرار الدلالات ولطف الإشارات ليصوغ أفكاره فى الأخلاق والفلسفة وسائر الإنسانيات

وتأسيسا على هذا النظر أحكم فقهه وأصوله ، وسائر آرائه فى الحياة والناس .

وهكذا أتقن إيراد كثير من احكام والآراء التى خالف بها كل من سبقه ، أو سبق هو بها كل من جاء بعده من أهل الفكر ، من خلال أسلوب ناصع ، بطريقة يجذب بها أنتباه القارئ أو السامع ، فهو يعرض الآراء التى يخالفها بما لديها من حجج وأدلة ، ثم يناقشها ويرد على أدلتها ، ثم يسوق أدلته هو ويرد على ماعسى أن يثار ضد هذه الأدلة والحجج ، ثم يخلص إلى النتيجة مؤيدة بالبراهين ..

وقد أوردنا فيما سبق كثيرا من هذه الأحكام والآراء ..

ولكنه صقل هذا كله فى قريته وقدم بعض الإضافات .

وكان من قبل قد كرر أنه لا يحسن الظن بالمرأة ، وهو يعنى المرأة التى لا تشغل لها فى الحياة العامة ، ولا تنشغل حتى بمنزلها وتربية أولادها ، فهى لابد أن تنزع فى فراغها هذا الى دواعى الغزل ، وإلى المعصية ، ثم إلى الفساد . والرجال والنساء فى ذلك سواء .

على أنه يفتى بأن المرأة شرعا تستطيع أن تتولى الوظائف العامة بلا استثناء إذا كانت صالحة قادرة مؤهلة لتولى هذه الوظائف ...

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لعن الله قوما ولو امرهم أمراة » فهو إنما يعنى الخلافة أو الإمامة فحسب ، فالخليفة يجب أن يكون رجلا . أما فيما عدا الخلافة فالمرأة الصالحة لها حق ولاية أى أمر من أمور المسلمين .. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن

رعيته . « وذكر الحديث أنواع الرعاية ومسئولياتهم فذكر المرأة : والمرأة راعية وهى مسئولة عن رعيته » . فضلا عن أنه لم يرد نص فى القرآن أو السنة ، يحرم على المرأة تولى أمور المسلمين فيما عدا الخلافة .

وذهب ابن حزم إلى أن المرأة إذا تفقحت فى الدين وجب على الرجال أن يأخذوا عنها وقال : « وهؤلاء أزواج النبى قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولاخلاف فى ذلك . فالمرأة تستطيع أن تتولى القضاء والأفتاء وأن ترأس الرجال فى عملهم ، وأن تدرس لهم »

ونظر من جديد فى وضع العبيد والجوارى فأكد أنهم لا يختلفون عن الأحرار فى صفة أو موهبة وأن العبودية ليست ذنبهم ، ولا هم الذين جروها على أنفسهم ، وبينهم من هو أتقى وأزكى وأصلح من الأحرار ، وقد ولى أمور المسلمين فى المشرق من أبناء الجوارى خلفاء كانوا صالحين ببناء حضارة ، وما ذلك الا لأن أمهاتهم الجوارى قد أحسن تربيتهم ، وماولى الأندلس من هو ابن حرة قط ، فكل حكام الأندلس منذ الفتح من أولاد الأماء لقد كان منهم خلفاء عظام .

فإذا تاق العبد إلى الحرية فليس لملكه أن يحرمه منها ، وعلى ولى الأمر أن يحمل المالك على تحرير المملوك . وفى ذلك قال ابن حزم : « من كان له مملوك مسلم أو أمة مسلمة فدعا أو دعت إلى الكتابة ، فرض على السيد الأجابة على ذلك . ويجبره السلطان على ذلك . وذلك بما يعرف بأن المملوك العبد أو الأمة يطيقه » أى بالسعر الذى يطيقه من يطلب العتق أو التحرير . وهو سعر يراعى فيه أمران : ألا يححف بمالك العبد أو الامة ، وأن يطيقه العبد وتطيقه الأمة ، فإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك

فاذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك على عتق المملوك أو المملوكة

ويحدد السلطان السعر العادل . وبرهان ابن حزم على هذا هو نص الآية الكريمة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

ومالك الرقيق الذين يعجزون عن تحرير أنفسهم مأمور شرعا بأن يعاملهم كما يعامل أبناءه وذوى قرباه فى كل أمور المعاش ..

وكان ابن حزم قد نفى يديه من الحكماء ليأخذ بيد المحكومين ، ويش من اصلاح الرعاة فاتجه إلى الرعية يعرف الناس بحقوقهم على ولى الأمر ، وأفتى بأن السلطان مطالب شرعا بأن يوفر لرعيته حد الكفاية من المأكل والملبس والمسكن ودابة الركوب . هذا هو رأى إمام مصر الليث بن سعد . وزاد ابن حزم أنه ما من شىء يضطر المسلم إلى أن يأكل ما حرمه الله كالميتة والدم ولحم الخنزير . فالمسلم

لا يضطر إلى هذا أبداً إلا إن عضه الجوع وهو فى خلاء ولم يجد غير هذا الطعام المحرم . أما المسلم فى بلده فولى الأمر مسئول عن إطعامه ، فإذا لم يكن فى بيت المال ما يكفى لإطعام الجياع ، فعلى السلطان أن يفرض فى أموال الأغنياء ما يكفى لمواجهة حاجات الفقراء . فإذا لم يفعل السلطان أى ولى الأمر ، فقد أثم وجاز للجائع ان لم يجد طعاما ، أن يقاتل على هذا الطعام من لديه طعام لا يحتاج إليه ، فان قتل الجائع فهو شهيد وعلى قاتله القصاص ، وان قتل مانع الطعام فهو فى النار ولا قصاص !

وأفتى بأن تعاون الجيران ليس من مكارم الأخلاق إن شاء الجار أتاها أو تركها ، بل هو تكليف شرعى بنص القرآن : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . والماعون هو ما يقترضه الجار المحتاج من جاره كالأوانى ودواب الركوب وأدوات الزرع والحراث ونحو ذلك .

وأفتى فى الماء : « لا يجوز بيع الماء بوجه من الوجوه لافى ساقية ولا من نهر أو من عين أو من بئر ولا فى صهريج ولا مجموعا فى قرية ولا فى إناء . ولا يملك أحد الماء الجارى الا مادام فى ساقيته ونهره ، فإن فارقتها بطل ملكه عنه وصار لمن فى أرضه ، وهكذا أبدا . أما من حفر بئرا بعمله وماله فهو أحق بمائها مادام محتاجا ، فإن فضل عنه فلا يحتاج إليه لم يحل له منعه عن محتاج إليه ، وكذلك فضل النهر والساقية .. ومن أستسقى قوما ولم يسقوه وهم يعلمون أنه لاماء له البتة فهم قاتلوه عمدا ، وعليهم القود (القصاص) بأن يمنعوا الماء حتى يموتوا كثروا أو قتلوا . وهكذا القول فى الجائع والعارى . ولا فرق .

وقد فرض ابن حزم على كل صاحب إبل وبقروغنم « أن يعلبها يوم ورودها على الماء ويتصدق من لبنها بما طابت به نفسه » . فقد جاء فى الحديث الشريف : « تأتى الأبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هولم يعط حقتها تطؤه بأخفافها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ما كانت اذا لم يعط فيها حقتها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها . ومن حقتها أن تحلب على الماء » .

فى أموال القادرين حقوق غير الزكاة ، وهذه الحقوق واجبة الأداء ، وليس أداؤها من باب التطوع . قال : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك »

أما ما سبق به المفكرين الذين جاءوا من بعده ، فتلك أمور تمس بواطن النفوس وخصائص الأشياء ومظاهر الطبيعة :

— من ذلك أنه اهتدى إلى نظرية فى المعرفة تقوم على مزج بين الفطرة والتجربة بين البدئية والحس .. ويلخص نظريته هذه بقوله : « إن العلم بالضرورة أو بالعقل راجع إلى الحس »

فالإنسان يعرف أشياء بالبدئية أو الفطرة و يصقل علمه بالحواس وهو ما يحتزنه بإدراكه الحسى فى زمن سابق ، ومحكم هذا بالتجربة . فهذه هى المعرفة .

وهذه نظرية فى المعرفة اكتملت بعد ذلك بقرون . وكان الأوربيون فى عصر ابن حزم يقرأون كتاباته وكان المتعلمون فى جنوب فرنسا وإيطاليا وماليها لا يعتبرون متعلمين حقا إلا أن يعرفوا العربية .

ومن ذلك أنه اهتدى فى وقت مبكر جدا إلى أن الأرض كروية وقد وصل إلى هذا رأى من فهمه لظاهر آية فى القرآن الكريم فكتب يقول : « ان أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الأمامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم فى دفعه كلمة . بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها ، قال الله عز وجل : (و يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل) . وهذا أوضح بيان فى تكوير الأرض ... »

— ومن ذلك رأيه فى أن الجزئى قابل لأن يتجزأ . وعن الجزئى (أى الذرة) . يقول ابن حزم : « ليس فى العالم جزء لا يتجزأ ، وإن كل جزء أنقسم الجسم إليه فهو جزء أيضا وأن رق أبدا وأن كل شئء يمتثل أن يكون على أجزاء كثيرة فبالضرورة ندرى أنه يمتثل أن يجزأ الى أقل منها ... »

و يرى الأستاذان عبد الحليم عويس وأحمد عبد الوهاب أنه سبق بهذه الآراء العلماء المفكرين حتى القرن العشرين .

على أن ابن حزم لم يسلم من الهجوم على الرغم من اعتزاله الناس فى قريته . فها هو ذا يذيع كل الآراء التى ظن الناس أنها اختلفت بعد أن أحرقت كتبه . . . ها هو ذا يحكم أراءه لتصبح أكثر ذيوعا من قبل ! وها هو ذا يصنف مؤلفات جديدة ، وأن الشباب ليلتفون حوله أكثر مما التفوا فى أى وقت مضى . . لا يسمعون قول فقيه غيره . ! !

زادت الثورة عليه ، واتهموه مرة أخرى بأنه يجرى الفقاء والجياع والعراة على الأغنياء ! وأتهموه بأنه يسبيح الماء من لاحق لهم فيه ، ويعرض العبيد على إكراه السادة لتحريهم . . وهو بعد يهاجم بعض الفقهاء والذين يزعمون أن الأرض تقف على قرن ثور و يتهمهم بأنهم يشيعون الخرافات التى تجعل الشباب يرفضونها فيتجهون الى الإلحاد فهؤلاء الفقهاء هم المسئولون إذن عن إلحاد الآخرين ! ثم إنه يقنع هؤلاء الشباب بأن الأرض كروية ، ويسترضى الأبناء غير الشرعيين الذين أوجدتهم ظروف المجتمع الفاسد ويعتبرهم ضحايا فساد المجتمع ، فيجب لهم حسن الرعاية ، و يفتى بمساواتهم بالأبناء الشرعيين .

واتهمه خصومه من جديد بالخروج على الدين ، وإثارة الفتنة ... واتهمه بعضهم بالجمود لوقوفه عند ظاهر النص . ، فأغلظ في الرد عليهم جميعا ، واتهمهم بأنهم جهلاء مراؤون منافقون يساندون الحكام ويمدحونهم بغير ما فيهم ويزنون لهم البغى والظلم والأخفاف عن الإسلام للحصول على الجوائز والأموال والمناصب والاطاعات !!

وعلى الرغم من استعمار الخصومة بينه وبين الفقهاء من متبعي المذاهب ، فقد ظل مع ذلك يعمل ويعلم ، حتى لقد كتب في قرينه تلك ما يزن حل بعير منها كتاب « الإنعام في أصول الأحكام »

وهو مصنف في أصول الفقه من ثمانية أجزاء وقد قال عنه المغفور له الشيخ أحمد شاكر أحد أعلام الشريعة والفقه في القرن الرابع عشر الهجري : هذا الكتاب النفيس الذي لم تر العين مثيله في علم الأصول

ولكنه إذ رأى ما يعانیه من أهل زمانه كتب وكأنه كان يعزى نفسه وسائر المخلصين من أهل العلم والفقه والفكر .

« أزهّد الناس في عالم أهله ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : (لا يفقد النبي حرمة الا في بلده) . وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قریش ، وهم أوفر الناس أحلاما ، وأصحهم عقولا ، وأشدهم تثبنا ، مع ما خصوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم باكره المياه (بئر زمزم) وحتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يوتى فضله من يشاء ، ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، بأستقلالهم كثيرا ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته وتبجهم سقطاته وعشراته ... أن اجاد قالوا : (سارق مغير) . وإن توسط قالوا : (غث بارد وضعيف ساقط) . وإن باكر لحيازة قصب السبق ، قالوا : (متى كان هذا ، ومتى تعلم ، وفي أى زمان قرأ ؟ ! ولا مه الهبل !) ... فإذا سلك غير السبيل التي عهدوها ، حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، ونهبا للألسنة ، وعرضه للتطرق الى عرضه ... فإن لم يتعلق من السلطان بحظ لم يسلم من المتآلف ... وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه ، وأشتط عليه ، وسترت فضائله ، فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته . »

لكم لقي ابن حزم حقا ! وقد وصف أحد المنصفين من خصومه ما كان يلقاه : « أن ابن حزم أصابه ما أصابه من الحسد الذي لا دواء له ، لأنه أزهّد الناس في عالم أهله . »

وفي شعبان سنة ٤٥٦ هـ ، كان ابن حزم قد جاوز السبعين بنحو عامين ، وقد أنهكه العمل

الدائب ، والصراع المتصل ، والجحود والاضطهاد ، وهدته جراحات الغدر!

لقد آن للقلب المذب أن يستريح ! ...

وعندما شعر بدنو الأجل قال قصيدة جاء فيها :

عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا

عن الأهل محولا إلى ضيق ملحد

فوا راحتى إن كان زادى مقدا

ويانصبى إن كنت لم أتزود .

ثم سكت قلبه إلى الأبد ، ولكن أصداء من صوته عبرت أطباق التاريخ !

ومضى الزمن ليحكم الأندلس بعد قرنين من وفاة ابن حزم حاكم ينشر كتب الفقيه المضطهد ،

ويحمل الناس على الأخذ بما جاء فيها .. ثم يطارد ذلك الحاكم أتباع الائمة الأربعة ويحرق كتب

الاجتهاد بالرأى وكتب الامام مالك بصفة خاصة ، ويخير الناس بين الأخذ بذهب ابن حزم واتباع

ظاهر القرآن والسنة أو السيف . !

وتعبر آراء ابن حزم جسور الزمن ، لتؤثر فى المشرق العربى على أفكار فقيهين من أصحاب

المذاهب ، ثار كلاهما على التقليد فحاول التجديد ... واصطك كل منها بعصره وكابده عصره ...

هما عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام الشافعى ، وتقى الدين تيمية الحنبلى ..

العزیز الدین عبد العزیز بن عبد السلام
سُلطان العلماء

تنبأ لنفسه أنه سيعيش ثلاثا وثمانين عاما ، فكان الأمر كما قال ! ..

زاره صديق ذات صباح فقال له : « رأيتك فى المنام تنشد :

وكننت كذى رجلين رجل صحيحة

وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة ، فإن هذا الشعر لكثير عزة ولا نسبة بينى وبينه غير السنن ، فهو شيعى وأنا سنى ، وهو قصير وأنا لست بقصير ، وقد عاش ثلاثا وثمانين سنة فسأعيش كما عاش أن شاء الله .

ولد فى دمشق عام ٥٧٧هـ ، وتوفى بالقاهرة عام ٦٦٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم .

وحين بلغ الثانية والستين ، بدأ حياة جديدة ، وغير كل ماتعوده وهو صغير : فقد ترك دمشق مغاضبا وهاجر إلى الله من بغى حاكم دمشق ، واستقر فى القاهرة ، وشرع فى تأليف الكتب . فوضع كل مصنفاته فيها ، وما كان من قبل قد كتب شيئا يعتد به ، ذلك أنه كان ينفق كل وقته فى التدريس والخطابة والوعظ .. وفى القاهرة جمع إلى هذه الأعباء مسئولية الكتابة ، فصنف كتباً فى الفقه والتفسير والأصول والتصوف . وضاول الحكام ! .

أطلق عليه أبوه اسم العز بن عبد العزيز .. ولكنه عندما كبر اشتهر بأسم عز الدين وبأسم العز ، وقلما كان يناديه الناس عبد العزيز .

وقد فتح العز بن عبد السلام عينيه على حياة الحرمان .. كان أبوه عبد السلام فقيرا جهد الفقر ، وكان يجوب الأسواق بحثا عن عمل .

وحين شب الطفل صحبه أبوه ليساعده فى بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة ،
وتنظيف ما أمام محلات التجار ..

وكان أبوه عبد السلام يأخذه إلى الجامع الأموى إذا حان وقت الصلاة ، ورآه أحد شيوخ المسجد .
فأعجب به ودعا له .

مات أبوه فلم يجد فى نفسه القوة على القيام بالأعمال الشاقة التى كان يؤديها أبوه ، ولم يجد الصبى
مكانا يأوى إليه ، فذهب إلى ذلك الشيخ يلتمس عنده المساعدة فى الحصول على عمل يقتات منه
ومكان يبيت فيه .

وتوسط له الشيخ فأحفوا الصبى بالجامع الأموى ، يساعد الكبار فى أعمال النظافة ، وفى حراسة
نعال المصلين وأهل الحلقات التى يتركونها عند أحد أبواب الجامع ، وسمحوا له بأن يتنام الليل فى
زاوية بأحد دهايز الجامع ، على الرخام .

وكان الصبى يعايش مرأى الغنى والمتاع خلف أسوار القصور بمحادثتها الفيحاء فى دمشق ،
و يشاهد الجياد الفارحة على سهواتها رجال تنعكس الشمس على خوذاتهم ، وملابسهم الزاهية
وسيوفهم المرصعة بالذهب ، ويتأمل حاله وثوبه الذى تفتحه العيون ، ومضجعه البارد على رخام
زاوية فى المسجد ، ثم يتساءل فى أغوار نفسه كيف يعيش فى بلد واحد رجال ونساء كهؤلاء الغارقين
فى النعيم ، والذين يسقطون من الحرمان ، ويقتاتون بالأسى والأحلام ؟ !

على أنه صرف همه إلى مايقوله الشيوخ فى الحلقات ... وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب
المسجد يحرس النعال كلام يثير خياله ، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لايجوع فيها ولايعرى !

وتسلل إلى أحد الحلقات ذات يوم ، ودس جسده النحيل الصغير بين الطلبة الكبار . ورآه شيخ
الحلقة ، فنهره ، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق فى مجلس للعلم ينبى على الطالب فيه
أن يأخذ زينتة .. ؟ !

وجرى الصبى إلى باب المسجد ، وتكور على نفسه يبكى ! .. حتى إذا حان خروج الشيوخ
والطلاب ، رآه الشيخ الذى أحفقه بالجامع وهو الفخرين عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعى ، وسأله
الشيخ عما يبكيه ، فروى له ما كان من أمره ، فطيب الشيخ خاطره ، ووعد أنه يتعمده ، وسينحضر
الحلقات عندما يبلغ الشباب . ومن يدرى ؟ ! فرمى أصبح هذا الصبى نفسه شيخا لحلقة فى هذا الجامع
ذات يوم ! ..

وضحك الصبي ، واتمعت عيناه ، واقتحمت نظراته الجدران إلى آفاق المستقبل ، ورأى نفسه طالب علم ، ثم شيخاً حلقة ، فأوشك أن يشب من الفرح ، وقبل يد الشيخ ، وسأله متى يبدأ التعليم ، فقد جاوز سن الطلب ؟ ! .. وقال له الشيخ الفخر بن عساكر ، أنه سيبدأ من الغد .

حتى إذا كان الغد ، أحذه الشيخ إلى مكتب ملحق بالمسجد وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والحفظ وأن يحفظ القرآن ، وتعهد الشيخ بنفقة الصبي .

وأقبل العز على المكتب فى شغف عظيم ، وحفظ القرآن ، وأتقن القراءة والكتابة والحفظ الحسن ، وعوض مافاته من سنوات الدرس .

وكان كلما لقى شيخه على باب الجامع سأله الشيخ عن حاله ، فيسمعه الصبي محافظ من القرآن ، ويطلعه على مايكتب فى اللوح الصفيح من الآيات الكريمة .

وأعجب الشيخ ابن عساكر بما يبدو على العز من مخايل النجابة والذكاء ، وحسن ترتيله للقرآن ، وأعجب بصفة خاصة ببشاشة الصبي على الرغم من فقره الطاحن ! .

ومرت أعوام ، واطمأن الشيخ فخر الدين الى أن الصبي قد أتقن حفظ القرآن وجوده ، وإلى أنه قد أصبح يحذق القراءة والكتابة بخط جميل ، فبشره الشيخ بأنه سيفضه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقاته ، ودفع إليه بما يعينه على شراء ثوب صالح لحضور حلقات العلم .

وأمضى الصبي ليلته يحلم بالمستقبل !

إنه الآن ليثب إلى مرحلة الشباب ، وهو فى حاجة إلى عمل يكفل له دفء المسكن والثوب اللائق والطعام الطيب ..! هو فى حاجة إلى مال يوفر له شراء أدوات التحصيل من دفاتر وأقلام وأوراق ومعبرة ، وما يلزم من كتب .

وتخرج أن يكلم الشيخ ليساعده فى الحصول على عمل آخر يحصل منه على أجر أكبر ويوفر له ما ينبغى لطالب العلم ! .. لقد منعه الحياء ! ..

وقبل أن تنتهى ليلته استيقظ فجأة ! .

ويحدثنا السبكي فى طبقات الشافعية عن تلك الليلة فيقول : « كان الشيخ عز الدين فى أول أمره فقيراً جداً ، ولم يشتغل إلا على كبر ، وسبب ذلك أنه كان يبيت فى كلاس « زاوية » من جامع دمشق ، فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتلم ، فقام مسرعاً ونزل فى بركة الكلاسة فحصل له أ

شديد من البرد ، وعاد فنام ، فاحتلم ثانيا ، فعاد إلى البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج ، فطلع فأغى عليه من شدة البرد . ثم سمع النداء : يا بن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟ فقال : بل العمل لأنه يهدي إلى العلم .

وأصبح الفتى عز الدين ، فروى لشيخه ابن عساكر ما كان من امر تلك الليلة . وقال الشيخ له « لقد بلغت مبلغ الرجال . وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك أن تهب نفسك للعلم » .

وأعطاه الشيخ كتاب « التنبيه » فى الفقه الشافعى ، وأعطاه أسبوعين مهلة ليحسن قراءته وأستيعابه . وعاد العزلى شيخه بعد ثلاثة أيام وقد استوعب الكتاب وحفظه عن ظهر قلب !

وضمه الشيخ إلى حلقة ، ونظم له حضور حلقات أخرى فى اللغة وآدابها ، وفى الحديث وأصول الفقه . ونصحته أن يتقن علوم اللغة من نحو وصرف ، وأن يحفظ الشعر و يدرسه ليحسن فهم نصوص القرآن .

وكان العصر زاخرا بكثير من المعارف . ولكن الشيخ ابن عساكر نصح تلميذه إلا يهتم من كل تلك العلوم إلا بما يعين على فهم القرآن .

ولزم عز الدين شيخه ابن عساكر ، وتعلم منه الفقه الشافعى ، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات ، خطيبا ، لاذعا ، وهو فى الوقت نفسه شديد الحياء ، وكان مرحا متألقي الظرف ، فتأثر تلميذه عز الدين ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه .

من الحق أن عز الدين لزم شيخه ابن عساكر وتأثر به ، ولكنه لم يلتزم نصحه فيما يطلب من علوم . فتساق إلى التزود بمعارف عصره جميعا . وكانت أفكار اليونان والمصريين القدماء والهنود والفارسيين قد نقلت إلى اللغة العربية . وكان المسلمون قد تفوقوا فى علوم الطبيعة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك ، وتعاطوا الفلسفة فأراد عز الدين أن ينهل من هذا كله ..

وكانت فلسفة الاشراق التى جاء بها السهروردى إلى دمشق وحلب تعيش ، وتصك أعداء تلك الفلسفة الذين نجحوا من قبل فى الايقاع بالسهروردى ، فأغروا به صلاح الدين . وكان ابنه الظاهر يحمى السهروردى فى قصره مجلب ... فأمر صلاح الدين ابنه الظاهر أن يسجن السهروردى حتى يهلك فى سجنه صبورا وجوعا وعطشا ، ولكن الظاهر بن صلاح امتنع ، فأرسل إليه أبوه يخبره بين إحدى اثنتين : إما قتل السهروردى أو العزل !

وأذعن صاحب حلب لأمر أبيه صلاح الدين وجاء بالسهروردى وخصومه ، وأمرهم أن يناظروه

قبل أن يقضى فى أمره .

كان السهروردى شيعيا ، وصلح الدين يحارب الشيعة ويضربهم فى كل مكان ... وكان السهروردى ينادى بأن العالم لم يخل من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات ، وهذا الشخص هو الإمام وهو خليفة الله فى أرضه ، وهو واجب الاتباع فهو معصوم يوحى إليه لكن على نحو آخر غير الأنبياء والرسل !

وكان السهروردى يذهب إلى أن التور أساس كل الموجودات ، ويعتمد على الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض » . وقد استفاد بحكمة أختاتون الذى نادى بالتوحيد فى مصر القديمة ، وأعتبر النور والشمس بالذات سبب وجود كل الكائنات الحية . كما استفاد الرجل بأفكار أفلاطون فى المثل وآراء زارد شت الفارسى . ولكنه رد كل أفكاره إلى القرآن الكريم .. وأحسن الاستشهاد بآياته ...

ولم يعرف أحد لماذا ثار فقهاء دمشق على السهروردى ، واتهموه بالشعبوية وهى الدعوة إلى تغليب الفرس على العرب ، ثم اتهموه بالكفر! ... وعلى الرغم من أن الظاهر بن صلاح الدين كان سنيا كأبيه ، فقد بسط حمايته على السهروردى معجبا بأفكاره الصوفية وبفكرة الأشراق ، والفيض الالهى الذى تشرق به قلوب الصالحين فيحصلون المعرفة الذوقية مع المعرفة العقلية .

ومها يكن من أمر فقد جمع الظاهر بن صلاح الدين خصوم السهروردى من الفقهاء ... وبدأت المناظرة أو المحاكمة التى صدر فيها سلفا أمر صلاح الدين بقتل السهروردى حكيم الأشراق ! !

سأله خصومه : « الله قادر على أن يخلق ما يشاء ؟ ! »

قال السهروردى : « نعم » . فسأله : « ونبى الإسلام أليس هو خاتم الأنبياء ؟ » .

قال : « بلى » . قالوا : « ألا يستطيع إله هكذا أن يبعث نبيا بعد نبى الإسلام ؟ » .

كان السؤال مصيدة للرجل !

قال السهروردى بعد لحظة : « ختمت النبوة ولكن الولاية قائمة . »

وأخذه برأيه فى الولاية .. فهو يرى أن ولى الله وهو الإمام المعصوم قطب الأقطاب خليفة الله فى الأرض يجب أن يكون من نسل النبى ... وهذا النظر يحكم بعدم شرعية الخلفاء والملوك إلا إذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ... أى من أبناء على وفاطمة رضى الله عنها .. وصلح الدين نفسه ليس عربيا على الأطلاق فهو كردى الأصل . وهكذا اضطر الظاهر بن صلاح الدين أن يودع السهروردى غيابة السجن يموت فيه صبورا وجوعا !

لقد وقعت الواقعة بالسهوردي بينا كان عز الدين بن عبد السلام صبيا في نحوه العاشرة من عمره ، وزلزلت نهاية السهوردي الفاجعة نفس الصبي زلزالا شديدا ، ولم يفارقه الحزن والعجب .. كيف يقضى على رجال بالموت لأنه قال رأيا يخالف فيه بعض الفقهاء ، ولا يرضى عنه الحاكم ! ؟

ولكن أفكار السهوردي في الأشراق قد ذاعت وملأت أماكن العلم ، واضطك فيها الناس بين مستنكر ومعارض .. منهم من يرى القتل شهيدا مات دفاعا عن تصوفه ومنهم من يراه كافرا !! حتى ظهر في دمشق رجل آخر تسمى باسم السهوردي ، وأذاع أفكار السهوردي في الأشراق ، ولكنه لم يعد يتحدث عن الإمامة والولاية ، وليس خرقة التصوف ، ومضى في الطرقات يهتف بالناس : « الله نور السماوات والأرض . » وأخذ يشرح أفكار السهوردي عن النور والفيض الإلهي ..

وتبعه قوم لبسوا خرق التصوف ، وأطلقوا كلمات في الأسواق وندوات العلم . كلمات مكشفة تحمل رموزا كثيرة .. !

وبهر الشاب عز الدين بهؤلاء وأحوالهم .. وبهرته بصفة خاصة شخصية السهوردي الجديد ، فلزمه على الرغم من نصيحة شيوخه ... وليس عز الدين خرقة التصوف عاما أو بعض عام ملتصقا علم الحقيقة على يد السهوردي الجديد ، حتى إذا علم ماعنده ، عاد إلى أستاذه ابن عساكر يلتمس عنده علوم الشريعة من جديد ..

وسمع عز الدين أن في العراق شيئا عنده من علم الحديث ما ليس عند غيره في دمشق فحمل متاعه وزاده وسافر إلى بغداد ، وجلس إلى ذلك الشيخ وحفظ عنه الحديث .. ثم عاد من جديد إلى دمشق .

كان صلاح الدين الأيوبي قد مات ، وترك دولة شاسعة تقاسمها أخوته وأبناءؤه وأبناء أخوته .. وما هي إلا سنوات حتى تقطعوا أمرهم ، فنفروا وأصبح بأسهم بينهم شديدا .. وتمزقت دولة صلاح الدين إلى دويلات تناحرت فيما بينها ، مما أغرى التتار والصليبيين بالطمع في الاستيلاء على بعض أجزاء هذه الدولة الإسلامية الكبرى .

وقد أسكت هؤلاء الحكام معارضهم إما بالأرهاب والقمع أو بإغراقهم في المال أو بدفعهم إلى الزهد والتصوف على نحو لم يعرفه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفين . وكان هؤلاء جميعا من العلماء والفقهاء الذين يؤثرون في الأمة بأبلغ تأثيرا !

وعز الدين يرى كل هذا ، فيتقدم صفوف طلاب العلم تحت راية الإسلام وخلف قيادة بعض شيوخه من العلماء القلائل المقاومين .. وعرفه الشباب خطيبا يستثير الحمية .

وكان إلى هذا شديد الدأب على تحصيل العلم ، مما أثار إعجاب شيوخه به .

ولم يكفد ينتهى من الدراسة على شيخه الفخر بن عساكر، وغيره من الشيوخ فى جامع دمشق ، حتى أجازوه للتدريس .

وعين مدرسا بدمشق ، يقرئ صفار الطلاب القرآن ، ويعلمهم القراءة والكتابة .. ثم نقل الى مدرسة أعلى .. يعلم الطلاب الفقه وأصول الفقه على المذهب الشافعى .. وهو المذهب السائد إذ ذاك فى كل البلاد التى حكمها صلاح الدين .

وهيأت له مهنة التدريس أجرا طيبا أصلح به حاله ، فاستأجر بيتا لائقا وتزوج ..

وعرف الناس فى ندوات دمشق شيخا متوسط الطول ، يسخر مما يلقى ، مرحا ضاحك السن ، وعليه مع ذلك وقاره عذب الحديث ، خفيض الصوت اذا تكلم ، جهر الصوت إذا انفعل أو خطب ، نظيف الثوب ، لا يرد سائلا ، فإذا لم يجد ما يتصدق به أقتطع جزءا من عمامته ودفع به الى سائله !

وكان نحىلا يقتحم بنظراته المجهول كأنه يفتش وراء الغيب عن شىء ما .. !

لم يقتنع بما نال من علم ، فتعود أن يغشى مكتبة الجامع الأموى يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف ، وقد كشفت له تأملاته ودراساته فى آثار السلف أن كل المعارف الإنسانية تعين على فهم القرآن .. وكان يريد أن يفسر القرآن ، ولكنه شعر أن الوقت لم يمن بعد ، وأن عليه أن يستوعب الكثير من العلوم حتى يجسر على العمل بالتفسير وهو مطمئن الضمير !

ودرس خلافاً المتقدمين حول الفلسفة ، وكان الإمام الغزالي قد هاجم الفلسفة من قبل ، ولكن هذا لم يصرف كل العلماء عن دراسة الفلسفة ، فهاهوا ذا السهروردى المقتول الذى فتن عز الدين بأرائه قد خلف ميراثا سخيا من الفكر وفق فيه بين الفلسفة والدين .

واستوعب العز كل ماتركه السلف فى علم الكلام . العلم الذى يتكلم عن الله وصفاته وأسمائه . ومن السلف من هاجم هذا العلم ونبذوه واعتبره بدعة فاسدة ، ومنهم من عاجله وتمقق فيه وأضاف إليه ، واعتبره علم أصول الدين .

والخلاف بين العلماء حول هذا الأمر قديم يرجع إلى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثانى للهجرة ، حين ظهر المعتزلة وأخضعوا كل شىء للعقل ، وتحدثوا فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله تعالى ، واعتمدوا فى كل آرائهم على الأدلة العقلية . ونبذوهم أهل السنة ورفضوهم وأعتمدوا على ماتركه السلف منذ عصر النبى صلى عليه وسلم وعصر الصحابة ومن بعدهم عصر التابعين . وذهب

أهل السنة إلى رفض الكلام فى كل هذه الأمور، لأن أسلافهم لم يتكلموا فيها بل إن منهم من نهى عن الاقتراب منها .

واتهم أهل السنة مفكرى المعتزلة بالزيف والضلال ، واتهمهم المعتزلة بالجمود وانعكس هذا على قواعد استنباط الأحكام وأصول الفقه ، فن تأثروا بالنظر العقلى اعتمدوا على الرأى فى الاستنباط ، وتمسك آخرون بالنصوص ، وحدها ، ولم يعدلوا عنها إلى الرأى إن لم يجدوا الحكم فى النصوص كما صنع أهل الرأى ودعاة أعمال العقل ، بل آثروا الصمت . ومن أهل السنة من أخذ بظاهر النص وحده ، ومنهم من تأول النص ليستنبط الحكم ان لم يسعفه الظاهر .

وانتقلت كل هذه الأفكار بصراعاتها على أمواج الزمن من جيل الى جيل . حتى أتيح لأهل السنة مفكر كان من قبل من كبار مفكرى المعتزلة ثم هجرهم ، مستخدما أدواتهم فى التفكير والاستنباط ، فاعتمد على البراهين العقلية فى مناصرة آراء أهل السنة والنصوص .

حدث هذا فى القرن الرابع الهجرى .

وهذا الفقيه هو الأشعرى الذى ألف الكتب على مذاهب أهل السنة ورد على المعتزلة فى كل مقولات علم الكلام . « حتى دخلوا فى أقاع السمسم » .

وكان المعتزلة قد ذهبوا إلى أن العقل هو أساس الحكم بالقيح والحسن ، وتبين الحلال والحرام ، وذهبوا فى تفسير الآية الكريمة وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . الى أن الرسول ليس هو النبى الذى يرسله الله ، ولكنه العقل .

واتهمهم أهل السنة بالكفر ، ورفضوا أن يتكلموا فى العقائد بالأدلة العقلية ، وهاجوا المنطق والفلسفة ، حتى جاء الأشعرى ، فاستعان بالمنطق والفلسفة فى الكلام عن العقائد ، ودافع عن السنة بأدلة المعتزلة . فلم يعتمد على النصوص وحدها فى كلامه عن العقائد ، وإنما عمل العقل ، ليناور المعتزلة بأسلحتهم .

وقد أعجب العز بهذا كله ، واعتنق عقيدة الأشعرى ، كما اعتنقها من قبل أكثر المستنيرين من أهل السنة والرأى مهما تختلف مذاهبهم الفقهية .

أعجب العز الدين بمحاولات المعتزلة والأشاعرة وتوفر على دارستها فى مكتبة الجامع الأموى .

ولقد أعجبت به بصفة خاصة مناظرة بين الأشعرى والجبائى أحد أئمة المعتزلة ، « عن ثلاثة أخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن برتقى ، والأوسط كافر فاسق شقى ، والأصغر مات على الصغر لم يبلغ الحلم .

فقال الجبائى : أما الزاهد فى الدرجات ، وأما الكافر فى الدرجات - بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجب على الله تعالى عند المعتزلة - وأما الصغير فن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعرى : فإن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنة ؟

الجبائى : يقول الله تعالى الدرجات ثمرة الطاعات .

الأشعرى : فإن قال الصغير ليس منى النقص والتقصير .. فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعمتك ودخلت الجنة .

الجبائى : يقول البارى تعالى قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت فى درجات الجحيم . فإن الأصح لك أن تموت صغيرا .

الأشعرى : فإن قال العاصى المقيم فى العذاب الأليم مناديا من بين درجات النار وأطباق الجحيم : يا إله العالمين ! يا أرحم الراحمين ! لم راعيت مصلحة أذى دونى وأنت تعلم أن الأصح لى أن أموت صغيرا ولا أصير فى السعير أسيرا ؟ فإذا يقول الرب ؟

فبهت الجبائى فى الحال وانقطع عن الجدال

وعن دور الأشعرى فى الفكر الدينى

كتب المغفور له الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق : أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعرى فى مناقلة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده يشبثون عقائدهم بالعقل تدعيا لها ومنعا لإثارة الشبهة حولها . ووضعوا الأدلة العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار» .

وإذن فذهب الأشعرى مقرر لمذاهب السلف ولكنه يناضل عنها بالأدلة العقلية لا بالنصوص وحدها . وهو رأى وسط بين مذهب المعتزلة الذين نفوا التجسيم عن الله تعالى ومذهب غلاة الحنابلة الذين آمنوا بالتجسيم كما يدل ظاهر النص .

ولقد شاعت عقيدة الأشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة ... كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيما بعد .

وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بها الناس .

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا : فظل بعضهم شافعيًا على رأى صلاح الدين ، واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ، وإن ظلوا جميعا على رأى الأشعري إلا قليلا !

وكان الملك الكامل حاكم مصر وهو ابن العادل شقيق صلاح الدين أو سعمهم أفقا وأشدهم احتفالا بالعلم والعلماء ، حتى لقد جلس وهو ملك مصر إلى الشيوخ ليتعلم منهم فى الحلقات ثم تقدم لنيل إجازة علمية كما يتقدم غيره من الطلاب ، ونجح فيها ! وتعود أن يعقد مجلسا للعلماء فى مساء كل خميس ، وفتح المدارس والمكاتب وأعدق على أهل الفقه والعلم .. وكف عن اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى كما كان يصنع عمه صلاح الدين . وعين قضاة من كل المذاهب بدلا من القاضى الشافعى الذى اكتفى به أبوه .. ولقد نافسه فى تشجيع العلماء أخوه عيسى ، فكافأ المؤلفين حتى وضعوا فى عهد الملك الكامل كتابا من أضخم كتب الفقه الحنفى وهو كتاب (التذكرة) .

وقد أرسل العزبن عبد السلام إلى الملك الكامل وأخيه عيسى كتاب شكر على ما يصنعان للعلم والعلماء ، فأرسلا اليه ردا جميلا . وبعث الملك الكامل إلى أخيه صاحب دمشق — الملك الأشرف — يستوصيه خيرا بالعالم الشاب عز الدين بن عبد السلام .

وكان عز الدين قد جذب إليه عديدا من الطلاب أحبوا دروسه التى كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر بما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه .

وقصده الناس يستفتونه فلم يبخل عليهم بالرأى ، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعى الذى كان يعتنقه من قبل ، بل كان يبحث فى كل المذاهب عن إجابات لما يرد اليه من أسئلة ، فإن لم يجد حاول أن يجتهد رأيه .

وكان شديد الحرج فى فتياه . يفكر طويلا قبل الإجابة ، و يظل يفكر بعدها و ينقب حتى يطمئن أنه على الصواب . ولقد أصدر فتيا ذات مرة ، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال ، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده ، فاكشف أنه أخطأ ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذى أستفتاه ، فأطلق عددا من تلاميذه فى الأسواق والطرقات والمساجد ينادون فى الناس : « من صدرت له فتيا بالأمس من العز بن الدين بن عبد السلام فلا يعمل بها فهى خطأ ، وليعد إلى الشيخ ليفتبه بالرأى من جديد بالصواب » .

شاع ذكر الشيخ فى أقطار المسلمين ، ولم يكن قد ألف كتابا بعد ، ولكن هاهو ذا شاب عالم فقيه زاهد أمين ، يتحرر من المذاهب الفقهيية فى عصر شاع فيه التقليد للأئمة الأربعة ، كل جماعة تتعصب لمذهب ولا تعدوه حتى إن وجدت الجواب الصحيح عند غيره من المذاهب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ! فإذا صدرت الفتيا من أحدهم فلا رجعة فيها حتى إن تبين الخطأ ..

وعز الدين لايتفرغ للعلم والتدريس والفتيا فحسب ، ولكنه يتحرك فى الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى رحمة وحكمة وموعظة حسنة ، ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يخسون الناس أشياءهم ، وعلى جباة المكوس ، والمرتشين والجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين .

من أجل ذلك أحبه الناس : المظلومون والفقراء خاصة ، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستقبل أفضل . وخافه الجائرون من الحكام ، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقربوه ، ولكنه كان بطبعه لا يجب الاقتراب من السلطان ...

وضاق به بعض الفقهاء المقلدين ممن ينافقون الحكام .. ذلك أنه احتل مكانة لا يؤهلها له عمره فهو بعد فى الخمسين ، وأنه ليعتمد على مكانته هذه ، فيسلق المقلدين والجامدين والمرتشين والمرتزة الفقهاء بالسنة حداد ، ويطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم !

وفى أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ عز الدين سؤالاً عن حكم الدين فى العلماء الذين يسكتون عن الظلم ، وهم بعد ذاك يتصدرون بعض الحلقات فى الجامع الأموى يعلمون ويفتون ؟ !

فأقتى الشيخ عز الدين بأن السكوت عن المنكر منكر .. وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول ، وإن كان سكوتهم طمعا . فى الأموال والهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف . وقد قال الله تعالى : « فلتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وهؤلاء هم العلماء ، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله ! ..

وسأل طالب آخر: أمثل هؤلاء طاعة ؟! فقال الشيخ : لاطاعة لهم ...

ورأى ذلك النفر من العلماء فى كلام الشيخ عز الدين تحريضا للطلاب وللعمامة عليهم وعلى السلطان نفسه ! ..

وتوجه أحد طلاب الحلقات فى الجامع الأموى إلى شيخ حلقة يسأله عن حكم الدين فى العلماء الذين يتقاضون من الحكام أموالا وهدايا ثمنا لسكوتهم عن فساد هؤلاء الحكام ؟ .

وسأله طالب آخر عن رأى الدين فى العلماء الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر! . وغضب الشيخ غضبا شديدا وسب الطالبين سبا عنيفا ، وطردهما من الحلقة طردا غليظا وحرّم عليهما دخول الجامع ، وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالسوء وأندران يوقع به العقاب حتى لا يفتن الشباب !

فأعلن سائر الطلاب سخطهم لمقالة الشيخ وفعلته ، فسبهم جميعا ، وأنسحب من الحلقة وهو يصيح

أن ابن عبد السلام قد أفسد العامة والطلاب . !

وانصرف الرجل فاجتمع ببعض شيوخ الحلقات من المتصلين بالسلطان وذهبوا جميعا إليه ، فطالبوه أن يردع الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأن ينزل به عقاب من يثير الفتنة ، ولكن الحاكم طيب خاطرهم ، وكساهم حللا فاخرة وأغدق عليهم الهدايا وصررا من المال ، وطلب منهم أن يمهلوه فى أمر الشيخ عز الدين هذا .. !

ولكنهم عادوا يطالبون بأن يمنع عز الدين من الفتيا والتدريس والمشي فى الأسواق .

غير أن السلطان الأشرف لم يستجب لهم ، فالشيخ على أية حال لا يدرس فى الجامع الأموى ، ولكن فى مدرسة صغيرة قليلة الخطر! .. فليردوا هم فى الجامع الأموى على آرائه .

ولكنهم مازالوا بالحاكم يغرونه بالشيخ عز الدين حتى صرح لهم بأنه لا يستطيع أن يسىء إلى عز الدين ، فالملك الكامل حاكم مصر يجب عز الدين ، و يوصى به خيرا ، فإن نال من عز الدين سلطانهم فسيغضب له الملك الكامل ولا طاقة له بغضب أخيه الأكبر!

ولم يهدأ كيد الخصوم عن الشيخ عز الدين ، وظلوا يتربصون به ..

وحاولوا أن يغروا به الطلاب والعامة وأن يسفهاوا لهم آرائه ، ولكن حملتهم عليه وشدة عز الدين فى نقد ذلك النفر من العلماء ، مكنت له فى قلوب أهل دمشق ، وزادته مكانة فى قلب الملك الكامل . فأرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف ، يطالبه بأن يحسن صلة الشيخ عز الدين ، وأن يعينه شيخ حلقة فى الجامع الأموى ، لتعم الفائدة من علمه .

أما الصلة فقد ردها الشيخ عز الدين شاكرا ، وأما منصبه فى الجامع الأموى ، فقد فرج به ، لأنه يتيح له الاتصال بعدد أكبر من الطلاب هم أنضج عقلا وأكبر سنا من طلاب المدرسة التى يعلم بها .

وكان منصب شيخ حلقة فى الجامع الأموى هو أكبر منصب علمى فى دمشق .

وتقدم الشيخ عز الدين ، بوجهه التحيل الباسم ، فى ثياب بسيطة نظيفة ، فاختر الزاوية الغزالية حيث كان الإمام الغزالي يعتكف منذ أجيال ، وبدأ يدرى للطلاب علوم الدين .. وتوافد عليه الطلاب حتى ضاقت بهم الحلقة ، وأقفرت سائر الحلقات من طلابها . وكان يلقي أكثر من درس فى النهار والليل فى الحديث والفقه والأصول .. غير متقيد بذهب من المذاهب الأربعة .

وشرع يفتى كلما استفتاه أحد ، ويشرح عقيدة الأشعرى فى أصول الدين ، وأدلتة العقلية على

صحة مذهب أهل السنة . ويأخذ الطلاب بإتقان وعلوم اللغة ليفهموا نصوص الشريعة .

وغاظ التفاف الناس حوله وانصرافهم عن سواه ، كثيرا من خصومه ، فعادوا يحاولون الأيقاع به ، ولكنهم خشوا أن يردهم سلطان دمشق حرصا على إرضاء أخيه سلطان مصر !

أما الشيخ عز الدين فلم يكن ليبالى بهم ، بل مضى فى طريقة ، يقرأ و يدرس و يفتى ، وقد أطمأنت به الحياة فالراتب الذى يأخذه من المسجد الأموى راتب كبير يكفيه حياة موفورة .

وخاطبته زوجته فى أن يغير المسكن الضيق الذى كان قد أستأجره وهو مدرس فى مدرسة صغيرة ! .

لقد ضاق بهم المسكن بعد أن أنجبا أولادا . وقال لها إنه يعرف أن المسكن الضيق هو الجحيم الأصغر كما قال الإمام على كرم الله وجهه ، وهو يمتنى أن يغيره ، ولكن لاسبيل ... ! وعادت الزوجة تلح عليه ، وكان حانيا عليها شديد البر بها ، وتمنت لو أنه اشترى بيتا فسيحا يحيط به بستان جميل ، فهو بعد أستاذ وشيخ حلقة بالجامع الأموى ، و ينبغى أن يتخذ له سكنا مريحا يليق به ، و يتسع لأهله و بنيه ، ولضيوفه الذين يتوافدون عليه ملتسمين عنده العلم ، والفتيا بعد أن يفرغ من الحلقات ...

ووعدها خيرا ، غير أنه لم يستطع ، فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته ، ويحسن إكرام ضيوفه ، و يتصدق بما بقى ، ولا يدخر شيئا على الإطلاق .

ثم أصابت دمشق أزمة ، فهبطت الأسعار ، وقل المال ، أعنت الناس عنتا شديدا ... وصارت البيوت الواسعة بما حولها من البساتين تباع بثمان قليل .

فجاءته امرأته وطلبت منه مرة أخرى أن يشتري بيتا واسعا بحديقة وجمعت مصاغا لها وقالت :

— اشتر لنا بهذا بستانا .

فأخذ المصاغ وباعه ، وصدق بثمانه .

فلما عاد إلى زوجته استقبلته فرحة :

— ياسيدى .. اشتريت لنا بستانا !

— نعم ، بستانا فى الجنة . ! إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمان المصاغ .

— جزاك الله خيرا .

وكان الناس يتسامعون بفضل الشيخ عز الدين فيزداد مكانة واحتراما ، ولقد علم الأشرف صاحب دمشق بكثرة صدقاته ، فطلبه ، وحاول أن يقدم إليه مالا ليتصدق به ولكنه رد السلطان ، وأفتاه أنه من الخير أن يتصدق السلطان نفسه بالمال ! ..

وقارن السلطان الأشرف بين هذا الرجل يرفض عطاياه الخفية ، وبين الآخرين الذين يرتشون ويجهرون بالإلحاح في طلب المزيد من الهدايا والأموال والمناصب ! !

ودخل السلطان الأشرف إكبار خارق لعز الدين ، وأدرك أن أخاه الكامل ملك مصر على حق ، فثقل هذا الشيخ جدير بالإحترام . وإن له هيبه !

ولاحظ السلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين لا يطالب مقابلته على خلاف الآخرين ، وكانت سيطرة عز الدين على قلوب الشباب وسائر الناس تقوى يوما بعد يوم ، وهو لا ينفك يهاجم خصومه من الفقهاء لجمودهم وتمسحهم بأصحاب السلطان ، ولا يكف عن نقد أخطاء الحكام .

ورأى الأشرف أن من الحكمة أن يصطنع الشيخ لنفسه ويدينه من القصر ، فأخذ يمدح الشيخ عز الدين في كل مكان ، ويطلبه مجالسته فيتناقل عنه الشيخ إلى حلقات الدرس ومجال الفتيا ، ولا يبادله مدحا بمدح .

وانتهز خصومه الفرصة ، فزعموا للسلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين قد غره حب الناس له والتفاف الشباب حوله ، فسولت له نفسه الأمانة بالسوء أن يتعالى على الجميع حتى على السلطان نفسه !

وفى الحق أن السلطان الأشرف ، كان يشعر بمرح لموقف الشيخ عز الدين منه ، وكان يحس في أغوار نفسه أن الشيخ لا يضممر له من الإحترام ما يجب على المحكوم للحاكم ! ! ..

وكان في حاشية السلطان نفر من فقهاء الحنابلة المتشددين المضيقيين ، وكان الشيخ عز الدين ينكر عليهم غلظتهم مع مخالفيهم ، ويتهمم بالحمق والجمود وفساد الرأي ، وبالإساءة إلى صاحب المذهب الإمام أحمد بن حنبل ، الذى كان فقيها جليلا عميق النظر واسع الأفق رائع الحكمة .. والذى ترك تراثا عظيما يحمل كل طاقات التجديد .

ولكن هذا النفر من فقهاء الحنابلة ، كانوا قد خالطوا السلطان الأشرف منذ كان حدثا صغيرا ، وصاغوا عقله على رأيهم الجامد المتحجر حتى « أختلط هذا بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن مخالفه كافر حلال دمه »

وقد أتاحت لهم منزلتهم عند السلطان . ونفوذهم عليه أن يصنعوا فى البلاد كما يشاءون ، فكانوا إذا خلوا بمخالفهم من الشافعية أو الأشعرية آذوهم وضربوهم !

وما كان ليغمض لهم جفن وهم يرون السلطان الأشرف يخطب ود الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وغدوا إلى السلطان ليوقعوا بالشيخ عز الدين ، قبل أن يتقارب الرجلان ، فزعموا للسلطان أن العز عز الدين يخالف السلف ويقول فى القرآن قولاً عظيماً .. ويخطئ من يقول فى القرآن بالحرف والصوت ، وأنه يعتقد رأى الأشعرى : أن الخبز لا يشبع والماء لا يروى والنار لا تحرق !! .. وهذا كله كفر !!

وكان الأشرف قليل الحظ من الثقافة وعلوم الدين والاطلاع على آثار السلف .. فما تعلم إلا ما علمه ذلك النفر المحيطين به من أراذل فقهاء الحنابلة الذين ينافقونه !

ولم يصدق السلطان أول الأمر أن الشيخ عز الدين يقول هذا وهو العالم الورع العظيم التقوى .. وزجرهم السلطان .. ولكنهم وعدوا السلطان أن يقدموا له الدليل الحاسم .

وأجمعوا أمرهم ، وجاءوا عز الدين عبد السلام فقدموا إليه ورقة فيها فتيا بأن القرآن حرف وصوت ، وطلبوا من الشيخ أن يكتب رأيه فى هذه الفتيا ، وكان قد علم بكيدهم وهم لا يشعرون !

قال لهم الشيخ عز الدين : « هذه فتيا كتبت امتحاناً لى . والله لأكتب فيها إلا ما هو الحق . »

وبدأ الكتابة بتسفيه الفتيا ، وتأكيد أن الإمام أحمد بن حنبل لا يعتقد أن القرآن حرف وصوت ، وقولهم هذا إنما هو جهل فاضح برأى الإمام أحمد .. واستطرد الشيخ عز الدين فكتب أن الإمام أحمد بن حنبل برىء من كل ما يدعون . وأن فضلاء الحنابلة أبرياء منهم . وكذلك سائر السلف : فهم لا يقولون بالحرف والصوت . فالإمام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء السلف الصالح . لا يعتقدون أن وصف الله القديم القائم بذاته هو عين لفظ اللافتين ومداد الكاتين . مع أن لفظ الله قديم ، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل . قال تعالى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث . والعجب ممن يقول إن القرآن مركب من حرف وصوت ثم يزعم أنه فى المصحف !! وليس فى المصحف إلا حرف مجرد لاصوت معه !! وإنما أتى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله وسخافة العقل وبلادة الذهن فإن لفظ القرآن يطلق فى الشرع واللسان على الوصف القديم ، ويطلق على القراءة الحادثة ، والقراءة غير المقروءة ، لأن القراءة حادثة والقرآن قديم وهؤلاء القوم يذمون الأشعرى لقوله أن الخبز لا يشبع والماء لا يروى والنار لا تحرق . وقول الأشعرى كلام أنزل الله معناه فى كتابه : فإن الشيع والرى والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها . فليس الخبز هو الذى يخلق الشيع ، ولم

يخلق الماء الرى ، ولم تخلق النار الإحراق ، وإن كانت أسبابا فى ذلك . فالخالق هو المسبب دون السبب كما قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » فقد نفى أن يكون رسوله خالقا للرمى وإن كان سببا فيه .» ...

وعندما ظفروا بجواب الشيخ تمايلوا من الفرح ، وأيقنوا أنها القاضية عليه !

وأوحوا إلى السلطان أن يدع جميع الفقهاء والعلماء إلى سماطه على الإفطار— وكان الوقت رمضان— ففعل ، وذهبوا بما كتبه الشيخ عز الدين الى السلطان الأشرف ، فانفجر سخطه على الشيخ ..! سخط عنيف هائل ينبع من أعماق نفس امتلأت بالحلب والاكبار لشخص رفضت فيه كل الوشائيات والأقماويل ، ثم إذ بها تكتشف بفتة أن هذا الآخر، كان يخدعها ويسخر منها ، ويطن بها الغفلة ! .. واختلط غضبه على الشيخ بضيقه المتراكم من سيرة الشيخ معه . فهو كلما أذناه ابتعد ، وكلما قربه هجر ، وكلما تألفه نفر ..!

وعلى سماط الإفطار، ظلت صيحة السلطان تندد بالشيخ عز الدين : « صح عندي ما قالوه عنه ! .. هذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد فى زمانه فى العلم والدين ، فظهر بعد الاختيار أنه من الفجار... لا .. : بل من الكفار» ! ..

ولم يستطع أحد من الفقهاء أو العلماء أن يرد على السلطان الأشرف .. وظل صوته يدوى بالوعيد فى بهو الطعام بقصره السلطاني . وضيوفه يمشون طعام الإفطار على مهل ، ويزردون المضمض ، وقلوبهم تدق !!

مامن صوت واحد يرتفع إلا أنفاس تلهث ، وصراخ السلطان يتصاعد كحيوان جريح يوشك أن ينقض ليفترس ، بكل ضراوة الأثم والإهانة وغريزة البقاء ! !

وبعد لأى تجراً أحد الفقهاء فقال فى تذلل : « السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولاسبيا فى مثل هذا الشهر، شهر رمضان . فلم يرد السلطان ، وهمهم آخر ملتصقا مغفرة السلطان .. !

ولم يرد السلطان .. وانصرف الفقهاء والعلماء ، وكان معهم على مائدة الإفطار، عدد من العلماء والفقهاء من كل الأقطار.

وتساقل العلماء والفقهاء ماحدث ، ولاموا أنفسهم على الصمت فى حضرة السلطان ، وهم يعلمون أنه على الباطل ، وأن الشيخ عز الدين على الحق الذى يؤمنون به هم أنفسهم !

وتحفز الطلاب والمعجبون !

ماعسى أن يصنع السلطان بشيخهم عز الدين ؟!

أيتهم السلطان الأشرف وهو جاهل بأصول الدين ، شيخهم العالم الورع التقى بالفجر والكفر؟! .. أترأه ينزل به عقاب الفجار والكفار وهم ينظرون !!

واشتعل التوتر فى دمشق . وأصبح الناس ومامن شيخ من الذين حضروا المأدبة بالأمس ، يستطيع أن يمشى فى الأسواق !

احتشد الطلاب حول باب الشيخ عز الدين ، وتعهدوا أن يمنعه إذا حاول السلطان أن ينزل به أى مكروه .

ولاذ أراذل شيوخ الحنابلة من حاشية السلطان بالقصر ، غير أن شيخ المالكية عمرو بن الحاجب عذبه صمته وصمت الفقهاء الآخرين أمام السلطان ، فركب بغلته وأخذ يطوف المدينة ، حتى جمع العلماء فى الجامع الأموى بعد صلاة العصر وانقض عليهم بعنفهم : « العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل ، وما فيكم من نطق بالحق . وسكتم وما انتصرتم الله تعالى والشرعية المطهرة » .

ولما تكلمتم متكلم منكم قال : السلطان أولى بالعرفو والصفح ولاسما فى مثل هذا الشهر! ! وهذا غلط يومه الذنب ، فإن العفو والصفح لا يكون إلا عن جرم وذنب ... أما كنتم سلكتم طريق التلطف بإعلام السلطان بأن ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وأن جمهور السلف والخلف على ذلك ، ولم يخالفهم فيه إلا طائفة مخذولة يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله ، ومنهم السلطان الأشرف ؟ ! لقد قال الله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون » .

ولام ابن الحاجب لأنه سكت . ، وأعلن الندم والتوبة .. ثم اقترح عليهم أن يكتبوا فتيا بموافقة الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وكتبوا الفتيا ووقعوها ، وذهبوا الى بيت العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وشاخصوا اليه زحام الناس الذين رابطوا عند بيته .

وقبل أن يتدافع الناس لادانتهم على موقفهم أعلن ابن الحاجب ، أنهم جاءوا الشيخ بفتيا موقعة منهم توافق رأيه . وهذا هو اعتذارهم له عما فرط منهم أمام السلطان فى حق الشريعة وحق ابن عبد السلام .

وفرح الشيخ بموقف ابن الحاجب ومن معه من العلماء والفقهاء

فأرسل الشيخ إلى السلطان يعلمه بفتيا الشيخ ، وأنهم « إذا كانوا قد سكتوا ولم يعلنوا رأيهم على سماء الإفطار بالأمس ، فاذلك إلا لأن السلطان لم يمكنهم من الكلام لما ظهر من حدة غضبه » !

وأنتى رسالته طالبا من السلطان أن يعقد مجلسا للشافعية والحنابلة يحضره المالكية والحنفية وغيرهم من العلماء لتدور المناظرة أمام الجميع بينه وبين خصومه من فقهاء رجال الحاشية !

وأنتى رسالته إلى السلطان بقوله : « والذى نعتقه فى السلطان أنه إذا ظهر له الحق رجع إليه ، وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه ، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل . فإنه عز رجاعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا ، وبدع بهم وأهانهم . »

وذهب ابن الحاجب إلى السلطان وسلمه الرسالة ، ولم يقرأها السلطان أمامه ، ووعدده السلطان خير وودعه خيرا وداع ..

وعندما خلا السلطان الأشرف إلى رجال حاشيته من الفقهاء الحنابلة وقرأوا الرسالة أوجسوا خيفة من مجلس المناظرة الذى اقترحه الشيخ عز الدين ، فا كانوا يطيقون مواجهته أمام سائر الفقهاء والعلماء . وخلصوا نجيا وأجمعوا على ألا تكون مناظرة ، ثم وسوسوا فى صدر السلطان ألا يقبل عقد المناظرة ، فقد يهينه ابن عبد السلام !

وكتبوا ردا فوقعه السلطان . واستدعى رسولا يحمل الرسالة إلى الشيخ عز الدين ليأتى فى الوقت برده .

وفض الشيخ رسالة السلطان وقرأها بصوت مرتفع لئسمعها ضيوفه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصل الى ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام أصلحه الله من عقد مجلس وجمع المفتين والعلماء ، وقد وقفنا على خطه وماأفتى به ، وعلمنا من عقيدته ماأغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ماعليه الخلفاء الراشدون الذين قال صلى الله عليه وسلم فى حقهم : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ، ويتبع الحق ، ويتخلص من البدع ، اللهم إلا إن كنت تدعى الأجتهد ، فعليك ان تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، ولتكون صاحب مذهب خامس . وأما ماذكرته عن الذى جرى فى أيام والدى تغمده الله برحمته ، فذلك الحال أنا أعلم به منك ، وماكان له سببه إلا فتح باب السلامة لأمر دينى

وجرم جره سفهاء قوم

فحل بغير جانيه العذاب

ومع هذا لقد ورد في الحديث : (الفتنة نائمة لعن الله مشيرها) . ومن تعرض إلى إثارتها قاتلناه مما يخلصنا من الله تعالى ، وما يعضده كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . »

وعندما فرغ الشيخ من قراءة الرسالة طواها وقال للرسول : « قد وصلت وقرأتها وفهمت ما فيها فاذهب بسلام . فرد الرسول : « لقد تقدمت الأوامر السلطانية بإحضار جوابها . »

والطلاب ومؤيدو الشيخ مازالوا خارج الدارين يتظنون ما يكون ، وقد استبد بهم التوثر والقلق منذ دخل رسول السلطان !

وفى داخل الدار يجلس مع الشيخ ابنه عبد اللطيف ، وبعض الأصدقاء ، وأحد العلماء الفضلاء ممن يغشون مجالس السلطان ، وقد أقبل يتوسط بين السلطان والشيخ .. ولكنه لم يكذب يسمع الرسالة حتى تغير لونه وأيقن أنه لاجدوى من وساطته ، ودخل في نفسه أن الشيخ يعجز عن الجواب ، وأنه هالك لاحالة !

غير أن الشيخ كتب للسلطان مترسلا بلا توقف وهو يقرأ ما يكتبه : « بسم الله الرحمن الرحيم . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . أما بعد . هذا لله الذى جلت قدرته وعلت كلمته . فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم عليه : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخربون » . وقد أنزل الله كتبه ورسله لنصائح خلقه . فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه . واما طلب المجلس وجمع العلماء فاحلنى عليه إلا النصيح للسلطان وعمامة المسلمين ، وقد أدبت ماعلى فى ذلك . والفتيا التى وقعت فى هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة ، وما يخالف فى ذلك إلا رعاى لا يعبأ بهم ! وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب ، فإن الأصل واحد ، والخلاف فى الفروع . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .. »

وختم الرسالة بتوقيعه وطواها وسلمها رسول السلطان .

وقال له العالم الذى جاء للوساطة بينه وبين السلطان : لو أن هذه الرسالة التى وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب ، وعدم الصواب ، ولكن هذا تأييد من الله .

وتلّيت الرسالة على السلطان ، فألقوا فى روعه أن الشيخ يتحدها معتميا بالعمامة والطلاب وسائر العلماء ! فلينزله بالشيخ عقاب الفجار والكفار!

ولكن السلطان لم يستطع فقد وجد كل العلماء حتى فضلاء الحنابلة يؤيدون الشيخ ! فما يقف

السلطان إلا بعض رجال الحاشية من فقهاء الخنازلة وهم الذين أسماهم الشيخ فى رسالته : الرعاع ،
والجهال . واتهمهم بالبلادة والإساءة إلى الإمام أحمد بن حنبل !

وفكر السلطان مليا ، ثم استدعى وزيره واسمه خليل ليشاوره فى الأمر ، وكان الرجل من الذين
يحبون الشيخ عز الدين ويحترمونه . ومازال الوزير يحاور السلطان ويوضح له سوء عاقبة البطش بالشيخ
حتى هدا السلطان .

وذهب خليل وزير السلطان إلى الشيخ العزيبغله أمر السلطان : « ألا لا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ،
وأن يلزم بيته . »

وحاول الوزير خليل أن يهون على الشيخ عز الدين . فهذا العقاب أخف مما كان معدا له .

غير أن عز الدين ابتدره باسما : « ان هذا العقاب من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر على
الدوام . . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها ، وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ومن سعادتى
لزومى لبيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطئه ، واشتغل بطاعة الله . »
وأراد الشيخ أن يقدم هدية للرسول شكرا على هذه الرسالة السارة ، فلم يجد غير سجادة صغيرة :

ولما عاد خليل يروى للسلطان ما قاله الشيخ عز الدين قال السلطان محنقا : « قولوا لى ما أفعل
به ؟ ! .. هذا رجل يرى العقوبة نعمة . أتركوه . بيننا وبينه الله . »

على أن الذين أحاطوا بدار الشيخ العز عز الدين لحراسته أنكروا عليه طاعته لأمر السلطان ، وكلموه
فى ذلك فقال لهم إن مصلحة قيام الشرع تقتضى وجود السلطان ، ومتى وجد وجبت طاعته وإلا
تعطلت الأحكام ! ! ولكن لا طاعة للسلطان إذا خان عهد الله وأهدر مصالح المسلمين وأمر بمعصية
الخالق . أما فيما عدا ذلك فالطاعة واجبة .

وعجب له محبوه ،

فأمرهم بالحسنى أن ينصرفوا إلى شؤونهم ويدعوه وشأنه ، فسيبتكف للعبادة .. أما وجودهم حول
الدار فسيتيح لأعدائه أن يتهموه بإثارة الفتنة !

غير أنهم انصرفوا إلى الزاوية الغزالية التى كان يدرس بها ، وأقسموا ألا يستمعوا لشيخ غيره . !

وجلسوا فى حلقتة الفارغة متربصين ! ولم يجيء إليهم أستاذ غيره يعلمهم مكانه ! !

على أن سائر العلماء والفقهاء أضمرروا السخط على ما أصاب الشيخ ، ولكنهم رضوا به لأنهم كانوا

يتوقعون عقاباً أشد ودعوا الناس إلى الصبر. وقضاء أخف من قضاء !!

أما الشيخ جمال الدين الخضيرى شيخ الحنفية فما كان يستطيع على ماجرى صبيرا..! وكان عالماً ورعاً فاضلاً صاحب نفوذ على قلوب الناس جميعاً ، وكان السلطان يحسب له ألف حساب !

وماهى إلا ثلاثة أيام قضاها عز الدين فى بيته ، متمثلاً للأمر السلطانى ، ممتنعاً عن لقاء من سعوا إلى لقاءه ، حتى كان الشيخ الخضيرى يركب حماره إلى السلطان ، ومعه ابن الحاجب شيخ المالكية . ولم يكذ السلطان يعلم أن الشيخ الخضيرى شيخ الحنفية قادم إليه حتى أمر كبير وزرائه وكبار حاشيته أن يستقبلوا الشيخ خارج القصر ، وأن يدخلوه القصر راكباً حماره تكريماً له .

ودخل الشيخ ساحة القصر ، فاستقبله السلطان وأنزله بنفسه عن حماره ، وأدخله القصر وأجلسه إلى جواره وهش له ، وجلس ابن الحاجب وفى يده ورقة فيها توقيع العلماء على تأييد موقف الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ..

وحين أذن لصلاة المغرب وبسطت المائدة للإفطار ، أم الشيخ الخضيرى السلطان والحاضرين فى الصلاة !

وبعد الصلاة دار الشراب عليهم وهم جلوس قبل أن ينتقلوا لمائدة الطعام . وكان الحاضرون هم حاشية السلطان من أراذل فقهاء الحنابلة أعداء العزبن عبد السلام ..

وقدم السلطان للشيخ قذح الشراب ، فنحاه بإشارة غاضبة قائلاً : « ماجئت، إلى طعامك ولا إلى شرابك »

فقال السلطان . : « يرسم الشيخ ونحن نمتثل لمرسومه . »

الشيخ : إيش بينك وبين ابن عبد السلام ؟ .. هذا رجل لو كان فى الهند أو فى أقصى الدنيا كان ينبغى على السلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده ، ويفخر به على سائر الملوك . »

السلطان : عندى خطبه باعتقاده فى فتيا ، وخطه أيضاً فى رقعة جواب رقعة سيرتها إليه . فيقف الشيخ عليها و يكون الحكم بينى وبينه .

فلما قرأ الشيخ الخضيرى رسالتى عز الدين بن عبد السلام رد الورقتين للسلطان وقال : « هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ، وكل ما فيها صحيح ، ومن خالف ما فيها وذهب الى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حماراً ! » . وهب الجميع فالشيخ يتهم السلطان بأنه حمار .. وريع

السلطان من حدة الشيخ الخضيرى ، ونظر إلى ابن الحاجب المالكي و فقدم إليه ورقة يؤيد فيها العلماء رأى ابن عبد السلام ! ونظر إلى الحاشية من فقهاء الحنابلة فوجدهم قد اسودت وجوههم وعراهم الأضطراب . فقال السلطان الأشرف : « نحن نستغفر الله مما جرى ، ونستدرك الفارط فى حقه ! .. والله لأجعلن ابن عبد السلام أغنى العلماء . »

وقاموا إلى الإفطار، ثم أرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين ، فترضاه وأجلسه إلى جواره وسأله أن يطلب ماشاء ترضية له ، فلم يطلب عز الدين شيئا . ولكن السلطان ظل يستعبته و يسترضيه ، حتى رضى الشيخ وعاد إليه مرحة .. وانزوى الأراذل من خصومه ، وأذن للعشاء فأهمهم الشيخ عز الدين لصلاة العشاء استجابة لدعوة الخضيرى وأبن الحاجب .

وقبل أن ينفض المجلس أمر السلطان ألا يخوض أحد فى الكلام فى أمر الخلاف مرة أخرى .

وفى اليوم التالى عاد الشيخ عز الدين إلى الزاوية الغزالية بالجامع الأموى يدرس و يفتى ، وأستقبله محبه هاتفين .. « الله أكبر .. الله أكبر .. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . »

وعلم الملك الكامل سلطان مصر بما كان ، فأرسل يسأل العزو ويبدى استعداداه لنصرته ، .. فشكره الشيخ ولم يحك له ماجرى .

وجاء الملك الكامل سلطان مصر ، لزيارة أخيه الملك الأشرف سلطان دمشق . وسأل الملك أخاه عما حدث من خلاف بين الشافعية وبعض الحنابلة فقال الأشرف أنه قد أمر الفريقين بأن يكفا عن الكلام سداً لباب الخصام . فقال الملك الكامل ناهرا أخاه الأصغر : « والله مليح .. ما هذه إلا سياسة وسلطنة .. !! تساوى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ كأن الطريق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم ، وأن يظهروا دين الله تعالى ، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعة عشرين نفسا ليرتدع غيرهم ، وأن تمكن الموحدين من ارشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين » . وذاب الملك الأشرف خجلا ، وظل يعتذر عما بدر منه . فاتهمه أخوه الأكبر بالجهل ، ونصححه أن يجلس إلى الشيخ عز الدين ليعلمه أصول الدين ، ومازال به حتى أقنعه بصحة رأى الأشعرية وفساد رأى حاشيته . وأوصاه بعز الدين خيرا فأرسل الأشرف فى استدعائه . وأخذ الملك الكامل يتلطف مع عز الدين أمام أخيه الملك الأشرف ، ويسأله أن يتمنى عليه مايشاء ، وعز الدين يشكره ويمجد الله إليه ولا يطلب شيئا ...

ووقع الأشرف مرسوما بتعيين الشيخ عز الدين خطيبا للجامع الأموى ليزيد النفع بعلمه .

وقال الأشرف لأخيه الكامل : لقد غلطنا فى حق الشيخ عز الدين بن عبد السلام غلطة عظيمة .

ولكنى أترضاه ولن أعمل إلا بفتاويه . »

أقتنى السلطان الأشرف رسالة كتبها الشيخ عن مقاصد الصلاة ، فكانت تقرأ عليه فى اليوم ثلاث مرات ، ولا يدخل عنده أحد إلا طلب منه أن يقرأها لينفعه الله بها . وكان يقول لبعض خاصته : « أنسخوها وطرزوا بها مجالسكم . »

إطمأن الكامل إلى أن أخاه الأشرف قد أصلح عقيدته ، وأبعد من حاشيته الفقهاء المتملقين المنافقين البلداء المرتشين من أراذل الحنابلة .

وأصبح له مجلس أسبوعى من فضلاء الحنابلة وعلماء المذاهب الأخرى يتدارسون فيه الفقه وأصول الدين .

وجاءه الشيخ عز الدين مستجيبا لدعوته ، وكان من قبل لا يبيبه ، فاقترح عز الدين أن يرفع السلطان الضرائب التى تثقل الصناع والتجار والفقراء ، وأن يعوضها بضرائب على الأغنياء ، وأقترح عليه أن يغلق المواخير والحانات ودور الفساد ، فاستجاب السلطان الأشرف من فوره لما طلبه الشيخ .

أشار الكامل على أخيه الأشرف أن يعين عز الدين قاضيا للقضاة ليصلح له أمور الرعية ، فتردد الأشرف ، على الرغم من أن اشارة أخيه الأكبر كانت أمرا بالقياس إليه !

وقال الأشرف أنه يخشى من عناد عز الدين وشدته إذا هوتولى أمر القضاء وأصبحت أحكامه واجبة النفاذ ! .. فضحك الملك الكامل ، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة ، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخافون فى الله لومة لائم . لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنازل العدل ، وهم أحرى بأن يجعلوا السلطان قويا وفاضلا ومحجوبا عند الرعية ، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزورون بهيبة الدين ! !

وروى الكامل لأخيه قصته مع قاض مصرى ورع شديد فى الحق . ذلك أن الملك الكامل وهو الملك المهذب الصالح ، كان قد هفا قلبه إلى مغنية قاهرة بارعة الجمال ذات صوت لم يسمع أعذب منه اسمها عجيبة . وكانت عجيبة تذهب إلى الملك ، فتغنى له ولخاصته حتى قبيل الفجر ، على قرع الدف ، ورنه عود تتقن العزف عليه . فعرضت أمام القاضى دعوى كان أحد طرفيها رجل من خاصة الملك يسمع معه إلى غناء عجيبة وجوارها . وأراد الملك أن يشهد فى تلك القضية . فرفض وقال للكامل : « السلطان يأمر ولا يشهد . » ولكن الملك الكامل لم يقتنع برأى القاضى ، وعاد يطلب منه أن يؤدى الشهادة ، وكرر القاضى الاعتذار ، وأدرك الكامل أن القاضى لا يقبل شهادته ، فسأله : « أر .

أن أشهد . أتقبلنى أم لا ! » فقال القاضى : لا . ما أقبلك . وعجبية المغنية تطلع إليك كل ليلة ، وتنزل
ثانى يوم بكرة تتمايل سكرًا على أيدي الجوارى . »

فغضب الكامل وقال له : يا كنواج « وهى شتمة فارسية » فقال القاضى : « مافى الشريعة
يا كنواج ! أشهدوا على أئى عزلت نفسى . » ومضى ينشد فى الناس :

وُلِيت القضاء وُلِيت القضاء لم يك شيئًا توليتهُ
وقد ساقنى للقضاء القضاء وما كنت قبل تمنيته

وفكر الملك فيما عسى أن يقول الناس عن سبب عزل القاضى . فأرسل إليه يترضاه ، وعدل عن
طلب الشهادة . ولم يعد يستقبل المغنية ولا يقيم مجالس طرب . وسار فى رعيته منذ ذلك اليوم سيرة تقية
فاضلة ، وهكذا أصبح وعظه وروع قاض حازم عادل ، فأصبح الملك باتعاظه مهابًا محبوبًا ..

ورى الملك الكامل لأخيه الأصغر الملك الأشرف هذه الحكاية ، وأقنعه أن وجود عالم فاضل عادل
قوى الى جوار الملك إنما هو أقوم للسلطان والرعية جميعًا .

ولكن السلطان الأشرف وعد بتعيين الشيخ عز الدين قاضيا للقضاة ، ثم تراخى ،

وأراد الملك الكامل أن يؤكد لأخوية الأشرف والصالح اسماعيل ، مال للشيخ العزم من مكانة
وتقدير . فدعاه فى حضورهما وبالغ فى حسن استقباله ، وأجلسه إلى جواره وأخذ يستفتيه . وكلما أفتى
الشيخ أبدى الملك أعجابه بالفتيا ، وسأله الرضى والدعاء . ثم قال له مشيرًا إلى اصغر الأخوة الصالح
اسماعيل : « إن هذا له غرام برمى البندق ، فهل يجوز له ذلك ؟ » فقال الشيخ : « بل يحرم عليه . فإن
رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه لأنه يفتأ العين ويكسر العظم ويحرم عليه » والبندق كور صغيرة
من الرصاص أو الحجر تستعمل فى الصيد .

وعاد الملك الكامل الى القاهرة ، ومرض الملك الأشرف ، فأتاب عنه ولى عهده الصالح
اسماعيل . وكان الشيخ عز الدين كما تعود من قبل لا يغشى مجالس السلطان ولا يزوره ، ولكنه عاد فى
المرض ، فبلغ التأثير من نفس السلطان اعظم مبلغ حتى بكى ، وسأل الشيخ أن يعفوا عنه لما فرط منه
فى حقه ، فدعا له الشيخ وأمر السلطان وأمرولى عهده الصالح إسماعيل ألا يستفتى غير الشيخ عز
الدين وأن يستهدى بآرائه .

غير أن الصالح إسماعيل ، لم يقرب الشيخ ولم يدعه إليه .. ففتيا الشيخ بتحريم الرمى بالبندق آلمته !

على أنه أهدر هذه الفتيا منذ أصبح سلطانًا ، وجمع حوله خصوم الشيخ من الأراذل والبلداء الذين

ينتحلون الفقه الحنبلي ويشوهونه !

وأقصى الصالح إسماعيل عنه الفضلاء من العلماء الحنابلة ، وانصرف إلى اللهو ، وأعاد ما أبطله أخوه من المنكرات : ففرض على التجار والصناع وأرباب الحرف والفقراء كثير من المكوث والضرائب التي كان أخوه الأشرف قد رفعها عنهم !

وأحاط به النخاسون الكبار وأغنياء تجار الرقيق ، فأعاد فتح الحانات والمواخير ! .

وأحيا كل المفاسد والبدع التي كان أخوه الأشرف قد أماتها استجابة لطلب الشيخ عز الدين .. !

وكان الصليبيون الفرنجة والتتار الطامعون في الاستيلاء على أرض العرب قد عرفوا ولع الصالح إسماعيل بالنفائس . وبالتحف الفاخرة والخمر الغالية والجواري الحسان ، فطفقوا يقدمون إليه الهدايا النادرة ، حتى بادهم الهدايا ونشأت بينه وبينهم ألفه ومودة .. ولقد دسوا إليه من الجواري الحسان من أصبحن عيوناً عليه ، فكن لا يبرحن مجالسه في هوأ وجد ، و يطلعن على كل أسراره ، وهو بن سعيد !

وفسد الأمر في دمشق ، فأرسل أهل الغيرة فيها يشكون الملك الصالح إسماعيل إلى أخيه الأكبر الملك العادل سلطان مصر . فسار على رأس جيش إلى دمشق ، وأبطل المفاسد ورفع المكوس والضرائب الظالمة عن كاهل الصناع وأرباب الحرف والفقراء والتجار ، وعين الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام قاضياً ، صوناً للعدل ، وحفظاً للشرعية ، وضماناً لصلاح الأمر ، وأذعن الأشرف لأمر أخيه الأكبر .

وكان على الشيخ عز الدين ، أن يضع على رأسه أكبر عمامة في الدولة : عمامة قاضى القضاة ، صاحب أكبر منصب ونفوذ .. الرجل الذى يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه !

ورأى الشيخ عز الدين أن يتحلل من التقاليد ، فطرح العمامة كبيرها وصغيرها ، ووضع على رأسه طاقية من لباد مصر وهى غطاء الرأس الذى لا يستعمله إلا فقراء الناس فى مصر والشام . وكان من قبل عندما عين خطيباً للجامع الأموى ، قد طرح الرداء الأسود الذى ألف خطباء الجامع ارتدائه ، وعدل عن صعود المنبر بالسيف ، وعن ترصيع الخطبة بالسجع .

ها هو ذا الشيخ عز الدين ، يجمع كل وسائل النفوذ وأدواته : فهو خطيب الجامع الأموى ، وأكبر المفتين ، وهو شيخ حلقة ، يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحججة ، ثم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة ، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به ، وإلا أثموا شرعاً ، واختل ميزان الأمور ، فتهرأت الدولة !

والشيخ مجيد ويصطنع الاجتهاد فى دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية فى الجامع الأموى ، وينشط فى قضائه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة ، والقياس الصحيح وتحرى مصالح الأمة التى هى مقصد الشريعة ، حتى لقد صح عند الشيخ ابن الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول : « لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفقه من الغزالى ، إلا الشيخ العزى عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام » .

وظل الشيخ عز الدين يعمل على إمامة البدع ، وإحياء السنن فى كل ما يصدر من أحكام ، وما يلقى من دروس وخطب ، وما ينشئ من فتاوى . وقال : « طوبى لمن ولى أمرا من أمور المسلمين ، فأعان على إمامة البدع وإحياء السنن » .

وكان الصالح إسماعيل عندما أحس أن أخاه سيعزله ، قد لاذ بالشيخ عز الدين معلنا التوبة ، متعهدا بحسن السيرة إن هو بقى على عرش دمشق . وما زال بالشيخ يستعطفه ويستشفعه والشيخ يشترط عليه شروطا حتى قبل الشيخ أن يتوسط له ، وضمنه الشيخ عند الملك الكامل فأبقاه سلطانا على دمشق

ولكنه لم يكد يستقر على العرش حتى عزل الشيخ عز الدين عن منصب قاضى القضاة .. فقد مات الملك الكامل !! ...

وخلف الملك الكامل على ملك مصر أخ له ، ولكنه أساء السيرة فى الناس ، وخضع لحاشية من الجوارى والمماليك والعلماء ، وغلبه الضعف ، ولعبت به الأهواء ، فوثب عليه أخوه نجم الدين وهو رجل صارم وتولى ملك مصر باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ما برح التتار والصليبيون يراقبون فى يقظة كل ما يجرى فى دولة صلاح الدين التى حولها ورثة من الأبناء وأبناء الأخوة ضياعا خاصة لهم ، فوهنت وتداعت وتمزقت ! فطمع التتار فى العراق ، وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر والشام وفلسطين ، وبصفة خاصة بيت المقدس ! .. واضمحلت برقة الجزيرة العربية ..

وحصن الملك الصالح نجم الدين أيوب أبواب مصر وسد ثغورها بعسكر كثيف ، ودعم فيها القلاع ، وأرسل إلى عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، يطالبه بأخذ العدة لمواجهة ما عسى أن يفعله الصليبيون الفرنج ، ولكن إسماعيل كان مشغولا بمراستهم وتبادل الهدايا معهم ، والاستمتاع بأموالهم وجوارهم .. فأنفذ الملك الصالح نجم الدين أيوب حملة إلى الشام ليضمها إلى مصر .

وهرع إسماعيل سلطان دمشق إلى الفرنج ، فحالفهم وفتح لهم دمشق ليشتروا منها السلاح ، وكان

سلاح دمشق معروفًا بأنه أمضى سلاح - مضى إلى سائر أمراء الشام ليضمهم إلى حلفه ضد ابن أخيه ملك مصر ، فحالفه صاحب حصص ..

واضطرب الناس في دمشق مذرأ الصليبيين يدخلونها ويتجولون في أسواقها يشترون السلاح . وترك الشيخ عز الدين حلقتة في الجامع الأموي ، ومضى يخوض في الشعب المتزاحم في الطرقات ويفتيم أن بيع السلاح للفرنجية حرام ، وكل بيع لهم حرام . فن ارتكب من ذلك شيئًا فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له ، ودمه مهدر ، وماله مباح ! ..

ومضى الشيخ ابن الحاجب المالكي يفتي بمثل ذلك . وطفق الشيخان يجرسان التجار على الامتناع عن البيع للفرنجية ، ويحرضان الناس على قتال من يبيعهم السلاح فأصبح الفرنجية وهم لا يجدون من يتعامل معهم من تجار دمشق ، وحتى الذين تعاملوا معهم من قبل آثروا العافية ورفضوا التعامل بعد .. !

وغدت دمشق ذات صباح تتناقل أنباء ما صنعه سلطانها مع الفرنج ، فقد جيش معهم الجيوش ، وقرروا أن يسيروا معا إلى مصر ليكسروا الحملة التي أنفذها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يواصلوا الزحف فيستولوا على مصر كلها .

وفى مقابل مساعدة الفرنج لسلطان دمشق ، نزل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخرى .. !!

وعندم تحققت هذه الأنباء ، وقف الشيخ عز الدين يخطب الجمعة فأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام . ونختم خطبته داعيا :

« اللهم أبرم لهف الأمة إبرام رشد تعز فيه أوليائك ، وتذل فيه أعدائك ، و يعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك » .

وهدرت حناجر المصلين : « آمين .. آمين » .

والتقى الشيخ عز الدين بالشيخ ابن الحاجب ، فأصدرتا فتيا بخيانة السلطان وبخلع طاعته

ولم يطلب من أحد التوقيع معها على الفتيا حفظا لسائر العلماء من أن يؤذيهم السلطان .. إذ كان قد أنذر مخالفه بعذاب عظيم ، ووعد مؤيديه بحسن الجائزة ووفرة المال وعلو الشأن . ! على أن الخطباء والعلماء امتنعوا عن الدعاء للسلطان من على المنابر بعد خطبة الجمعة . وهكذا تجاهلوا وجوده .. !

وأرسل بعض حاشية السلطان إليه وهو غائب عن دمشق بما كان من أمر الشيخ العز والشيخ ابن الحاجب ، فأمر بسجنها وأمر حاشيته من أرادل الحنابلة باسقاط شأنها في عيون الرعية .

وسجن الشيخان ، وأصدر بعض هؤلاء الأراذل فتيا ضد الشيخين وأتهموا كليهما بإثارة الفتنة ، وطالبوا الرعية بإطاعة السلطان لأن معصيته خروج على الشرع ، وهو أدرى بما يأخذ وما يدع بمصالح المسلمين . ! واتهموا الشيخين بالغرض والحسد وسوء النية والحقد على السلطان : فأما الشيخ عز الدين فلأن السلطان عزله عن منصب قاضى القضاة ، وأما الشيخ ابن الحاجب فلأنه طمع فى المنصب ولم ينله ..!!.. فكلاهما موقوف لأنه حرم من المنصب الكبير والراتب الوفير ..!

ولم يكن أى الشيخين يملك الدفاع عن نفسه فهو السجن ، ولكن الناس لم يصدقوا ، واشتعل غضبهم على السلطان وحاشيته ، ومضوا يسألون فى الأمر شيوخهم ، فأيد الشيوخ بما فيهم الحنابلة ، رأى الشيخين ، لم يشذ عنهم أحد ، إلا البلداء منتحلو الفقه الحنبلى من أراذل حاشية السلطان !

وعاد السلطان إلى دمشق بجيش كبير ، فوجد عددا ضخما من الناس يحيطون بالسجن ويحاولون تحرير العز و ابن الحاجب من وراء الأسوار ، فأمر بإطلاقهما ، وملاً طرقات دمشق وأسواقها بالعسكر ، وبث الجواسيس فى كل مكان حتى المساجد !

وهدأت الثورة عن السلطان ، فأمر بإقالة العز من كل مناصبه ، من التدريس والخطابة ، وأمره «بملازمة داره ، وألا يفتى ، ولا يجتمع بأحد البتة» .

وتقدم أحد العلماء من أصدقاء السلطان والعز معا فاستأذن للعز «فى صلاة الجمعة - وكان العز لا يترك صلاة الجماعة - وفى أن يعبر إليه طبيب أو مزين إذا احتاج إليها ، وأن يعبر إلى الحمام ، فأذن له السلطان»

وكان العز فى معتقله بداره يقرأ القرآن ويكرر تلاوة قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . »

فأرسل إلى السلطان صديقها المشترك ، وهو ذات الصديق الذى حاول أن يصلح بينه وبين السلطان الأشرف خلال فتنة الحنابلة . أرسل العز هذا الصديق إلى السلطان ليأذن له بمغادرة دمشق ومملكته جميعا .

وأطربت السلطان فكرة الخلاص من الشيخ ، ولكنه لم يستجب لطلبه بسهولة ، وذهب الوسيط وعاد مرات فى ذات اليوم ، والسلطان يتشدد ويلين ويشترط ويتنازل ، حتى أذن آخر الليل للشيخ بالمهجرة ، على أن ينهض من فوره فيكون خارج دمشق قبل الفجر ! !

ورشق السلطان جنوده وبث عيونهم فى كل الطرقات المؤدية إلى دار الشيخ وإلى خارج دمشق

تحزنا من معرفة الناس بهجرته والاحتشاد لوداعه .

وأحضر الصديق للشيخ بعض الدواب ، فحمل عليها أهله وكتبه ، وركب فى الطريق إلى القاهرة .

ولقى الشيخ فى سفره هذا نصبا وكثيرا من الخطوب . فقد مريبلاد يحكمها حلفاء للسلطان من أمراء بنى أيوب ، وبلاد أخرى يحكمها أنصار لملك مصر نجم الدين أيوب

كابد الشيخ فى رحلته صنوفا من الإنكار والتهديد ، وألوانا من الحفاوة والترحيب . وهو لا يفتأ كلما اجتمع بأحد من الخصوم والأنصار قائما يدعو إلى الجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين الفرنج وحلفائهم من الأمراء المسلمين ، منكرا موقف صاحب دمشق ومن والاه من الأمراء ، ودور منتحلي الفقه ، مزريا بصمت الصامتين عن هذا كله ، متها إياهم بالبلادة والخور والندالة !

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما كان من أمر أبيه : « أترزع منها » دمشق إلى بيت المقدس ، فوفاه الملك الناصر داود فى الفور فقطع عليه الطريق ، وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الملك الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص — حليف اسماعيل ضد نجم الدين أيوب — ، وملوك الفرنجة بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله وقال له : تدفع منديلى إلى الشيخ ، وتتلطف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعهده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته وملاينته ثم قال له : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » . فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده .. ! » يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ، فقال : قد رسم لى أن توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم . فأخذه وأعتقله فى خيمة إلى جانب خيمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه فقال يوما لملوك الفرنج : « تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن » . قالوا : « نعم ، قال هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابه بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت ملوك الفرنج : « لو كان هذا قسيسنا لفسلنا رجله وشربنا مرقتها » .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج .

أطلق سراح الشيخ ، فانطلق فى طريقه إلى القاهرة فبلغها عام ٦٣٩ هـ بعد عام كامل من الأهوال والخطوب فى الطريق إليها .

كان مقدم الشيخ عز الدين إلى القاهرة يوما من أيام الزينة . فقد احتشد الناس الذين سمعوا به فى أبهى ملابسهم ، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد ، وخرج فى أهته على رأسهم يستقبلون الشيخ على الباب الشرقى للقاهرة ، وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبناؤه بدل المطايا المنهكة .

وعجب الناس للشيخ عز الدين : فهذا العالم الذى تحدى أمراء بنى أيوب وملاً أطباق الأرض بآرائه وفتاواه ، ليس ضحكا ولا مخيفا بل هو نحيل خشن الثوب ، وما على رأسه عمامة الفقهاء والعلماء بل اللبدة التى يرتديها العامة والفلاحون فى مصر ! إنه لشديد الحياء خفيف الصوت .. !

وسار الموكب يزف الشيخ بالتهليل والتكبير ، والسلطان إلى جواره ومن خلفه أمراء الدولة والأعيان والعلماء .

وانتهى الموكب إلى حديقة واسعة غناء فيحاء تتوسطها دار فسيحة .

وودعه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا : « هذه هى دارك يا شيخ عز الدين بن عبد السلام . وهى ليست هبة منى ولا من بيت المال ، ولكن أهل مصر اشتروها لك نفعم الله بك ، ونفع بك الإسلام والمسلمين أيها الإمام . »

وتجولت الزوجة فى الدار وهى لا تستطيع أن تغالب فرحها . !! .. أخيرا هاهوذا البستان التى حلمت أن تغيث فيه .. ولكنه أجل مما حلمت به وأفسح . وهو بعد يقع على النيل !! ..

وفرغ الجميع بالأثاث الفاخر ، ورقائق الزجاج الملون ، والمصاييح الجميلة المتناثرة .

وشعر الشيخ أن هذا المكان الهادئ ، يمكن أن يمنحه من صفاء الذهن وراحة البال ما يتيح له كتابة مالم يستطع أن يكتبه فى دمشق .

أستراح فى البيت يوما وليلة .. ثم بدأ يستقبل الزوار .

وتعرف على علماء مصر وفقهائها وشيوخها ، وتبادلوا الرأى

وجاءه رسول السلطان يشره بصدور الأمر بتعيينه إماما وخطيبا لجامع عمرو . فأتى الحاضرون على قرار السلطان . وكان جامع عمرو قد أصبح منذ عهد صلاح الدين بديلا للأزهر الذى عطل صلاح

الدين التدريس فيه في حربه على الشيعة الذين بنوا الأزهر.

وخلال زيارة رسول السلطان للشيخ العز بحضور عدد من الفقهاء والعلماء منهم شيوخ المذاهب الأربعة قال الشيخ المتذري مفتى مصر للحاضرين : « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولافتى أحد وهو بيننا » .. وهكذا أصبح الشيخ عز الدين مفتى مصر .

وأراد السلطان أن يعينه قاضيا للقضاة على أن يختار الشيخ نوابا له . فطلب الشيخ أن يمهله بعض الوقت حتى يحسن التعرف على العلماء والقضاة وأحوال الناس في مصر . ولكن السلطان كان يلح عليه . وبعد فترة وجيزة قبل الشيخ منصب قاضى القضاة وعين نوابه بنفسه .

ولم يكفد يتولى المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر ، وليسوا أحرارا على الإطلاق ، بل هم مجلوبون ، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين ، وفتون الفروسية والحرب والرياضيات ، وعندما شبوا عينهم فى مناصبهم . فهم أمراء مماليك أرقاء إذن ، وليس لهم حقوق الأحرار . ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بجرائر النساء وكانوا قد تزوجوا من حرائر نساء مصر ، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد ! .

وبدأ قاضى القضاة يطبق عليهم من أحكام الشريعة ما يطبق على العبيد !

وهبت الملك مما صنعه الشيخ ، فذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه ، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل فى القضاء فليس هذا للسلطان ، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقبل نفسه . !

وكان السلطان رجلا قوى الشكيمة ، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بالأمر ! ..

لقد أبطل الشيخ كل ما أبرمه الأمراء المماليك من عقود : عقود البيع والإجارة .. وحتى عقود الزواج !

واضطرب الأمر بالمماليك : فالزوجات يهجرن فراش الزوجية ، ويعاملن أزواجهن كالغرباء ، والتجار يعودون فى الصفقات ، والصبية يطاردون الأمراء المماليك بكل هيبتهم ويعيرونهم بأنهم عبيد ! .. وكان الناس يدوقون الأهوال من صلف الأمراء !! .

وصف السيوطى « فى حسن المحاضرة » تلك الحال بقوله : « تصدى - الشيخ عز الدين - لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فعظم الخطب عندهم ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحاً (زواجا) ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه

فقال الشيخ : « نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يقد فيه ، فانزعج النائب وقال : (كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان مارأى ، وشرح له الحال ، فاكثر لذلك ، وقال : « يا ولدى . أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله » ، ثم خرج فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له .

وقال : « ياسيدى إيش تعمل ؟ » .

— أنادى عليكم وأبيكم ويحصل عتقكم بطريق شرعي .

— فيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين .

— من يقبضه ؟

— أنا .

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده ، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ .

ولم يذعن السلطان ، فأرسل إلى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء ، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء ، وأمر السلطان واجب ، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين ! وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به . بل بالسلطان وحده !! .

وأنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتته ووضعها على حمار ، ووضع أهله على حير أخرى ، وساق الحمير ماشيا ! ..

إلى أين يا شيخ ! ؟ ...

قال : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ! ..

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ، ويعتدى فيها على القضاء ؟ !

وتجمع الناس وراءه .. وكلما سار فى طريق تراحم الناس عليه يحاولون منعه من الهجرة ، فهو

أملهم فى مواجهة مظالم الأمراء المماليك ، فلکم عانى التجار والصناع وسائر الناس من صلفهم ، وهامهم أولاء يرون فيهم يوماً من أيام الانكسار على يد هذا الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام ! .. فلماذا يتركهم الشيخ ؟ ! .. ولن يكلمهم ؟ ! .. إلى هؤلاء الأفراد العبيد المتغترسين من جديد ؟ !

أحاط الناس بموكب الشيخ وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم ، فقد عرفوا فى قضائه قوة الانتصار للمظلوم ، وهيبة العدالة ، خلال تلك الأشهر القلائل التى ولى فيها المنصب ..

ولكن الشيخ مضى فى طريقه لايبالى ..

سار الشيخ أميالا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحين ساخطين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء إذ لم يتخلف عن اللحاق به « امرأة ولا صبى ولا رجل ولا سبأ العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم . »

وبدأ أن هذه الجموع ستذهب فى تحدى السلطان إلى أبعد مدى ! .. ولئن هى رجعت بغير الشيخ ليتثيرن الدنيا على السلطات حتى الذين هم تحت التراب !

وعلم السلطان بما يجرى ، وقال له أحد ناصحيه : « تدارك ملكك وإلا هب بذهاب الشيخ »

فأسرع السلطان إلى فرس سريع فامتطاه على عجل وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين ، وشهد الناس من حوله وعين سخطهم ، فنزل عن فرسه ، وتقدم متلطفاً معتذراً إلى الشيخ عز الدين ، وقال له : « لا تفارقنا . عد ياأمام واصنع مابدالك . » .. وقدم للشيخ فرساً فامتطاه وعاد الشيخ .

وعاد الشيخ والناس يهللون من حوله ومن خلفه .

وجمع السلطان كل الأمراء فى القلعة بأمر الشيخ ، ثم عرضوا فى مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى فى ثمنهم . حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة فى الثمن لارتفاعه الفاحش ، تقدم السلطان فدفع ثمناً أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال ، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله ، فأصبحوا أحراراً .

وصحح الشيخ عقودهم بما فيها عقود الزواج .

أما ما قبضه الشيخ الفاحش من ثمنهم فقد وزعه على الفقراء وأصحاب الحاجات وبصفة خاصة أهل العلم وطلابه ، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة .

وإزدادت مكانة الشيخ فى قلوب الناس ، وتزاحوا عليه وما كانوا يتركونه بعد صلاة الجمعة فى

جامع عمرو حتى يؤذن لصلاة العصر .

أما السلطان ، فقد أضمر أن يتخلص من الشيخ ، فقد خافه على ملكه ! .

إن هذا الشيخ الخجول النحيل ليستطيع أن يحرك الناس ضده كيفما يشاء !

على أن أمراء الماليك لم يعودوا بعد لصلفهم واستبدادهم بالناس كما كانوا من قبل بيعهم فى

المزاد !

واستمر عز الدين فى القضاء حازما حاسما لا يخشى إلا الله ولا يأبه إلا بالحق ، ولا يراعى إلا مصلحة الأمة . لقد تأتبه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان ، فیسوى بينها فى المجلس ، ويتحرى العدل وحده .. ولكم أذان خواص السلطان ! ..

لم يعد السلطان يتوقع منه مجاملة ، وتمنى أن يزيحه من مكانه ، ولكنه خشى غضب الناس !

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطانا قويا واسع الخيلة ، ولكنه وجد نفسه مع الشيخ عز

الدين بلا حيلة !

وفى الحق أن الشيخ عز الدين ، لم يجهر بعداء السلطان ، ولا حتى بنقده ، ولكنه مضى فى طريقه : يفتى ، ويخطب الجمعة فى جامع عمرو ، ويقضى بما يهديه إليه فهمه لنصوص الشريعة أو اجتهاده إن لم يجد حكما فى النصوص ، ثم يخلص إلى بيته ليكتب .. ولكنه على انفساح بيته وهدونه وجماله لم يكن يجد الوقت الكافى للكتابة ، فالناس يتزاحون حيث يكون ، ومنهم من لح عليه بالزيارة .. !

ولم يشأ أن يتخذ حاجبا يمنع عنه الناس ، كما كان يصنع الفقهاء من قبله حين يخلون إلى

الكتابة ..

وكان كثير الصدقات ينفق معظم رواتبه خفية على أصحاب الحاجات ، فكان كثير من أصحاب

الحاجات يطرقون بابه .

وكان يلح بالدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر ، ويعتبر القيام بها واجبا شرعيا يأثم تاركه ،

فيأتيه الناس يستفتونه فى المعروف والمنكر .

ووجد بعض الأثرياء الظالمين يفتصبون حقوق المستضعفين ، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن

ينتزعوا ما اغتصب منهم ، ولا عقاب عليهم ، فهذا حقهم الشرعى

فإن هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة ، فعليهم استردادها بأنفسهم ، وإلا أثنوا
شرعا !

وأثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا! بعض التجار والصناع والحرف ،
ويفصبون منهم خفية بعض البضائع أو الأجور! !

وكان يعتبر من الحقوق المغصوبة إنقاص أجر العامل ، أو قهر البائع أو تخويفه فيبيع بثمان أقل من
الثمان المعروف ! ثمن المثل !

وسخط السلطان نفسه عليه ، فقد رآه فى أحكامه وفتاويه يفرض أوامره على الشرطة ، وليس هذا
لأحد غير السلطان ، فإن لم تستجب الشرطة حرص الناس على الدولة ! !

ثم اصطدم الشيخ عز الدين بأقرب أعوان السلطان وأعزهم عليه . وهو أستاذار أو أستاذ دار
السلطان : الرجل الذى يتولى شئون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصة .

ذلك أن « الأستاذار » فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان مولعا بالغناء والرقص ، فعمد إلى مسجد
وسط حديقة واسعة مطلة على النيل ، فصعد إلى سطح المسجد فافتن بجمال المنظر ، فبنى فوق المسجد
« طبلخانة » أى خانة أو دارا للطبل والغناء ، وتعود السهر فيها مع صحبه يسمعون إلى الجوارى المغنيات
الراقصات .. !

ولم يجرؤ أحد على أن يشكوا الأستاذار إلى قاضى القضاة ، ولكنه ذهب حتى تحقق مما سمع ، فعاد
وعقد مجلس القضاة ، وأصدر الحكم بإزالة البناء .

خير أن الشرطة لم تنزل الملهى من على سطح المسجد ، فهض الشيخ عز الدين يقود أبناءه وبعض
الشباب من مريديه ، وأخذوا المعاول والفئوس ، وأزالوا البناء ... ثم أعلن الشيخ أنه يقبل نفسه من
منهصب قاضى القضاة ، فاعاد يطبق أن يقضى بقضاء فتنظر الشرطة إذن رئيس الشرطة أو السلطان
لتنفذ الأحكام ، وقد لا تنفذها .. !

ولم يكف السلطان يسمع بما حدث من الشيخ حتى اضطرم غيظا ، ثم جاءه من يخبره بأن الشيخ قد
أقال نفسه ، فصفق السلطان طربا ، وحمد الله لأن الشيخ أعفاه من حرج كبير ، فأقال نفسه بنفسه !
وأرسل السلطان رسولا إلى الشيخ بموافقة على استقالته ، ففرح الشيخ ، وحمل سجادة من على أرض
بيته وأهداها رسول السلطان تعبيراً عن الفرح ، معذترا إليه بأن لا يجد هدية أثنى منها .. !

ها هوذا عبء ثقيل انزاح عن قلب الشيخ !

صمم الشيخ على أن يخصص أكثر وقته للتأليف ، ضاع منه عمر طويل وما كتب بعد شيئا . ! غير أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاره وطلب منه أن يدرس الفقه الشافعي في المدرسة الجديدة التي أقامها السلطان الفقه على المذاهب الأربعة فقبل الشيخ ونهض بتدريس الفقه ، والتفسير . وكان هو أول من ألقى دروسا في التفسير بمصر منذ عهد بعيد . ولقد قام الشيخ بتدريس الفقه الشافعي في هذه المدرسة .

وخطط دروسه لكى تكون كتباً ينتفع بها الناس ، فدرس أصول الفقه والتصوف ، بهذه المدرسة الجديدة التي أسماها السلطان باسمه .. المدرسة الصالحية .. وحزن الناس لأن الشيخ ترك القضاء وما عرفوا في زمانهم قاضيا أكثر حسما وأعمق نظرا ولا أنهض منه للأمر ، ولا أشد تقى وورعا وروعة من هذا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام !

وعبر عن ذلك شاعرهم الجزار:

سار عبد العزيز فى الحكم سيرا

لم يسره سوى بن عبد العزيز « يعنى عمر بن عبد العزيز »

عُمنّا حكمه بعدل وسيط

شامل للسورى بلفظ وجيز

لقد أراح الشيخ واستراح . ولكن حكمه على « الاستادار » قد وصم الرجل فى مصر وسائر بلاد الإسلام . فقد جاء فى كتاب « حسن المحاضرة » بعد الحديث عن حكم الشيخ فى أمر المهلب ، كما جاء فى تاريخ ابن إياس وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتأثر به فى الخارج ، فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدي الخليفة ، وأدى الرسالة له ، خرج إليه ، وسأله :

— هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟

— فقال الخليفة لا . ولكن حملتها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره .

— فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام . فنحن لانقبل روايته .

فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأداها .

استقر الشيخ فى داره ، يؤلف الكتب ، مستفيدا من كل ما مر به : ألف نحو أربعين كتابا فى

الفقه والتفسير وأصول الفقه والتصوف حصاد تجاربه وقراءاته وتأملاته وفتاويه

على أن الشيخ لم يكد يسيطر على وقته وينظمه ، ويستقر في داره ليكتب ، حتى هاجمه جماعة من الأشقياء ذات ليلة مظلمة فتسوروا عليه الحديدية ، وتقدموا إلى باب الدار يحاولون كسره ، والشيخ مستغرق في عمله لا يشعر بهم .. !

وهب أهل الدار من نومهم فزعين ، خاف كل من في الدار إلا الشيخ !

وحاول أحد أبنائه أن يخرج من باب خلفي فيستدعي العسس ، ولكن الشيخ رفض وتقدم نحو الباب الذي حاول اللصوص اقتحامه ، فتأخروا إلى الحديدية ، وتقدم هو إليهم قائلا : « أهلا بضيوفنا » .

وعلى ضوء النجوم تبين الشيخ أنهم جماعة من الفتاك ممن كان يستأجرهم بعض أمراء المماليك للفتك بأعدائهم !! وتعرف على رئيسهم ، وتذكر أنه وثيق الصلة بأمر كان يصرخ ويبكى ويتوعد الشيخ عندما نادى على الأمراء في المزاد !! .. وكانت تفلت من الأمير حركات أنثوية !

وكان هذا الفتاك يدلف إلى الأمير وهون عليه .. فأبديا من آيات المودة والتعاطف المريب ما أثار سخرية الذين شهدوا المزاد !! .

مثل أمامه هذا الفحل الفتاك فيما بعد متها في نهب المتجر ، وشهد الأمير له زورا ، وأثنى عليه في رقة .. فحكم الشيخ عز الدين على الأمير بغرامة لشهادة الزور ، ويبلغ من المال تعويضا للتاجر المعتدى عليه ، وحكم على الناهب بالسجن . غير أن الشرطة لم تسجنه وزعمت أنه فر إلى جبل في صعيد مصر !

إن الشيخ يعرف أن هذا الأمير وغيره يتخذون من بعض السوق ضعاف العقول أشداء الأجسام ، عصابات يؤدبون بها من يرفض لهم طلبا ، فإذا سقط أحدهم فهو مصرى اعتدى على مصرى ولا شأن للأمرام المماليك بالأمر كله !

وطلب الشيخ عز الدين عشاء لضيوفه ، فالضيف ينبغي أن يكرم في أي وقت جاء . وذهل رجال العصابة .. ! ثم أخذ معظمهم ، حتى ألقوا تحت قدميه ما أخفوه وراء العباءات من أسلحة . وفاض الدمع من أحدهم فاعترف من خلال الدمع أن ذلك الأمير المختبئ الشرس حرضهم على قتل الشيخ ونهب بيته ووعدهم بأموال طائلة ، وقد أقسم ألا يبقى الشيخ على وجه الأرض ، بعد أن نادى على الأمراء المماليك في المزاد العلن وهم ملوك الأرض كما ينادى على الجوارى والعبيد !!

فدعا الشيخ لضيوفه وللأمير بالهداية بعد الضلال . وقام الفتاك ، فقبلوا يد الشيخ ، وظلوا يقبلونها حتى غسلوها بدموع الندم ! .. وطلبوا منه الدعاء ، فطلب منهم أن يتوضأوا ليصلى بهم . وحين فرغوا من الوضوء أمهم الشيخ فى صلاة توبة على خضرة الأرض ، تحت شعاع النجوم ! .. وطلب أبناء الشيخ منه أن يبلغ السلطان ، فأبى .

حتى إذا جاء يوم العيد ، وخرج السلطان فى أبهة الملك إلى القلعة ، وحوله الأمراء يتشامخون — وفيهم ذلك الأمير — واجه الشيخ سلطانهم بما روع الأمراء وألقى الهيبة من الشيخ فى قلوبهم . ويصف السبكي ذلك المشهد فى طبقات الشافعية : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان فى يوم عيد إلى القلعة ، فشهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان عليه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قوموه فى زينة على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه :

(يا أيوب . ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوى لك ملك مصر ثم تبجح الخمرور؟)

فقال السلطان : « هل جرى ذلك ؟ »

قال : « نعم الحانة الفلانية تبجح الخمرور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة . »

وأخذ الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته والمساكر واقفون :

فقال السلطان : « ياسيدى هذا أنا ما عملت . هذا من زمان أبى . »

فقال الشيخ : « أنت من الذين يقولون أنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ ! »

فأمر السلطان باغلاق الحانة .

وبعد أن انصرف سأله أحد تلاميذه عما فعله فقال الشيخ :

— رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذى .

فقال التلميذ :

— أما خفته ؟

قال الشيخ :

« والله يا بنى لقد استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامى كالقط . »

وكان هذا التلميذ هو تاج الدين الذى أصبح فيما بعد .

وعاد الشيخ من القلعة ، فطاف ببيوت بعض أصدقائه وتلاميذه يهنئهم بالعيد ، ثم عاد إلى بيته يستقبل المهنتين .

اهتم الشيخ عز الدين بوضع أصول للفقه ، فألف كتابه قواعد « الأحكام فى مصالح الأنام » وقد ضمنه كثيرا من القواعد الفقهية . وقال فى أوله : « الشريعة كلها إما درء مفسد أو جلب مصالح . فإذا سمعت الله تعالى يقول : بأيتها الذين آمنوا فلا تجردوا أنفسكم على أنفسكم ، ولا تفرقوا بين الحث والزجر . وقد أبان الله تعالى ما فى بعض الأحكام من المفسد فحث على اجتناب المفسد وما فى بعض الأحكام من المصالح فحث على إتيان المصالح . »

ثم يقول : أما مصالح الدارين « الدنيا والآخرة » وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فلا تعرف إلا بالشرع . فإن خفى طلب بأدلة الشرع وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال الصحيح . أما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فعروفة بالضرورة والتجارب والعادات والظنون المعتمدين . فإن خفى شئ من ذلك طلب من أدلته . ومن أراد أن يعرف المصالح والمفاسد فليعرضها على العقل

فهو يدعو إلى إعمال العقل فى استنباط الأحكام ، وفى التعرف على المصالح . وهو يرى ان الأحكام إن لم يمكن استنباطها من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس ، فيجب استنباطها بما يحقق مصلحة ويدرأ مفسدة . والعقل هو أداة هذا الاستنباط .

ويقول : « إن الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية ولدرء معاطب الأسقام . والذى وضع الشرع هو الذى وضع الطب فإن كل واحد منها موضوع لجلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم . »

وتأسيسا على هذا النظر ، استنبط كثيرا من الأحكام :

— فهى عن تعمد المشقة فى العبادات والمعاملات . فلا مصلحة فى المشقة : « قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع هو مصالح العباد فى دينهم ودنياهم . وليست المشقة مصلحة ، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب باستعمال الدواء المر البشع . فإنه ليس غرضه إلا الشفاء ، ولو قال قائل كان غرض الطبيب أن يوجد مشقة ألم مرارة الدواء لما حسن ذلك فيمن يقصد الأصلح

وقيل فى بعض كتب الله : « بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى » .. فلا يصح التقرب بالمشاق .

ومن آرائه أنه من الممكن تأخير بعض المصالح لما لتأخيرها من مفسد فقد أصر الله إيجاب الصلاة والصيام ، « ولو عجل بها لنفروا من الدخول فى الإسلام » .

— فى تحصيل المصالح يراعى الأفضل فالأفضل لقوله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقوله « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .

وعلى ذلك :

— فإنقاذ الفرقى مقدم على أداء الصلوات لأنه أفضل عند الله من أداة الصلاة والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينقذ الفريق ثم يقضى الصلاة . ومعلوم أن ما فاته من أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك .

— لورأى الصائم فى رمضان غريقا لا يتمكن من تخليصه إلا بالتقوى بالفطر فإنه يفطر وينقذه . لأن فى النفوس حقا لله تعالى وحقا لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم .

— لا يتقدم فى ولاية الحرب إلا أشجع الناس وأعرفهم بمكائد الحرب والقتال ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ثم لم يجهد لهم ولم ينصح فالجنة عليه حرام . »

— الأئمة « الحكام » البغاة لا ولاية لهم . وإنما نفذت تصرفاتهم وتوليبتهم لضرورة مصلحة الرعايا ، وأنه مع غلبة الفجور عليهم لا إنفكاك للناس منهم . وأما أخذهم الزكاة فإن صرفوها فى مصارفها أجزأت ، وإن صرفوها فى غير مصارفها لم يبرأ الأغنياء منها . ومصالح الفقراء أولى من مصالح الأغنياء لأنهم يتضررون بعدم أخذ نصيبهم من الزكاة ، ولا يتضرر به الأغنياء من تلبية الزكاة .

— دفع المشقة واجب فيجوز لبس المخيط فى الحج وكذلك الطيب والدهن وقلم الأظفار .

— يجوز التيمم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو خوف إبطاء الشفاء . أو إذا غلا ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه فى سفر أو نحوه .

— يجوز للمرأة أن تتيمم بدلا من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذى جمال وجهها . كأن يظهر عليه من أثر الوضوء فى الشتاء ما يشين هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة فى وجهها أجاز لها الشافعى أن تتيمم وهذا

— من أطلق لفظا لا يعرف معناه لا يؤاخذ بمقتضاه كمن لفظ بكلمة الخلع أو الطلاق وهو لا يعرف

أحكامهما فلا يترتب حكم على ما قال .

— لوعم الحرام الأرض بحيث لا يوجد فيها حلال ، جاز أن يستعمل من ذلك ما تدعو إليه الحاجة ، ولا يقف تحليل ذلك على الضرورات لأنه لو وقف عليها لأدى ضعف العبد واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الإسلام ... و يقتصر على ما تمس إليه الحاجات دون أكل الطيبات وشرب المستلذات وشرب الناعمات .. « ولودعت ضرورة واحدا إلى غضب أموال الناس لجاز له ذلك بل يجب عليه إذا خاف الهلاك للجوع أو برد ، وإذا وجب هذا لإحياء نفس واحدة ، فإلظن بإحياء النفوس . فتورة المغصوبين على الغاصب واجبة . »

— إذا سرق إنسان مالا سرقة موجبة لقطع اليد لم يجب عليه الإعلام أى الاعتراف بالسرقة ، بل يغير مالك المسروق بأن له عليه مالا ، ويرده إليه أو يعوضه عنه إن كان قد تلف . ولا يتعرض لذكر السرقة فإن رد السارق المال أو عوضه أبرأه منه المسروق فقد برئ السارق ، وإلا يجب قطع يده فهو حد من حدود الله .

— الوسائل تسقط بسقوط المقاصد . فلا يجوز ضرب الصبى للصلاة إذا لم يثمر الضرب . فهذا الضرب ينفه من الصلاة

إذا اختلف الزوجان فى متاع البيت فادعاه كل منهما ، أو ادعى أحدهما الاشتراك فى الجميع فإن الشافعى يسوى بينهما نظرا إلى الظاهر . وبعض العلماء يخص كل منهما بما يليق به نظرا إلى العادة الغالبة . وهذا أصوب فإذا كان الزوج جنديا وادعت الزوجة ملكية السلاح والخيل أو ادعى هو ملكية أدوات زينتها ، فإن ما يختص بالرجال يصير للزوج وما يختص بالنساء لا يصير للمرأة . على خلاف ما يقول الشافعى .

— إذا اختلف الزوجان فى النفقة فالشافعى يجعل القول قول المرأة لأن الأصل عدم قبضها ، ومالك يجعل القول للزوج لأنه الغالب فى العادة وقول مالك أحسن .

— الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهى تحقق مصلحة للأمة ، والصلاة التى لا تحقق هذه المصلحة لا جدوى منها ولا يقبلها الله . فالصلاة أمر بالسيرة الحسنة ومكارم الأخلاق .

— الكذب حرام ولكنه جائز لتحقيق مصلحة .. كالإصلاح بين الناس أو الكذب على الزوجة لتقومها .

ولاحظ الشيخ أن بعض المشعوذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد والتصوف ويسيئون إلى الشريعة

ذلك أنهم اقتصروا المنكرات ولبسوا المرقعات ، وادعوا أنهم قد سقطت التكاليف عنهم فليس عليهم صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج ..

وتصدى لهم فسفه سلوكهم ، ومدح الأقطاب الكبار من أئمة الصوفية ، وكانت له صلوات مودة أو معرفة بآراء بعضهم كالشاذلي والعباس المرسى وإبراهيم الدسوقي والسيد أحمد البدوي .

وكان يحترم هؤلاء وبعض تلاميذه على الأفادة منهم فيقول : « اسمعوا كلامهم فهو قريب العهد بنسب الحقيقة . » وكانوا هم يقولون عنه : « مامن مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين عبد السلام . »

وشرح وهو يعلم تلاميذه أن الزهد ليس هو ما يفعله عامة الصوفية الذين يسيئون إلى التصوف : لاهو تعذيب النفس ولا لبس المرقعات . « وليس الزهد هو خلو اليد من المال ولكن هو خلو القلب من التعلق بالمال . فليس الغنى بمناف للزهد » . وقد كان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد وهما من أغنى الأغنياء من أزهّد الناس .

وسمى التصوف علم الحقيقة وهي معرفة أحوال الباطن ، والشريعة تستغرقه لأنها تتناول الظاهر والباطن جميعا . « فكل حقيقة لاشريعة لها فهي عاطلة ، وكل حقيقة لاشريعة لها فهي باطلة . وليست الحقيقة خارجة من الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال . فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة لبعض الشرع ولا ينكر ذلك كافر أو فاجر .

وهكذا أحسن التوفيق والمزاوجة بين الغصون والشريعة والتصوف . وقال : الشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينها إذ الطريق إلى الله سبحانه وتعالى لها ظاهر وباطن . فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة .. والحقيقة والشريعة يجمعها كلمتان هو قوله : إياك نعبد وإياك نستعين فإياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب . »

وفرق بين الإسلام والإيمان : « فالإسلام هو قيام البدن بوظائف الأحكام ، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الاستسلام . والإحسان أن تعبد الله كأنما تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائما بوظائف العبودية مع شهوده إياك . »

وكتب عن المحبة الألهية شعرا جاء فيه :

ومدامعى تنهل كالأنواء
يامنقذ الغرقاء !

نار المحبة أحرقت أحشائى
فأنا الحر يق بأضلعى وأنا الغريق بأدمعى ،

تزداد وقدأ عند فرط بكائى !
هذا لعمرى أعجب الأشياء !

ومن العجائب أن نار تحرقى
فالنار والماء القراح تألفا

فالمحبة تكن فى ذات المحب وتسلبها صفاتها كما تكن النار فى ذاتية الماء الحار فأنت تظنه فى الصورة ماء يغرق وهو فى الحقيقة نار تحرق ، فإن قلت أن المحرق هو النار فأين الماء ؟ ! وإن قلت المغرق هو الماء فأين النار ؟ !

وللمشيخ سبحات صوفية عديدة أودعها كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » . وقد عنى فيها بشرح الغامض من أقوال شيوخ الزهد والتصوف . واستشهد ببعض أقوال الإمام على كرم الله وجهه وهو إمام الزاهدين : « سئل على رضى الله عنه هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمدا بالله ؟ فأجاب لوعرفت الله بمحمد ما عبدهه ولكن محمد أوثق فى نفسى من الله . ولوعرفت محمدا بالله لما احتجت إلى رسول الله . ولكن عرفنى نفسه بلا كيف كما شاء وبعث محمدا صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكام القرآن وبيان معضلات الإسلام والإيمان وإثبات الحججة وتقويم الناس على منهج الإخلاص فصدقت بما جاء به . »

و يعلق الشيخ على هذا : « يستحيل الوصول إلى شىء من معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله . »

و يكتب دروسه فى التفسير ، فتحس فيها آثار الفكر الأشراقى الذى تعلمه فى صباه عن السهروردى .. ومثال ذلك تفسيره للآية الكريمة : « الله نور السماوات والأرض . » قال الشيخ : جاء فى الحديث الشريف إن الله خلقهم من ظلمة ثم رش عليهم النور فن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل . ويضيف الشيخ : معرفة العبد لربه هو نور الله الذى يقذفه فى قلب عبده فيدرك بذلك أسرار ملكه ويشاهد غيب ملكوته ويلاحظ صفات جبروته ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور .

ثم يفسر سورة العصر بظواهرها فالناس خاسرون إلا فى اجتماع فيه أربع أوصاف : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وقال إن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفتروا حتى يقرءوا : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

وتحدث فى التفسير عن أنواع المجاز فى القرآن من مجاز الحذف كحذف القسم أو المبتدأ أو الخبر أو بعض حروف الجر ثم أنواع المجاز المعروفة فى علوم البلاغة والبيان ، ثم تحدث عن الكناية فى القرآن .

وضرب لكل ذلك أمثلة بآيات القرآن مرتبة حسب المصحف . وضمن ذلك كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » .

وقد ذهب بعض مؤرخي التصوفة إلى أن العزتصوف ، ولكن الأستاذ محمد حسن عبد الله ينفي ذلك عنه ويذهب إلى أن التصوف يخالف طبيعة الشيخ عز الدين .. وهذا حق فقد كان بعض التصوف في عصر الشيخ هروبا من الواقع ، وكان الشيخ من أشد الناس جسارة في مواجهة الواقع ، وأنشطهم إلى تغييره . فقد ظل يواجه عصره و يقاوم مفسده و يصك المجتمع بمواقف رائعة ، وكان إلى كل ذلك زاهدا من أولئك الزهاد العظام الذين يفرضون بالقول والموقف والسيرة قيا شريفة فاضلة على مجتمع تمتهن فيه الفضائل و يشقى به الشرفاء !

ومها يكن من أمر الشيخ فقد كتب في التصوف وشرح أحوال الصادقين من المتصوفة ، ودافع في شعره عن سماع الأذكار وأنشيد الصوفية في حلقات الذكر ..

وما كان يمكنه أن يتجاهل تيارا يحتاج العصر ، ولكنه رد التصوف إلى أصوله النبيلة في مجاهدة النفس لتتطهر من الهوى فلا تمتلئ إلا بالحقيقة ونور الحق ، وتناضل في سبيل الخير وتعمر الدنيا بالحب والعدل والجمال والحريية .

وللشيخ في التصوف شعر حسن

من ذلك قوله :

أياها العاشق معنى حسنتنا	مهرنا غال لمن يطلبنا
جسد مضنى وروح فى العنا	وحفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا	فإذا ماشئت أذ الثنا
فأفن إن شئت فناء سرمدنا	فالفنا يقضى إلى ذاك الفنى
وأخلع العلين إن جئت إلى	ذلك الحى ففيه قد سنا
وعن الكونين كن منخلعا	وأزل ما بيننا من بيننا
وإذا قيل من تهوى فقل	أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ومن ذلك قوله فى تجلى الله على قلب عبده المؤمن « يشاهده بعين يقينه ، ويجليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال » :

وأشهدنى ذاك الجمال المعظم

ولما تجلى من أحب تكرما

أراه بعيني جهرة لا توها
على طور قلبي حيث كنت مكلما
بمنفصل عنى وحاشاه منها

تعرف لى حتى تيقنت أنتى
وفى كل حال أجتليه ولم يزل
وما هو فى وصلى بمتصل ولا

ومن شعره فى العشق الألهى :

على ظمأ منى فزاد تلهبى
ولا مشرب للعاشقين كمشربى
ولى منصب يسموعلى كل منصب

شربت حيا حبيكم مذعرفتكم
فلا مورد للعالمين كموردى
فلى رتبة تلعو على كل رتبة

وهو يعنى رتبته من الزهد ، وانشغال قلبه بغير الدنيا ، مما جعله فوق الطمع والرغبة فى الدنيا ، فما يخاف ولا يخاف ولا يرجو إلا الله تعالى ، وهذا هو منصبه الدينى وهو أعلى من كل منصب دنيوى .
وقال :

وكذا ذكره بلاغى وزادى
كلما عادنى بلغت اعتمادى
عن حماه فوجه لى هادى
أوقل لى ما حيلتى واعتمادى
حبه مذهبى وحسن اعتقادى

حبه راحتى وروح حياتى
وإذا ما مرضت فهو طبيبى
وإذا ما ضللت أو ضل ركب
يا عذيرى فكن عليه عذيرى
إن تلمنى أولا تلمنى فإنى

وقال :

شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى
خليع عذار سره فى الهوى نجوى
عليك وطابت فى محبتك البلوى
وعار على العشاق أن يعلنوا الشكوى
ولكننا حكم الهوى غلب التقوى

فلو شاهدوا معنى جالك مثلما
خلعت عذارى فى هواك ولم يكن
ومزقت أثواب الوقار تهتكاً
فا فى الهوى شكوى ولو فرق الحشا
وكم كنت من خوف الهوى أتقى الهوى
وقال من قصيدة طويلة :

ففيك انطوى العالم الأكبر
من لابسى المرقعات ومرتكبى المنكرات :
وكلا ولا
وتحتها موبقات الكبر والسرف
عكوفها كمكوف الكلب فى الجيف

لئن كان جزؤك جزءاً صغيراً
وقال يلوم الذين أساءوا إلى التصوف فى عصره ،
ليس التصوف عكازاً ومسيحة
وأن تروح وتغدو فى مرقعة
وتظهر الزهد فى الدنيا وأنت على

وقال فيهم ، وفي المخلصين من أهل التصوف :

ذهب الرجال وحال دون مجاهم
زعموا بأنهم على آثارهم
قطعوا طريق السالكين وأظلموا
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى
إن قلت قال الله قال رسوله
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا
وترصدوا أكل الحرام تخادعا
فهناك طاب المخلصون وأصبحوا
عملوا بما علموا وجاءوا بالذى
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم
تاهوا على كل الملوك وإنهم
بوجوههم أثار السجود لرهم
لا ينظرون إلى سوى محبوبهم
واخيبة الآمال إن أقصىتني
فهم إليك وسيلتى ياسيدى

كان الشيخ يكتب الكتب بخطه أو يملئها على تلاميذه . وقد جاءه فى مصر عدد كبير من علمائها وسمعوا دروسه ، ولازموا معجبين بعلمه ومواقفه وغيرته للحق ، ودفاعه عن الشريعة وأحكامها لايبالى فى ذلك بشيء ولايريد إلا وجه الله فأطلق عليه أحد علماء مصر ومتصوفيا وهو ابن دقيق العيد . «سلطان العلماء» . وقال عنه لقد تحرر من سلطان الفقهاء السابقين ، وقاوم سلاطين الزمان فهو السلطان . ! .. وسماه آخرون شيخ الإسلام .

وتمر السنوات بالشيخ وهو فى عمله مطمئن البال آمن السرب يدرس ويخطب ويكتب .. ولكن قارعة تنزل ، فنتزع الشيخ من كل هذا .. فقد أنتشرت فى القاهرة أخبار غزوة صليبية تنبج إلى دمياط . بقيادة لويس التاسع . فوقف الشيخ تاركا كل أعماله ليدعو كل أفراد الأمة إلى الجهاد .

ولم يعد صوت يرتفع من على منابر المساجد إلا بالدعوة إلى الجهاد .. وهجر الشيوخ كتبهم وحلقاتهم وذهبوا جميعا إلى دمياط للاشتراك فى الجهاد المقدس ، وانتقل السلطان إلى المنصورة ليكون قريبا من ميدان المعركة .. وزحف الفرنج إلى المنصورة وهناك انتصر المصريون على الصليبيين الفرنج

وأسروا قائدهم لويس التاسع ملك فرنسا .

ومات السلطان فى المنصورة ثم تولى مكانه ابنه طوران شاه ، فقتله مماليك أبيه حرقا وغرقا . وتولت شجرة الدر ، وقتلت ، وتوالى أمراء المماليك بعد سقوط بنى أيوب كل يقتل صاحبه ويتولى مكانه !

وعاد الشيخ إلى القاهرة وعاد الشيوخ إلى حلقاتهم والجميع يطالبون ملوك المسلمين فى كل البلاد بأن يتحدوا ليواجهوا خطر الفرنج وخطر التتار ، ولكن بلا جدوى ! فإكان يشغل الملوك المسلمين غير ذهو السلطان وأبهة الملك !

وذاات صباح روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وألقوا بمكبتها العامرة فى ماء دجلة لتختلط الكتب بأشلاء العلماء والفقهاء وآلاف الضحايا الذين قتلهم التتار فى وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .

ومن جديد يطلق الشيخ عز الدين صبيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتفقوا فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم فى العراق إلا لأنهم تفرقوا .. !

وذهبت النداءات المخلصة أدراج الرياح .. فزحف التتار إلى الشام واستولوا على حلب فى طر يقهم إلى مصر !

وكان السلطان قطز على عرش مصر ، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء ليتشاوروا فى أمر غزو التتار . ورأى قطز أن الحرب تقتضى مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية ، فلا بد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوى يصد زحف التتار .

ووافق الأمراء المماليك على فرض ضرائب جديدة . إلا أن المعز بن عبد السلام قال : « إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم . وجزان لا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات .. وأن تبيعوا مالكم من الخوائص « أحزمة الخيل » الذهبية والآلات الفضية . ويقتصر كل الجند على سلاحه ، ومركوبه ويتساوا وهم والعامه .. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة فى أيدي الجند ، فلا » .

واقتنع السلطان بهذا الكلام فكان الأمر كما قال الشيخ ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة ، وبيعت الأشياء الثمينة التى يمتلكها الأمراء والجند المماليك وجهاز بثمانى جيشا ضخما .

كان الشيخ فى الثمانين ، مضى من مقارعة الخطوب والمكاره ومن السن ، فلم يستطع أن يخرج مع الجيش كما خرج إلى دمياط ، ولكن شباب العلماء والقادرين خرجوا مع الجيش ، والتقى الجمعان فى

عين جالوت فأوقع الجيش المصرى بقيادة قطز بالتتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة !

وفى طريق العودة وثب الظاهر بيبرس على قطز فقتله وتولى مكانه ، واستأثر هو بكل ما منحته الجماهير لقائد الجيش المنتصر من إعجاب وترحاب .. !

عاد الظاهر بيبرس إلى مصر يتلقى البيعة ، فلم يبایعه الشيخ عز الدين بل قال له : « ما أعرفك حرا لأبایعك . وما أعرفك إلا مملوكا للبندقدار . (والبندقدار هو الذى يحمل كيس البندق للسلطان أثناء الصيد) . فأنت عبد لا تصلح لتولى الأمر . فالشرط أن يكون ولى الأمر حرا » .

وأثبت الظاهر بيبرس أنه أعتق وأنه قد أصبح حرا ، فبايعه الشيخ آخر الأمر بعد أن تأكد بكل الطرق الشرعية أن السلطان حر ..

لم يستقر الظاهر بيبرس على عرشه إلا بعد أن بايعه الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وهو يقرب من الثالثة والثمانين ، وقد كبر أبناؤه وأحفاده وأصبح ابنه عبد اللطيف أحد علماء مصر .

ها هو ذا الشيخ يخطو وثيدا إلى الثالثة والثمانين ، وقد تخرج على يده أئمة ، وأرسى تقاليد للقضاة والفقهاء والعلماء ، وترك ميراثا عظيما من جسارة المواقف .

ومهما يكن حظه من الفقه ، فقد كان داعية إلى التجديد ، عدوا للتقليد يعيب على أتباع المذاهب تجمدهم عند مذاهبهم حتى حين يبدو لهم الخطأ فى بعض الفروع أو الأصول .. وكان يقول لهم : إننا لم نؤمر بتقليد الصحابة فكيف نقلد الأئمة أصحاب المذاهب ؟ ..

وكان هو نفسه شافعيًا ولكنه لم يتقيد بالمذهب الشافعي ، وخالفه وأخذ بغيره أو اجتهد رأيه بقدر ما استطاع ، وبقدر ما سمحت له ظروف عصره .

وفى الحق أن دعوته أثمرت فعدل بعض المقلدين عن التقليد ..

وإنه الآن ليطرق أبواب الثالثة والثمانين .. لكم مرية من أهوال فى قراع الباطل ، ومصاولة البغى ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ! ! ..

وآن للشيخ أن يستريح .

مرض وغلبه الوهن ، فأدرك كل من عرفوه أنه مفارقهم ، وحدثهم أنه سيفارقهم إلى جوار الله عندما يبلغ الثالثة والثمانين ، كما تنبأ لنفسه من قبل .

وعاده السلطان الظاهر بيبرس فى مرضه ، ورآه يشرف على التلف ، فاستأذنه فى أن يعين أبناءه مكانه فى مناصبه ، فقال له الشيخ : « ما فيهم من يصلح ، والمدرسة الصالحية للقاضى تاج الدين . »

وكانت أخبار كراماته قد ذاعت ، وكان هوى كذب أن له كرامات .

فحين أشرف الشيخ على الموت أذاعوا عنه أنه عندما قدم الصليبيون دمياط بقيادة الملك لويس التاسع ، وهبت الريح لصالح سفائن الفرنج ، دعا الشيخ ربه أن يغير اتجاه الريح ، فتغيرت لصالح المسلمين وكان هذا هو سبب الانتصار .. !!

وحكوا أن صديقا من ريف مصر اسمه البلتاجى تعود أن يديه هدايا من خيرات الفلاحين ، فأهداه حمل جل من الهدايا وكان فيها إناء جبن ، فسقط فى الطريق فانكسر ففسد الجبن ، وأخذ حامل الهدية يصرخ ، فجاءه رجل رومى فسأله فحكى له أن الجبن قد فسد ، فقال له الرومى أنا أعطيك خيرا منه ، وأعطاه إناء جبن . وعندما وصلت الهدايا إلى الشيخ تقبلها ورد إناء الجبن قائلا أنه عرف فيه ريح الخنزير فقد صنعته امرأة رومية متنجسة

وكان الشيخ وهو على فراشه يسمع حكايات أخرى عن كرامته ، فيغضب وينكر ما يسمع ، ويستغفر الله لنفسه وللرواة ، ويطالب الناس ألا يبالغوا فيما يحكون عنه فما هو إلا عبد فقير لله عمل جهده ليفيد الناس و يقيم الشريعة و يدافع عن السنة ويميت البدعة و يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. وبلغ الثالثة والثمانين ، فطلب إلى أبنائه أن يسندوه إلى المدرسة الصالحية التى تعود أن يدرس فيها .. وكان شديد الضعف من المرض ، فحاولوا أن يشنوه ولكنه صمم .. !

وساندوه إلى المدرسة ، فألقى الدرس ..

وكان درسه الأخير ، فقد مات فى المدرسة وهو يفسر الآية الكريمة : الله نور السموات والأرض .

فاضت روحه .. لتعود إلى نور السموات والأرض ، التى نعمت من فيضه طوال الحياة

وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها .. وأمر السلطان الأمراء أن يحملوا نعش الشيخ ، واشترك معهم السلطان نفسه فى حمل النعش .

وأقيمت له فى دمشق جنازة ضخمة وصلوا عليه صلاة الغائب .

وحين استقر جثمان الشيخ آخر الدهر تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان الظاهر بيبرس إلى قصر ملكه تنفس الصعداء وقال : « الآن استقر أمرى فى الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : أخرجوا عليه لانتزعوا الملك منى »

لقد صدق الظاهر بيبرس !!

فقد كان الشيخ سلطانا فوق السلاطين ! . كان سلطان العلماء !

الجديدة محترمين الأعراف والعادات السائدة
 عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة
 الإسلامية أو روحها السمحة .
 وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء
 وفقهاء أثرى بهم الفقه الإسلامي .
 وهامى صفحات من تضال هؤلاء العلماء
 والفقهاء تنقضى مواقفهم من الحياة والناس ،
 وترسم صوراً لهم ، عسى أن نجد فيها المثال
 الحى وأن تثير همة المسلمين في هذا العصر
 عليهم ينهضون ببعض ما نهض به السلف
 الصالح .



أثر الإسلام على نحو ما ، في جميع الذين
 يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم
 العظيم مهما تكن دياناتهم .. فقد ترسبت
 قيمه الفاضلة في نفوسنا وشكلت عدالته
 مجتمعات كثيرة عبر التاريخ .

وقد زحف الفرسان الأوائل ليحرروا
 الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة
 ورأوا رعايا تلك الامبراطوريات يدخلون في
 دين الله أفواجا ، تخليصا للنفس من الهوان ،
 وذل الاستعباد ، وآلام الظلم .

وكان أولئك الفرسان المسلمون محاربين
 بوسائل وكانوا أيضا دعاة عدل وحضارة
 وحرية ، وكانوا علماء وما فتحوا البلاد
 باحثين عن مغانم ، ولكن محاربين ورعين
 وحملة مبادئ نشرها بين الناس . وكان هذا
 كله ميلاد لعصر جديد . وجاء من بعدهم
 خلف عظيم ، من أهل الجزيرة العربية أو من
 أهل البلاد المفتوحة ، أحسنوا نشر التعاليم
 وسرعوا في استنباط الاحكام الشرعية

دار الشروق